

الشعرية والأدب

ابعاد ومضمونات



دار النضال

د. خليل جفال



الشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات

هذا الكتاب أطروحة أعددت لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة القديس يوسف وقد أشرف عليها الدكتور أحد أبو حاتمة وشارك في فرائضها كل من الأدب الدكتور جان فيه والدكتور سليم فهوجي فاللهم جميعاً شكري وتقديرني .

المؤلف

الشعبية والأدب أبعاد ومضمونات

من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري

الدكتور
خليل ابراهيم جمال



نشرت تدار النصّال للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - ص. ب: 6693 - 113

مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى - 1986

مشورات دار النصارى

للطباعة - والنشر - والتوزيع

113 - 6693 بـ: ص. ب - بيروت

الاَهْدَاءُ

إِلَيْكُمْ مَنْ كُلَّا سُبْبَ وَجْهِيِّ .

إِلَيْكُمْ مَنْ فَتَحَ عَيْنِي عَلَى نُورِ الْجِلَةِ وَالْحَقِيقَةِ .

إِلَيْكُمْ مَنْ عَلَمْتُنِي لِلصِّرَاطِ وَأَخْلَطْتُنِي بِالظُّلْمِ .

إِلَيْكُمْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الأدب ابن البيئة التي ينشأ فيها ، ومرآة صادقة للمجتمع تعكس فيه هموم الناس ومشاكلهم وتطلعاتهم المستقبلية ، والشعوبية كحركةٍ شعبيةٍ تهدفُ إلى مقاومة العرب ومحاولة التخلّي منهم والتحرّر من سلطانهم ، استأثرت باهتمام الأدباء ، والشعراء والمفكرين فانقسموا إلى فريقين : فريق يؤيد الشعوبية ، وينجح سبيلها ، وفريق يعارضها ، ويناهض مؤيديها ، وكثُرت المساجلاتُ والمناظراتُ الأدبية والفكريَّة بين الطرفين ، فكانت هذه الحركة دافعاً لنتاجِ أدبيٍّ جديدٍ .

كثيرون هُم الذين بحثوا الشعوبية ، فدرسوها من النواحي التاريخية والاجتماعية والسياسية ، وأشاروا إشارات عارضةً أو موجزةً إلى الناحية الأدبية ، غير أنَّ أحداً منهم لم يخصُّها ببحث شامل أو مستقل ، فوقع اختياري على الشعوبية كموضوع لدراسة فكرية أدبيةٍ تهدف إلى اظهار الأبعاد الشعوبية ، ومفهوماتها وانعكاس ذلك على النصوص الأدبية ومضموناتها ، واتجاهات أصحابها وحاولت إلقاء الضوء على الجذور التاريخية لهذه الحركة ، وأسباب نوتها ، ومراحل هذا النمو والعوامل المختلفة التي أسهمت في اتساعها وانتشارها ، ولقد اعترضني من الصعوبات التي كادت تحول بيني وبين إتمام ما بدأت به :

– صعوبة تمحیص الأخبار التاريخية التي تبالغ في تصوير النفوذ الشعوي في العصور العباسية .

– فقدان النصوص الأساسية لكثير من الكتاب والأدباء الشعوبين الذين انتصروا لهذه الحركة وشحدوا عقولهم وأسلتهم ، وسخروا أقلامهم لخدمتها والدفاع عنها ، وقد انعدم الكثير من النصوص التي انتصر أصحابها للعرب وردوا فيها على الشعوبية ، وكشفوا خططها .

– إنسياق عدد من المحدثين وراء أخبار مبالغ فيها ، واعتبارها حقيقة لا مجال لنقدتها أو الشك فيها .

ولقد لفت انتباهي الدكتور قهوجي الى وجود دراسة للسيد محمد نبيه حجاب بعنوان : المظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث المجري ، و كانت قد انتهت من هذا البحث ، فعدت الى دراسة السيد حجاب أطاليها ، وأنفصلت مضمونها ، فسررت لأنني لم أطلع عليها من قبل لأسباب منها :

– إن المؤلف انطلق من أحكام آمن بها مسبقاً ، وحاول إيجاد مبررات لهذه الأحكام .

– خلطه خلطاً عجيباً بين الموالي والشعوبية ، واعتباره كل مولى شعوبياً ، يقول : « كانت النزعة الشعوبية مستقرة في نفوس الأعاجم مختلطة بدمائهم شعراء كانوا او كتاباً »⁽¹⁾ .

– ضعف المنهجية التي انتهجهما فبحث موضوعات لا تمت بصلة مباشرة أو غير مباشرة بالشعوبية من ذلك بحثه في تاريخ الدولة الفارسية⁽²⁾ والرومانية⁽³⁾ وتاريخ الممالك العربية قبل الاسلام⁽⁴⁾ ثم اتصال العرب بالفرس والروم في العصر الجاهلي ، وأثر ذلك في الشعر العربي⁽⁵⁾ وبحثه في تاريخ الغناء العربي ، وأثر الغناء الروحي والفارسي فيه ، وأثر الموالي في تطوره . ولو أردنا تتبع ذلك في دراسته لوجدنا معظمها لا يمت بصلة لموضوع البحث . فقد تحدث في كل الفنون الأدبية من حيث المضمون والموضوعات والأساليب ، وأشار في دراسته الى الشعوبية إشارات سطحية فيها الكثير من الغلو والمواقف الذاتية والإإنفعالية .

– أخطاء تاريخية عديدة بتها في أنحاء دراسته منها :

– اعتبار الشعوبية ظاهرة أدبية منذ العصر الجاهلي ، فتحت عنوان : أثر الشعوبية في الشعر الجاهلي ، يبحث بحثاً لا طائل منه⁽⁶⁾ .

(1) - محمد نبيه حجاب ، المظاهر الشعوبية ص : 397

(2) - مرجع نفسه ص : 66-39

(3) - م. ن. ص : 88-67

(4) - م. ن. ص : 38-14

(5) - محمد نبيه حجاب ، المظاهر الشعوبية ص : 91

(6) - مرجع نفسه ص : 118-112

- اعتبار مملكة الأنباط من الممالك العربية ، لأنَّ النبط هاجروا من شبه الجزيرة العربية سنة ٥٠٠ قبل الميلاد . فاستناداً لهذا الرعم ، تعتبر كل الشعوب السامية من العرب^(٧) .
- زعمه بأنَّ الشعوبية هي التي دبرت مقتل عمر ابن الخطاب ، وعثمان ابن عفان ، وعلى ابن أبي طالب^(٨) .
- اعتباره ابن ميادة الذي افتخر بآبيه العربي وأمه الفارسية شعوبياً^(٩) .
- زعمه بأنَّ الرشيد قتل بيد فارسية ، انتقاماً للبرامكة ، وأنَّ يحيى ابن خالد قد خطط لقتل الرشيد والأمين وخراب بغداد^(١٠) وأنَّ الفضل ابن سهل قد شارك في تنفيذ ما خططه يحيى^(١١) .
- اعتباره أنَّ للصراع بين الأمين والمأمون وجهاً واحداً من أوجه الصراع ، وهو الصراع بين الفرس والعرب ، دون أنْ يُؤيد زعمه بدليل علمي واحد^(١٢) .
- تعليله انتقام العباسين من الأمويين بأسباب وعلل شعوبية^(١٣) دون أنْ يذكر أسباب الحقد بين الماشميين والأمويين منذ معركة صفين .
- تعليله انتشار التشيع في الفرس بأسباب وعلل شعوبية وقومية^(١٤) متناسياً خيبة الأمل المريرة التي عان منها الموالي في العهود المختلفة للسلطة .
- اعتباره دليل الخزاعي وابن الرومي من الشعوبية لأنَّ الأول هجا العباسين ، والثاني ذكر آباءه في شعره ورثى يحيى ابن عمر العلوى^(١٥) .
-
- (7) - م. ن. ص : 39-66
- (8) - م. ن. ص : 119 وما بعدها .
- (9) - م. ن. ص : 164
- (10) - م. ن. ص : 203 وما بعدها
- (11) - م. ن. ص : 203 وما بعدها .
- (12) محمد بنية حجاب ، المظاهر الشعوبية ص :
- (13) - مرجع نفسه ص : 208
- (14) - م. ن. ص : 210-212
- (15) - م. ن. ص : 273 وما بعدها .

– في حديثه عن نسب الجاحظ ، يؤكّد أصله العربي لأسباب منها : أنه لو كان من الموالى ،
لكان شعوبياً . وأنه لو كان من الموالى لوجدها على بيت الحكم الذي « اختار له المأمون
ثلاثة من الفرس »⁽¹⁶⁾ .

– تضخيمه للأثر الشعوي في الفكر الإسلامي ، ودوره في إنشاء الفرق الإسلامية ، ابتداءً
بالسيّبية ومروراً بالخوارج والشيعة والجبرية والمتشبهة والمعتزلة . وزعمه أنَّ
القول بخلق القرآن من عمل الشعوبية الزنادقة⁽¹⁷⁾ .

– توصله إلى نتيجة تقول إنَّ الشعوبية انتصرت في كل الميادين باستثناء الدين واللغة . وعلى
العموم ، فإنَّ دراسته اتسمت بالعرض والسطحية ، وبالتحليل بعيد عن الموضوعية .
فجاءت بالرغم من المادة الوفيرة التي حشدتها بعيدة كل البعد عن الرصانة والعمق .
حاول فيها أن يرسم إطاراً عاماً للصورة الشعوبية المبالغ فيها والذي أسهم في تضخيم
دورها التاريخي أسباب منها :

١- إنَّ أعداء العباسين ، حاولوا إظهار دعوتهم ، وكأنها حركة أعمجمية خراسانية ، هدفها
الانقضاض على العرب والثار منهم ، وتدمير كيانهم ، ومعتقداتهم ، وقد ظهر ذلك
جليلًا في أشعار نصر ابن سيار وإلي خراسان ، والكتاب الذي زعم أنه ضبطه مروان ابن
محمد مع رسول إبراهيم الإمام ، ورسالة عبد الحميد الكاتب عن مروان ابن محمد ،
والخطبة المنسوبة لقطيبة أحد قواد العباسين العرب في أهل خراسان .

٢- استمرار هذا التوجه عند أعداء البيت العبسي من العرب أنفسهم ، بعد انتصار
دعوتهم ، وقيام دولتهم ، وذلك لبث الشكوك من حولهم ، وتاليف العرب عليهم .

٣- استغلال الشعوبية لهذه الدعاية استغلالاً واسعاً ، بهدف إبعاد العرب عن العباسين ،
ليرتمي الخلفاء في أحضان الخراسانيين خاصةً والفرس عامةً ، ثم إظهار الحضارة
العباسية ، وكأنها امتداد لحضارة الفرس السياسية أو تطوير هذه الحضارة .

٤- إعتماد المؤرخين القدماء على تاريخ الطبرى كمراجع أساسى لكثير من المؤلفات
التاريخية .

(16) - م. ن. ص : 432-431

(17) - م. ن. ص : 485 وما بعدها .

5 - إستغلال العديد من المستشرقين لهذه العوامل ، واستكمال المخطط الذي بدأه
الشعوبيون .

فكانت الرغبة في تحرى الحقيقة وكشفها من الأسباب التي جعلتني أختار الشعوبية وأبعادها موضوعاً لأطروحتي ، خاصة وإنَّ الأمة العربية تمر بظروف صعبة ومعقدة ، وتعاني من الأزمات الداخلية والخارجية ما يماثل تلك الظروف ، وبصاهي تلك الأزمات التي مرت فيها أبان نمو الحركة الشعبية ونشاطها ، وهي ظروف تستند الحاجة فيها إلى استلهام الماضي ودروسه وعبره . فعمى أن أكون قد وفقت إلى ما ذهبت إليه . والله ولي التوفيق .

خليل جفال

بيروت 1/30/1983

الباب الأول :
الجذور التاريخية للشعوبية

تمهيد : الشعوبية في اللغة والاصطلاح
الفصل الأول : الجذور التاريخية للشعوبية
الفصل الثاني : السمات الشعوبية في الثورة العباسية

تمهيد

تعريف الشعوبية

الشعوبية في اللغة :

الشعوبية في اللغة نسبة الى شعوب ، ومفردها شعب ، ولهذه الكلمة معانٍ كثيرة تفيد « المنع والجمع والتفريق والإصلاح والإفساد والإنصدام »⁽¹⁾ سنتصر منها على تلك التي ترتبط بموضوعنا ، وتلقي عليه ضوءاً ، يساعدنا على فهم تلك التسمية وما هي .

والشعب باعتبارها لفظة تطلق على جمٍّ من الناس ، فسرت على معانٍ ثلاثة :

الأول : الشعب أبو القبائل الذي إليه يتسبون ، فالشعب أكبر من القبيلة والقبيلة أكبر من العمارة ، والعمارة أكبر من البطن ، والبطن أكبر من الفخذ ، والفخذ أكبر من الفصيلة .. وعلى هذا المعنى ، فسرت الآية ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾⁽²⁾ .

فالشعب قبيلة عظيمة ، تشعب منها القبائل والبطون والأفخاذ . وهي لفظة عَنْتُ العرب دون غيرهم .

الثاني : الشعب ما تشعب من قبائل العرب والعجم ، والجميع شعوب . وأما ما رُويَ من حديث عن مسروق « إن رجلاً من الشعوب ،

(1) - ابن منظور ، لسان العرب . ج ١ ، صادر ١٩٥٥ ج : ١ ص : ٤٩٧

(2) - القرآن الكريم ، سورة الحجرات ، رقم الآية : ١٣ .

أَسْلَمَ ، فَكَانَتْ تُؤْخَذُ مِنَ الْجَزِيَّةِ فَأَمْرَ عُمَرَ أَنْ لَا تُؤْخَذَ مِنْهُ⁽³⁾ .
فَقَدْ فَسَرَهَا ابْنُ الْأَثِيرَ : « بَأْنَ الشَّعُوبُ هُنَّ الْعُجمُ ، وَوَجْهُهُ إِنَّ
الشَّعْبَ مَا تَشَعَّبَ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَالْعُجمِ ، فَحُصْرَ
بِأَحَدِهِمَا »⁽⁴⁾ .

الثالث : الشعوب العجم ، والقبائل العرب ، والقبائل سميت قبائل لتقابليها
وتناظرها ، والشعوب سميت شعوباً لأنها تشعب أكثر من
القبائل . وللفظة بالجمع « شعوب » غلت على جيل العجم⁽⁵⁾ .

الشعوبية في الإصطلاح :

« هُمْ فَرْقَةٌ لَا تَفْضُلُ الْعَرَبَ عَلَى الْعُجُمِ ، وَلَا تَرَى لَهُمْ فَضْلًا عَلَى
غَيْرِهِمْ »⁽⁶⁾ .

ولابد لنا من التساؤل : لماذا سميت هذه الفرقـة بهذا الاسم ؟ ومن سماها
به ، وفي أي عصر ؟ لماذا تسبـت إلى الشعوب ، ولم تـنسـبـ إلى شعب ، ونسبتها
إلى الشعب أصلـح ؟

إذا صـحـ حـدـيـثـ مـسـرـوقـ الأـنـفـ الذـكـرـ ، فالـعـربـ مـصـدرـ تـلـكـ التـسـمـيـةـ ، ولـفـظـةـ
الـشـعـوبـ غـلـبـتـ عـلـىـ الـعـجمـ لـعـهـدـ عـمـرـ ، فـلـمـ فـشـتـ الـعـصـبـيـةـ بـيـنـ النـاسـ وـتـعـصـبـ

(3) - الأزهري ، تهذيب اللغة ، الدار المصرية 1964 ج : 1 : 442.

(4) - مصدر نفسه ج : 1 ص 442.

(5) - اعتمدنا في هذا التقسيم على : ابن منظور ، لسان العرب ، ج : 1 ص : 497 وما بعدها .
الأزهري ، تهذيب اللغة ، ج : 1 ص : 442 وما بعدها ، الحسيني ، تاج المuros ، ط القاهرة
1306 هـ ج : 1 ص : 318 وما بعدها . الفيروز أبادي ، ط القاهرة ، 1331 هـ ج : 1 ص : 88
وما بعدها . الماوردي ، الأحكام السلطانية ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ص : 36 . البستاني ،
قطر المحيط ، فوتو أوفست عن طبعة 1869 ، بيروت ، ج : 1 ص : 1044 وما بعدها . مسعود ،
الرائد ، دار العلم للملائين ، بيروت - ط 1967 ص : 881

(6) - ابن منظور ، لسان العرب ، ج : 1 ص : 500-501 ، الحسيني ، تاج المuros ، ج : 1 ص :
321 . الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ج : 1 ص : 88

كلُّ قوم لقومهم ، أُضيَّفْت ياء النسبة الى شعوب ، فقيل : شعوبى لكل من يحتقر العرب ، أو لا يرى لهم فضلاً على غيرهم ، كما قيل أنصارى نسبة الى أنصار النبي من أهل المدينة . ولكنَّ أحمد أمين ، يرد هذا الرأي لأسباب ، منها : إنَّ مسروقاً كان في العصر الأموي ، وحديثه قد فسره المفسرون بما عرفوه بعد عصره ، وإنَّ نزعة الشعوبية لم تتحذَّش كُلَّاً قوياً واضحاً إلا في العصر العباسي ، فكيف تُسمى ولم تُوجَّد بعده ؟ ثم إنَّ أكثر أسماء المذاهب التي وضعت في صدر الإسلام وببداية العصر الأموي ، لم تكن فيها ياء النسبة ، كالخوارج والشيعة والمرجئة والمعزلة⁽⁷⁾ .

واماً أحمد لوساني ، فيرى أنَّ النسبة الى الشعب لا الشعوب أصح لغة ، وبالتالي فإنَّه يرجع أنَّ مطلقاتها من غير العرب ، ولا يملك السليقة اللغوية العربية ، وعليه فالتسمية قد اطلقت على القوم من أنفسهم ، وأعجبهم الإسم ، فتسموا به⁽⁸⁾ .

والقراءة التاريخية لصدر الإسلام والعصر الأموي ، ثبت أنَّ هذه الحركة ، وإنَّ وجدت لها البذور والجذور ، فلم يكن مهيأً لها السفور والاشتداد إلا في بداية العصر العباسي ، ولم تُطلق هذه التسمية على هذه الجماعة من الناس ، إلا بعد أن سنت الفرصة لأصحابها بالجهر بأقوالهم والدفاع عنها ، سواء في مناظرات كلامية أو قصائد شعرية ، وفي كتب تكتب ويُسطَّط فيها القول وتُخَسِّدُ لها البراهين .

وتعرِيف الشعوبية في القديم كما في الحديث ، لا يخلو منأخذ ورد ، فالجاحظ ميز الشعوبية من أهل التسوية ، فقال : « نبدأ على اسم الله تعالى بذكر مذهب الشعوبية ، ومن يتحلى باسم التسوية »⁽⁹⁾ ثم يصف الشعوبية بما لا يتوافق

(7) - أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : ١ ، الكتاب العربي ، ط ١٠ بيروت ، بدون تاريخ ، ج : ١ ص : 57-56

(8) - أحمد لوساني ، نظرات جديدة في الأدب ، بيروت ، ١٩٨٠ ، فصل الشعوبية .

(9) - الجاحظ ، البيان والتبيين ، دار صعب ، بيروت ١٩٦٨ ج : ٣ ص :

دينياً على الأقل مع أوصاف أهل التسوية ، الذين ينطلقون بآرائهم على أساس من القرآن والسنة ، فيقول : « واعلم أنك ، لم ترَ قوماً قط أشقي من هؤلاء الشعوبية ، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفي الصدور منهم طول جشوم⁽¹⁰⁾ الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنان⁽¹¹⁾ في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل⁽¹²⁾ الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطربة ولو عرفوا أخلاق كل ملة وزي كل لغة ، وعللهم في اختلاف إشاراتهم وألاتهم ، وشمائلهم وهياتهم ، وعلة كل شيء من ذلك ، ولم اختلقوا ولم تكلفوه ؟ لأراحوا أنفسهم ، ولخفت مؤوثهم على من خالطهم »⁽¹³⁾ .

وقد اتفق ابن قتيبة في ذلك مع الجاحظ فاعتبر أن الكره والحدق والحسد دفع الشعوبية لتدفع العرب « عن كل فضيلة وتلحق بها كل رذيلة »⁽¹⁴⁾ .

أما المسعودي ، فاعتبر أن كل من لا يقر بفضل العرب على غيرهم من الشعوب شعوبياً ، أقال بالتسوية أم جحد العرب الفضائل وألحق بهم الرذائل⁽¹⁵⁾ .

وكما اختلف الأقدمون ، ولم يتتفقوا على تعريف دقيق للشعوبية ، فكذلك اختلف المحدثون حول هذا التعريف ، فاعتبر احمد أمين أن الناس في العصر العباسي ، قد انقسموا الى ثلاثة تيارات : الأولى : يتعصب للعرب ، والثاني : لا يرى لهم أو لغيرهم فضلاً ، يستند في رأيه على تعاليم الاسلام ، والثالث : يحط من شأن العرب ويفضل العجم عليهم ، ويرى أن الشعوبية تاريخياً ، أطلقت على التيارين الآخرين ، مع أن التسمية يجب أن تُطلق على أصحاب النزعة الثانية ،

(10) جثوم ومفردها جثم فيقال : جثم الليل : إذا انتصف وجثم الرجل إذا تلبد بالأرض .

(11) - الشنان : البعض مع العداوة وسوء الخلق .

(12) - الجاحظ ، البيان والبيان ج : 3 ص : 405-406 .

- (13)

(14) - ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) القاهرة 1946 ص : 344 .

(15) - المسعودي ، مروج الذهب ، دار الفكر ، بيروت ط 5.1973ص : 2 ص : 53-54 .

لأنها قالت بمساواة الشعوب ، ويلاحظ أنَّ هذه النزعة قد سبقت تاريخيًّا ، التزعة الثالثة ، وأنَّ الأخيرة كانت نتيجة لها⁽¹⁶⁾ .

وأتفق شوقي ضيف مع احمد امين في وجود هذه الفئات الثلاث غير أنَّه رأى أنَّ الشعوبية لا تصدق إلَّا على من تجاوز مبدأ التسوية بين المسلمين الى الحط من شأن العرب ، وتفضيل غيرهم عليهم⁽¹⁷⁾ .

وقد عرفها حتى بأنَّها « حركة ترمي الى مقاومة روح السيادة والأفضلية التي كان يديها المسلمون العرب ... وكان قوامها الدعوة الى التسوية بين كل المسلمين »⁽¹⁸⁾ .

بينما اعتبر جولد زيهير الشعوبية « انهم جماعة المفكرين والكتاب الذين يمثلون خلاصة جماعة كبيرة ، يدعون باسم الاسلام المساواة بين العرب الخلقين وغيرهم من مسلمي الشعوب الأخرى »⁽¹⁹⁾ . وقد شاركه فلهوزن في هذا الرأي ، فاعتبر الشعوبية حركة دينية لها طابع اجتماعي سياسي وخالقه باعتبارها جماعة منظمة أو حزباً⁽²⁰⁾ .

أما زاهية قدورة ، فقد وافقت الجاحظ وابن قتيبة ، فعرفتها بأنَّها فكرة سياسية أدبية ، اتخذت الدين ستاراً لها ، ونشأت عنها حركات بعضها أدبي وبعضها ديني ، وبعضها ثوري ، وقد كان مبعث تلك النزعة الصراع المتصل بين العناصر الجنسية التي كانت تؤلف الدولة العربية حينذاك »⁽²¹⁾ .

وقد فهم إسماعيل العوفي الشعوبية فهما قریباً من ذلك مستندًا على ما يظهر

(16) - احمد امين ، ضحى الاسلام : اص : 49-55.

(17) - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول ، دار المعارف بمصر ط 3 ، بدون تاريخ ص : 75.

(18) - فيليب حتي ، تاريخ العرب ، دار الكشاف 1965 ، بيروت ج : 1 ص : 488.

(19) Goldziher, Muhammedanische studien P. 147.

(20) Wellhausen, Arab Kingdom. P.535.

(21) - زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ط 1 بيروت 1972 ص : 22-23.

على كتابات الجاحظ وابن قتيبة ، فعرفها بقوله : إنها حركة عدائية عدوانية مضادة ، ذات طبيعة تعصبية عمياء ، ومقاصد تخريبية هدامة ، وتقوم في جوهرها على مناهضة العرب قومية ، وأمة وشعباً ووطناً ودولةً وحضارةً ، ومحاربتهم محاربة شعواء لا هواة فيها ، وتأليب الخصوم والأعداء عليهم في كل مكان »⁽²²⁾.

ونحن اذ نتفق مع تعريف فيليب حتى ، بأنّها حركة معارضة ومناهضة للسيادة العربية نضيف : أنها حركة غير منظمة ، وغير محددة المبادئ والأهداف ، تصطيف بذاتية الأشخاص الذين آمنوا بها ، ولئن انطلقت على أساس من مبادئ القرآن والسنّة ، فإنّها لم تقف عند المناداة بمبادئ العدالة والتسوية بين المسلمين ، بل تعدتها الى الدعوة لتفويض السلطان العربي ، وأحياناً لتحطيم الإسلام من حيث هو قوة إيمانية أو سياسية .

ويمكّنا القول بوجود ثلات فئات شعوبية دون أن يلغى وجود الآخرين ، وهي :
الفئة الأولى : ويمثلها أهل التسوية أو الديمقراطيون بتعبير العصر ، وكان بينهم كثير من العرب والمؤمنين⁽²³⁾ .

الفئة الثانية : ويمثلها أولئك الذين تطوعوا لمحاربة العرب والمسلمين مادياً بشكل ثورات أو معنوياً في حركات دينية ذات برامج سياسية ، أو حركات فكرية تشكيك بالدين ، وتخرب فيه من داخل ، او تنقضه وتجادل في مرتكزاته اليمانية من خارج .

الفئة الثالثة : ويمثلها أولئك الذين توسمطوا الفتيتين الأولى والثانية فلم يكتفوا

(22) - اسماعيل العوفي ، في الشعوبية - بيروت 1979 ص : 15.

(23) - من المشهور أنّ الخوارج جرّزوا أنّ يتولى الإمامة - وهي أكبر منصب ديني وسياسي في الدولة أي مسلم - شرط أن يتمتع بشروط شخصية معينة . وكذلك المعتزلة ، فإنّ منهم من جرّزوا حتى في الانبطاط .

أنظر الملل والنحل - دار المعرفة - بيروت 1980 ج : 1 ص : 116.

بالمطالبة بالمساواة ، وإنما احتقروا العرب ، وفخرروا عليهم ، وحاولوا التفوق عليهم ، دون أن يدفعهم ذلك إلى التخلّي عن الإسلام أو الكيد له .
ولئن كانت الشعوبية تياراً عباسيّاً ، فإنّ بذورها تعود إلى ما قبل العصر العباسي بأعوام كثيرة . إلى بداية الفتوح الإسلامية ، حيث اصطدم العرب المسلمين بغيرائهم من الشعوب الأخرى . فكيف نشأت الحركة الشعبية ، ونمّت ؟

٢

الفصل الأول

الجذور التاريخية للشعوبية

- نشأة الشعوبية**
- الموالي في العهد الأموي**
- ثورتا المختار وابن الأشعث**
- ملامح شعوبية في الشعر الأموي**

نشأة الشعوبية

إن ما يظهر في المجتمعات الإنسانية ، من تيارات فكرية ، وصراعات سياسية ، هي نتيجة لعوامل وأسباب في ذات المجتمع ، لم يستطع المجتمع استيعابها في حركته الداخلية ، فظهرت على السطح ، لتأخذ أشكالاً متعددة تعبّر فيها عن جوهرها .

وكذلك الحركة الشعوبية ، فإنها لم تكن حدثاً طارئاً في تاريخ الدولة العربية الإسلامية ، ولم تظهر فجأة في المجتمع الإسلامي ، ولكنها حركة لها جذورها ، التي تمتد إلى بداية الفتوح الإسلامية ، فهذه الحركة لم يُكتب لها النسق والانتشار لو لم تجد من الظروف الذاتية والموضوعية ما يبررها ، ويساعدها على النمو .

وانطلاقاً من هذا المفهوم ، لا بد من رصد الحركة الداخلية التي أفرزت ما يسمى بالحركة الشعوبية في المجتمع الإسلامي .

علاقة العرب بالفرس قبل الإسلام :

تتميز الجزيرة العربية بجاذبية هامة في التاريخ وهي أنها لم تخضع لسلطة أجنبية قط ، إلا في بعض أطرافها الجنوبية والشمالية ، وفي فترات محدودة من الزمن .

وتاريخ العرب قبل الإسلام غني بحضارة تعود إلى أكثر من ألفي سنة قبل

الميلاد⁽¹⁾) ولم يعش العرب في صحرائهم منكمشين على ذاتهم ، إنما كانت لهم مصالح تجارية وسياسية مع الأمم المجاورة .

وعلاقتهم تلك لم تكن تشعرهم بالذل أو الضعف كما ظن أحمد أمين⁽²⁾ . إنما كانت تشعرهم بالعزّة والفاخر لعلمهم بمناعة الصحراء ، وتعذر التغلغل فيها على غيرهم . وقد تركت لنا المصادر القديمة شواهد على ذلك تمثل عزة العربي في صحرائه وتطلعه إلى الخروج منها والسيطرة على ما يجاورها من الأمسار . من ذلك مسيرة تبع ملك اليمن إلى الحيرة وإخضاعها ثم توجهه إلى الأنبار ثم الموصل ، فأذريجان وملاقاته جيوش الترك والتغلب عليها ، ورجوعه إلى اليمن ثم غزوه الصين وهزيمة جيوشها ، وإخضاعه الروم وفرض الجزية عليهم وقتله لملك الفرس قياد المتنزدق⁽³⁾ .

وإذا تجاوزنا التباعية إلى غيرهم من العرب نجد جماعة من قبائلهم وقد تحالفت على التنوخ وهو المقام ، وتعاقدوا على التأزر والتناصر ، فصاروا يدا واحدة على الناس وضمهم اسم تنوخ ، وذلك أيام ملوك الطوائف من العجم ، وتطلعت نفوسهم إلى ريف العراق وطمعوا في غلبة الأعاجم على ما يلي بلاد العرب منه أو مشاركتهم فيه⁽⁴⁾ وكثيراً ما كان العرب يغيرون على السواد فيقتلون ويأسرون ويغنمون لا يمنعهم من ذلك خوف من الفرس أو من بطشهم ، وقد افتخر بعضهم فقال :

«لَقَيْنَا هُمْ بِجَمْعٍ مِنْ عُلَافٍ⁽⁵⁾ وَبِالخِيلِ الصَّلَادِمَةِ⁽⁶⁾ الْذُكُورِ

(1) - حتى ، تاريخ العرب ، دار الكشاف - بيروت 1965 ج : 1 ص : 56 وما بعدها .

بروكمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية - دار العلم للملائين ط 8 بيروت 1979 ص : 15 وما بعدها .

(2) - أحمد أمين ، ضحي الإسلام ج : 1 ص : 18-17 .

(3) - الطبرى . تاريخ الأمم والملوك . ط دار الفكر - بيروت 1979 ج : 2 / ص : 3 .

(4) مصدر نفسه ج : 2 ص : 27 .

(5) علاف : اسم لبطن من بطون العرب .

(6) الشديدة الحوافر .

فلاقت فارس منا نكالاً وقتلنا هرائب شهرزور⁽⁷⁾
دلفنا للأعاجم من بعيد بجمع كالجزيرة في السعير⁽⁸⁾

ولما ملك الفرس عليهم سابور ذا الأكتاف وهو حديث ، وعمت الفوضى
بلاد فارس ، سار العرب نحوهم في البحر من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين
وكاظمة حتى أناخوا على إيرانشهر وسواحل أردشير خرّه وأسياف فارس ، وغلبوا
أهلها على مواشיהם وحروثهم ومعايشهم ، واستمروا على ذلك حتى واقهم سابور
وهزمهم ، واعمل فيهم القتل والأسر وتخليل الأكتاف ، فما كان منهم إلا أن
حالفوا الروم وقاتلوا سابور ، وهزموه ، حتى اضطرَّ أن يكتب إلى النواحي طالباً
النجدة⁽⁹⁾.

و قبل الفرس حاول بخت نصر غزو بلادهم وتوغل حتى الحجاز فتصدى له
عدنان وأضطرب إلى الانكفاء والتراجع عن بلاد العرب⁽¹⁰⁾.

أما خبر وفود النعمان على كسرى ، وذكره العرب بين يديه ، وما جرَ ذلك
من مناظرة⁽¹¹⁾

في بالرغم من شك بعض المحدثين فيه ، فإنه يبقى من حيث الروح
والجوهر ، خير مثال لتصوير العلاقة القائمة بين العرب والفرس قبل الإسلام .
وأماماً ما يزعمه أحمد أمين من أنَّ العرب « لم يكن لهم شعور قوي بأنهم أمة » ،
إنما كان الشعور القوي عندهم شعور الفرد بقبيلته . . . والسبب في ذلك واضح ،
وهو أنَّ العرب في الجاهلية ، لم يكونوا أمةً بالمعنى الصحيح ، فلم يتحدوا لغةً
ولا ديناً ، وليس لهم آمال وطنية واحدة ، ولا ما هو شرط أولي للامة⁽¹²⁾ .

(7) مرابذ شهرزور : خدم نار المجوس في شهر زور .

(8) الطبرى - تاريخ الأمم والملوک ج : 2 ص : 61-62 ، ابن الأثير الكامل في التاريخ ط دار صادر 1979 ج : 1 ص : 387.

(9) - الطبرى . تاريخ الأمم والملوک ج : 2 ص : 66 ، المسعودي ، متروج الذهب ج : 1 ص : 254 وما بعدها .

(10) - ابن الأثير . الكامل في التاريخ . ج : 1 ص : 272-271 .

(11) - ابن عبد ربه . العقد الفريد . ج : 1 ص : 228 وما بعدها .

(12) - أحمد أمين . ضحى الإسلام ج : 1 ص : 17 .

فالحقيقة أنَّ شعور العربي بالقبيلة كان قوياً بل كان طاغياً ، ولكن هل ينفي شعور العربي بالقبيلة شعوره بأنه عربي ؟ وإذا قلَّ تغنى الجاهلي بالعروبة وندر افتخاره بها على الأُمم ، أيعود ذلك إلى فقدان الشعور بالعروبة من وجوده ؟

إنَّ العربي في صحرائه ، لم ينافس إلا من قبل أبناء القبائل الأخرى ، ومجتمعه مجتمع عربي ، يمتاز بالصفاء العرقي والثقافي على العموم ، فائي شيء يدفعه ليفخر بعرونته ، وأي فضيلة له في ذلك ، طالما أنَّ القبائل الأخرى كلها كانت عربية؟ أنا لا أزعم أنَّ لدى العرب في جاهليتهم مفهومات عن الأمة والعروبة صريحة وواضحة وذلك لا يعود إلى العرب ، يقدر ما يعود لطبيعة عصرهم . وهم على تفرقهم وتشتذهم قبائل وبطوناً متاخرة فقد امتنعوا في شبه جزيرتهم حتى على الإسكندر⁽¹³⁾.

ثم لو كان في نفوس العرب من الرهبة والخشية للفرس والروم ما يرويه البعض ، فكيف نفسر الوضع الهجومي الذي اتخذه العرب بعد سنوات من تمرُّز الإسلام في الجزيرة العربية ؟ اليُسْت التتجة المنطقية للرهبة والخشية ، اتخاذ وضع دفاعي حذر ؟ وإذا تأملنا ظاهرة أخرى ، وهي وجود دولة للغساسنة في سوريا الشمالية ، ودولة للعرب الـلخمين في العراق ، لم نجد أحداً من المؤرخين يشك في أنَّ الفرس والروم ، إنما اصطنعوا هاتين الدولتين لرد غارات البدو عن تخومهم⁽¹⁴⁾.

وعندما غدر كسرى الثاني ، بالنعمان الثالث ملك الـلخمين لأنَّه رفض تزويجه ابنته ، واستدرجه إلى فارس ، وخلعه عن العرش ، لم يلبث العرب ، ولهذا السبب بالذات أنَّ هاجموا الفرس ، وهزموهم هزيمة حاسمة في ذي قار⁽¹⁵⁾.

أما ما يعتبره أحمد أمين ، بأنَّ هذا النصر « ليس بشيء ذي خطورة ، فائدة

(13) - حتى ، تاريخ العرب ، ج : 1ص : 56 وما بعدها .

(14) - بروكلمان . تاريخ الشعوب الإسلامية ص : 23

(15) - أبو الفرج ، الأخفاني (طبعة دار صعب) ج : 2ص : 31 ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص : 24 .

فرقة ، لآية أمة ، عرضة للإنهازام «⁽¹⁶⁾». فإنه لا يقلل من أهمية المعركة شيئاً ، فقد كانت البداية والخطوة الأولى في تقويض العرش الساساني في الفتوح الإسلامية بعد قليل من السنين⁽¹⁷⁾ وقد شعر الرسول العربي بأهمية هذه المعركة ، فقال : « اليوم أول يوم انتصرت فيه العرب من العجم ، وبي نُصرُوا »⁽¹⁸⁾.

صحيح أن الشعر الذي صدر بعد هذه المعركة ، لم يكن يتغنى بانتصار العرب ، إنما بانتصار القبائل المشتركة في المعركة ، ولكن حتى في الفتوح الإسلامية ظلت هذه التزعنة قوية ، يصدر عنها الشعراء في تسجيل الانتصارات والفاخر بها ، ولم يُقْلِ أحد إن تلك الجيوش لم يكن لديها الاحساس بالعروبة والإسلام .

« لقد كان التنافس قوياً بين أبناء الحضاراتين ... منذ آلاف السنين ... والتمايز بين العرب والعجم ضارب في أعماق التاريخ . لكن الصراع لم يبدأ إلا مع أيام الإسلام الأولى ، حين أرسل الخليفة عمر جيشاً بقيادة سعد ابن أبي وقاص »⁽¹⁹⁾ ليهزم الأمبراطورية الساسانية في معركة القادسية .

العرب والموالي في العهد الراشدي :

اعتنق العرب الإسلام ، ولم يكن منذ اللحظة الأولى ديناً للعرب ، مقصوراً عليهم ، إنما هو دين للعالمين ، إلى أي جنس انتسماً وإلى أي لون انتسبوا ، فآمن به العرب ، وأمن به الموالي ، والعديد من صحابة الرسول (ص) هم من الموالي ، فكيف عالج الإسلام هذه القضية ؟

إن ما ورد في القرآن الكريم من الآيات الكريمة ، وفي المأثور من كلام

(16)أحمد أمين ، ضحى الإسلام ج : ١ ص : ١٨.

(17)بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ص : 24.

(18) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج : ٦ ص : ٩٦.

(19) - مجلة حوادث - عدد تشرين ثاني ١٩٨٠ ص : ٣٥.

النبي (ص) لا يميز بين مسلم ومسلم ، إلّا بتقواه ، وتقربه إلى الله ، فالإسلام دين للإنسانية ، لا يفضل قوماً على قوم أو جنساً على جنس ، فقد قال تعالى : «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ أُخْوَةٌ فَاصْبِرُوهُمْ وَأَقْفُوا اللَّهَ لَعْلَكُمْ تُرْحَمُونَ»⁽²⁰⁾ وقال : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَّأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَّقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاءُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَسِيرٌ»⁽²¹⁾ وقال عليه السلام «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَحْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَفَاخِرُهَا بِالآبَاءِ ، لَيْسَ لِعَرَبٍ عَلَى عِجمٍ فَخْرٌ إِلَّا بِالْتَّقْوَى ، كُلُّكُمْ لَأَدَمٌ وَّآدَمُ مِنْ تَرَابٍ»⁽²²⁾ وقال (ص) : «المؤمنون تتكافأ دمائهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم»⁽²³⁾.

فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يؤثر عنه تفضيل عربي على مولى ، أو تقديم أحد من الصحابة لعروبيه على آخر لأنّه من المموالي ، فقد «ولى رسول الله (ص) جيش مؤته زيداً مولاً» ، وقال : «إِنْ قُتِلَ فَامِيرُكُمْ جَعْفَرٌ ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ (ص) أَسَامِةَ بْنَ زِيدٍ ، فَبَلَغَهُ أَنَّ قَوْمًا طَعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ ، وَكَانَ أَمْرَهُ عَلَى جَيْشِهِ جَلَّهُ الْمَهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنْ طَعْتُمْ فِي إِمَارَتِهِ ، لَقَدْ طَعَّتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ ، وَلَقَدْ كَانَ لَهَا أَهْلًا ، وَإِنْ أَسَامِةَ لَهَا أَهْلٌ»⁽²⁴⁾.

«وقالت عائشة (رض) : لو كان زيد حياً ما استخلف رسول الله غيره»⁽²⁵⁾.

«وقال عبد الله ابن عمر لأبيه : لِمَ فضلت أسامي على وأنا وهو سيان ، فقال : كان أبوه أحب إلى رسول الله من أبيك ، وكان أحب إلى رسول الله منك»⁽²⁶⁾.

(20) - القرآن الكريم ، سورة الحجرات رقم الآية 10

(21) - القرآن الكريم ، سورة الحجرات رقم الآية 13

(22) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 322 وما بعدها .

(23) مصدر نفسه ج : 3 ص : 322 وما بعدها .

(24) - المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف - بيروت ، بدون تاريخ ج : 2 ص : 310

(25) مصدر نفسه ج : 2 ص : 311-310 .

(26) - م.ن. ج : 2 ص : 311-310 .

« وقال علي ابن أبي طالب (عليه السلام) : سلمان من أهل البيت »⁽²⁷⁾.

فالرسول (ص) لم ير في ولاء زيد وأبنه أسامة ما يمنعه من تأميرهما على الجيش ، حتى لو كان في الجيش جلة المهاجرين والأنصار ، وإن امتنع البعض من هذا التصرف ، فلم يلتفت النبي لامتعاضهم ، بل رآهما أهلاً للمهمة الموكولة بهما ، وقد ظنت عائشة أنَّ رسول الله قد يستخلف زيداً لو بقي على قيد الحياة ، لِمَا رأته من محبة الرسول له . بل هذا عمر ابن الخطاب يصرح بتقدم منزلة زيد عند رسول الله على منزلته ، وتقدم أسامة ابن زيد على ابن عمر عبد الله ، وعبد الله لم يدع على كل حال أكثر من مساواته أسامة . وعلى يعتبر سليمان من أهل البيت بولاته من رسول الله .

واعتبار مولى القوم منهم ، تظهر جلية واضحة في منازعة أسامة ابن زيد وعمرو ابن عثمان في أمر ضيعة يدعىها كل واحد منها ، « فلجلت بهما الخصومة ، فقال عمرو : يا أسامة ، أتائفُ أن تكون مولاي ، فقال أسامة : يسرني بولائي من رسول الله (ص) نسبك ، ثم أرتفعا إلى معاوية ، فلجلج بين بيديه في الخصومة ، فتقدم سعيد ابن العاصي إلى جانب عمرو ، فجعل يلقنه الحجة ، فتقدم الحسن إلى جانب أسامة يلقنه ، فوثب عتبة ابن أبي سفيان ، فصار مع عمرو ، ووثب عبد الله ابن العباس ، فجلس مع أسامة ، فقام الوليد ابن عتبة ، فجلس مع عمرو ، فقام عبد الله ابن جعفر ، فجلس مع أسامة ، فقال معاوية : الجلية عندي ، حضرت رسول الله (ص) وقد أقطع هذه الضيعة أسامة ، فانصرف الهاشميون ، وقد قضى لهم »⁽²⁸⁾ .

نرى أنَّ الهاشميين قد تعصباً لمولاهم ، كما تعصب الأمويون لأحدهم ، ومعاوية لما قضى لأسامة ، إنما قضى للهاشميين .

وفي الزواج ، لم ينظر إلى المسلم من حيث هو مولى أو ولد ، بقدر ما

(27) م.د. ج 2 ص: 311

(28) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ج 1 ص: 296 وما بعدها .

نظر اليه من حيث هو مسلم ، يتقى ريه ، ويخشأه . فقد « خطب بلال على أخيه امرأة من بنى حسل من قريش ، فقال : نحن من قد عرفتم ، كنا عبدين ، فأعنتنا الله ، وكنا ضالين ، فهدانا الله ، وفقيرين ، فأغنانا الله ، وأنا خطب على أخي خالد فلانه ، فإن تنكحوه ، فالحمد لله ، وإن تردوه ، فالله أكبر ، فأقبل بعضهم على بعض ، فقال : هو بلال ، وليس مثله يدفع ، فزوجوا أخيه . فلما آنروا ، قال خالد لبلال : يغفر الله لك ! ألا ذكرت سوابقنا ، ومشاهدنا من رسول الله (ص) ، قال بلال : مه ، صدقت ، فأنكحك الصدق »⁽²⁹⁾.

والشاهد على تعامل المسلمين الأول بروح الاسلام وتعاليمه أكثر من أن تُخْصَى . وأما ما يُنْسَبُ إلى عمر من قسوته على الموالي في بعض الأحيان ، أو تعصبه للعرب في الأحيان الأخرى ، فقد حُمِّلَ على غير وجه ، وأسيء فهمه . فقد كان عمر مسلماً بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وقد رفض - كما سبقت الإشارة إليه - أن يقدم ابنه عبد الله على أسامة بن زيد ، وصرح بأنَّ أسامة وأباه أحب إلى رسول الله من عبد الله وأبيه . وإذا قال : « تعلموا النسب ، ولا تكونوا كنبط السواد ، إذا سئل أحدهم عن أصله ، قال : من قرية كذا »⁽³⁰⁾ فدعونه لتعلم النسب ، لا للفرح به ، وتعلم النسب ضرورة فيه العطاء من بيت المال ، وهو يقوم مقام الهوية الشخصية اليوم ، أضف إلى ذلك أنَّ الجيش الإسلامي كان مقسمًا إلى وحدات قبلية .

أما ما لاحظته السيدة قدورة ، من أنَّ عمر « أراد عزل العرب المسلمين عن غيرهم من الشعوب ، وحفظهم عنصراً استقراطياً لا تشوهه العناصر الغريبة الأخرى . كما فرض أهم الضرائب على عاتق العرب »⁽³¹⁾ فلم يكن بمقدور عمر إلا أنْ يفعل ذلك ، فالمسلمون جلهم ، بل كثريهم الكثيرة من العرب ، وهم قلة عدديـة بالنسبة إلى الشعوب الأخرى في البلدان المفتوحة ، والفتح لم تستقر

(29) ابن قتيبة ، عيون الأخبار - دار الكتب المصرية 1925 ج : 4 ص : 73.

(30) ابن خلدون ، المقدمة ، طـ . دار الفكر - بيروت - بدون تاريخ ص : 130.

بعد ، فإذا انخرطت الجيوش في الحياة العادلة لسكان تلك البلدان ، فمن يقوم بعبء الدفاع عن الأراضي التي سيطر عليها المسلمين ؟

أما منعه العرب من امتلاكهم الأراضي ، فقد كان لعلة عسكرية بحتة ، كما أشارت السيدة قدورة⁽³²⁾ ، ولأسباب إقتصادية كذلك ، فالعرب لا خبرة زراعية لديهم ، وانتزاع الأرض من زراعها الأصليين ، يتربّ عليه نتائج إقتصادية تسيء لخزينة الدولة الفتية وتسبّب ضطراباً إقتصادياً في البلاد المفتوحة . وإذا كان هذا التدبير سبباً من أسباب ظهور الشعوبية كما ظنت السيدة قدورة ، فانتزاع الأرضي ، يكون سبباً أوّل وأثراً منها .

وأما ما يُروى من أنَّ بعض العمال كتب « إلى عمر ... أنَّ العدو قد كثر ، وأنَّ الجزية قد كثرت ، أفسنتين بالأعاجم ، فكتب إليه : إنَّهم أعداء الله ، وإنَّهم لنا غشّة فأنزلوهم ، حيث أنزلهم الله »⁽³³⁾ .

فظاهر أنَّ هؤلاء الأعاجم المقتربين ، كانوا من غير المسلمين ، وأستعمال غير المسلم على شؤون المسلمين مكرور .

وقد منح الخليفة عمر مقاتلة العجم الذين دخلوا في الإسلام طوعاً من الإمكانيات ما يفوق مقاتلة العرب⁽³⁴⁾ .

أما قول المأمون ، وقد استغاث أحد الموالي بعمر « إنَّ عمر آبن الخطاب كان يقول : من كان جاره نبطياً ، وأحتاج إلى ثمنه ، فليبعه »⁽³⁵⁾ ، فلم يُؤثِّر مثل هذا القول إلا عن المأمون ، ولعل استغاثة المولى بعمر خير دليل على معاملة عمر للموالي معاملة حسنة ، تتلاءم وتعاليم الدين الحنيف .

(31) - قدورة ، الشعوبية وأثرها ص : 39.

(32) - مرجع نفسه ص : 40.

(33) - الأشيهي ، المستطرف في كل فن مستطرف بيروت 1952 ، ج : 1 ص : 111.

(34) - ابن قتيبة ، غيون الأخبار ، ج : 1 ص : 330.

(35) - الدميري ، حياة الحيوان الكبri ، المكتبة الإسلامية بدون تاريخ ج : 1 ص : 51-52.

وإذا أتينا على حادثة مقتله⁽³⁶⁾ ، نرى أن العامل الشخصي لعب الدور الأكبر في هذه القضية ، يغذيه شعور ديني . . . دون شك ، فأبُو لؤلؤة ، كان غلاماً للمغيرة ابن شعبة ، وكان المغيرة يستغلها كل يوم أربعة دراهم ، فلقي عمر ، وشكا إليه ذلك ، فقال عمر : « إنِّي الله ، وأَحْسَنَ إِلَى مَوْلَاكَ ، فَعَصَبَ أَبُو لؤلؤة وَقَالَ : يا عجباً ، قَدْ وَسَعَ النَّاسُ عَدْلَهُ غَيْرِيْ ، وَأَضَمَرَ عَلَى قَتْلِهِ » وَعَنْهُ قَالَ عَمْرٌ : قاتلَهُ اللَّهُ ، لَقَدْ أَمْرَتَ بِهِ مَعْرُوفًا ، ثُمَّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ مِنِّي بِيْدَ رَجُلٍ يَدْعُ إِلَيْ إِسْلَامٍ ، وَكَانَ أَبُو لؤلؤة مَجْوِسًا⁽³⁷⁾ .

فأبُو لؤلؤة لاحظ عدل عمر ، ليس مع العرب ، وإنما مع الموالي أيضاً ، وفهم خطأ من كلام عمر أنه رفض دعوه . ولما طعن عمر ، لم يتأثر بكون الطاعن من الموالي ، فقدم صهيبياً « على المهاجرين والأنصار ، فصلى بالناس ، وقيل له : آستخلف . فقال : ما أجد من آستخلف ، فذكر له السيدة من أهل حرا ، فكلهم طعن عليه ، ثم قال : لو أدركك سالماً مولى أبي حذيفة حياً لما شكتك فيه ، فقال في ذلك شاعر العرب :

وعلا جميع قبائل الأنصار	هذا صهيب أم كل مهاجر
وهم الهداة وقادة الأخيار	لم يرضُ منهم واحداً لصلاتنا
حياناً لخلافة الأمصار	هذا ولو كان المثرم ⁽³⁸⁾ سالم
إن الغوري لفي عمى وخسار ⁽³⁹⁾	ما بال هذى العجم تحيا دوننا

وإذا انتقلنا إلى عهد علي ابن أبي طالب وجدنا تمسكاً شديداً بمبادئ الإسلام ، ورفضاً للمساومة حتى السياسية منها على حساب فئة من المسلمين ، أو جنس من أجناسهم « فقد كان علي . . . لا يفضل شريفاً على مشروف ، ولا

(36) - حجاب ، مظاهر الشعوبية في الأدب العربي ، اعتبر حجاب أن التزعة الشعوبية وراء مقتل عمر ص : 119 وما بعدها .

(37) - الدميري ، حياة الحيوان الكبير ج : ١ ص : 52-51.

(38) المثرم : من تكسرت أسنانه من أصولها .

(39) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : ٣ ص : 321-320.

عربياً على عجمي ، ولا يصانع الرؤساء ، وأمراء القبائل ، فكان هذا من أكدر الأسباب في تقاعده العرب عنه⁽⁴⁰⁾ بل «إن طائفة من أصحاب علي مشوا اليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وفريش على الموالى والعم ، وأستعمل من تختلف خلافه من الناس - وإنما قالوا له ذلك ، لما كان معاوية يصنع في المال . فقال لهم : أتأمروني أن أطلب النصر بالجور ؟»⁽⁴¹⁾ .

ولعل خير ما يصور سياسة علي تجاه الموالى ، ردة فعله عندما خاطبه الأشعث ابن قيس قائلاً : «يا أمير المؤمنين ، غلبتنا هذه الحمراء على قربك ... فركض على المنبر برجله . فقال صعصعة ابن صوحان العبدى : مالنا لهذا (يعنى الأشعث) ليقولن أمير المؤمنين اليوم في العرب قولًا لا بزال يذكر . فقال علي : من يعذرني من هذه الضيطرة ، يتمرغ أحدهم على فراشه ، تمرغ الحمار ، ويهرج قوم للذكر ، فيأمرني أن أطردتهم ، ما كنت لأطردهم ، فاكون من الجاهلين ، والذي فلق الحبة ، وبرا النسمة ، ليضرنكم على الدين عوداً كما ضربتموه عليه بدءاً»⁽⁴²⁾ .

الموالى في العهد الأموي :

إعتلى معاوية سدة الخلافة الإسلامية ، لا عن شوري ولا ولادة ، ولا سابقة بالإسلام ، بعد أن ناصب علياً الخلاف مدة خلافته ، وتغلب عليها بعد وفاته ، وجعل ولادة العهد لابنه من بعده ، فأعتبر كثير من المؤمنين أنّ الأمويين أغتصبوا الخلافة ، وصيروها ملكاً كسرورياً . وأنضوت المعارضة للبيت الأموي في ثلاثة أحزاب رئيسية : الشيعة - الزبيرية - الخوارج⁽⁴³⁾ .

(40) - علي ابن أبي طالب ، نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) القاهرة 1329 هـ. ج : 1 ص : 180

(41) - مصدر نفسه . ج : 1 ص : 180.

(42) - المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ج : 1 ص : 274

(43) - خليل جفال ، الخليفة عبد الملك ابن مروان ، الجامعة اللبنانية 1979 ص : 27 وما بعدها

نالصيت هذه الأحزاب الأمويين العداء ، وسعت إلى القضاء عليهم . وأعتمدت الخلافة الأموية في توطيد سلطتها إحياء النزعة القبلية ، وحكمت بموجب توازنات أساسها العصبية القبلية ، ولم تفسح المجال لتسرب الموالي وكسب منطقة نفوذ لهم في هذه السياسة . ليس هذا وحسب . إنما مارست الدولة سياسة التفرقة والتمييز بين العرب والموالي ، وحرست على إبعادهم عن أيٍ من مراكز السلطة أو النفوذ . فكان طبيعياً أن ينحازوا إلى المعارضة ، ينخرطون في أحزابها أملاً في التخلص من الحكم الأموي الذي جاهر بعدائهم لهم واحتقاره إياهم .

وهذه السياسة ظهرت باكراً عند الأمويين « فقد دعا معاوية الأحنف آبن قيس وسمرة آبن جندب ، فقال : إنني رأيت هذه الحمراء قد كثرت ، وأراها قد طعنت على السلف ، وكأنني أنظر وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت : أن أقتل شطراً ، وأدع شطراً لإقامة السوق ، وعمارة الطريق ، فما ترون ؟ فقال الأحنف : أرى أن نفسي لا تطيب ، أخي لأمي ، وخالي ومولاي وقد شاركناهم ، وشاركونا في النسب ، فظلتني أنني قد قتلت عنهم ، وأطرق . فقال سمرة آبن جندب : أجعلها إلى أيها الأمير ، فأنا أتولى ذلك منهم ، وأبلغ منه . فقال : قوموا حتى أنظر في هذا الأمر . قال الأحنف : فقمنا عنه ، وأنا خائف ، وأتيت أهلي حزيناً ، فلما كان الغداة ، أرسل إلي ، فعلمته أنه أخذ برأيٍ وترك رأي سمرة »⁽⁴⁴⁾ .

فهل بدأت الشعوبية تطل برأسها ، بطعن الموالي على السلف ؟ على كل ، فالسياسة الأموية ، لا تسمح بذلك ، والمجتمع العربي وقتئذ تنازعه نزعاتان : نزعة ترى في الموالي إخواناً في الدين ، شركاء في النسب ، ونزعة أرستقراطية ، يمثلها الأمويون ورجال القبائل والأعراب ، لا ترى فيهم إلا عبيداً لإقامة السوق ، وعمارة الطريق .

(44) - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 326-327.

وقد بلغت هذه النظرة عند قوم حداً من التطرف والبالغة ، جعلتهم يعتقدون أن الدماء التي تجري في عروقهم دماء ممتازة ، تختلف عن سائر الدماء ، حتى من الناحية المادية ، قال أبو بكر الشيباني : « كنت أسيراً معبني عم لي من بنى شيبان - وفيينا من مواليها جماعة - في أيدي التغالبة ، فضربوا أعناق بنى عمي وأعناق الموالى على وحده من الأرض ، فكنت ، والذي لا إله إلا هو ، أرى دم العربي ينماز من دم الموالي ، حتى أرى بياض الأرض بينهما »⁽⁴⁵⁾ .

وأنعكست هذه النظرة على العرب إجتماعياً ، فكانوا « يقولون : لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى ، وكانوا لا يكتونهم بالكتني ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشون في الصف معهم ، ولا يتقدمونهم في المواقب وإن حضروا طعاماً ، قاموا على رؤوسهم ، وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه ، أجلسوه في طرف الخوان ، لثلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإذا كان الذي يحضر غريباً ، وكان الخطاب ، لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ، ولا أخيها ، وإنما يخطبها إلى مواليها ، فإن رضي زوج وإن رُدّ ، فإن زوج الأب والأخ بغير رأي مواليه ، فسخَ النكاح ، وإن كان قد دخل بها ، كان سفاح غير نكاح »⁽⁴⁶⁾ .

« وكان نافع ابن جبير . . . إذا مرت به جنازة ، قال : من هذا؟ فإذا قالوا : فُرشي ، قال : واقوماه ! وإذا قالوا : عربي ، قال : وامااته ! وإذا قالوا : مولى ، قال : اللهم هم عبادك تأخذ منهم من شئت ، وتدع من شئت »⁽⁴⁷⁾ .

ويُروي أن ناسكاً من تميم ، كان يقول : « اللهم أغفر للعرب خاصة وللموالي عامة ، فاما العجم ، فهم عبيدهك ، والأمر متوكلاً إليك »⁽⁴⁸⁾ .

(45)- الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 419.

(46)- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 326.

(47) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج : 2 ص : 312.

ابن عبد ربه العقد ، ج : 3 ص : 226.

هذه نظرة معظم العرب للموالى والأعاجم في العهد الأموي ، والواقع أن السلطة كانت تغذيها ، وتزيد في إذكائها ، لستفید من العصبية العربية في توطيد سلطانها ، وهي نظرة لم يبتعد عنها حتى بعض المتعبدین ، فقد « رُویَ أَنَّ عَامِرَ بْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ فِي نَسْكِهِ وَزَهْدِهِ وَتَقْشِفِهِ وَإِخْبَارِهِ⁽⁴⁹⁾ وَعِبَادَتِهِ ، كَلْمَهُ حَمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ أَبْنَ عَفَانَ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ أَبْنَ عَامِرَ صَاحِبِ الْعَرَاقِ ، فِي تَشْنِيعِ عَامِرٍ عَلَى عُثْمَانَ وَطَعْنَتِهِ عَلَيْهِ ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ ، فَقَالَ حَمْرَانٌ : لَا كَثُرَ اللَّهُ فِينَا مِثْلُكَ ! فَقَالَ لَهُ عَامِرٌ : بَلْ كَثُرَ اللَّهُ فِينَا مِثْلُكَ ! فَقَيْلٌ لَهُ : أَيُّدُّعُونَا عَلَيْكَ ، وَتَدْعُونَا لَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، يَكْسِحُونَ طَرْقَنَا ، وَيَخْرُزُونَ خَفَافَنَا ، وَيَحْكُونَ ثَيَابَنَا ، فَاسْتَوْى أَبْنُ عَامِرٍ جَالِسًا - وَكَانَ مَتَكِئًا - فَقَالَ : مَا كُنْتَ أَظْنَكَ تَعْرِفُ هَذَا الْبَابَ ، لِفَضْلِكَ وَزَهادِكَ : فَقَالَ : لَيْسَ كُلَّ مَا ظَنَنتَ أَنِّي لَا أَعْرِفُهُ ، لَا أَعْرِفُهُ »⁽⁵⁰⁾.

وإذا كانت هذه نظرة العرب الى الموالى ، فكيف كانت نظرتهم الى اولاد الاماء؟ .

إنَّ نظرة العرب الى اولاد الاماء ، وإنْ لم تصل الى الدرجة التي صورنا ، فإنها لم ترق بهم الى مستوى مساوا للعرب الخلص . فقد « تقدم رجل من بنى العبر الى سوار (القاضي) فَقَالَ : إِنَّ أَبِي تَرَكَنِي وَأَخَا لِي ، وَخَطَ خَطِينَ نَاحِيَةً ، ثُمَّ قَالَ : وَهَجَبَنَا لَنَا ، ثُمَّ خَطَ خَطَّا نَاحِيَةً ، ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ يَقْسِمُ الْمَالَ بَيْنَنَا ؟ فَقَالَ : الْمَالُ بَيْنَكُمْ أَشْلَاثًا ، إِنَّ لَمْ يَكُنْ وَارِثًا غَيْرَكُمْ ، فَقَالَ لَهُ . لَا أَحْسِبُكُمْ فَهِمْتُ ، إِنَّهُ تَرَكَنِي وَأَخِي وَهَجَبَنَا لَنَا ، فَقَالَ سوار : الْمَالُ بَيْنَكُمْ سَوَاء ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : أَيَاخْذُ الْهَجَبَنَى كَمَا أَخْذُ وَيَأْخُذُ أَخِي ؟ قَالَ : أَجَلْ ! فَغَضِبَ الْأَعْرَابِيُّ وَقَالَ : تَعْلَمُ وَاللهُ ، أَنْكَ قَلِيلُ الْخَلَاتِ بِالدَّهْنَاءِ ، فَقَالَ سوار : إِذَا لَا يَضْرُنِي ذَلِكَ عَنْدَ اللهِ »⁽⁵¹⁾.

(48) - المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج : 2 ص : 312.

(49) الأخبار : الخشوع والاطمئنان الى الله تعالى .

(50) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 327.

(51) - ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 2 ص : 61 ، ابن عبد ربه ، العقدج ج : 3 ص : 33.

وخطب عبد الملك أبن مروان بتناً لعقيل أبن علقة المري - وكان أشد الناس حمية في العرب - فقال لعبد الملك : « جنبي هجناه ولدك . وهو القائل :
 كنا بنو غيط رجالاً فأصبحت بنو مالك غيظاً وصرنا لمالك لحى الله دهراً ذعدع⁽⁵²⁾ المال كله وسود أشباء الإمام العوارك »⁽⁵³⁾
 فهذه نظرة العرب الخلص الى الهجناه من أولاد الخلفاء ، فهل تكون لمن هم دونهم خيراً من ذلك ؟ وقد قال الرياشي :

« إن أولاد السراري كثروا يا رب فيما رب أدخلني بلاداً لا أرى فيها هجين⁽⁵⁴⁾ وإذا استنفت العرب من أولاد الإمام ، فحربي أن تعتبر زواج المولى من عربية سبة تجلب العار والذلة والحقارة : فعندما زوج إبراهيم أبن النعمان أبن بشير الأنصاري يحيى أبن أبي حفصة ، مولى عثمان أبن عفان أبنته على عشرين ألف درهم ، قال قائل يعيشه :

لعمري لقد جلت نفسك خزية وخالفت فعل الأكثرين الأكارم
 ولو كان جداك اللذان تتبعا بيدر لما راما صنيع الآلام
 فقال إبراهيم أبن النعمان يرد عليه :

ما تركت عشرة ألفاً لقائل مقاولاً فلا تحفل ملامة لائم وإن ألاً قد زوجت مولى فقد مضت به سنة قبلي وحب الدرام⁽⁵⁵⁾ .
 وكان يحيى أبن أبي حفصة قد تزوج أيضاً خولة بنت مقاتل أبن طلبة . . .
 آبن قيس أبن عاصم سيد أهل الوب ، فغيرهم القلاع آبن حزن ، فقال :
 « أنكحت عبدين ترجو فضل مالهما في فيك مما رجوت الترب والحجر

(52) ذعدع : بدُّ وفرق ، العوارك : الأمة انعركت لكثير الاختلاف اليها .

(53) - ابن عبد ربه ، العقد ، ج : 3 ص : 328.

(54) - البريد ، الكامل في اللغة ، ج : 1 ص : 314 « والهجين عند العرب الذي أبوه شريف وامه وضعيفة والأصل في ذلك أن تكون امه ، . . .

(55) - مصدر نفسه ، ج : 1 ص : 282-281

لله در جياد أنت سائسها
برذتها وبها التحجيل والغرر

وقال جرير يعيرهم :

رأيت مقاتل الطلبات حلى
فروج بناته كمر الموالى
لقد أنكحتم عبداً لعبد
من الصهب⁽⁵⁶⁾ المشوهة السبال⁽⁵⁷⁾»

وإذا كان زواج مولى من عربية يثير مثل هذه العاصفة ، فقد جنح الخيال بعض الأعراب ، ليتصور الجنة وفيها العرب والموالى حيث لا أجناس ولا عصبيات ، فيستفطع فكرة زواج العربية من العجمي ، فسأل صاحبه : « أترى هذه العجم تنكح نساعنا في الجنة ؟ قال : أرى ذلك والله ، بالأعمال الصالحة ، قال : تُوطأ والله رقابنا قبل ذلك »⁽⁵⁸⁾ وإذا استفطع هذا الأعرابي فكرة المساواة بين العرب والعجم في الآخرة ، فقد ظن غيره ، أن الله قد سخر العجم للعرب في دنياهם ، قال ذو الرمة : « رأيت عبداً سود لبني أسد قدم علينا من شق اليمامة ، وكان وحشياً ، لطول تغربه في الإبل ، وربما كان لقي الأكرة⁽⁵⁹⁾ ، فلا يفهم عنهم ، ولا يستطيع إفهامهم ، فلما رأني سكن إلي ، ثم قال لي : يا غيلان ، لعن الله بلاداً ليس فيها عربي ، وقاتل الله الشاعر حيث يقول : « حُرُّ الشَّرِّي مُسْتَغْرِبُ التُّرَابِ .

وما رأيت هذه العرب في جميع الناس إلا مقدار القرحة في جلد الفرس ، ولو لا أن الله رق لهم فجعلهم في حشائه لطممت هذه العجمان آثارهم ، والله ما أمر الله نبيه بقتلهم إلا لظنه بهم ، ولا ترك قبول الجزية منهم إلا لتركها لهم »⁽⁶⁰⁾.

(56)- الصهب : جمع أصهب وهو الأشقر ، السبال : جمع سبة ما على الشارب من الشعر أو هو الدائرة في وسط الشفة العليا أو مقدم اللحية .

(57)- المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ج : 1 ص 281-282 . ابن عبد ربه ، العقد ، ج : 7 ص : 124

(58)- المبرد ، الكامل في اللغة والأدب . ج : 2 ص : 312.

(59)- الأكرة : جمع اكاك وهو الحرات .

(60)- ابن عبد ربه ، العقد ، ج : 3 ص : 247.

وإذا تبعنا سياسة الدولة في الموالي ، نراها تتوافق مع هذه النظرة الاجتماعية ، ولعل حوار الحجاج ابن يوسف مع سعيد ابن جبير ، وقد قبس عليه ، لنهوضه مع ابن الأشعث ، وكان سعيد من الموالي ، قال الحجاج : « يا شقي ابن كسيير ، أما قدمت الكوفة ، وليس يوم بها إلا عربي ، فجعلتك إماماً ؟ قال : بلـى . قال : أـفـما وليـتـكـ القـضـاءـ فـضـجـ أـهـلـ الـكـوـفـةـ ،ـ وـقـالـواـ لـاـ يـصـلـحـ الـقـضـاءـ إـلـاـ لـعـرـبـيـ ،ـ فـاسـتـقـضـيـتـ أـبـاـ بـرـدـةـ أـبـيـ مـوسـىـ الـأـشـعـرـيـ ،ـ وـأـمـرـتـهـ أـنـ لـاـ يـقـطـعـ أـمـرـاـ دـوـنـكـ ؟ـ قـالـ :ـ بـلـىـ .ـ قـالـ :ـ أـوـمـاـ جـعـلـتـكـ فـيـ سـمـارـيـ وـكـلـهـمـ مـنـ رـؤـوسـ الـعـرـبـ ؟ـ قـالـ :ـ بـلـىـ :ـ أـوـمـاـ أـعـطـيـتـكـ مـائـةـ أـلـفـ دـرـهـمـ لـتـفـرـقـهـاـ فـيـ أـهـلـ الـحـاجـةـ ،ـ ثـمـ لـمـ أـسـأـلـكـ عـنـ شـيـءـ مـنـهـاـ ؟ـ قـالـ :ـ بـلـىـ .ـ قـالـ :ـ فـمـاـ أـخـرـجـكـ عـلـىـ ؟ـ قـالـ :ـ بـيـعـةـ كـانـتـ لـابـنـ الـأـشـعـثـ فـيـ عـنـقـيـ .ـ فـغـضـبـ الـحـجـاجـ ثـمـ قـالـ :ـ أـفـماـ كـانـتـ بـيـعـةـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ عـبـدـ الـمـلـكـ فـيـ عـنـقـكـ قـبـلـ ؟ـ وـالـلـهـ لـأـقـتـلـكـ ،ـ يـاـ حـرـسـيـ اـضـرـبـ عـنـقـهـ »⁽⁶¹⁾.

وإذا كان لا يُؤمِّنُ في الصلاة إلا عربي ولا يُولِّي القضاء إلا عربي فحرى الآيولى ولاية أو يُؤمِّر إمارة إلا من كان عربياً . وعليه لم يستعمل الأميون من غير العرب إلا من كانت تدفعهم الضرورة لاستخدامه ، كاستعمال الدهاقين في فارس وكتاب الدواوين قبل ان تغرب عن الفارسية والرومية في زمن عبد الملك⁽⁶²⁾.

وتجنح الحجاج بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث إلى سياسة قاسية بحق الموالي ، ففرقهم في القرى ، ونقش على يد كل منهم إسم القرية التي وجهه إليها ، ولم يعف المسلمين الجدد من الجزية ، ووضع الخراج على الأرض التي أسلم أصحابها . وقد اعتقدت السيدة قدورة أن هذه السياسة كانت نتيجة لأزمة مالية ، وظروف اقتصادية وعجز في خزينة الدولة⁽⁶³⁾ .

والحق أنَّ السبب وإنْ كان له علاقة بالاقتصاد ، فهو سياسي في محل

(61) - المفرد ، الكامل في اللغة ، ج : ١ ص : 297.

(62) خليل جفال ، الخليفة عبد الملك ابن مروان الناقد الأديب ص : 78.

(63) - زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها الإجتماعي والسياسي ، ص : 45.

الأول ، وقد فطن إلى ذلك الجاحظ ، فقال : « إنَّ الحجاج ، لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله ابن الجارود ، ولقي ما لقى من قراء أهل العراق ، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه ، الفقهاء والمقاتلة من الموالى من أهل البصرة ، فلما علم انهم الجمهور الأكبر والسود الأعظم ، أحب أن يسقط ديوانهم ، ويفرق جماعتهم حتى لا يأتلفوا ولا يتعاقدوا »⁽⁶⁴⁾.

وبقي الموالى يعانون الظلم والعنف على أيدي خلفاء بني أمية وولاتهم حتى ولى الخليفة عمر ابن عبد العزيز ، فانتهت سياسة أقرب إلى روح الإسلام من سياسة أسلافه وألطف ، فلم يتعصب إلا للإسلام ، ورفع عن كاهل المسلمين من الموالى والعجم أعباء كثيرة ، ولم يقدم العرب لأنهم عرب ، فعندما جاءه بنو ثعلبة « فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إننا قوم من العرب ، أفرض لنا ، قال : نصارى ؟ قالوا : نصارى ، فقال : ادعوا إلى حجاماً ، ففعلوا ، فجز نواصيهم ، وشق من أردبهم حزماً يحتزمو بها ، وأمرهم أن لا يركبوا بالسرورج ، وأن يركبوا على الأكف من شق واحد »⁽⁶⁵⁾. فهذا صنيعه مع بني ثعلبة ، وكانوا عرباً ، ولما كتب إليه عبد الحميد ابن عبد الرحمن يستأذنه فيأخذ الجزية من اليهود والنصارى والمجوس الذين أسلموا ، كتب إليه : « وإنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤَهُ بَعْثَ مُحَمَّدًا (ص) دَاعِيًّا إِلَى إِسْلَامٍ ، وَلَمْ يَبْعَثْهُ جَابِيًّا »⁽⁶⁶⁾.

ولكن عهد عمر سرعان ما انقضى ، وعادت الأمور إلى سابق عهدها من الظلم والجور⁽⁶⁷⁾

وإذا كان سلوك السلطان الأموي مع الموالى على هذا النمط . فكيف كان سلوك الموالى ، مع هذا السلطان ؟

(64)- ابن عبد ربه ، العقد ، ج : 3 ص : 329.

(65)- الأبيشيهي ، المستظرف في كل فن مستظرف - دار إحياء التراث العربي - بيروت 1952 ج : 1 ص : 111.

(66)- أبو يوسف ، الغراج ، مصر 1302 هـ . ص : 75.

(67)- الترك ، محاضرات في عالم التاريخ الإسلامي في الجامعة العربية 1972 ص : 77.

« إنَّ الْأُمُوْرِيْنَ عَامَلُوا الْمَوَالِيَ مُعَامَلَةً سَيِّئَةً ، وَفَرَضُوا عَلَيْهِمُ الْجُزِيَّةَ وَالْخَرَاجَ وَهَذَا مَا يَتَنَافَى مَعَ مَبَادِيِّ الْاسْلَامِ الْأُولَى ، وَأَبْعَدُوهُمْ عَنْ أَمْوَارِ السُّلْطَانِ ، مَا جَعَلَ هُؤُلَاءِ يَرْتَمُونَ فِي أَحْصَانِ الْمُعَارَضَةِ ، فَانْحَازُوا إِلَى الشِّيَعَةِ بِالْعَرَاقِ وَالْخَوَارِجِ فِي فَارِسِ »⁽⁶⁸⁾ وَإِذَا كُنَّا أَكْثَرَ إِنْصَافًا ، لاحظَنَا أَنَّ الْمَوَالِيَ قَاتَلُوا فِي صَفَوْفِ كُلِّ الْأَطْرَافِ حَتَّى فِي صَفَوْفِ الْأُمُوْرِيْنَ ، وَلَوْ بِنَسْبَ مُخْتَلَفَةٍ ، فَقَاتَلُوا فِي صَفَوْفِ عَبْدِ اللَّهِ أَبْنَى الزَّبِيرِ ، كَمَا قَاتَلُوا فِي صَفَوْفِ الْخَوَارِجِ⁽⁶⁹⁾ وَلَعِلَّ أَهْمَ الثُّورَاتِ الَّتِي اشْتَرَكَ فِيهَا الْمَوَالِيُّ ، كَانَتْ ثُورَةُ الْمُخْتَارِ ثُمَّ ثُورَةُ أَبْنَى الْأَشْعَثِ ، فَمَا هُوَ دُورُ الْمَوَالِيِّ فِي هَاتِينِ الثُّورَتَيْنِ؟

ثُورَةُ الْمُخْتَارِ وَابْنِ الْأَشْعَثِ :

تَبَانِيَنَّ إِلَارَاءَ تَبَانِيَنَّ يَصِلُّ إِلَى حَدِّ التَّنَاقُضِ فِي عَقِيَّدَةِ الْمُخْتَارِ وَالْمَوَالِيِّ الَّتِي كَانَتْ وَرَاءَ ثُورَتِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرَاهُ مُتَقْلِبًا لَا يَبْثُتُ عَلَى حَالٍ ، وَآخَرُ يَزْعُمُ أَنَّهُ ادْعَى النَّبِيَّ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكِ مِنَ الْمَزَاعِمِ⁽⁷⁰⁾.

وَمَا يَهْمَنَا نَحْنُ ، هُوَ الْأَهْدَافُ الْمُعْلَنَةُ لثُورَةِ الْمُخْتَارِ ، وَجَمِيعُ النَّاسِ الَّذِي شَكَلَ مَادَةَ تَلْكَ الثُّورَةِ .

فَأَمَّا الْهُدْفُ ، فَقَدْ ذَكَرَ أَبْنَى الْأَثْيَرُ : « أَنَّ الْبَيْعَةَ كَانَتْ « عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَالْمُطْلَبُ بِدَمَاءِ أَهْلِ الْبَيْتِ ، وَجَهَادِ الْمُحْلِّيْنِ ، وَالْمُدْفَعُ عَنِ الْعَسْفَاءِ »⁽⁷¹⁾.

وَأَمَّا جَمِيعُ أَتَابِعِهِ ، فَهُمْ جَمِيعُ أَهْلِ الْكُوفَةِ مَنْ بَقِيَ مِنَ التَّوَابِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ شِيَعَةِ عَلِيٍّ ، وَكَانَ هُؤُلَاءِ خَلِيلَ طَائِفَةٍ مِنْ عَرَبِ وَمَوَالِيٍّ ، أَضَفْ إِلَى ذَلِكَ مَجْمُوعَةً

(68)- مرجع نفسه . ص : 77.

(69)- قدِّورة ، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي . ص : 55.

(70)- خليل جفال ، عبد الملك ابن مروان الناقد الأدبي ص : 40 وما بعدها .

(71)- مرجع نفسه ص : 44.

من العبيد كانوا يتوقون إلى الحرية والإنتقال من نير العبودية ، فوجدوا الفرصة سانحة بثورة المختار ، فانضموا إليها ، وقاتلوا في صفوفها أملا بالحرية التي بها يحلمون . فما دور الموالي والعبد في تلك الثورة ؟

أول خبر في حركة المختار عن الموالي جاء على لسان شبت ابن ربيع ، وكان على رأس من يحاربه ، انه لما صلى بالناس ، « فقرأ : إذا زلزلت الأرض زلزالها . . . وقرأ والعاديات ضبحاً ، فقال له أناس من أصحابه : لو كنت قرأت سورتين هما أطول من هاتين شيئاً ، فقال شبت : ترون الدينَمْ ، قد نزلت بساحتكم ، وأنتم تقولون : لو قرأت سورة البقرة وأآل عمران »⁽⁷²⁾.

وظاهر الكلام يدل على التحرير والبالغة ، فليس الدليل من قاتل بهم المختار ، ولم يكن من أصحاب المختار وقاده ومستشاريه ، إلا أبو عمارة كيسان مولى بجبلة ، حتى إن الشعبي فيما زعم ، لم يستطع التشكيك برسالة ابن الحنفية إلى إبراهيم ابن الاشتراط إلا عن طريقه ، فقال : « قلت في نفسي : إن لم أستعملها من العجمي - يعني أبو عمارة - لم أطعم فيها من غيره »⁽⁷³⁾.

وابن مطیع نفسه ، لم يدع ، وقد هزم أصحابه ، أن مع المختار أكثر من خمسمائة من الموالي⁽⁷⁴⁾ ويروى عن عمرو ابن مالك أبي كبشة القيني أنه « قال : كنت غلاماً حين راهقت مع أحد عمومتي في ذلك ، فلما نزلنا بعسكر الكوفيين ، عبانا ربيعة ابن المخارق ، فأحسن التعبية ، وجعل على ميمنته ابن أخيه ، وعلى ميسره عبد ربه السلمي ، وخرج هو في الخيل والرجال ، وقال : يا أهل الشام إنكم إنما قاتلون العبيد والأباق ، وقوماً قد تركوا الإسلام ، وخرجو من ليست لهم تقية ، ولا ينطقون بالعربية ، قال : فوالله إن كنت لأحسب أن ذلك كذلك حتى قاتلناهم ، قال : فوالله ، ما هو إلا أن اقتل الناس إذا رجل من أهل العراق يعترض الناس بسيفه ، وهو يقول :

(72) - الطبرى . تاريخ الأمم والملوك . دار الفكر - بيروت 1979 / ج : 7 ص : 103.

(73) - أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، المعادى 1959 ص : 29.

(74) - الطبرى . تاريخ الأمم والملوك ،

ويبيّن من هذا النص ، أنَّ المحدث قد تبين له كذب تلك الدعوى التي ادعها قائد أهل الشام . ويظهر جلياً أنَّ الدعاية التي بثها أعداء المختار ، لم تصرح ، ولو مرة واحدة بالهدف المعلن لثورته ، وهو التأيُّد لأهل بيت الرسول (ص) ، فهذا محمد ابن الأشعث ، لما ذهب بكتاب مصعب إلى المهلب ، يطلب منه المجيء لمقاتلة المختار ، يعاتبه المهلب قائلاً : «اما وجد المصعب بريداً غيرك ، قال محمد : إني والله ما أنا بيريد أحد غير أنَّ نساءنا : وأبنائنا وحرمنا غلبنا عليهم عبادنا وموالينا ، فخرج المهلب ، وأقبل بجموع كبيرة ، وأموال عظيمة»⁽⁷⁶⁾ .

فالبالغة والتحريض هي التي صورت ثورة المختار ، وكأنها ثورة للموالي على العرب .

ولكن مع هذا لا يسعنا الإدعاء : أنَّ أتباع المختار كانوا عرباً فقط ، كما لا يمكننا التسليم بأنهم كانوا بأكثريتهم من الموالي والعمجم . هذه الحقيقة صرَّ بها أكثر من واحد من أعداء المختار نفسه ، فعبد الرحمن ابن مخنف ، قال - وقد دعاه بعض أشراف الكوفة لقتال المختار : لا ، ولما قيل له : لم ؟ قال : «لأنَّي أخاف أباً تفرقوا ، وتخالفوا ، وتخاذلوا ، ومع الرجل شجاعاؤكم وفرسانكم من أنفسكم ، أليس معه فلان وفلان ، ثم معه عبيدكم ومواليككم وكلمة هؤلاء واحدة ، وعيديكم ومواليككم أشد حنقاً عليكم من عدوكم ، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداؤه العجم»⁽⁷⁷⁾ فأهل الكوفة مع المختار العرب والموالي ، إلا من أحسن بالخطر على نفسه وأهله لاشراكه بدم الحسين وأهل بيته . ولعل أصدق ما يعبر عن ذلك الشعر الذي طار في تلك الثورة من هذا الجانب أو ذاك ، فقد قال عبد الله ابن همام - حين سيطر المختار على الكوفة - :

(75) - مصدر نفسه . ج : 7 ص 114-115.

(76) - م. ن. ج : 7 ص : 147.

(77) - م. ن. ج : 7 ص : 116-117.

ويزويه عن رُود الشياب شموع⁽⁷⁸⁾
كتائب من همدان بعد هزيع
يقود جموعاً أرْدَفْتْ بجموع
بكل فتي ماضي الجنان منيع⁽⁷⁹⁾

« وفي ليلة المختار ما يذهب الفتى
دعا ، بالثارات الحسين فأقبلت
ومن مذحج جاء الرئيس ابن مالك
ومن أسد وافي يزيد لنصره
وقال أعشى همدان :

بأسياها ، لا سقيت صوب هاضب⁽⁸⁰⁾
عصائب منهم أرْدَفْتْ بعصائب
إلى الله أش��و رزء تلك المصائب
فيما لك دهر مرصد بالعجائب⁽⁸¹⁾

« لم أنس همداناً غداة تجوسنا
قتل من أشرافنا في محالهم
فكم من كمي قد أبارت سيفهم
يقتلنا المختار في كل غائط

فلا عبد الله ابن همام ، ولا أعشى همدان ، صرخ بأنَّ الموالي والعبد هم
الذين يقاتلون في صفوف المختار ، بل إنَّ الشيعة هي التي اختلفت به
ـ واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضي به ، وكان الذي يباع له الناس ، وهو
في السجن ، خمسة نفر : السائب ابن مالك الأشعري ، ويزيد ابن أنس ، وأحمر
ابن شميط ورفاعة ابن شداد الفتائي ، وعبد الله ابن شداد الجشمي⁽⁸²⁾ ».

فالشيعة قد رأست المختار ، ودعاته من العرب وليس من الموالي . والكوفة
مشهورة بتشيعها قبل المختار وبعده ، وهي قبل كل شيء معسكر عربي ، بل لعل
ما يبرهن بأنَّ ثورة المختار لم تكن في أساسها إلا معارضة عربية ما رواه الطبرى
عن عبد الله ابن مطیع ، وقد تولى الكوفة لابن الزبیر ، فصعد المنبر ، وقال : إنَّ
أمير المؤمنين أمره أن لا يحمل فضل فيهم عنهم إلا برضاهما ، وأنَّ يسير فيهم
بسيرة عمر ابن الخطاب وعثمان ابن عفان ، فقام السائب ابن مالك الأشعري

(78) رود الشياب : لين الشباب ، أو مكان ارتياهم

(79) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال . ص : 291.

(80) - تجوسنا بأسياها : تعطانا بأسياها

(81) أبو حنيفة الدينوري للأخبار الطوال . ص : 301.

(82) - الطبرى . تاريخ الأمم والملوك ج : 7 ص : 94.

فقال : أما ما أمر ابن الزبير إياك ، أن لا تحمل فضل فيئنا عنا إلا برضانا ، فإننا نشهدك ، أنا لا نرضى أن تحمل فضل فيئنا عنا ، وأن لا يسار فيينا إلا بسيرة علي ابن أبي طالب التي سار في بلادنا هذه حتى هلك ، رحمة الله عليه ، ولا حاجة لنا في سيرة عثمان في فيئنا ، ولا في أنفسنا ، فإنها إنما كانت أثرة وهمي ، ولا في سيرة عمر ابن الخطاب في فيئنا ، وإن كانت أهون السيرتين علينا ضرراً ، وقد كان لا يألف الناس خيراً . . . فقال ابن مطبيع : نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها »⁽⁸³⁾.

فالسائل لم يتكلم بلسان العبيد ولا الموالي ، فالثورة لم تنشب بعد ، إنما تكلم بلسان الشيعة في الكوفة ، وهم معظم أهلها .

وأخيراً فإن ثورة المختار عربية المنطلق ، عربية الأسباب ، عربية الأهداف ، وإن اشترك فيها كثير من الموالي ، فقد كان مع الذين حاربوها موالي أيضاً ، وبعد انتصار المختار في جبانة السبع ، استخرج الأسرى ، وكانوا خمس مائة أسير ، فأتى بهم المختار « فأخذ رجل منبني نهد وهو من رؤساء أصحاب المختار ، يقال له عبد الله ابن شريك ، لا يخلو عربي إلا خلّى سبيله ، فرفع ذلك إلى المختار درهم مولى لبني نهد ، فقال المختار : اعرضوه على ، وانظروا كل من شهد منهم قتل الحسين ، فاعلموني به »⁽⁸⁴⁾.

فهؤلاء الأسرى فيهم العربي والعجمي ، كما أن أصحاب المختار فيهم العربي والعجمي . بل قد تكون نسبة الأعاجم في جيش المختار أكثر ، ولكن لم يكن لهم الدور الأكبر في مسيرة تلك الثورة ، يظهر ذلك من توجيه المختار عماله إلى الأفق ، إذ لم يكن فيهم واحد من الموالي ، اللهم إلا صاحب الشرطة⁽⁸⁵⁾.

ولكن ما سر مشاركة الموالي بقوة في ثورة المختار ؟ وهل كل من ناصب

(83) - مصدر نفسه . ج : 7 ص : 95.

(84) - م.ن.ج : 7 ص : 121.

(85) - أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال . ص : 292

الطبرى . تاريخ الأمم والملوك ج : 7 ص : 109.

تلك الثورة العداء في الكوفة ، كان ممن شارك في قتل الحسين ؟

لقد تذمر العديد من أهل الكوفة ، وقالوا : « والله ، لقد ثامر علينا هذا الرجل (يعني المختار) بغير رضى منا ، ولقد أدنى موالينا ، فحملهم على الدواب ، وأطعمهم ، وأطعماهم فيثنا ، ولقد عصتنا عبידنا ، فحرب بذلك أيتامنا وأراملنا »⁽⁸⁶⁾.

فالموالي لم يكونوا مع المختار لوجه الله ، إنما كانت لهم مصلحة اقتصادية وسياسية ، وهي إشراكهم بالعطاء والفيء ، وتخالصهم من التبعية لأسادهم ، وهي أمور كانوا محرومين منها ، فجر ذلك عليه عداوة قسم من العرب ، اعتبروا أن المولى لا حق لهم بذلك » ولم يكن فيما أحدث المختار عليهم شيء هو أعظم من أن جعل للموالي من الفيء نصيباً⁽⁸⁷⁾.

ولكن ما يفعل المختار ، والأعداء تربص به ، بنو أمية في الشام ، وابن الزبير في البصرة والحجاز ؟ فقال لهم : « إن أنا تركت لكم مواليكم ، وجعلت فيأكم فيكم ، أتفاتلون معي بنى أمية وابن الزبير ، وتعطون على الوفاء بذلك عهد الله ومياثقه ، وما أطمئن اليه من الأيمان ؟ »⁽⁸⁸⁾.

فالمحatar يبحث عن الجيوش ، لأنه يدرك الحاجة إليها ، فإن لم يستطع أن يكون جيشاً عربياً صرفاً ، فليس من المعقول أن يرفض القتال بالموالي ومن أطاعه من العرب ، وقد عبر عن ذلك إبراهيم ابن الأشتر ، وقد عاتبه عمير ابن الحباب ، بأنه لم يسمع في عسكره كلاماً عربياً حتى وصل اليه : « والله لو لم أجد إلا النمل لقاتلتهم بها ، فكيف ، وما قوم أشد بصيرة في قتال أهل الشام من هؤلاء الناس الذين تراهم معي »⁽⁸⁹⁾.

(86) - الطبرى . تاريخ الأمم والملوك ج : 7 ص : 116.

(87) - مصدر نفسه ج : 7 ص : 116.

(88) - م.ن. ج : 7 ص : 116.

(89) - أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال . ص : 294.

فلمَّا كان أولئك القوم أشد بصيرة؟ لأنَّ الأمويين يسومون الموالي شتى أنواع الاضطهاد؟ لأنَّ الأمويين يمثلون السلطة العربية التي قهرت الفرس، وقضت على دولتهم؟ ليس ذلك بمستبعد.

ولكنْ أيعني هذا أنَّ الجيش الشامي كان عرباً صرفاً؟ منطق العصر والتاريخ يقول: لا، فكلَّ قوم كان يقاتل معهم موالיהם حتى أهل الشام⁽⁹⁰⁾.

إنما المهم في ثورة المختار ذلك التناقض بين العرب والموالي في الكوفة. فأنصار المختار أنفسهم، وكانوا عرباً وموالي، كان يدور بينهم نوع من الصراع والتناقض كالذى رأينا من النهدى وإطلاقه العرب، ووشایة درهم مولاهم لدى المختار، وتذمر الموالى من إقبال المختار بحديثه على العرب، وإظهار امتعاضهم لكيسان، فقالوا: «أما ترى أبا إسحاق قد أقبل على العرب، ما ينظر اليها، فدعاه المختار، فقال له: ما يقول لك أولئك الذين رأيتم يكلمونك، فقال له، وأسر اليه، شق عليهم، أصلحك الله، صرفك وجهك عنهم الى العرب، فقال له: قل لهم لا يثقلن ذلك عليكم، فأنتم مني وأنا منكم، ثم سكت طويلاً، ثم قرأ: إنما من المجرمين متقطعون... فما هو إلا أنَّ سمعها الموالى منه، فقال بعضهم لبعض: ابشروا، فإنكم والله به، قد قتلهم»⁽⁹¹⁾.

وهذه الرواية لو صحت، لأنَّه ظهرت مدى الحقد الذي يكنه الموالى للعرب في صدورهم، اذ فسروا لفظة المجرمين بالعرب، وهذا الحقد نتيجة منطقية لما كان يمارس على هذه الفتاة من أنواع الإضطهاد. فقد أسرَ أحدُ الموالى من أنصار المختار مع مولى وعربي، قال: «فأُسرَ مسغر (الحنفي) وأُسرَت أنا وخليد مولى حسان ابن يخدج، فقال شبت لخليد، وكان وسيماً جسيماً من أنت؟ فقال: خليد مولى حسان ابن يخدج الذهلي، فقال له شبت: يا ابن المتكأ، تركت بيع الصحفة بالكناسة، وكان جزاء من اعتقك، أن تعود عليه بسيفك تضرب

(90)- المسعودي . مروج الذهب . ج : 3 ص : 114.

(91)- الطبرى . تاريخ الأمم والملوك . ج : 7 ص : 109.

رقابه ، اضرروا عنقه ، فُقِيلَ ، ورأى مسراً الحنفي ، فعرفه ، فقال : أخو بني حنفية ، فقال له : نعم ، فقال : ويحك ، ما أردت الى اتباع هذه السبابة ، قبح الله رأيك ، دعوا ذا ، فقلت في نفسي : قتل المولى وترك العربي ، إنْ علم ، والله إني مولى قتلني ، فلما عرضت عليه ، قال من أنت ؟ فقلت : منبني تيم الله ، قال : أعربي أنت أم مولى ؟ فقلت : لا بل عربي ، أنا من آل زياد ابن حفصة ، فقال : بخ بخ ، ذكرت الشريف المعروف ، الحق بأهلك ، قال : فأقبلت حتى انتهيت الى الحمراء ، وكانت إلى في قتال القوم بصيرة⁽⁹²⁾ وما البصيرة بقتالهم ، إلّا حقده عليهم ، لِمَا رأه منهم .

فالتمايز بين العرب والموالى كان واضحاً ، حتى في جيش المختار نفسه ، ولكنَّه تمايز ، لم يصل درجة الإشتباك بالسلاح ، والعنصر العربي ما زال قوياً طاغياً بين أنصار المختار ، يظهر جيداً في الصورة التي رسمها الطبرى لجيش المختار قبل المعركة الحاسمة التي خاضها ضد مصعب ابن الزبير ، « فجعل أحمر ابن شميط على ميمنته عبد الله ابن كامل الشاكرى ، وعلى ميسرته عبد الله ابن وهب ابن نضلة الجشمى ، وعلى الخيـل رزين ابن عبد السلوى وعلى الرجالـة كثـير ابن اسماعـيل الكـنـدى ... وجعل كـيسـان أبا عمرـة وـكان مـولـى لـعـرـيـنة عـلـى الـموـالـى ، فـجـاء عـبد اللهـ ابن وهـبـ ابن نـضـلـةـ الجـشـمـىـ إـلـىـ اـبـنـ شـمـيـطـ ، وـقـدـ جـعـلـهـ عـلـىـ مـيـسـرـتـهـ ، فـقـالـ : إـنـ الـمـوـالـىـ وـالـعـبـيـدـ آـلـ خـوـرـ عـنـدـ الـمـصـدـوـقـةـ ، وـإـنـ مـعـهـ رـجـالـاـ كـثـيرـاـ عـلـىـ الـخـيـلـ ، وـأـنـ تـمـشـىـ ، فـمـرـهـمـ ، فـلـيـنـزـلـواـ مـعـكـ ، فـإـنـ لـهـمـ بـكـ أـسـوـةـ ، فـإـنـيـ أـخـافـ إـنـ طـوـرـدـواـ سـاعـةـ ، وـطـوـعـنـواـ ، وـضـوـرـبـواـ ، أـنـ يـطـيـرـواـ عـلـىـ مـتـنـهـ ، وـيـسـلـمـوكـ ، وـإـنـكـ إـنـ أـرـجـلـتـهـمـ ، لـمـ يـجـدـواـ مـنـ الصـبـرـ بـدـأـ ، وـإـنـماـ كـانـ هـذـاـ مـنـهـ غـشـاـ لـلـمـوـالـىـ وـالـعـبـيـدـ ، لـمـ كـانـواـ لـقـواـ مـنـهـ بـالـكـوـفـةـ : فـأـحـبـ إـنـ كـانـ عـلـيـهـ الدـبـرـةـ⁽⁹³⁾ ، أـنـ يـكـوـنـواـ رـجـالـاـ ، لـاـ يـنجـوـ مـنـهـ أـحـدـ ، وـلـمـ يـتـهـمـهـ اـبـنـ شـمـيـطـ ، وـظـنـ أـنـ إـنـماـ أـرـادـ بـذـلـكـ نـصـحـهـ ، لـيـصـبـرـواـ ، وـيـقـاتـلـواـ ، فـقـالـ : يـاـ مـعـشـرـ الـمـوـالـىـ ، اـنـزلـواـ

(92) - الطبرى . تاريخ الأمم والملوك . ج : 7 ص : 104.

(93) - الدبرة : الهزيمة

معي ، فقاتلوا ، فنزلوا معه ، ثم مشوا بين يديه »⁽⁹⁴⁾ .

يمكنا مما تقدم أن نلاحظ أموراً منها : أنَّ جيش المختار ، يتألف من عدة فرق إحداها فرقة خاصة بالموالي . وأنَّ الموالي يقاتلون بإشراف قائد منهم ، فهو غير مندمجين تماماً في الجيش ، وأنَّ ابن شميط ، لم يقبل قوله ابن نصلة الجشي مع ما فيه من الغش ، ولو لم تكن آراؤه في الموالي مطابقة لما قاله ابن نصلة ، وأنَّ الموالي قاتلوا بحقد وضراوة ، قاتلوا بها جس الانتقام من العرب . لكنهم لم يتمتعوا بحقوق متساوية للعرب حتى في جيش المختار ، فكل من يستطيع أنْ يقاتل راكباً لا يُمْنَع من ذلك إلا الموالي ، فإنهم قد حُرِّموا من هذا الحق .

إنَّ عرب الكوفة سواء كانوا من أنصار المختار أو من أعدائه ، كانوا ينظرون إلى المولى نظرة استخفاف وازدراء والموالي ينظرون إلى العرب بحقد وغيظ شديدين ، ولكن دون أنْ يجهروا بذلك صراحة ، فحاربوا مع المختار ، كما حاربوا مع غيره ظناً منهم أنَّ ذلك كفيل بتصحيح أوضاعهم الإجتماعية والسياسية .

ثم إنَّ ثورة المختار كانت عربية في كل شيء ، وكان الموالي وسيلة من وسائلها . وكل ثورة سياسية لها أعداؤها كما أنَّ لها أنصارها ، لذلك حاول المؤرخون تعليل عداء قسم من العرب في الكوفة لتلك الثورة ، فعزوا ذلك إلى تقريره (أي المختار) العجم ، وإقصائه العرب⁽⁹⁵⁾ ناسين بذلك الأطماع السياسية والعصبيات القبلية ، التي كانت تعصف برؤوس البعض ، وخوف البعض الآخر نتيجة تورطه في السياسة الأموية .

وقد تابع آراءهم عدد من المحدثين ، فاعتبروا ثورة المختار من أولى الحركات الشعوبية في التاريخ الإسلامي ، فقال الحاجري « عندي أنَّ حركة

(94) - الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ج : 7 ص : 148.

(95) - أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ص : 299.

المختار الثقيفي ، تعتبر من أولى الحركات الشعوبية ، وأقواها في العراق ، وقد أتاحت للموالى أن يحسوا بشخصيتهم ، ويستعيدوا كيانهم ، وينهياوا للدور الخطير الذي قاموا به بعد ، في صيغ الدولة بصيغتهم . . . بذلك ، وباتخاذ هذه الحركة صورة دينية إلى جانب حقيقتها الشعوبية ، فتحت السبيل أمام الثقافات الكلدانية والفارسية القديمة واسعة ممهدة »⁽⁹⁶⁾.

لو صح هذا الرعم ، لتركت لنا هذه الحركة أصداها في التاريخ غير التي تركتها ، وصيغتها الدينية ، لم تأت اصطناعاً ، ولم تكن لها قناعاً ، وإنما كانت السبب الرئيسي الذي فجرها ، ثورة المختار إنما هي ثورة أهل الكوفة ، فقبل المختار ، كان التوابون ، ولم يدع أحد أنهم كانوا من الموالى والفرس .

وأما الحقد الذي تصرف فيه كيسان كما يزعم الدوري⁽⁹⁷⁾ فلم يكن إلا تنفيذاً لأوامر المختار العربي ، وطبيعي أن يكون الموالى من يهدم البيوت ، لأنهم الفعلة ، وهدم البيوت من الأمور الشاقة التي يتجنّبها العربي ، ويأمر مولاه بمبادرتها .

وحركة الموالى في زمن ابن الأشعث كانت أوسع ، وتأثيرها أكبر ، فقد روى الطبرى أنه كان مع ابن الأشعث مئة ألف من العرب ومثلهم من العجم⁽⁹⁸⁾ .

ومع هذه الثورة تبدو الأسباب الإقتصادية والعسكرية ، توحد بين عرب العراق ومواليهم في الشورة على الحجاج ، فقد ذكر ضمرة ابن ربيعة عن ابن شوذب ، أن عمال الحجاج كتبوا إليه : إن الخراج قد انكسر ، وإن أهل الذمة ، قد أسلموا ، ولحقوا بالأمسار ، فكتب إلى البصرة وغيرها : إن من كان له أصلٌ في قرية ، فليخرج إليها ، فخرج الناس ، فعسكرروا ، فجعلوا ي يكون وينادون : يا محمداء ، يا محمداء ، وجعلوا لا يدرؤن أين يذهبون ! فجعل قراء أهل البصرة

(96) - طه الحاجري ، الجاحظ - حياته وأثاره / دار المعارف بمصر 1969 ص : 216 حاشية

(97) - الدوري ، الجنود التاريخية للشعوبية . ص : 21

(98) - الطبرى . تاريخ الأمم والملوك ج : 8 ص : 15

يُخْرُجُونَ إِلَيْهِم مَتَّقَنِعِينَ ، فَيَكُونُ ، لِمَا يَسْمَعُونَ وَيَرَوْنَ ، قَالَ : فَقَدْ أَبْنَى
الأشعثُ عَلَى نَضِيَّةٍ⁽⁹⁹⁾ ذَلِكَ ، وَاسْتَبَرَ قَرَاءُ أَهْلِ الْبَصَرَةِ فِي قَتْلِ الْحَجَاجِ مَعَ
عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ الْأَشْعَثِ⁽¹⁰⁰⁾ .

فَثُورَةُ ابْنِ الْأَشْعَثِ كَانَتْ ثُورَةُ الْعَرَقِ كُلِّهِ ، ثُورَةُ الْعَرَبِ لِتَجْمِيرِهِمْ فِي
الشَّغُورِ ، وَثُورَةُ الْمَوَالِيِّ لِتَعْسُفِ الْحَجَاجِ بِحَقِّهِمْ ، وَظَلَمَهُمْ لَهُمْ .

وَبَعْدَ ، فَإِنَّ سِيَاسَةَ الْمَوَالِيِّ فِي الْعَهْدِ الْأَمْوَيِّ ، لَمْ تَكُنْ تَطْمَحُ لِأَكْثَرِ مِنْ
نَظَامِ عَادِلٍ ، يَعِيدُ لِلنَّاسِ حَقَّهُ وَكَرَامَتَهُ ، لِأَيِّ جِنْسِ اتِّسَاعٍ نَظَامٌ يَسْتَلِمُ الْقُرْآنَ
فِي سِيَاسَتِهِ ، وَتَدْبِيرِهِ لِشَؤُونِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُمْ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ يَنْخَرُطُونَ فِي كُلِّ
ثُورَةٍ أَوْ حَرْكَةٍ مَنَاهِضَةٍ لِسُلْطَانِ الْأُسْرَةِ الْأَمْوَيَّةِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لِهِ الْمَوَالِيُّ فِي
ذَلِكَ الْعَهْدِ بِرَنَامِجٍ عَمَلٍ أَوْ خَطَّةٍ سِيَاسَةٍ تَسْعَى لِتَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمْ ، فَثُورَةُ الْمُخْتَارِ ،
لَمْ تَكُنْ ثُورَةُ الْمَوَالِيِّ ، إِنَّمَا كَانَتْ « نِتْيَةً التَّذَمُّرِ الْوَاسِعِ الْإِنْتَشَارِ الَّذِي عَمَّ
الْمُجَمَّعِ الْإِسْلَامِيِّ » ، ذَلِكَ التَّذَمُّرُ النَّاשِيءُ عَنْ حَيَاةِ مُعْظَمِ الْخَلْفَاءِ الْأَمْوَيِّينَ
الْدَّاعِرَةِ ، وَاحْتِقارِهِمْ لِلْمَوَالِيِّ ، ذَلِكَ الإِحْتِقارُ الْبَعِيدُ عَنْ حُكْمَةِ الْإِسْلَامِ وَمُبَادَلَتِهِ ،
وَسِيَاسَاتِهِمُ الْإِدَارِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ الرَّجُعِيَّةِ الظَّالِمَةِ ، الَّتِي كَانَتْ تَرْمِيُ إِلَى جَعْلِ الرُّعْيَةِ ،
بِمَا فِيهَا الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ اعْتَنَقُوا إِلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ اخْتِرَأْ - قَطَاعُ خَشْبِ وَسَقَائِينَ « هَذِهِ
كَانَتْ الأَسْبَابُ الْحَقِيقِيَّةُ لِثُورَةِ الْمُخْتَارِ »⁽¹⁰¹⁾ .

وَعَنْ الدُّورِ الَّذِي لَعِبَ الْمَوَالِيُّ فِي كُلِّ مِنْ الثُّورَتَيْنِ قَالَ فُونْ كَرِيمَرْ « قَدْ كَانَ
الْمَوَالِيُّ فِي ثُورَاتِ كُلِّ مِنْ الْمُخْتَارِ وَابْنِ الْأَشْعَثِ يَعْدُونَ بِالآلَافِ ، وَلَكِنْ يَجِبُ
الْأَلْيَغْرُبُ عَنِ الْبَالِنَا ، أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ وَاحِدَةً مِنْ هَاتِيْنِ الثُّورَتَيْنِ حَرْكَةً مِنْ حَرَكَاتِ
الْمَوَالِيِّ الْخَالِصَةِ ، كَمَا ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ بَعْضُ الْكِتَابِ الْمَشْهُورِيْنِ . وَقَدْ كَانَ مِنْ

(99) - نَضِيَّة وَنَضِيَّة : صَوْتٌ نَشِيشٌ لِلْلَّحْمِ يَشْوِي عَلَى الْحَجَارِ الْمُحَمَّةِ . وَالْمَعْنَى أَنَّ ابْنَ الْأَشْعَثَ قَدْ
قَدَ وَالنَّاسُ تَنْهَرُقُ غَيْظًا مِنْ صَبْيِنِ الْحَجَاجِ .

(100) - الطَّبَرِيُّ . تَارِيخُ الْأَمْمِ وَالْمُلُوكِ . ج : 8 ص : 35.

(101) - فُونْ كَرِيمَرْ ، الْحِسَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ 1947 ص : 37-38.

ال الطبيعي ان يتعاون الموالي الذي تضغط عليهم ، وتدوسيهم تحت أقدامها السياسة الأموية ، مع الثوار الذين يسعون للقضاء على تلك الدولة ، وكانت للمواли مصلحة في كل من هاتين الثورتين ، ولكنهم لعبوا دوراً ثانوياً فقط »⁽¹⁰²⁾.

ملامح شعوبية في الشعر الأموي :

وإذا كانت منزلة الموالي هي التي دفعتهم الى الإشتراك في كل الثورات التي قامت بوجه الدولة الأموية ، فكيف تصرفوا في حال السلم ؟

إن المجتمع العربي كان يحتقر الموالي ، كما بينا آنفاً ، ويعتبرهم أدنى منزلة من العرب . وبين العرب أنفسهم تقوم المنافرات والمفاحرات ، كل يفتخر بنفسه وأبائه وقبيلته ، ويفضلها على غيرها من القبائل ، وبهجو أعداءها ، والموالي في غضون ذلك يحاولون تدعيم منزلتهم الإجتماعية ، بعضهم يفخر على العجم ، لأن المولى بولاته لإحدى القبائل ، صار أشرف من العجمي الذي لا ولاء له⁽¹⁰³⁾ ، وبعضهم يفتخر بمواليه ، والبعض يدعي بأنه عربي ، والبعض الآخر يجاهر بأصله ، ويفخر به شأن العرب وافتخارهم بأنسابهم . وقد ظهرت هذه التزعنة باكراً إذا صرخ ما ينسب لسلمان الفارسي من القول :

« أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم⁽¹⁰⁴⁾ »

فإن المولى كان يقف حائراً في مجتمع يمجد القبيلة والإنتساب إليها خاصة وإن الظروف لا تسمح له بالفخر بأصله ، فماذا يصنع ؟ إما أن يفتخر بالإسلام ، كما فعل سلمان الفارسي ، وإما أن يدعى نسباً في العرب ، ويتصنع في ذلك ، كأبي بكر الشيباني ، فقد « أدعى أبو بكر الشيباني الى العرب ذات ليلة ، فأصبح

(102)- مرجع نفسه ص : 39.

(103)- زاهية قدوره ، الشعوبية وأثرها الإجتماعي والسياسي ص : 50.

(104)- الأشيهي ، المستطرف في كل فن مستطرف ج : 1 ص : 131.

من الغد سلى الشمس ، فقعد فيها ، فثارت به مرة ، فجعل يحك جلده بأظفاره خميشاً ، ويقول : إنما نحن أبل ، فقال له قائل : والله إنك تشبه العرب ، فغضب وقال : أيقال لي هذا : أنا حرباء تنسبة⁽¹⁰⁵⁾ ، يشهد لي سواد لوني ، وغور عيني وحبي للشمس⁽¹⁰⁶⁾ .

وافتخر بشار ابن برد بولاته في قيس ، فقال :

أرى قيساً تشب ولا تضار
نبات الأرض أخطاء القطار
فكان لتدمير فيها دمار . . .

«أمنت مضررة الفحشاء أنني
كان الناس حين يغيب عنهم
وقد كانت بتدمير خيل قيس

بحي منبني غilan شوس يسير الموت حيث يقال ساروا⁽¹⁰⁷⁾

وأما إسماعيل ابن يسار النائي ، فكان يجاهر بفخره على العرب بأصله ، وكان ذلك ردة فعل ، تعبر عما يعانيه من شعور بالقهر والكبث . فقد روى أبو الفرج ، أنه لما مات أخوه محمد ابن يسار ، رثاه إسماعيل بقصيدة يتذمّر فيها عليه ، مطلعها :

لما نعى الناعي أبا بكر⁽¹⁰⁸⁾ عيل العزاء وخانتي صبري

فقال له رجل من آل الزبير : «أحسنت ، وأسرفت في القول ، فلو قلت هذا في رجل من سادات قريش لكان كثيراً»⁽¹⁰⁹⁾ . فهذا المجتمع الذي يستكثر على المرء شعوراً بفداحة المصائب بفقد أخيه ، لأنّه ليس عربياً أو قريشاً ، هو الذي دفعه للثورة والفخر على العرب ، فقال :

(105) - تنسبة : شجر له ثمرات تكثر عليه العربي

(106) - ابن قتيبة ، عيون الأخبار . ج : 2 ص : 48

(107) - أبو الفرج . الأغاني ج : 3 ص : 21

(108) - مصدر نفسه . ج : 4 ص : 127

(109) - م. ن. ج : 4 ص : 127

« ربَّ خالٍ متَّوِجٌ لِي وَعَمْ
انما سمي الفوارس بالفر
فاتركي الفخر يا امام علينا
واسألي إنْ جهلت عنا وعنكم
إذْ نُرْتَبِي بناً تناً وَتُدْسُوا

فقالَ رجلٌ : . . . إنَّ خاجتنا إلَى بناً تناً غَيْرَ حاجتكم ، فافحِّمْهُ - ي يريد أنَّ
العجم ، يربون بناً تناً لينكحوهن ، والعرب لا تفعل ذلك»⁽¹¹⁰⁾

وإسماعيل هذا ، ما كان يتورع عن الفخر بنفسه وقومه ، حتى بحضوره
الخلفاء ، فقد «دخل على هشام ابن عبد الملك في خلافته ، وهو بالرصة
جالس على بركة في قصره ، فاستنشده ، وهو يرى أنه ينشد مدحياً له ، فأنشد
قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم :

هل ترجعُن إِذَا حَيَّتْ تَسْلِيمِي
بِارْبَعِ رَامَةِ بِالْعَلِيَّاءِ مِنْ رِيمِ
وَالَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

عند اللقاء ولا حوضي بمهدومِ
ولي لسان كحد السيف مسمومِ
من كل قرم بتاج الملك معرومِ
جرد عناق مساميح مطاعيم⁽¹¹¹⁾
والهرمزان لفخر أو لتعظيمِ
وهم أذلوا ملوك الترك والرومِ
مشي الضراغمة الأسد اللهاميم⁽¹¹²⁾

إني وجدك ما عودي بذني خور
أصلي كريم ومجيدي لا يقاس به
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب
جحا جح سادة بلج مرازبة
من مثل كسرى وسابور الجنود معا
أسد الكتاب يوم الروع إنْ زحفوا
يمشون في حل الماذي سابغة

(110) م. ج : 4 ص : 121

(111) - جماعج : جمع جماعج : وهو السيد المسارع إلى المكارم ، البليج : جمع أبلج : المفترق
الجاجين وقبل الطلق الوجه . الجرد : مفردها أجرد وهو الشام المتجرد من النعم . مساميح
أجواد .

(112) - حلق الماذي : دروع الحديد المجلوة

هناك إنْ تسألي تُنِي بِأَنَّ لَنَا جرثومة فهرت عز الجراثيم

... فغضب هشام ، وقال له ... أعلى نفخر ، وإيابي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ، غطوه في الماء ، فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بإخراجه ... ونفاه من وقته ، فلُخِرَ عن الرصافة منفياً إلى الحجاز ... وكان مُبْتَلٍ بالعصبية للعجم ، والفخر بهم ، فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً⁽¹¹³⁾ وإذا كان هذا جزء من يفخر بنفسه أو بقومه من الموالي⁽¹¹⁴⁾ ، فمن الطبيعي أن يتحاشوا ذلك ، خشية ما يسبب التسرير به من عقاب ونكال ، ويلتمسون سراً حزباً أو زعامةً تحل محل الأمويين ، وترفع عن كواهلهم شتى أنواع الإضطهاد ، وإذا فشل الخوارج والزبيريون والشيعة وابن الأشعث بالقضاء على سلطان بني أمية ، فإن حركة سرية كانت تعمل للقضاء على هذا السلطان متسللةً لذلك السواعد الفارسية ، تلك هي الدعوة العباسية .

(113) - أبو الفرج ، الأغاني . ج : 4 ص : 125.

(114) - مصدر نفسه . ج : 4 ص : 127. وكان لاسماعيل ابن شاعر اسمه ابراهيم وهو القائل :

مضى الجهل عنك إلى طينه وأبك حلمك من غيبته
وهي طربة يفتخر فيها بالعجم .

الفصل الثاني

الدعوة العباسية

الصراع القبلي

أسباب شعبوية :

١ - الهاجس القومي والشعور بالقهر

٢ - الموروث الحضاري

٣ - الدين

٤ - الاقتصاد

٥ - السياسة

انتشار الشعوبية

الدعوة العباسية :

نشأت الدعوة العباسية نشأة سرية ، تكاد تخفي على الباحثين ! فهل كان للدعوة العباسية جذور قبل السنة المائة من الهجرة ؟

إنَّ من يجيب بنعم ، يعتمد على الروايات التي تجعل الدعوة العباسية امتداداً للعقيدة الكيسانية التي رأت ، أنَّ الإمامة بعد علي صارت إلى ابنه محمد ابن الحنفية بعد أن بايع الحسن ابن علي معاوية ابن أبي سفيان . فلما توفي (محمد ابن الحنفية) أوصى بالأمر بعده لابنه عبد الله ابن محمد ابن علي ، وهو أمير الشيعة ، فسممه سليمان ابن عبد الملك ، فعرج على الحميمة ، ونزل على محمد ابن علي ابن عبد الله ابن عباس ، وقال له : اليك الأمر ، فولاه ، وأشهد شهوداً من الشيعة على ذلك⁽¹⁾.

ومنهم من رأى ، أنَّ الدعوة العباسية ، لم تبدأ إلا في سنة 101 هـ/720 م .
عندما تواجدت الشيعة على الإمام محمد ابن علي ابن عبد الله ابن عباس ، وكان مستقره بأرض الشام ، بمكان يسمى الحميمة ، وكان أول من قدم من الشيعة : ميسرة العبدى ، وأبو عكرمة السراج ، ومحمد ابن خنيس وحيان العطار . فقدم هؤلاء عليه ، فأرادوه على البيعة ، وقالوا له : « أبسط يدك لنبايعك على طلب

(1) ابن قبية ، الإمامة والسياسة ، دار المعرفة : 1967.

بيروت ، ج : 2 ص : 108-109.

هذا السلطان ، لعل الله أنْ يحمي بك العدل ، ويميت بك الجور ، فإنَّ هذا وقت ذلك ، وأوانه ، والذي وجدناه مأثُوراً عن علمائكم . فقال لهم : . . . فانطلقا أيها النفر ، فادعوا الناس في رفق وستر ، فإلني أرجو أنْ يتمم الله أمركم ، وبُيظِّهر دعوتُكُم ، ولا قوة إلا بالله »⁽²⁾.

ولكن لماذا اختار هؤلاء الرجال محمد ابن علي دون غيره من بنى هاشم ؟

هل كانوا على مذهب الكيسانية ، فلما قضى أبو هاشم ، توسموا في محمد ابن علي قدرته على خلافه ؟ لم يتعرض الدينوري لذلك ولا لشيء غيره ، والمسعودي يرى أنَّ « الراوندية » ، هم شيعة ولد العباس ابن عبد المطلب ، من أهل خراسان وغيرهم ⁽³⁾ أما رأيهم بالإمامية ، فانهم يقولون : « إنَّ رسول الله (ص) قُبِضَ ، وإنَّ أحقَّ الناس بالإمامية بعده العباس ابن عبد المطلب ، لأنَّه عمه ووارثه وعصبه ، لقوله عز وجل : « وَأُولُو الْأَرْحَامِ أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ »⁽⁴⁾ وإنَّ الناس اغتصبوه حقه ، وظلموه أمره ، إلى أنْ رده الله اليهم ، وتبرؤا من أبي بكر وعمر ، وأجازوا بيعة علي ابن أبي طالب ، بإجازته لها ، وذلك لقوله : يا ابن أخي ، هلم الى أنْ أبَايَكَ ، فلا يخَلِفُ عليك اثنان ، ولقول داود ابن علي على منبر الكوفة يوم بُويع لأبي العباس ، يا أهل الكوفة ، لم يقم فيكم إمام بعد رسول الله (ص) إلا علي ابن أبي طالب وهذا القائم فيكم ، يعني أبا العباس »⁽⁵⁾.

ويظهر من النص أنَّ المسعودي لم يعين متى ابتدأت هذه العقيدة بالتبليغ عند دعابة بنى العباس ، لكنه جزم بأنها (أي الراوندية) سبقت القول بأنَّ إماماً محمد ابن علي انتقلت اليه من أبي هاشم ابن محمد ابن علي ، فقال : « والذي ذهب اليه من تأخر من الراوندية ، وانتقل وتحجر عن جملة الكيسانية القائلة بإماماً

(2) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص : 332.

(3) المسعودي . مروج الذهب . ج : 3 ص : 252.

(4) القرآن الكريم ، سورة الأنفال ، رقم الآية : 75.

(5) المسعودي . مروج الذهب ، ج : 3 ص : 252.

محمد ابن الحنفية - وهم الجريانية - أصحاب أبي مسلم عبد الرحمن ابن مسلم صاحب الدعوة العباسية - وكان يلقب بجريان - إنَّ محمدَ ابنَ الحنفية هو الإمام بعد عليٍّ ابن أبي طالب ، إنَّ محمداً أوصى إلى ابنه أبي هاشم ، وإنَّ أبي هاشم أوصى إلى عليٍّ ابنَ عبدِ اللهِ ابنَ العباسِ ابنَ عبدِ المطلب ، وإنَّ عليٍّ ابنَ عبدِ اللهِ أوصى إلى ابنه محمدَ ابنَ عليٍّ ، وإنَّ محمداً أوصى إلى إبراهيمَ الإمام المقتول بحران ، وإنَّ إبراهيمَ أوصى إلى أخيه أبي العباس «⁽⁶⁾».

ويعزز هذا الرأي مراسلات محمدَ ابنَ عبدِ اللهِ ابنَ الحسنِ وأبي جعفر المنصور ، فقد جاء في رسالة محمدَ ابنَ عبدِ اللهِ ابنَ الحسن ، «وقد تعلم أنَّ الحقَّ حقنا ، وأنَّكُمْ إنَّما طلبتموه بنا ، ونهضتم فيه بشيعتنا ، وخيطتموه بفضلنا ، وأنَّ أباًنا علياً عليه السلام ، كان الوصي والإمام ، فكيف ورثتموه دوننا ، ونحن أحياء»⁽⁷⁾. وجاء في رد المنصور عليها ، ما يطابق العقيدة الرواندية ، فقد أجابه : «ما كان محمدَ أباً أحدي من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، ولكنكم بنوا ابنته ، وإنَّها لقرابة قريبة ، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز ان تُؤمَّ ، فكيف تُورَّثُ الإمامة من قبلها»⁽⁸⁾ وقال «توفي رسول الله (ص) ، وليس من عمومته أحد حياً إلا العباس ، وكان وارثه دونبني عبد المطلب ، وطلب الخلافة غير واحد منبني هاشم ، فلم ينلها إلا ولده ، فاجتمع للعباس أنه أبو الرسول (ص) خاتم الأنبياء ، وبنوه القادة الخلفاء»⁽⁹⁾

ومروان ابن أبي حفصة شاعر العباسين ، يقرر النظرية ذاتها ، فيقول :

«أَنَّى يَكُونُ وَلِيُّسْ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِبَنِي الْبَنَاتِ وَرَاهِنَ الْأَعْمَامِ»⁽¹⁰⁾

وعندما عاتب أبان ابن عبد الحميد اللاحقي البرامكة ، لأنَّهم لم يصلوه

(6) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 254.

(7) المفرد ، الكامل في اللغة والأدب . ج : 2 ص : 384.

(8) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 285-286.

(9) م. ن. ج : 2 ص : 287.

(10) أبو الفرج . الأغاني . ج : 9 ص : 287.

بالرشيد ، قال له الفضل : « إن سلكت مذهب مروان ، أوصلت شعرك ، وبلغتك إرادتك »⁽¹¹⁾ . فحاك أبان قصيده التي يقرر فيها نظرية العباسين في الخلافة :

أَعْمُّ بِمَا قَدْ قَلَّتِهِ الْعِجْمُ وَالْعَرْبُ
إِلَيْهِ أَمْ ابْنُ الْعِمْ فِي رَتْبَةِ النَّسْبِ
وَكَانَ عَلَى بَعْدِ ذَاكِ عَلَى سَبْبِ
كَمَا الْعِلْمُ لَابْنِ الْعِمْ فِي الْإِرْثِ قَدْ حُجِّبَ
فَقَدْ بَاعُهَا لَا يَنْكِرُ النَّاسُ أَوْ وَهْبٌ

...

وَمَنْ هُوَ أَوْلَى بِالذِّي بَزَ وَاسْتَلَبَ
وَبِاللَّهِ فِيمَا رَامَ أَدْرَكَ مَا طَلَبَ

...

وَهُمْ أَهْلُهَا إِنْ كَانَ حَقُّ لَمِنْ غَلْبٍ »⁽¹²⁾

« نَشَدْتُ بِحَقِّ اللَّهِ مِنْ كَانَ مُسْلِمًا
أَعْمُّ نَبِيِّ اللَّهِ أَقْرَبَ زَلْفَةً
فَإِنْ كَانَ عَبَّاسٌ أَحَقُّ بِتَلْكُمْ
فَأَبْنَاءُ عَبَّاسٍ هُمْ يَرْثُونَهُ
وَفِي حَسْنٍ إِذْ قَلْتُمْ فِيهِ حَجَّةً

...

فَقَامَ بِهَا مَنْ لَمْ يَكُلُّهَا إِلَيْكُمْ
إِمَامُ بَنِي عَبَّاسٍ حِينَ سَمَا لَهَا

...

فَإِنْ كَانَ الْقَرِبَى فَهُمْ أَهْلُ حَقِّهِ

وَهَذِهِ الْفَصِيحةُ تَكَادُ تَكُونُ نَظَمًا لِرِسَالَةِ أَبِي جَعْفَرِ الْمُنْصُورِ لِمُحَمَّدِ ابْنِ عَبْدِ
اللَّهِ ، فَهَلْ يَعْقُلُ أَنْ تَقُومَ نَظَرِيَّةُ الدُّعَوَةِ الْعَبَاسِيَّةِ عَلَى الْكِيَسَانِيَّةِ ، ثُمَّ تَنْقُلُ لِهَذِهِ
الْحَالِ ؟

وَسَوْءَاءِ ابْتَدَأَتِ الدُّعَوَةُ الْعَبَاسِيَّةُ مُسْتَقْلَةً ، أَوْ كَانَتْ امْتَدَادًا لِلْحَرْكَةِ الْكِيَسَانِيَّةِ ،
فَإِنَّ زَعَمَةً هَاشِمِيَّةً جَدِيدَةً بَدَأَتْ بِالظَّهُورِ مُسْتَفِيدَةً مِنَ الْأَزْمَاتِ السِّيَاسِيَّةِ
وَالاجْتِمَاعِيَّةِ ، التِّي يَعْنِي الْحُكْمَ الْأَمْوَى مِنْهَا ، وَفَوْضُوَّةَ الدُّعَوَةِ الشِّيعِيَّةِ الْعُلُوَّيَّةِ
وَغَيْرِهَا ، وَمَعَ مَطْلَعِ الْقَرْنِ الثَّانِي لِلْهِجَّةِ ، لَمْ تَعُدْ لِفَظَةً « الشِّعَيْةُ » تُطْلَقُ
عَلَى أَنْصَارِ الْعُلُويِّينَ وَحْدَهُمْ ، وَإِنَّمَا عَلَى أَنْصَارِ الْعَبَاسِيِّينَ أَيْضًا . فَكَيْفَ نَظَمُ
الْعَبَاسِيُّونَ دُعُوتَهُمْ ؟ .

أَدْرَكَ مُحَمَّدُ ابْنُ عَلَى أَنَّ تَنْظِيمَ الدُّعَوَةِ تَنْظِيمًا جَيْدًا مِنْ أَوْلَى الضرُورَاتِ

(11) الصولي ، أخبار الشعراء المحدثين / دار المسيرة - بيروت ط 1979,5 ص : 14

(12) مصدر نفسه . ص : 14

إنجاحها ، كما أنَّ السرية في العمل تفرضها المعطيات السياسية ، فالأمويون لن يتراهموا مع العباسيين ، والجهر بدعواهم سيجر عليهم عداوة إبناء عمومتهم العلوين . لهذا أوصى محمد ابن علي دعاته الأوائل بكتمان أمرهم ، ودعوة الناس في رفق وستر⁽¹³⁾ واتجهت أنظاره إلى أقاليم المعارضة للبيت الأموي : العراق ، وفارس وخراسان ، فوجه « ميسرة العبدى ومحمد ابن خنيس إلى أرض العراق ، ووجه أبا عكرمة وحيان العطار إلى خراسان »⁽¹⁴⁾ .

وقد أوصاهم بالتركيز على إقليم خراسان ، لأنَّ الأقليم المؤهل أكثر من غيره لقبول الدعوة العباسية ، فقال لهم : « أما الكوفة وسواتها ، فهناك شيعة على ابن أبي طالب ، وأما البصرة ، فعثمانية الهوى تدين بالكف ، وتقول : كن عبد الله المقتول ، ولا تكن عبد الله القاتل . وأما الجزيرة فحرورية ، مارقة وأعراب كأعلاج ، ومسلمون في أخلاق النصارى . وأما أهل الشام ، فليس يعرفون إلا آل سفيان وطاعةبني مروان عداوة لنا راسخة وجهلاً متراكماً ، وأما أهل مكة والمدينة ، فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان ، فإنَّ هناك العدد الكبير والجلد الظاهر ، وصدروراً سليمةً ، وقلوبًا فارغةً لم تَتَقْسِمْها الأهواء ، ولم تَتَوَزَّعْها النحل ، ولم تشغلها ديانة ، ولم يتقدم فيها فساد ، وليس لهم اليوم هم العرب ، ولا فيهم كتحاذب الأتباع بالسدادات ، وكتحالف القبائل وعصبية العشائر ، ولم يزالوا يذلون ، يمتهنون ، ويظلمون ويكتظمون ويتمنون الفرج ، ويؤملون الدول ، وهم جند لهم أجسام وأبدان ومناكب ، وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أفواه منكرة . وبعد ، فإني أتفاءل إلى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيا ، ومصباح الخلق »⁽¹⁵⁾ .

لم تبق إذاً إلا خراسان ، لم يشغلها التحاذب والتمذهب ، وبالتالي فهي بعيدة عن التيارات السياسية في الدولة العربية الإسلامية ، وهذا الفراغ يطمح محمد ابن علي في إملائه بالدعوة العباسية .

(13) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال . ص : 332.

(14) مصدر نفسه ص : 332.

(15) ابن قتيبة ، عيون الأخبارج : ١ ص : 204.

اتجه دعاء محمد الى حيث أرسلهم ، فجعلوا يدعون الناس الى الرضا من آل محمد ، وينفرونهم من البيت الأموي⁽¹⁶⁾ فاستجاب لدعابة العباسين عدد كبير من أهل خراسان ، ولكن سراعان ما اكتشِفَ أمرُ أبي عكرمة وحيان فقبض عليهما ، وقتلا⁽¹⁷⁾ فاختار الإمام من كبار شيعته اثنى عشر نقيباً ، هم :

« من خزاعة : سليمان ابن كثير ، ومالك ابن الهيثم ، وزياد ابن صالح ، وطلحة ابن زريق ، وعمرو ابن أعين ، ومن طيء قحطبة واسمه زياد ابن شبيب ابن خالد ابن معدان ، ومن تميم موسى ابن كعب (أبو عينية) ولاهز ابن قريظ ، والقاسم ابن مجاشع - كلهم من بني امرئ القيس - وأسلم ابن سلام (أبو سلام) ومن بكر ابن وائل ابو داود خالد ابن ابراهيم من بني عمرو ابن شيبان أخي سدوس ، وأبو علي الهووي ، ويقال سبل ابن طهمان »⁽¹⁸⁾.

وأما في العراق ، فقد قيس للدعوة رجل من أهل الغنى واليسار ، آمن بالدعوة إيماناً عميقاً ، فسخر لها نفسه وماله هو بكير ابن ماهان ، ولما مات ميسرة ، تسلم أمر الدعوة حتى مات ، فالأمر الى أبي سلمة الخلال ، الذي أوكل إليه أمر الإشراف على الدعوة في خراسان والعراق⁽¹⁹⁾. وفي هذه الأثناء ظهر في صفوف العباسين رجل فطن ذو حكمة ودهاء ، هو أبو مسلم الخراساني ، الذي لعب دوراً قيادياً بارزاً ، وقاد العباسين الى النصر ، فمن هو أبو مسلم؟ وكيف استطاع أن يقوم بأعباء القيادة؟

أبو مسلم الخراساني (عبد الله ابن مسلم) مملوك لعيسي ومعقل ابني إدريس ابن عيسى العجلين ، وكان هذان الرجلان محبوسين بواسط ، وكان أبو مسلم يخدمهما في حبسهما فمر دعابة لبني العباس في المدينة في طريقهم الى الحج ، ودخلوا السجن ، فرأواABA مسلم ، وحدثوه ، وأعجبهم حديثه وهبته وحبه

(16) الطبرى . تاريخ الأمم والملوک ج : 9 ص : 98 ، أما الدينوري فيروى أن الدعوة الأولي كانوا يدعون الناس إلى أمامة محمد ابن علي العباسي ، الأخبار الطوال ص : 333.

(17) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ص : 335.

(18) مصدر نفسه . ص : 335 ، الطبرى . تاريخ الأمم والملوک ، ج : 9 ، ص : 98.

(19) أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال . ص : 334.

لبني هاشم ، فسألوه عن أمره ، فعزا نفسه لعمير العجلي ، وروى سبب كونه مملوكاً لعيسي وعقل ابن ادريس ، ولما التقى الدعاة الإمام محمد ابن علي في مكة ، قصوا عليه خبر أبي مسلم ، فكلفهم أنْ يتبعوه ، ويرسلوه إلى الحميّة ، ليكون الرسول بين الإمام ودعاته⁽²⁰⁾.

«ثم توفي الإمام محمد ابن علي ، فقام بالأمر بعده ابنه إبراهيم ابن محمد ، وكان أكبر ولده ، فأسر أبا مسلم أنْ يسير إلى الدعاة بالعراق ، وخراسان ، فيعلمهم وفاة الإمام ، وفيماه بالأمر من بعده ، فارتاحل حتى وافى العراق ، ولقي أبي سلمة ، ومن كان معه من الشيعة ، فأخبرهم بما أمره به ، ثم سار إلى خراسان ، ولقي الدعاة بها ، فأخبرهم بذلك»⁽²¹⁾ فسودت شيعةبني العباس حزناً على الإمام محمد ، وكان أول من ليس السواد حريراً مولى خزاعة ، ثم سود قخطبة ابن شبيب⁽²²⁾.

واضطرب حبل الأمن بخراسان بسبب الصراع بين القيسية واليمنية ، وأصبحت الظروف مؤاتية أكثر للدعوة العباسية ، فرقابة السلطة ضفت ، بل قل انعدمت لاشغال نصر بن سيار - وكان والي خراسان - بمحاربة الكرمانى زعيم اليمنية ، فكتب سليمان ابن كثير إلى أبي سلمة الخلال ، ان يكتب إلى الإمام ليرسل إلى خراسان رجلاً من أهل بيته ، فكتب أبو سلمة إلى الإمام بذلك⁽²³⁾. ثم التقى نفر من الدعاة بإبراهيم الإمام بموسم الحج بمكة بينهم : سليمان ابن كثير ولاهز ابن قريظة ومالك ابن الهيثم وخطبة ابن شبيب ، فأمرروه بشأن خراسان ، فقال لهم : «إنّي قد رأيت أنّ أولي هناك أبي مسلم ، لِمَا جرّبت من عقله ، وبلّوت من أمانته ، وأنا موجهه معكم ، فاسمعوا له وأطيعوا أمره ، فإنّ والدي - رحمة الله عليه - كان وصف لنا صفتة ، وقد رجوت أن يكون هو الذي يسوق علينا الملك ،

(20) مصدر نفسه . ص : 337-338 ، ابن العماد الحنفي ، شذرات الذهب - دار المسيرة ط 2 - بيروت

ج : 1 ص : 179 . 1979

(21) أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال . ص : 339 .

(22) مصدر نفسه . ص : 339 .

(23) الطبرى . تاريخ الأمم والملوک ج : 9 ص : 82 وما بعدها .

تعاونوه ، وكافقوه ، وانتهوا الى رأيه وأمره »⁽²⁴⁾.

وأوصى أبا مسلم بأمور تمثل خطة بنى العباس في الوصول إلى السلطة ، فقال له : « يا عبد الرحمن ، إنك رجل منا أهل البيت ، فاحفظ وصيتي ، انظر هذا الحي من اليمين ، فأكرمهم ، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، وانظر هذا الحي من ربيعة ، فإنهم معهم »⁽²⁵⁾.

وانظر هذا الحي من مصر ، فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتيل من شكت في أمره ، ومن وقع في نفسك منه تهمة . فقال : أليها الإمام ، فإن وقع في أنفسنا من رجل هو على غير ذلك ، أحبسه حتى تستبينه ؟ قال : لا ، السيف ، السيف ، لا تتقى العدو بطرف . . . ثم قال له : إنْ استطعت أن لا تدع بخراسان أرضاً فيها عربي فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار ، فاتهمته ، فاقتله ، ولا تحالف هذا الشيخ ، يعني سليمان ابن كثير ، ولا تعصه »⁽²⁶⁾.

شخص أبو مسلم مع الدعاة الى خراسان « فتشمر . . . للدعاء ، وأخذ القوم بالبيعة ، ووجه كُلُّ رجل من أصحابه الى ناحية من خراسان ، فكانوا يدورون بها كَوْرَةً كورة ، ويبدأ بلدًا ، في زي التجار . فاتبعه عالم من الناس عظيم ، فواعدهم لظهوره يوماً سماه ، وولى على من بايعه في كل كورة رجل من اهلها ، وتقدم اليهم بالإستعداد للخروج من ذلك اليوم الذي سماه لهم ، حتى أجاب أرض خراسان ، سهلها وجبلها ، وأقصاها وأدناها . وبلغ (أبو مسلم) ما لم يبلغه من أصحابه أحد من قبله ، واستتب له الأمر على محنته ، وصار من

(24) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ص : 342.

(25) في الطبرى . تاريخ الأمم والملوك : وانظر هذا الحي من ربيعة ، فاتهם في امرهم ج : ٩ ص : 76.

(26) ابن قتيبة . الإمامة والسياسة . ج : 2 ص : 114 والطبرى . تاريخ الأمم والملوك ج : ٩ ص : 76 مع اختلاف في بعض الألفاظ وزيادة « وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني

أعظم الناس منزلًا عند شيعته ، حتى كانوا يتحالفون به ، فلا يحتشون ،
ويذكرونـه ، فلا يملؤنـه .⁽²⁷⁾

ولما تشغل العرب بالفتنة بين اليمنية ومصر ، واستفحـل الصراع بين
الطرفـين ، وبلغ درجة من الحدة لا يسهل معها إيقافـه ، عندهـا ظهر أبو مسلم
على مسرح الأحداث ، وأصبحـت الدعـوة العـباسـية عـلـيـة بعدـ ان كانـت سـرـية ،
فتـداعـى المـخلصـون لـلـبيـت الـأـمـوـي لـرـأـب الصـدـع بـيـنـ المـقـاتـلـيـن ، ولـكـنـ الجـهـود
المـبذـولـة لمـ تـؤـثـرـ أـكـلـهـا ، وأـسـتـمرـ الصـرـاع القـبـلي ، وأـزـادـ تـأـجـجاـعـهـاـعـنـدـماـ جـذـبـ
الـحـلـفـ بـيـنـ الـيـمـنـ وـرـبـيـعـةـ⁽²⁸⁾. وـيـعـودـ السـبـبـ فـيـ ذـلـكـ إـلـىـ تـعـنـتـ نـصـرـ اـبـنـ سـيـارـ
عـاـمـلـ مـرـوـانـ اـبـنـ مـحـمـدـ عـلـىـ خـرـاسـانـ ، فـإـنـهـ أـسـفـرـ الـكـرـمـانـيـ زـعـيمـ الـيـمـنـيـةـ ،
وـسـجـنـهـ ، وـعـنـدـمـاـ فـرـ الأـخـيرـ مـنـ السـجـنـ ، أـبـيـ إـلـاـ إـخـضـاعـهـ ، رـغـمـ تحـذـيرـ الـكـرـمـانـيـ ، إـلـاـ
لـهـ مـنـ خـطـرـ الـمـسـنـوـدـ الـمـطـلـةـ بـرـأـسـهـ⁽²⁹⁾. وـقـدـ نـصـحـ نـصـرـ كـثـيرـ بـمـهـادـنـ الـكـرـمـانـيـ ، إـلـاـ
أـنـ أـبـيـ : مـنـ ذـلـكـ ، أـنـ رـجـلـ دـخـلـ عـلـيـهـ ، فـقـالـ لـهـ : «إـنـ مـرـوـانـ اـبـنـ مـحـمـدـ ، قـدـ
خـالـفـ مـاـ ظـنـ بـهـ النـاسـ وـقـدـ كـانـ رـجـيـ وـأـمـلـ ، وـمـاـ أـرـىـ أـمـرـهـ إـلـاـ وـقـدـ آنـقـضـ ،
وـأـجـرـاتـ عـلـيـهـ الـخـواـرـجـ ، وـآنـقـضـتـ عـلـيـهـ الـبـلـادـ ، وـخـرـجـ عـلـيـهـ ثـابـتـ اـبـنـ نـعـيمـ ،
وـرـأـيـ إـلـاـشـغـالـ بـلـذـاهـةـ ، أـهـمـ عـلـيـهـ ، فـلـوـ أـجـتـمـعـتـ كـلـمـتـكـ مـعـ الـكـرـمـانـيـ ، فـإـنـيـ
خـائـفـ أـنـ يـوـقـعـكـ هـذـاـ الـخـلـافـ فـيـمـاـ نـكـرـهـ ، وـأـنـ شـيـخـ الـعـربـ وـسـيـدـهـاـ ، وـأـرـىـ
وـالـلـهـ فـيـ هـذـهـ الـكـورـ شـيـئـاـ ، وـأـسـمـعـ أـمـوـرـاـ ، أـخـافـ اـنـ تـذـهـبـ اوـ تـذـهـلـ مـنـهـاـ
الـعـقـولـ ، فـقـالـ نـصـرـ اـبـنـ سـيـارـ : وـالـلـهـ ، مـاـ أـتـهـ عـقـلـكـ وـلـاـ نـصـيـحتـكـ . وـلـكـنـ
أـكـفـ عـنـ هـذـاـ الـقـوـلـ ، فـلـاـ يـسـمـعـنـ مـنـكـ ، فـالـتـحـمـ مـاـ بـيـنـ الرـجـلـيـنـ ، وـهـاجـتـ
الـحـرـبـ ، وـتـقـاتـلـوـاـ ، وـجـعـلـتـ رـجـالـ الشـيـعـةـ (شـيـعـةـ بـنـيـ الـعـبـاسـ) تـجـمـعـ فـيـ الـكـورـ
الـأـلـفـ وـالـأـلـفـانـ ، فـيـجـتـمـعـوـنـ فـيـ الـمـسـاجـدـ وـيـتـعـلـمـوـنـ : أـيـ يـتـعـارـفـوـنـ بـيـنـهـمـ ، فـبـلـغـ
ذـلـكـ نـصـراـ ، وـأـغـتـمـ لـذـلـكـ ، وـخـافـ إـنـ وـجـهـ الـيـهـ مـنـ يـقـاتـلـهـمـ ، أـنـ يـنـحـازـوـاـ إـلـىـ
الـكـرـمـانـيـ ، فـلـمـاـ أـسـفـحـلـ أـمـرـ الـقـوـمـ ، وـقـامـ بـأـمـرـهـ أـبـوـ مـسـلـمـ الـخـرـاسـانـيـ ، ثـمـ

(27) أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال ، ص : 343.

(28) مصدر نفسه . ص : 351 وما بعدهـا .

اجتمعوا ، وأظهروا أمرهم ، كتب نصر ابن سيار إلى مروان ابن محمد :

ويوشك أن يكون له ضرراً
وإن الحرب أولها الكلام
أليقاظ أمية أم نيام
فقل قوموا فقد حان القيام
ففري عن حالك ثم قولي
(30) على الإسلام والعرب السلام »

أرى خلل الرماد وميض نار
فإن النار بالعودين تذكي
أقول من التعجب لبيت شعري
فإن كانوا لحينهم نياماً
ففري عن حالك ثم قولي

لكن مروان ، كان مشغولاً بأشخاص ثالثين آخرين ، فلم يستطع نجدة نصر ، وجعل أبو مسلم يحتال العيل لمنع تقارب اليمانية والمضرية ، « يكتب الكتب ، ثم يقول للرسل : مروا بها على اليمانية ، فإنهم يتعرضون لكم ، ويأخذون كتبكم ، فإذا رأوا فيها : فإني رأيت المضرية لا وفاء لهم ، ولا خير فيهم ، فلا تثق بهم ، ولا تطمئن إليهم ، فإني أرجو أن يربك الله في اليمانية ما تحب ، ويرسل رسولاً آخر بمثل ذلك على المضرية . فيقول مر على المضرية ، فكان الفريقيان معه ، وجعل يكتب إلى نصر ابن سيار ، والى الكرمانى : إن الإمام قد أوصاني بكم ، ولست أعدوا رأيه فيكم ، فجعل نصر يقول : يا عباد الله ، هذه والله الذلة ، رجل بين أظهرنا يكتب إلينا بمثل هذا ، لا نقدر له على ضر ولا نفع »⁽³¹⁾.

وافي كتاب نصر ابن سيار الى مروان ابن محمد ، وقد قبض على رسول أبي مسلم الى ابراهيم الإمام ، فرشا مروان الرسول ، وأمره بإيصال الكتاب وكتم الأمر ، وإتيانه بالجواب ، فاطلع عليه ، فأخذ ابراهيم وجماعة من أهل بيته وقتلهم ، وكان في جواب ابراهيم « لعن لأبي مسلم حين ظفر بالرجلين ، ألا يدع

(29) م. ن. ص : 351 وما بعدها .

(30) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج : 2 ص : 114-115 وعيون الأخبار ، ج : 1 ص : 128.

الدينوري الأخبار الطوال ، ص : 357 ، الطيري ، تاريخ الأمم والمملوک ج : 9 ص : 92

الم سعودي . مروج الذهب ، ج : 3 ، ص : 255 ، ابن عبد ربه العقد الفريد ج : 5 ص : 206

(31) ابن قتيبة . الإمامة والسياسة ، ج : 2 ص : 115 .

بخراسان عربياً إلا قتله »⁽³²⁾ وكان في ذيل الكتاب أبيات من الرجز ، منها :

« دونك أمر قد بدت أشراطه إن السبيل واضح صراطه
لم يبق إلا السيف واختراطه »⁽³³⁾

ولما حان الموعد الذي واعد فيه « أبو مسلم أصحابه ، خرج جميع من كان واعده في يوم واحد من جميع كور خراسان ، وقد لبسوا السواد ، وكانوا زهاء مئة ألف رجل ، خاف نصر ابن سيار من انحياز الكرمانى في اليمانية والرابعة اليهم ، « فاراد أن يستعطف من كان مع الكرمانى من ربعة (فقال) :

أَلْيَلْ رِبِيعَةَ فِي مَرْوِ وَإِخْوَتَهَا
مَا بِالْكُمْ تُلْقِحُونَ الْحَرَبَ بِيَنْكُمْ
وَتَشْرُكُونَ عَدُوًا قَدْ أَظْلَكُمْ
لَيْسُوا إِلَى عَرَبٍ مِنَّا فَتَغْرِفُهُمْ
قَوْمًا يَدْبِنُونَ دِينًا مَا سَمِعْتُ بِهِ
فَمَنْ يَكُنْ سَائِلِي عَنْ أَصْلِ دِينِهِمْ
أَنْ يَغْبُسُوا قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ الغَضَبُ
كَانَ أَهْلُ الْحِجَاجَ عَنْ فِيلِكُمْ غَيْبُ⁽³⁴⁾
مِمْنَ تَأْثِبَ ، لَا دِينٌ وَلَا حَسْبُ⁽³⁵⁾
وَلَا صَمِيمَ الْمَوَالِيِّ إِنْ هُمْ نُسِبُوا
عَنِ الرَّسُولِ ، وَلَا جَاءَتِ بِهِ الْكُتُبُ
فَيَانِ دِيَهُمْ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ »⁽³⁶⁾

لكن ربعة لم تحفل بهذا النداء ، واستمررت حلية لليمانية ، « وكان أبو مسلم يحب أن يستميل أحد الرجلين ، ليفصّل به شوكة الآخر ، فارسل الى الكرمانى يسأله أن ينضم اليه ، ليتقم له من نصر ابن سيار ، فعنزم على المسير اليه ، وأقبل أبو مسلم في عساكره الى أرض مرو ، فعسكر على ستة فراسخ من المدينة »⁽³⁷⁾.

(32) مصدر نفسه ، ج : 2 ص : 116. الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 92 المسعودى ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 258.

(33) المسعودى ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 258.

(34) تلحوذونها ، الحجا : العقل وفي المنجد الحجي : العقل ، الحجا . التاحية .

(35) تأدب القوم اختلفوا .

(36) أبو حنيفة الدينوري . الأخبار الطوال . ص : 360 وما بعدها . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج : 5 ص : 207 مع تغير طفيف في الرواية .

(37) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ص : 362

خرج الكرماني الى أبي مسلم ، وخشي نصر على نفسه ، وظن إنْ هو قتل الكرماني ، تفرق شمل اليمن وربيعة ، فأرسل الى الكرماني ، يسأله الرجوع على أنْ يعتزلا ، ويوليا الأمر رجلاً من ربيعة ، وهو ما كان يطالب به الكرماني ، وافق الكرماني ، وخرج من معسكر أبي مسلم ليلاً ، فغدر به نصر ، وأرسل من اغتاله ، فانضم ابن الكرماني علي الى عسكر أبي مسلم ، وطلب اليه الثأر لأبيه من نصر ، وجه أبو مسلم خطبة على رأس جيش الى نصر ، وأمره بمحاربته أو ينبع الى الطاعة فتظاهر نصر بالطاعة ، وفرَّ ليلاً من مرو ، فدخلها خطبة ، وانضم الى أبي مسلم جماعة الكرماني وجماعة نصر ، الا من كره ذلك فخرج هارباً⁽³⁸⁾.

استولى أبو مسلم على خراسان ، وببدأت المدن والأقاليم تساقط الواحدة بعد الأخرى دون مقاومة عنيفة ، وكان مروان قد حشد قواته على الزابين ، فوجه خطبة أبي عون العكي في ثلاثة ألف فارس اليه ، وتوجه مع بقية الجنود نحو واسط ، ليمعن يزيد ابن عمر من إمداد مروان ، فهزم مروان ، وكانت هزيمته نهاية الدولة الأموية⁽³⁹⁾ .

فما هي الأسباب التي مكنت للدعوة العباسية من الانتصار ، واتساع الأمصار الإسلامية ، وما هو الدور الذي لعبه الموالي والعمجم في ذلك ؟

إنَّ أسبابَ انتصارِ الدعوة العباسية عديدة ، ولتكنَّا سنعرض لسبعين برأيي ، أنَّها من أهمِّ الأسباب التي قوضت سلطة الأموية وساعدت الدعوة العباسية على الانتصار ، هما : الصراع القبلي ، والمعاملة القاسية التي أنتهجهَا الأمويون في معاملةِ الموالي .

الصراع القبلي :

وكان الذي هَبَّيَ الصراع القبلي ، أنَّ الكميٰت ، لَمَّا مدح آل البيت ، وقام

(38) مصدر نفسه . ص: 363-362. الطبرى ، تاريخ الأمم والممالك ج: 9 ص: 97-98.

(39) ابن قتيبة . الامامة والسياسة ، ج: 2 ص: 118 وما بعدها .

الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص: 364 - 365 .

عبد الله ابن معاوية ابن عبد الله ابن جعفر ، فجمع له المال ، فأبى أن يأخذه ، طلب إليه عبد الله أن يقول شيئاً، يُغْضِبُ فيه بين الناس « لعلَّ فتنةً تحدث ، فيخرج من بين أصحابها بعض ما تحب ، فابتداً الكميٰت قصيٰدته التي يذكر فيها مناقب قومه من مصر ابن نزار ابن مَعْدَة ، وربيعة ابن نزار ، وإياد وأنمارابني نزار ، ويكثر فيها تفضيلهم ، ويُطْبِقُ في وصفهم ، وأنْهُم أَفْضَلُ من قحطان ، فغضب بها بين اليمانية والزارية . . . وهي قصيٰدته التي أولها :

الَا حُسْنَتِ عَنَا يَا مَدِينَا وَهَلْ نَاسٌ نَقُولُ مُسْلِمِينَا⁽⁴⁰⁾

« وقد نقض دُعْبِل ابن علي الخزاعي هذه القصيدة على الكميٰت وغيرها ، وذكر مناقب اليمان وفضائلها من ملوكها وغيرها ، وصَرَحَ وَعَرَضَ بغيرهم ، كما فعل الكميٰت ، وذلك في قصيٰدته التي أولها :

أَفِيقِي مِنْ مَلَامِكِ يَا ظَعِينَا كَفَاكِ اللَّوْمَ مَرُّ الْأَرْبَعِينَ

... ونمى قول الكميٰت في الزارية واليمانية ، وافتخرت نزار على اليمان ، وافتخرت اليمان على نزار ، وأدلى كل فريق بما له من المناقب ، وتحزبت الناس ، وثارت العصبية في البدو والحضر ، ففتح بذلك أمر مروان ابن محمد الجعدي ، وتصبّه لقومه من نزار على اليمان ، وانحراف اليمان عنه إلى الدعوة العباسية ، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة من بني أمية إلى بني هاشم⁽⁴¹⁾.

وقد أثَّرَ هذا الصراع على الخليفة الأموية نفسها ، حتى صار الخليفة ألعوبة بيد هذا الفريق أو ذاك ، فإذا تغلبت اليمانية ولت أمورياً يحطب في جلها ، وإذا تغلبت المضدية قتلت الخليفة ، وولت آخر يؤيدها .

وكانت بداية اهتزاز العرش الأموي ، أنَّ الوليد ابن يزيد قتل خالد ابن عبد الله القسري ، بسبب مال متوجب عليه أيام كان واليًا على العراق ، وقال يفتخر في ذلك :

(40) المسعودي . مروج الذهب ، ج : 3 ص : 244.

(41) المسعودي . مروج الذهب ، ج : 3 ص : 245.

«شَدْدَنَا مُلْكَنَا بِبَنِي نِزارِ
وَهَذَا خَالَدٌ فِينَا قَتِيلًا
وَلَوْ كَانَتْ بَنُو قَحْطَانَ عَرْبًا
وَلَا تَرْكُوهُ مُسْلِمًا أَسِيرًا
وَلِكِنَّ الْمَذَلَّةَ ضَعْضَعَتْهُمْ
فَلَمْ يَجِدُوا لِلَّذِلِّهِمْ مَقَالًا»⁽⁴²⁾

وكانت نتيجة هذا الشعر أن تأبى اليمنية وتداعت ، فحاربت الوليد ابن يزيد ، وهزمت المضربة ، وأخرجت محمد ابن خالد من سجنه ، وأمرته عليهما ، فباع يزيد ابن الوليد ابن عبد الملك ، وخلع الوليد ابن يزيد ثم قتلها ، ولكن يزيد ابن الوليد ما لبث أن توفي ، وقام بالأمر أخيه ابراهيم ، فتجمعت المضربة وجاشت ، وبایعت مروان ابن محمد الجعدي على أن يطلب بشار الوليد ابن يزيد ، فقام مروان بالأمر ، ودخل دمشق وبایع له الناس ، وهرب محمد ابن خالد إلى الكوفة ، وبقي مختفياً فيها حتى ظهر داعياً للعباسيين⁽⁴³⁾

فكان نتيجة هذا الصراع الذي عمَّ الدولة الإسلامية ، أن ملَّ الناس التقاتل ، وبدأوا يتطلعون إلى منفذ يخلصهم من هذه الحرب القذرة ، أضعف إلى ذلك تهتك بعض الخلفاء الأمويين ، وأنغماسهم باللهو والترف ، مما دفع الكثير من المؤمنين للعمل على نقض سلطانهم .

معاملة الموالي القاسية وردة فعلهم :

لقد مر فيما سبق نماذج من معاملة السلطة للموالي والعمجم ، مما دفع هؤلاء للتطلع إلى حزب أو حركة تخلصهم من نير بنى أمية ، فوجدوا في الدعوة العباسية ضالتهم المنشودة ، «فقد كانوا علوا نفوسهم حين دخلوا في الإسلام بالتساوي مع العرب ، ولكنهم رأوا عوضاً عن ذلك أن مركزهم تدنى إلى درجة الموالي ، وما يرافقها في بعض الأحيان من دفع الجزية المرسومة على غير

(42) ص : 347 - 348

(43) مصدر نفسه . ص : 350 - 367

ال المسلمين . وزاد في نقمتهم شعورهم ، بأنّهم أرقى وأعرق ثقافة من أسيادهم العرب ⁽⁴⁴⁾ زد على ذلك أنّ النزعة القومية الإيرانية بدأت تقوى تحت قناع التشيع ⁽⁴⁵⁾ .

وبعد ، ما هو الدور الذي لعبه الموالي والفرس في تلك الثورة ؟ هل آشتركوا في الثورة ضد العرب ، أم ضد الأمويين ؟ ثم هل كان العامل القومي في تحركهم أقوى من العامل الديني والإجتماعي ؟

للاجابة عن هذه الأسئلة ، لا بد من العودة الى بداية الدعوة العباسية ، لنرى مقومات نجاحها ، فنجد أنَّ للعباسيين فضلٍ أقتطاف ثمرة قد غرس شجرتها غيرهم ، فلواء التشيع لآل بيت الرسول ، قد حمله العلويون طويلاً ، وضحوا من أجله الكثير ، وصراع اليمن ومضرر خطط له عبد الله ابن معاوية والكميت الشاعر ، فأفرز من الحروب والفتن ما كان من الأسباب المباشرة لدُكُّ السلطان الأموي ، والنقطة على الأمويين ، كانت عامة في مختلف الأمصار الإسلامية ، بسبب الحروب والفتن الداخلية ، وأنغمس الخلفاء في الصراعات المحلية ، وأصبح الناس يتطلعون الى منقذ ، ينهي مرحلة الالاستقرار في المجتمع الإسلامي ، فلا العرب يريدون استمرار سلطان بنى أمية ، ولا العجم يرغبون في ذلك ، فالحال العامة والظروف السياسية والإجتماعية تعمل لصالح العباسين . ففضب الفرس والموالي على بنى أمية أحد العوامل المهمة ، لكنه ليس العامل الوحيد الحاسم في هذا الصراع . وإنَّ ما يثير الدهشة حقاً ، هو نجاح الشعوبين بتصوير الدولة العباسية وكأنها دولة أعمجية . وأظن أنَّ الهدف من ذلك هو الوصول الى القول : بأنَّ الحضارة العباسية ما كان لها أنْ تصل إلى ما وصلت إليه ، لو لا هم الفرس والموالي ، أو إنَّها صورة متطورة للحضارة الساسانية . وقد بدأت تلك المحاولة بالوضع والدس على أقوال الزعماء العباسيين الأوائل ، كتلك الوصية التي نُسبَّت الى إبراهيم الإمام عندما وجه أبا مسلم الخراساني الى

(44) فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج : ١ : ٣٥٤.

(45) مرجع نفسه . ج : ١ : ص : ٣٥٤.

خراسان ، وقد أكَدَتْ السيدة قدورة وضعها وتابعت رأي الدوري ، الذي شك فيها وبير ذلك الشك بأسباب منها : ضعف الدعوة آنذاك ، والتناقض بين الطلب بمحو العرب ، وخطب ود اليمنية ، لأن نجاح الدعوة متوقف عليهم ، وهم من العرب ، وشيخ الدعوة كانوا من العرب أيضاً⁽⁴⁶⁾ . وأرى أنه أولى بالشك من ذلك خطبة قحطبة ابن شبيب في أهل خراسان ، وهم على وشك قتال الأمويين ، فقد نسب إليه قوله : « يا أهل خراسان . هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين . . . حتى بدلوا وظلموا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم ، وسلط عليهم أذلّ أمة كانت في الأرض عندهم ، فغلبوا عليهم على بلادهم ، وأستنكحوا نساءهم ، واسترقوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويوفون بالعهد ، وينصرُون المظلوم ، ثم بدلوا وغيروا وجاروا في الحكم ، وأخافوا أهل البر والتقوى من عترة رسول الله (ص) فسلطكم عليهم ، ليستقم منهم بكم ، ليكونوا أشدّ عقوبة ، لأنكم طلبتموهם بالثار ، وقد عهد إلي الإمام ، أنكم تلقونهم في مثل هذه العدة ، فينصركم الله عز وجل عليهم ، فتهزمونهم ، وتقتلونهم »⁽⁴⁷⁾ .

فهل يعقل أن يقول مثل هذا الكلام عربي؟ إن التحرير في هذه الخطبة ليس موجهاً لحزب ضد آخر ، إنما هو موجه لأمة ضد أمة أخرى ، ومنطق الأحداث والعصر ، يدفعنا للشك فيها ، فالصراع له واجهة دينية واقتصادية

(46) زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 75 وما بعدها . إن مفهومعروبة أثناء الدعوة العباسية لم يكن واحداً سواء بالنسبة للعجم أو العرب . فبالنسبة للعجم ، كانت العروبة ترتبط ارتباطاً كلياً بالإسلام ، حتى أن البعض يعتبر المسلم عربياً وإن كان من غير العرب .

(47) انظر الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 3 ص : 196-197 . أما العرب أنفسهم ، فكانت العروبة أحياناً لا تعنى أكثر من قبيلة او مجموعة قبائل ، فعبادة ابن الحارث ، لم يعتبر يمانية من العرب ، فقال في الحرب التي كانت بخراسان بين الأزد ومصر : الأزد رأيتها عزت بمروه وذلت العرب فجاز الصفر لما كان ذاك وبهرج الذهب الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 9 ص : 75 وعليه فقد يكون إبراهيم الإمام قد عنى بكلمة العرب مضر أنصار مروان ابن محمد الجعدي .

(47) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 9 ص : 106 .

وسياسية ، وخطبة عربي لا شك في عروبه ، وأمراء جنوده من العرب ، وجنوده من العرب والعجم ، فلو صحت هذه الخطبة ل كانت خلقة بأن تسبب الإنقسام داخل جيشه . بل كيف يصرّ بهذه الأفكار وقد قال قبلها « يا أهل خراسان أندرون الى من تسرون ؟ ومن تقاتلون ؟ إنما تقاتلون بقية قوم حرقوا بيت الله عز وجل »⁽⁴⁸⁾ فهل كل العرب شاركوا في حرق بيت الله ؟ .

لقد بالغت السيدة قدورة حين رأت أنَّ خطبة من غير المعقول أنْ يقول هذه الخطبة في جيش معظم من العرب ، ورأت أنَّ الروح المعنوية للعرب في خراسان قد ضعفت⁽⁴⁹⁾ ولم تشک في هذه الخطبة مع أنها أولى بالشك من وصية إبراهيم الإمام ، والعرب في خراسان لم تضعف معنوياتهم ولم يقبلوا تحكم الموالي بهم ، حتى بعد انتصار الشعوبية ، وتمكنها من ناصية الدولة العباسية في سنة المائة والتسعين بعد الهجرة ، فقد خرج رافع ابن نصر ابن سيار مغاضباً بأرض خراسان ، وكان سبب خروجه ، أنَّ عيسى ابن ماهان لما ولّ خراسان ، أساء السيرة ، وتحامل على من كان فيها من العرب ، وأظهر الجور ، فخرج عليه رافع ، فواقعه وقعت ، ثمَّ انحاز فيمن معه من أهل خراسان ، وكانوا زهاء ثلاثة ألفاً إلى سمرقند وأقام بمديتها ، ولما بلغ الرشيد ذلك عزل ابن ماهان ، وولى هرثمة ابن اعين⁽⁵⁰⁾ . فخراسان فيها من العرب مثل ما فيها من العجم ، ولفظة أهل خُراسَان تشمل الطرفين ، فمستحبيل والحال هذه أنَّ يوجه خطبة مثل هذه الخطبة في أهل خراسان .

إنَّ مثل هذه الأخبار والروايات جاءت نتيجة تلك الدعاية الأموية ، التي كانت تصوّر الدعوة العباسية ، وكأنها ثورة فارسية ، لعلها تستطيع تأليب العرب ، وتجييشهم لصالحها ، يظهر ذلك في قصائد نصر ابن سيار ، ورسالة عبد الحميد

(48) مصدر نفسه . ج : 9 ص : 106.

(49) زاهية قدورة ، الشعوبية واثرها . ص : 80.

(50) أبو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 391.

الكاتب بلسان مروان والتي يقول فيها : « فلا تتمكنوا من ناصية الدولة العربية ، يد الفئة العجمية »⁽⁵¹⁾.

استفاد الشعويون فيما بعد من هذه الدعاية ، فزادوا فيها ولفقوا الأخبار والإدعاءات ، وصوروا الثورة العباسية ، وكأنها ثورة الفرس على العرب⁽⁵²⁾.

هذه الأمور نقلها بعض المؤرخين ، وبني عدد من المستشرقين ، عليها ظاهرة لا تمت الى الواقع بصلة وثيقة ، فاعتبر خودابوش (Khuda Buhsh) : أن العباسيين إنما انتصروا بسيوف أهل خراسان ، وبقيادة أبي مسلم الخراساني⁽⁵³⁾. وأما برandon وهارت ، فقد اعتبرا أن معركة الزاب كانت ثاراً لموقعه القادسية ونهاوند⁽⁵⁴⁾ فهل ما ذهب إليه هؤلاء كان صحيحاً؟ .

إن الدعاية العباسية عربية الأصل ، وال Abbasians عرب أيضاً ، وأداة الدعاية الأولى كانت عربية ، صحيح أن الدعاية نمت واتسعت في خراسان ، وأن الرياحيات السود رفعت أول ما رفعت فيها ، ولكنها لم تكن عجمية خراسانية صرفة ، وأهل خراسان - كما بينا - كانوا من العرب والعمجم ، والعنصر العربي في خراسان كان له شأنه ، يظهر ذلك في عدد النقائـع العربـ ، وكذلك أمراء الجيش ، فإنـ إذا آتـنـاـ أباـ مـسلمـ الـخرـاسـانـيـ وخـالـدـ اـبـنـ بـرـمـكـ ، قـلـماـ نـجـدـ قـائـدـ بـارـزـاـ مـنـ الـموـالـيـ فيـ تـلـكـ الـفـتـرـةـ . وـقـائـدـ مـعرـكـةـ الـزـابـ كانـ عـربـياـ صـلـبيـاـ ، فـكـيفـ تكونـ تـلـكـ الـمـعرـكـةـ ثـارـاـ لـمـعرـكـةـ قـدـ سـقـتهاـ؟

إن دوافع عديدة جعلت الخراسانيين ينضمون للدعوة العباسية ، والدافع القومي كان بين تلك الدوافع ما من ذلك شك ، لكنه لم يكن قوياً للدرجة التي يحاول البعض تصويرها . بل إن الأسباب الاقتصادية والإجتماعية والدينية كانت

(51) عبد الحميد الكاتب ، رسالة عبد الحميد ص : 221 (رسائل البلغاء) القاهرة 1946.

(52) البيروني ، الآثار الباقية عن الفرون الخالية لبيزغ 1878 ص : 212 وما بعدها .

Khuda Buhsh, The Orient Under the Caliphs, P. 339 (53)

Browne, Literary History of Persia, P. 247. (54)

Huart, Histoire des Arabes, P. 286.

أقوى منه ، وقد لاحظ ذلك الدوري ، فقال : إن جل المنضمين الى الدعوة العباسية ، كانوا من العامة ، وهناك مجموعات من الأشراف أيدتها ، خاصة في منطقة خراسان ، وبينهم الدهاقين نبلاء القرى والمناطق ، وقد عهد اليهم العرب بجباية الضرائب في قراهم ، أو مناطقهم ، كما كانوا يفعلون في العصر الساساني ، ولذا كانت لهم امتيازات إجتماعية واقتصادية وقد خسر الدهاقين امتيازاتهم نتيجة التنظيمات المالية التي وضعها نصر ابن سيار في أواخر العصر الأموي ، ذلك لأنَّه فرض الخراج على الأرض مهما كان مالكها ، وأبقى الجزية على أهل الذمة ، وأحلَّ هذا النظام محل الضريبة الواحدة التي كانت تفرض على الأفراد ، كنوع من الجزية ، والتي كان الدهاقين وأعوانهم يتخلصون منها ، فتقطع على العامة ، وهذا يعني أنَّ جل الضريبة صار على الدهاقين لا العامة . فأنقلب الدهاقين في السنين الأخيرة على الأمويين وانضم كثير منهم الى الدعوة العباسية «⁽⁵⁵⁾».

فالحال الإقتصادية والأمور المعيشية هي التي كانت تفرض نفسها على الناس وتحدد مسلكيتهم قبل كل شيء ، والدهاقين وهم الطبقة الممتازة في المجتمع الفارسي ، لم تناصر الدعوة العباسية ، إلا بعد أن رأت مصلحة اقتصادية في ذلك .

أما الشعوبية بمعناها الإصطلاحية ، فإنها لم تبرز بعد ، ورؤساء الدعوة العباسية حريصون على تجنب كل ما يثير الإنقسام بين أتباعهم ، وعندما حاول عيسى ابن ماهان أن يثير فتنة من هذا النوع بين أبي مسلم الخراساني وأبي داود العربي ، ضرب على يده ، وكان جزاءً فعله قتله ، فقد « ظهر أبو مسلم بستة عشر كتاباً وجدها من عيسى ابن ماهان إلى كامل ابن مظفر صاحب أبي مسلم ، يعيَّب فيها أبا داود ، وينسبه فيها إلى العصبية ، وإثارة العرب وقومه على غيرهم من أهل الدعوة ، وأنَّ في عسكره ستة وثلاثين سرادقاً للمستامة ، فبعث بها أبو مسلم إلى أبي داود ، وكتب إليه : أنَّ هذه كتب العلوج الذي صيرته عدل

(55) الدوري ، الجنور التاريخية للشعوبية ص : 19

نفسك ، فشأنك به ، فكتب أبو داود إلى عيسى ابن ماهان ، يأمره بالانصراف إليه عن بسام (وكان في محاربته) ، فلما قدم عليه ، حبسه ، ودفعه إلى عمر النعم ، وكان في يده محبوساً ، ثم دعا به بعد يومين أو ثلاثة ، فذكره صنيعته به ، وإيشاربه إيه على ولده ، فأقر بذلك ، فقال أبو داود : فكان جزاء ما صنعت بك أن سعيت بي ، وأردت قتلي ، فأنكر ذلك ، فأخرج كتبه ، فعرفها ، فضربه أبو داود يومئذ حدين ، أحدهما للحسن ابن حمدان ، ثم قال أبو داود : أما إنني قد تركت ذنبك لك ولكن الجناد أعلم ، فأخرج في القيد ، فلما خرج من السرادق ، وثبت عليه حرب ابن زياد وحفص ابن دينار مولى يحيى ابن حصين ، فضربه بعمود وطبرزين ، فوقع إلى الأرض ، وعدا عليه أهل الطالقان وغيرهم ، فدخلوه في جوالق ، وضربوه بالأعمدة حتى مات «⁽⁵⁶⁾».

فهذا عقاب من كان يحاول إثارة فتنه بين العرب والموالي من أنصار الدعوة العباسية حتى ولو كان من القادة ، فكيف إن كان من غيرهم ؟

وأبو مسلم نفسه لم يؤثر عنه تعصب على العرب أو للعجم ، وهو نفسه كان يدعى أنه من عجل ، ومن الناس من كان يرى أنه من العرب⁽⁵⁷⁾ ، وعندما خرج إلى الحج « كان . . . يصلح العقاب ، ويكسو الأعراب في كل منزل ، ويصل من سائله ، وكسا الأعراب البتُوت⁽⁵⁸⁾ ، والملاحف ، وحفر الآبار ، وسهل الطرق ، فكان الصوت له ، فكان الأعراب يقولون : هذا المكنوب عليه »⁽⁵⁹⁾ .

وخلالصة القول : أنَّ الثورة العباسية مهدت للموالي عامة ، والفرس خاصة ، فشعروا بكيانهم وقدرتهم على الفعل بالأحداث ، وشارك كبراؤهم في تسيير دفة السلطة ، فأصبحت لديهم الجرأة بالجهر بآرائهم ، وما يضمرون من

(56) الطبرى . تاريخ الامم والملوك . ج : 9 ص : 152 .

(57) المسعودي . مروج الذهب . ج : 3 ص : 254 .

(58) البتُوت : ثوب غليظ

(59) الطبرى . تاريخ الامم والملوك . ج : 9 ص : 159 .

أعداء للعرب والعروبة ، وأخذت الشعوبية تبلور كتivar فكري له أنصار في كل مكان في السلطة وخارجها .

وبعد أن عرضنا لنوعية العلاقة بين العرب وجيرانهم في الجاهلية ، ولعلاقتهم مع الموالى في العهدين الراشدي والأموي ، يمكننا أن نوجز الأسباب التي مهدت وساعدت في تبلور الفكرة الشعوبية كما يلي :

الهاجس القومي والشعور بالقهر :

فإسلام لم يغز المجتمعات الأخرى ابتداءً بالفكر ، إنما غزاها بالسيف ، ودمر أمجادها ، وسي أهلها ، وقوض حضارتها ، وفرض قيمه ومثله على أهلها . فكان طبيعياً أن تحاول تلك الشعوب التخلص من الاحتلال يحدوها أمل كبير باستعادة أمجادها وبعث تراثها من جديد .

الموروث الحضاري :

إن الشعوب المجاورة للعرب ذات حضارات عريقة متقدمة نسبياً على الحضارة الجاهلية ، ولم يكن أحد يتوقع أن العرب سينطلقون من صحرائهم لتدمر الإمبراطورية الساسانية ، وانتزاع أفضل الأقاليم من الإمبراطورية البيزنطية ، ويمرر الوقت أفاق ت ذلك الشعوب من صدمة الهزيمة ، وراحت تقارن بين حضارتها وحضارة العرب ، وتعتقد أنها الأولى والأجدar بقيادة الدولة الجديدة إن لم يكن بالمستطاع إعادة العرب إلى الصحراء .

الدين :

كان الدين وخاصة لدى الفرس ، مرتبطة ارتباطاً متيناً بمفهوم الأمة ، لذلك لم يستطع الفرس أن يعتبروا المسلم غير عربي حتى ولو كان فارسياً⁽⁶⁰⁾ وكان

(60) الطبرى . تاريخ الامم والملوک ج : 3 ص : 196 - 197 .

الحنين الى الماضي ، الى الدولة القومية مقرروناً بالحنين الى الدين القديم ، خاصة وإن الداخلين في الإسلام ، لم يعتنقوه في أحيان كثيرة إلا بدوافع إقتصادية او اجتماعية . وكان اعتناقهم للإسلام يمثل إحباطاً آخر ، فحالهم في الإسلام ليس أفضل بكثير من حالهم قبله والعودة الصربيحة الى الدين القديم لا تعني إلا النهاية⁽⁶¹⁾ ، فظاهروا بالإسلام ، وأضمروا غيره .

الإِقْتَصَاد :

لقد تمركزت الثروة في مقر الخلافة والحاواضر العربية الأخرى ، وأصبح العرب يمثلون الطبقة الغنية الممتدة بكل الإمتيازات الاجتماعية والاقتصادية . أما الموالي وغيرهم من طبقات الشعب ، فكانوا فقراء كادحين مما دفع الموالي إلى ترك القرى والرحيل إلى الحواضر طمعاً بالراحة والثروة ، ولكن حالهم في الحواضر لم تكن أفضل من حالهم في الأرياف ، إضافة إلى العديد من التدابير التعسفية التي أخذت بحقهم⁽⁶²⁾ .

السِّيَاسَة :

تمركزت السلطة بأيدي العرب طيلة العهدين الراشدي والأموي ، واستبعد غير العرب خاصة في العهد الأموي ، مما ساعد على توسيع الهوة بين العرب وغيرهم من الشعوب ، ودفع الموالي والأعاجم إلى العمل بكل الوسائل المتاحة للنيل من السلطان العربي .

(61) عقوبة الإرتداد عن الإسلام القتل إذا لم يتوب المرتد .

(62) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 329 - 330 ، وفيه انقم الحجاج من الموالي لمشاركتهم في ثورة ابن الأشعث ، فأسقط ديوانهم وفرق جماعتهم ، ونقش على يد كل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها .

لم يكن من الممكن إذاً في ظل الأمويين أنْ ينشط الموالي والأعاجم صراحة للمطالبة بحقهم ، والجهر بدعواهم ، فلجأوا إلى الحركات والأحزاب المعارضة للبيت الأموي أملاً بتسوية أوضاعهم ، أو خلق فرص جديدة تساعدهم في تحقيق غاياتهم . وقد ناضلوا في صفوف المعارضة التي كانت تدعو للعدل والمساواة بين المسلمين ، فاشتركوا في ثورات الخوارج ، كما اشتركوا في ثورات ابن الزبير والعلويين وابن الأشعث وغيره . وسُنحت لهم الفرصة فعملوا في الدعوة العباسية ، وتصدروها تنظيراً وتنظيمًا وقتالاً ، ونجحوا بنجاحها ، فكان منصب الوزير لهم لا يكاد ينزعهم عليه أحد ، فأحسوا بقوتهم وذلتهم على الدولة الجديدة التي كانت برأيهم مدينة لهم بكل شيء . وإذا كان يأسهم من السلطان الأموي هو الدافع الرئيسي لهم إلى أحضان المعارضة ، فقد عانوا من السلطان العباسي خيبة أمل مريرة ، تمثل بالصراع الذي كان ينشب من حين لآخر بين الوزير الفارسي وال الخليفة العربي ، والذي كان يحسم في الأغلب لصالح الخليفة ، أضاف إلى ذلك أنَّ الصراع على الخلافة لم يهدأ . فالعلويون يدعون بأحقيتهم فيها ، والعباسيون يتسبّلون بها . في ظل هذه الظروف ظهرت الشعوبية في المجتمع الإسلامي لتعلن بدء مرحلة جديدة من الصراع بين العرب وغيرهم من الشعوب بشكل عام ، وبينهم وبين الفرس بشكل خاص .

الباب الثاني :

الشعبية والبعد الديني

الفصل الأول : الزندقة وتلازمها مع الشعوبية

- الأديان الفارسية في العراق وفارس قبل الإسلام

- الزندقة وتلازمها مع الشعوبية

- تغلفل الزندقة في المجتمع العباسي

الشهمية والبعد الديني

لعب الدين دوراً مهماً في حياة الأمم عبر العصور ، وكان غالباً الأساس الذي تقوم عليه الدول ، والدولة العربية ، شأنها شأن مثيلاتها ، نشأت نشأة دينية ، وكان الإسلام الرابط الموحد للقبائل العربية ، والبوتفقة التي انصرفت فيها النوازع المختلفة ، والداعي للفتح ورفع راية الجهاد . وترافق الصراع العسكري في سبيل تثبيت أقدام الدولة في الأقاليم المفتوحة مع الصراع الفكري والعقائدي لنشر الدين الجديد . ولthen كان انتصار السيف العربي الإسلامي حاسماً وسريعاً ، فإنَّ انتصار الدين الإسلامي ، لم يكن سريعاً أو سهلاً ، فقد واجه من العقبات والأزمات الداخلية والخارجية الكثير مما جعل انتشاره بطيناً قياساً بـإنتصار العسكري الذي أحرزه العرب .

ولقد واجهت شعوب البلدان المفتوحة الدعوة الإسلامية في أشكال مختلفة : فئة آمنت بالإسلام إيماناً عميقاً ، فحسن إسلامها وأسهمت بنشر الإسلام ودرسه والدفاع عنه . وفئة أخرى آمنت بالإسلام إيماناً ظاهراً لحماية مصالحها المعنوية ، أو الاقتصادية ، وبقيت على إيمانها القديم ، تسرّه ، ولا تعلنه خوفاً من السلطان . وفئة ثالثة تشتبّه بدين الآباء والأجداد ، وحاوّلت بعثه في فترات مختلفة عبر ثورات دموية ، انتهت بالفشل وزعماؤها بالموت . وكان أخطر هذه الفئات ، الفئة التي أظهرت الإسلام ، وأسرّت غيره ، وانطلقت تعمل بالظلم بعيدة عن رقابة السلطة والمسلمين ، على هدم الإسلام وتقويض أركانه وبث الفرقة في صفوف أتباعه ، إيماناً منها بأنَّ الإسلام هو القوة الحقيقة التي استطاع

بها العرب قهرهم وأبناء جنسهم وملتهم ، محاولين بذلك الكيد للإسلام والدولة التي تقوم على أساسه ، ليتسنى لهم إعادة بعث أمجادهم وأديانهم .

وتوزع نشاط هذه الفتنة مختلف الميادين ، للوصول الى هدف واحد ، تقويض الدولة وزعزعتها ، عبر هدم الأساس الأول الذي قامت عليه : الإسلام .

فشطت في الأحزاب السياسية ، واستطاعت أن تبتعد بداعياً مختلفة ، تشوه الدين ، وتبتعد به عن مساره الصحيح عن طريق تمويهات عقائدية مختلفة ، ظاهراً إسلامي وباطناً مجوسياً أو مزيجاً من ديانات أخرى . وشرعت في الوضع والكذب على الرسول ، بهدف تخريب أحد مصادر التشريع الإسلامي وبث الشكوك حوله⁽¹⁾ .

كما مارست دوراً تشكيكياً مخرباً ، فشك البعض بوحدانية الخالق عز وجل ، وأنكر البعض النبوة ، وحاول البعض الآخر نقض القرآن الكريم .

لم يقف المسلمون مكتوفي الأيدي أمام هذه الحملات المتعددة التي كانت تُشنّ على دينهم ، فتحولوا الى دعاة لله ومبشرين بالإسلام ومناظرين ومجادلين لأصحاب الديانات والمملل الأخرى . ووقفت السلطة - يساندها جمهور المسلمين - بحزم في وجه المخبرين والمشككين ، ففشلت بذلك جميع المحاولات أن تناول من الدين الإسلامي او تحدّ من نشاطه وتغلغله بين الناس .

الأديان الفارسية في العراق وفارس قبل الإسلام

لا بد لنا قبل البحث في البدع الدينية او الحديث عن الزندقة والزنادقة من أن نلقي نظرةً سريعةً على الأديان التي كانت سائدةً في سواد العراق وبلاد فارس وببلاد ما وراء النهر ، لأنَّ جُلَّ من اتهمَ بالزنادقة أو اعتقدها كان على أحد هذه الأديان أو على مزيج منها . كما أنَّ أصول كثير من البدع الإسلامية جاء عن طريقها أو بتأثيرها .

(1) لقد ساعد هذه الفتنة أفراد كثيرون كانوا يعيشون بهذه الطريقة .

وهي الديانة القومية للفرس ، وقد آمن المجروس بآصلين ، الأول : النور ، والثاني الظلمة ، قالوا : إنَّ النور أَزْلِيٌّ ، والظلمة محدثة⁽²⁾. وقالوا : إنَّ للعالم مدبرين يقتسمان الخير والشر والتفع والضر ، يسمون أحدهما النور (يزدان) والأخر الظلمة (أهر من) . وسائلهم تدور على مسالتين : الأولى كيفية امتزاج النور والظلمة والثانية كيفية تخلص النور من الظلمة . وإذا كان امتزاج النور بالظلمة مبدأ العالم ، فإنَّ تخلص النور من الظلمة معاده⁽³⁾ .

وال مجروس فرق ثلات :

أ- الكيورثية :

أصحاب المقدم الأول (كيورث) قالوا بالإثنين : « يزدان وأهر من » . وعن سبب وجود العالم ، قالوا : إنَّ يزدان فَكَرَ في نفسه لو كان له منازع كيف يكون ؟ فكان من هذه الفكرة أهر من ، فجاشت الحرب بين يزدان وأهر من ، حتى توسط الملائكة ، وكانت الهدنة ، وزعموا : أنَّ النور خَيْر الناس ، فاختاروا مقاتلة الشر والظلمة ، واشتربطوا النصرة من يزدان ، وعندما يتصر الإنسان على الظلمة تكون القيمة⁽⁴⁾ .

ب- الزروانية :

وهم الذين قالوا : إنَّ النور أبدع أشخاصاً نورانيةً روحانيةً ، لكنه شَكُّ في شيء من الأشياء ، فحدث أهرمن بسبب هذا الشك . وقال بعضهم : إنَّ زروان الكبير زرم زستة آلاف وتسعمائة وتسعاً وتسعين سنة ليكون له ابن ، فلم يكن ، فشك بالعالم ، فحدث أهرمن وهو في اعتقادهم أخوه هرمز ، والإثنان أبناء لزروان

(2) الشهر ستاني ، الملل والنحل / تحقيق محمد الكيلاني - دار المعرفة ، بيروت - 1980 ج : 1 ص : 233.

(3) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 232 .

(4) م . ن . ج : 1 ص : 233 - 234 .

الكبير ، وإن هرمز كان خيراً صالحاً ظاهراً ، وأهرمن كان فاسداً شريراً . وبعدهم الآخر زعم أن أهرمن لم ينزل مع الله . وزعم بعضهم : أن الشيطان كان خارجاً عن سلطان الله ، فاحتال حتى دخل سلطنته ، فخلق الله هذا العالم شبكةً له ، فهو محبوس فيها يطغى عباد الله⁽⁵⁾.

ج - الزرادشتية :

وهم أصحاب زرادشت ابن يوراشب أحد أنبياء المجروس « وكان دينه عبادة الله ، والكفر بالشيطان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر واجتناب الخبائث »⁽⁶⁾ وكان يقول بأصلين متضادين : النور والظلمة ، وهما مبدأ موجودات العالم ، وإن الله تعالى خالقهما ومبدعهما ، وإنَّه واحد لا شريك له ، ولا ند ، ولا ضد ، ولا يجوز أن يُنْسَبَ إليه وجود الظلمة ، كما قالت الزروانية . ولهم كتاب يدعى المجروس أنه أنزلَ عليه ، يسمى « زنداؤستا »⁽⁷⁾ ، ومن المجروس الزرادشتية ، طائفة يقال لها : السيسانية أو البها فريدية ، نسبة إلى رئيسهم سيسان ، خرج في أيام أبي مسلم الخراساني ، وكان في الأصل زمزيمياً ، يعبد النيران ، لكنه ترك ذلك ، ودعا المجروس إلى ترك الرزمه وعبادة النيران ، وأمرهم بإرسال شعورهم ، وحرم عليهم الأمهات والبنات والأخوات ، وحرم شرب الخمر ، ودعا للسجود ناحية الشمس على ركبة واحدة ، وترك أكل الميتة ، ودعاهم أن لا يذبحوا الحيوان حتى يهرم ، وأصحابه أعدى خلق الله لل مجروس الزمامزة . شakah موبذ المجروس إلى أبي مسلم ، فقتله على باب جامع نيسابور⁽⁸⁾ . ولم تنتشر المجروسية إلا في بلاد الفرس⁽⁹⁾.

(5) الشهريستاني ، الملل والنحل ج : 1 ص 234 وما بعدها

(6) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 237 .

(7) م.ن. ج : 1 ص : 237-238 .

(8) م. ن. ج : 1 ص : 238-239 .

(9) الجاحظ ، الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون / المجمع العلمي ،

ط 3 - بيروت 1969 ج : 5 ص : 325 وما بعدها .

ومن الشنوية من قال « بتanax الأرواح في الأجساد ، والانتقال من شخص الى شخص ، وما يلقى الإنسان من الراحة والتعب والدقة والنصب ، فمرتب على ما أسلفه من قبل ، وهو في بدن آخر جزء على ذلك . والإنسان أبداً في أحد أمرين إما في فعل وإما في جزاء ، وما هو فيه : فإنما مكافأة على عمل قدمه ، وإنما عمل يتنتظر المكافأة عليه . والجنة والنار في هذه الأبدان ، وأعلى علينا درجة النبوة ، وأسفل السافلين : دركة الحياة »⁽¹⁰⁾.

المانوية :

هم « أصحاب ماني ابن فاتك ، الذي ظهر في زمان سابور ابن أردشير وقتلته بهرام ابن هرمز ابن سابور ، وذلك بعد عيسى ابن مرريم عليه السلام . أحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية ، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام »⁽¹¹⁾. وقد جاء في كتابه المعروف بالشابور قان ، وهو الذي ألفه لسابور ابن أردشير : « أنَّ الحكمة والأعمال هي التي لم يزل رسول الله يأتون بها في زمن دون زمن ، فكان مجิئهم في بعض القرون على يدي الرسول الذي هو البد إلى بلاد الهند . . . ثم نزل هذا الوحي ، وجاءت هذه النبوة في هذا القرن الأخير على يدي أنا ماني ، رسول الله الحق إلى أرض بابل ، وذكر في إنجيله الذي وضعه على حروف الأبجد الإثني والعشرين حرفاً ، أنه الفارقليط ، الذي يبشر به المسيح ، وأنه خاتم النبيين ، وأخبر عن كون العالم وهيته بما يضاد نتائج البراهين والدلائل ، ودعا إلى ملك عوالم النور والانسان القديم ، وروح الحياة ، وقال بقدم النور والظلمة وأزليتها ، وحرم ذبح الحيوان وإيذامه ، وإيذاء النار والماء والنبات على أبلغ وجه . وشرع نواميس يفترضها الصديقون ، وهم أبرار المانوية وزهادهم ، على أنفسهم، من إيثار المسكنة وقمع الحرص والشهوة ، ورفض الدنيا ، والزهد فيها ، ومواصلة الصوم والتصدق بما

(10) الشهستاني ، الملل والنحل ج : ١ ص : 253 - 254.

(11) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 244 وما بعدها .

امكن ، وتحريم اقتناء شيء خلا قوت يوم واحد ، ولباس سنة ، وترك السفاد ، وإدامة التطواف في الدنيا ، للدعوة والإرشاد . . . ولما ظهر «كثُر مصدقوه وأتباعه» ، وألف كتاباً كثيرةً ، كإنجيله ، والشابر - قان ، وكنز الأحياء وسفر الجبارية ، وسفر الأسفار ، ومقالات كثيرة ، زعم فيها أنه بسط ما رمز به المسيح⁽¹²⁾ وكان قد نُفي إلى الهند ، فأخذ عنها نحلة التناصح⁽¹³⁾.

العزديّة :

هم « أصحاب مزدك » (ابن همدادان من أهل نسا ، وكان موبدان موبيذ ، أي قاضي القضاة ، في أيام قباذ ابن فيروز ، وخالق زرادشت في كثير من مذهب)⁽¹⁴⁾ ، ودعا قباذ إلى مذهبها ، فأجابه ، وأطلع أنوشروان على خزبه وافتراه فطلبه ، فوجده ، فقتلته⁽¹⁵⁾. قوله المزدكية كقول المانوية في الأصلين القديمين ، إلا أنَّ ما يميز مزدك عن المانوية قوله : « إنَّ النور يفعل بالقصد والإختيار . والظلمة تفعل على الخبط والإتفاق . والنور عالم حساس . والظلماء جاهل أعمى »⁽¹⁶⁾.

وكان مزدك ينهى عن المبالغة والقتال ، وأحل النساء والأموال ، ويقال إنَّ قباذ اشترط عليه إحلال النساء ، لأنَّه اشتهر امرأة ابن عمِه ، فأحل لها مزدك⁽¹⁷⁾.

الدبيصانية :

وهم أصحاب ديان - قالوا بأصولين : النور والظلمة . وقالوا : إنَّ النور

(12) البيروني ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ص : 207 - 208.

(13) البيروني ، تحقيق ما للهند ، حيدر آباد 1958 ج : 1ص : 41 ، ص : 29.
ابن النديم ، الفهرست / دار المعرفة - بيروت 1978 ص : 458 - 459.

(14) البيروني ، الآثار الباقية ص : 209.

(15) الشهرستاني ، الملل والنحل ج : 1 ص : 249.

(16) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 249.

(17) البيروني ، الآثار الباقية ص : 209.

يُفْعَلُ الْخَيْرُ قَصْدًا وَالْخِتَارًا ، وَالظَّلَامُ يُفْعَلُ الشَّرُّ طَبْعًا وَاضْطَرَابًا⁽¹⁸⁾.

وَدِيَصَانُ هَذَا قَبْلُ مَانِي ، وَمَذَهْبُهُ قَرِيبٌ مِنْ مَذَهْبِهِ ، وَخَلْفُ الْمَذَهَّبِينَ ، فِي اخْتِلاطِ النُّورِ بِالظَّلْمَةِ ، فَالْدِيَصَانِيَّةُ طَائِفَةٌ : طَائِفَةٌ قَالَتْ : إِنَّ النُّورَ مَا زَجَ الظَّلْمَةَ بِالْخِتَارَه لِيَصْلِحَهَا ، فَامْتَنَعَتْ عَلَيْهِ ، وَأَرَادَ الْخُروجَ ، فَلَمْ يَقْدِرْ . وَطَائِفَةٌ قَالَتْ : إِنَّ النُّورَ أَحَسَّ بِخُشُونَةِ الظَّلْمَةِ ، فَأَرَادَ دُفْعَهَا عَنْهُ ، وَكَانَ كَلَمًا دُفْعَهَا عَنْهُ ، ازْدَادَتْ وَلْوَجَأَ فِيهِ⁽¹⁹⁾.

المرفيئية :

« أَصْحَابُ مَرْقِيُونَ : أَثَبْتُوا أَصْلَيْنَ قَدِيمَيْنَ مُتَضَادَيْنَ : أَحَدُهُمَا النُّورُ وَالثَّانِي الظَّلْمَةُ . وَأَثَبْتُوا أَصْلَأً ثَالِثًا ، هُوَ الْمُعْدَلُ الْجَامِعُ ، وَهُوَ سَبَبُ الْمَزَاجِ ، فَإِنَّ الْمُتَنَافِرَيْنَ الْمُتَضَادَيْنَ لَا يَمْتَजِجُانِ إِلَّا بِالْجَامِعِ . وَقَالُوا : إِنَّ الْجَامِعَ دُونَ النُّورِ فِي الْمَرْتَبَةِ ، وَفَوْقَ الظَّلْمَةِ ، وَحَصْلَ منِ الإِجْتِمَاعِ وَالْإِمْتَاجِ هَذَا الْعَالَمُ⁽²⁰⁾ »
وَاخْتَلَفُوا فِي الْكَوْنِ الثَّالِثِ مَا هُوَ ! فَزَعَمَتْ طَائِفَةٌ : أَنَّ عِيسَى رَسُولُ ذَلِكَ الْكَوْنِ الثَّالِثِ أَوِ الْمُعْدَلِ . إِلَّا أَنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ مُحَدَّثٌ « وَأَنَّ الصُّنْعَةَ بَيْنَ نَيْهِ ، لَا يَشْكُونَ فِي ذَلِكَ . . . وَهُمْ يَسْتَرُونَ بِالنَّصَارَانِيَّةِ⁽²¹⁾ ».

الزندقة

الزندقة في الأصل لفظة فارسية ، كانت تُطلَقُ على صنيع من يؤولون كتاب زرادشت بِمَا يُخَالِفُ ظَاهِرَ نصوصه . وقد نعموا بها دعوة ماني وأتباعها⁽²²⁾.

(18) الشهريستاني ، الملل والنحل ج 1: ص 250.

(19) ابن النديم ، الفهرست ص 474.

(20) الشهريستاني ، الملل والنحل ج 1: ص 252.

(21) ابن النديم ، الفهرست ص 474 - 475.

(22) خيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ص 79.

وتتطور مدلول هذه اللفظة في العصور الإسلامية ، بحيث شمل كل من تظاهر بالإسلام ، وأسرَّ غيره من الأديان ، كما أطلقت اللفظة على الملاحدة ، والمجان والشكاك .

وقد رأى الأستاذ أحمد أمين : أنَّ هذه اللفظة كانت تدور في العصر العباسي الأول على معان٤ أربعة :

« 1 - التهتك والإستهتار والفحجور مع تبجح في القول ، يصل أحياناً إلى ما يمس الدين ، ولكن قائله ، لم يقله عن نظر ، وإنما قاله عن خلاعة ومجون .

2 - أتباع دين المجوس . وخاصة دين ماني مع التظاهر بالإسلام ، كالذى اتهم به الأشين ، والذي اتهم به بشار وحماد وابن المقفع .

3 - أتباع دين المجوس ، وخاصة « ماني » من غير تظاهر بالإسلام ، كالذى يرويه الجاحظ عن كتب الزنادقة .

4 - ملحدون لا دين لهم ، كالذى يحكى المعري ، ولكن يظهر أنَّ الكلمة أكثر ما كانت تطلق على من اعتنق المانوية باطنًا والإسلام ظاهراً ، ثم توسعوا في معناها على الإباحي ، والملحد الذي لا دين له »⁽²³⁾ .

والزنادقة بهذا المفهوم ، لم تكن حكراً على الفرس ، ولا وليدة العصر العباسي ، وإنْ ظهر نشاطها ، وكثُرَّ أتباعها في هذا العصر . فقد قال أبو العلاء « ولا ملة ، إلا ولها قوم ملحدون ، يرون أصحاب شرعهم أنهم موالفون ، وهم فيما بطئ مخالفون ، ولا بد من أنْ ينهتك مخادع وتبدو من الشر جنادع . وقد كانت ملوك فارس تقتل على الزنادقة والزنادقة الذين يسمون الدهرية ، ولا يقولون بنبوة ولا كتاب »⁽²⁴⁾ .

غير أنَّ الزنادقة في الحياة الإسلامية ، قبل العصر العباسي ، كانت ضعيفة ،

(23) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : ١ ص : ١٥٤ - ١٥٥ .

(24) أبو العلاء المعري ، رسالة المفران ص : ٢١ .

خافية ، لا تكاد تظهر ، لأن السلطان الإسلامي في أوجه ، والعرب المسلمين يمسكون زمام السلطة بحزم ، أما في العصر العباسي .. وقد شارك غير العرب في سلطتهم ، وخاصة الفرس ، وتنفس الشعوبية ، ونشطت ، لتشيّت أقدامها في السلطة الجديدة ، فقد تحركت ربيتها الزندقة ، وفشت ، ونمّت في أحضانها ، حتى قلَّ من أئمِّهم بالشعوبية ، ونادى بها إلَّا وكان زنديقاً .

ودوافع الزندقة مختلفة ، والتوازع إليها متعددة ، فمن الناس من آمن بالإسلام ، لكنه أصيَّبَ بخيئة أهل في تطبيقه ، وأصابته عدو الشعوبية ، والتعصب للتعجم على العرب ، وكرههم ، وكل ما يمت اليهم بصلة ، بما فيه الدين ، وقد لاحظ الجاحظ العلاقة الوثيقة بين الشعوبية والزندقة ، فقال « إنَّ عامة من ارتتاب بالإسلام ، إنما كان أول ذلك على رأي الشعوبية ، والتمادي فيه ، وطول الجدال المؤدي إلى القتال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإنَّ أبغض تلك اللغة ، أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تتنقل به ، حتى ينسُلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانت السلف والقدوة »⁽²⁵⁾ .

وطائفة انتقلت إليها الزندقة والشعوبية ، عن طريق الثقافة ، كجماعة الكتاب الذين وصفهم ابن قتيبة بقوله « أبعد غایيات كتابنا في كتابته ، أنْ يكون حسن الخط ، قويم الحروف ، وأعلى منازل أدبينا أنْ يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة ، أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أنْ يطالع شيئاً في تقويم الكواكب ، وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق ، ثم يعرض على كتاب الله بالطعن ، وهو لا يعرف معناه ، وعلى حدِّيث رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالتكذيب ، وهو لا يدرِّي من نقله ، قد رضي عوضاً من الله ومما عنده ، بأنَّ يقال : فلان لطيف ، وفلان دقيق النظر ... ولكنه طال عليه ، أنْ ينظر في علم الكتاب ، وفي أخبار الرسول (ص) وصحابته ، وفي علوم العرب ولغاتها

(25) الحافظ ، الحيوان ج : 7 ص : 220

وأدابها ، فنصب لذلك وعاده ، وانحرف عنه الى علم سلمه له ولأمثاله المسلمين ، وقل فيه المتناظرون «⁽²⁶⁾».

وهذه الزندة زندة ثقافية كما ترى ، سببها انغماس طائفة الكتاب بثقافة غير إسلامية ، تعينهم في مهنتهم ، فتأتى لهم الزندة عن طريقها . وقد فطن قوم من الزنادقة لضعف ثقافة الكتاب الإسلامية ، فكانوا ينشرون فيهم نحلهم وشوكهم ، حتى أن بعض الكتاب تباهى في إحدى رسائله بعدم نجاح المضللين في تضليله ، فقال : « ونحن نحمد الله إليك ، فإن عقدة الإسلام في قلوبنا صحيحة ، وأواخيه ثابتة ، ولقد اجهد قوم أن يدخلوا قلوبنا من مرض قلوبهم ، وأن يلبسوا يقيننا بشكهم ، فمنعتنا عصمة الله منهم ، وحال توفيقه دونهم »⁽²⁷⁾ .

وأسهم انتشار علم الكلام ، وكثرة الجدال بين أصحاب الفرق المختلفة والديانات المتباعدة ، في إذكاء روح الشك والريبة في حقيقة الأديان وصدقها . وقد صور الجاحظ بعض نتائج هذا الجدل ، خاصة بين النصارى والمسلمين ، فقال : « على أن هذه الأمة ، لم تبتل باليهود ، ولا المجوس ولا الصابئين . كما ابتليت بالنصارى ، وذلك إنهم يتبعون المتناقض ، من أحاديثنا ، والضعف بالإسناد من روایتنا ، والمتشابه من آي كتابنا ، ثم يخلون بضعفنا ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة والملاعين ، وحتى مع ذلك ربما تبرؤا إلى علمائنا وأهل الأقدار منا ، ويشغبون على القوي ، ويلبسون على الضعيف »⁽²⁸⁾ .

« وقوم دعاهم إلى التزندق شك في الأديان ، والقول بسلطان العقل إلى أقصى حدوده فهم لا يريدون أن يؤمنوا إلا بما يرون بأعينهم ، ويحكمون العقل

(26) ابن قتيبة ، ادب الكاتب ، تحقيق محمد عي الدين عبد الحميد ط 4 - مصر
1963 ص : 2 - 3 .

(27) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 1 ص : 325 .

(28) الجاحظ ، رسالة الرد على النصارى ، (ثلاث رسائل) - القاهرة ، بدون تاريخ ص : 19 - 20 .

حتى فيما ليس للعقل فيه مجال ، فنبذوا الأديان جملة ، ودعوا إلى الإلحاد⁽²⁹⁾ ، كما أنَّ مجموعة من الأدباء والشعراء ، انساقت وراء الخمرة والمجون ، وتهالكت على اللذة ، وأظهرت السخرية من المجتمع وقيمه ومثله ، بما فيها الدين .

أساليب الزنادقة في عرض آذكارهم :

كان الزنادقة يتخيرون لكتابتهم الورق النقي الأبيض ، والجبر الأسود البراق ، ويعملون على إجاده الخط في كتابهم ، وينفقون المال لمن يخط ، وغایتهم في ذلك إغراء الناس في قراءتها ، لعلهم يتشكرون ، فيقعوا في شباكها⁽³⁰⁾ . وقد وصف الجاحظ هذه الكتب بالقول « وليس في كتابهم مثل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ولا حكمة غريبة ، ولا فلسفة ولا مسألة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحة ولا تدبير حرب ، ولا مقارعة عن دين ، ولا مناصلة عن نحلة »⁽³¹⁾ وعليه فالمضمون غير نافع لبني البشر في دنيا أو دين لأنَّه لا يحتوي إلَّا ذكر النور والظلمة والعفاريت والخرافات . وفيه دعوة للإيمان بهذا المضمون لا عن طريق النظر والإستبصر وإنما عن طريق التسليم الأعمى لكل ما جاء به من ترهات وأباطيل ، وأماماً الألفاظ التي أكثروا استعمالها وشاعت في كتابهم فهي « التناكح ، والنتائج والمزاج والنور والظلمة والدفاع والمنع ، والسائر ... »⁽³²⁾ إلى ما هنالك من ألفاظ .

وانطلق الزنادقة يكيدون للإسلام ، ويبحكون « لذوي السلامة في القلوب من كتابهم ، ما لم يخلق الله منه شيئاً ، لا قليلاً ولا كثيراً ، فصدقوهم وكتبوها عنهم مغتررين بتفاهمهم ، وتركوا ما عندهم من الكتاب الحق ، لأنَّ قلوب العامة الى

(29) احمد امين ، ضحي الاسلام ج : 1 ص : 155 .

(30) الجاحظ ، الحيوان ج : 1 ص : 55 .

(31) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 57 وما بعدها .

(32) م . ن . ج : 3 ص : 366 .

الغرافات أميل »⁽³³⁾ وانطلق أصحاب ماني من الزنادقة يشككون الناس في الواحد الأول من جهة التعديل والتجوير ، وزينوا لهم الإنغمس في مذهبهم ، وحببوا إليهم صورة ماني وسيرته ، أضف إلى ذلك ما انتشر من « المكاييد اليهودية ، فصار رأياً منسوباً إلى الإسلام »⁽³⁴⁾.

موقف السلطة العباسية من الزنادقة :

إنَّ موقف السلطة العباسية من الزنادقة لم يكن واضحاً في البداية ، وكان فيه شيء من التساهل ، والإهمال ، ولما أحس الخليفة بخطورة الزنادقة وأهدافها ، ونقمَّة جمهور المسلمين على أصحابها ، تجرد للزنادقة وأتباعها ، ونصب لهم الأرصاد ، وجرد فيهم السيف ، لكنهم مع ذلك لم يهدأوا ، ولم يخفقوا من نشاطهم ، والسبب عندي : أنَّ الزنادقة نمت في أحضان الشعوبية ، وترعرعت على يديها ، واستترت بها كلما أحسست بالخطر ، والسلطان العباسي ، وإن حارب الزنادقة ، فإنَّا لم نسمع أنه قتل إنساناً ، أو عاقبه على شعوبية أو عصبية عرقية . وملائحة الزنادقة لم تكن بنفس النشاط في عهود الخلفاء جميعاً.

فأبُو العباس الخليفة العباسي الأول ، لم يكن موقفه من هذه الفئة واضحاً ، نظراً لاهتمامه بتركيز أسس الدولة الناشئة . وحاول المنصور استخدامهم لأغراضه السياسية ، فوجه مع محمد ابن أبي العباس « بالزنادقة والمجان ، فكان فيهم حماد عجرد ، فأقاموا معه بالبصرة ، يظهرون منهم المجنون ، وإنما أراد بذلك أنْ يبغضه إلى الناس . . . وكان الخصيب يظهر النصرانية ، وهو زنديق معطل ، لا يبالي من قتل ، فأرسل إليه المنصور رسولاً ، يأمره أن يتوكى قتل محمد ابن أبي العباس »⁽³⁵⁾ ولما أيقن عبد الكرييم ابن أبي العوجاء بالموت ، وقد قبض عليه ، قال : أما والله ، لئن قلتمنوني ، لقد وضعت أربعة آلاف حديث ، أحقر فيها

(33) البيروفي ، تحقيق ما للهند ، ج : 1 ص : 219.

(34) البيروفي ، تحقيق ما للهندج : 1 ص : 220.

(35) الطبرى . تاريخ الإمام والملوك . ج : 9 ص : 308 - 309.

الحل ، وأحل الحرام ، وله ، لقد فطرتكم في يوم صومكم ، وصومتكم في يوم فطركم »⁽³⁶⁾ ، وبالرغم من هذا الاعتراف ، فقد غضب المنصور من واليه لقتله دون إذن منه وهو أن يقيله به ، لولا خوفه من الرأي العام⁽³⁷⁾ وكلامه عن الرواوندية ، وقد زعمت أنه رب العزة ، يدل على أن المنصور مهتم بالدرجة الأولى بما يثبت دعائين سلطانه ، متساهل في كل ما لا يمس هذا السلطان .

وفي عصر المهدي ازداد نشاط الزنادقة ، وعظم خطورهم ، وازدادت النقمه الشعبية عليهم . فحاول المهدي أن يتقرب لله والناس في دمائهم وأحدث لذلك جهازاً خاصاً على رأسه صاحب الزنادقة ، « وأمعن في قتل الملحدين ، والمداهنين ، عن الدين ، لظهورهم في أيامه ، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ، لما انتشر من كتب ماني وابن ديسان ، ومرقيون ، مما نقله عبد الله ابن المقفع وغيره ، وترجمت من الفارسية والفارسية إلى العربية ، وما صنعه في ذلك ابن أبي العوجاء ، وحماد عجرد ، ويحيى ابن زياد ، ومطیع ابن إیاس ، من تأیید المذاهب المتنانية والديصانية والمرقیونیة ، فکثـر بذلك الزنادقة ، وظهرت آراءـهم في الناس ، وكان المهـدي أول من أمر الجـدلـيين من أهل الـبحـثـ من المـتكلـمـين ، بتـصنـيفـ الكـتبـ عـلـىـ الـملـحـدـينـ . . . منـ الـجـاحـدـينـ وـغـيرـهـ ، وأقامـواـ الـبـراـهـينـ عـلـىـ الـمـعـانـدـينـ ، وأزالـواـ شـبـهـ الـمـلـحـدـينـ ، وأوضـحـواـ الـحـقـ لـلـشـاكـينـ »⁽³⁸⁾ .

« وجـدـ المـهـديـ فيـ طـلـبـ الزـنـادـقـةـ فيـ الـآـفـاقـ ، وأـكـثـرـ الفـحـصـ عـنـهـ ، وـقـلـ طـائـفةـ »⁽³⁹⁾ . وـصـرـفـ هـمـتـهـ فيـ تـبـعـهـ وـمـصـادـرـ كـتـبـهـ ، وـتـمـزـيقـهـاـ »⁽⁴⁰⁾ .

وـالـحـقـ أـنـهـ صـرـفـ مـدـةـ وـلـايـتـهـ فيـ تـعـقـبـهـ ، وـإـقـتـصـاصـ مـنـهـ ، فـأـهـلـكـ طـائـفةـ كـبـيرـةـ ، وأـوـصـىـ خـلـفـهـ وـابـنـهـ الـهـادـيـ فيـ تـبـعـهـ وـقـتـلـهـ وـذـكـرـ لـهـ صـفـاتـهـ ، فـقـالـ :

(36) مصدر نفسه . ج : 9 ص : 286 - 287 .

(37) البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 97 .

(38) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 315 .

(39) الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 262 .

(40) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 8 ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص :

75 ، الحنبلي ، شذرات الذهب ج : 1 ص : 257 .

«يا بني ، إن صار لك هذا الأمر ، فتجرد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعى الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للأخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ، ومس الماء للظهور ، وترك قتل الهرام تحرجاً وتحوياً ، ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : أحدهما النور والأخر الظلمة ، ثم تبيع بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والإغتسال بالبول ، وسرقة الأطفال من الطريق ، لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية التور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد السيف ، وتقرب بأمرها الى الله لا شريك له ، فإني رأيت جدك العباس في المنام ، قلدني بسيفين ، وأمرني بقتل أصحاب الإثنين»⁽⁴¹⁾.

فلمما ولـي الـهـادـي تـابـع مـسـلـك أـبيـهـ في طـلـب الزـنـادـقـة⁽⁴²⁾. واشتـد طـلـبـهـ لـهـمـ ، فـقـتـلـ مـنـهـ جـمـاعـةـ ، فـكـانـ مـنـهـ قـتـلـ مـنـهـ يـزـدانـ اـبـنـ يـاذـانـ كـاتـبـ يـقطـنـ وـابـهـ عـلـيـ اـبـنـ يـقطـنـ مـنـ أـهـلـ النـهـرـ وـانـ ، ذـكـرـ عـنـهـ آـنـ حـجـ ، فـنـظـرـ إـلـىـ النـاسـ فـيـ الطـوـافـ ، يـهـرـوـلـونـ فـقـالـ : مـاـ أـشـهـبـهـ إـلـاـ يـقـرـ تـدـوـسـ فـيـ الـبـيـدرـ ، وـلـهـ يـقـولـ الـعـلـاءـ ابنـ الحـدـادـ الأـعـمـيـ :

يا أمين الله في خلقه	وارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى في رجل كافر	يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ما سعوا	حمرة تدوس البر والدوسر ⁽⁴³⁾

فـقـتـلـهـ مـوـسـىـ ثـمـ صـلـبـهـ . . . وـقـتـلـ مـنـ بـنـيـ هـاشـمـ يـعـقـوبـ اـبـنـ الـفـضـلـ . . . وـكـانـ الـمـهـدـيـ أـتـيـ بـاـيـنـ لـدـاـوـدـ اـبـنـ عـلـيـ زـنـدـيـقاـ ، وـأـتـيـ بـيـعـقـوبـ اـبـنـ الـفـضـلـ اـبـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ اـبـنـ عـبـاسـ اـبـنـ رـبـيـعـةـ اـبـنـ الـحـارـثـ اـبـنـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ زـنـدـيـقاـ فـيـ مجلـسـينـ مـتـفـرـقـينـ ، فـقـالـ لـكـلـ وـاحـدـ مـنـهـماـ كـلـامـاـ وـاحـدـاـ ، وـذـلـكـ بـعـدـ آـنـ أـفـرـاـ لـهـ بـالـزـنـادـقـةـ ، آـمـاـ يـعـقـوبـ اـبـنـ الـفـضـلـ ، فـقـالـ لـهـ : أـفـرـ بـهـاـيـنـيـ وـبـيـنـكـ ، فـأـمـاـ آـنـ أـظـهـرـ ذـلـكـ عـنـ النـاسـ ، فـلـاـ أـفـعـلـ ، وـلـوـ قـرـضـتـنـيـ بـالـمـقـارـيـضـ ، فـقـالـ لـهـ : وـيـلـكـ ، لـوـ كـثـيـرـتـ لـكـ

(41) العبرى ، تاريخ الام والملوك ، ج : 10 ص : 42.

(42) الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج: 1 ص : 269.

(43) الدوسر : الرؤان

السموات ، وكان الأمر كما تقول ، كنت حقيقةً أنْ تعصب لمحمد ، ولو لا محمد (ص) من كنت؟ هل كنت إلا إنساناً من الناس؟ أما والله لو لا إني كنت جعلت لله عهداً إذ ولاني هذا الأمر إلا أقتل هاشميًّا لما ناظرتك ، ولقتلتك ، ثم التفت إلى موسى الهادي ، فقال : يا موسى : أقسمت عليك بحقي ، إنْ وليت هذا الأمر بعدِي ألا تناظرهما ساعة واحدة»⁽⁴⁴⁾.

ولما ولَّ هارون الرشيد سلك سبيل أبيه وأخيه ، إلا أنَّ وطأته عليهم كانت أخف ، فقتل منهم جماعة كيونس ابن أبي فروة ويزيد الفيض⁽⁴⁵⁾ . لكنه تساهل مع علي ابن الخليل الشاعر وأجازه وقربه⁽⁴⁶⁾ ويقال إنه نكب البرامكة لأنهم بازندقة⁽⁴⁷⁾.

وقتل أنس ابن أبي شيخ المحدث ، وكان صديقاً لجعفر ابن يحيى البرمي⁽⁴⁸⁾ بتهمة الزندقة ، وفي ذلك يقول الشاعر :

« تلمظ السيف من شوق الى أنس
فالموت يلحظ والأقدار تنتظر
حتى يؤامر فيه رأيك القدر
أمضى من السيف إلا عند قدرته وليس للسيف عفو حين يقتدر »⁽⁴⁹⁾

ولما مات الرشيد ، ولَّ ابنته محمد الأمين ، قضى سني خلافته في محاربة أخيه المأمون ، وبعد انتصار الأخير واستباب سلطانه ، تابع سيرة من قبله من الخلفاء ، واستعمل سلاح المناظرة والإقناع ، إضافة إلى السيف ، لكنه لم يسلم هو نفسه من أنْ يُرمى بهذه التهمة ، فقد ذكر ابن النديم أنه قرأ بخط بعض أصحاب أهل المذهب : « أنَّ المأمون كان منهم » لكنه استبعد التهمة⁽⁵⁰⁾ .

(44) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 23 – 24.

(45) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 50.

(46) أبو الفرج الأصفهانى ، الأغاني ، دار صعب ، مصورة عن طبعة بولاق ج : 3 ص : 14.

(47) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 1 ص : 51.

(48) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 131.

(49) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 473.

ويروي المسعودي أنه أدخل على المأمون عشرة من الزنادقة ، امتنعوا عن التوبة فأمر بقتلهم⁽⁵⁰⁾.

لكن المهم لعهد المأمون ، ليس قتل الزنادقة ، وإنما منحهم الحرية في الجدل والمناظرة والدفاع عن آرائهم ومشاركته بهذا الجدل ، وإفحامه رؤسائهم ، فقد رأى : أنَّ القتل والقمع يُوجِّهُ هذِهِ النَّحْلَةَ بِدَلْ أَنْ يَمْتَهِنَ . فاستعمل سلاح العقل والمناظرة في الدفاع عن الدين⁽⁵¹⁾ من ذلك أنَّ المأمون قال للمرتد الخراساني⁽⁵²⁾ : « أخبرني ، ما الذي أوحشك مما كنت به آنساً من ديننا ؟ فوالله لأنَّ أستحبِّيك بحقِّ أَحَبِّي إِلَيْيَّ مِنْ أَنْ أَفْتَلَكَ بحقِّ ، وقد صرت مسلماً بعد أنْ كنت كافراً ، ثم عدت كافراً بعد أنْ صرت مسلماً ، وإنَّ أخطاك الشفاء ونبأ عليك الدواء ، كنت قد أبليت العذر في نفسك ولم تقصِّر في الإجتهد لها ، فإنَّ قتلناك ، قتلناك في الشريعة ، وترجع أنت في نفسك إلى الإستبصار واليقين ، ولم تفرط في الدخول من باب الحزم . قال المرتد : أوحشني منكم ، ما رأيتم من الاختلاف في دينكم . قال المأمون : لنا اختلافان : أحدهما كاختلافنا في الأذان ، والتکبير في الجنائز وصلاحة العيددين والتشهد ، والتسليم من الصلاة ، ووجوه القراءات ، واختلاف وجوه الفتيا ، وما أشبه ذلك ، وهذا ليس باختلاف ، وإنما تخbir وتوسيعة وتحفيض من السنة ، فمن أذن مثني وأقام مثني لم يأثم ، ومن ربَّع لم يأثم ، والإختلاف الآخر ، كنحو اختلافنا في تأویل الآية من كتاب الله ، وتأویل الحديث عن نبينا ، مع اجتماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر ، فإنَّ كان إنما أوحشك هذا ، فينبغي أن يكون اللفظ بجميع التسورة والإنجيل متفقاً على تأویله ، كما يكون متفقاً على تنزيله ، ولا يكون بين اليهود

(50) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 9.

ابن حجة ، ثمرات الاوراق في المحاضرات - بيروت 1952 ج : 1 ص : 220 — 221

(51) انظر مناظرات المأمون للزنادقة في ابن قبيبة ، ميون الاخبار ج : 2 ص : 152 — 154 ابن النديم ، الفهرست ، ص : 273.

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 196 — 197.

(52) وكان هذا الرجل قد اسلم على يدي المأمون ، فحمله معه الى العراق ، لكنه عاد فارتد عن الاسلام .

والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات ولو شاء الله أن ينزل كتبه مفسرة ، ويجعل كلام أنبئائه ورسله لا يختلف في تأويله ، لفعل ، ولكن لم نجد شيئاً من أمور الدين والدنيا وقع إلينا على الكفاية إلا مع طول البحث والتحصيل والنظر ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحن ، وذهب التفاضل والتباين ، ولما عرِفَ الحازم من العاجز ، ولا الجاهل من العالم ، وليس على هذا بنت الدنيا . قال المرتد : أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنَّ المُسِيحَ عبد الله ، وأنَّ محمدًا صادق ، وأنكَ أمير المؤمنين »⁽⁵³⁾.

واستقدم المأمون أبا علي رجاء يزدانبخت من الري وكان من رؤساء الزنادقة « بعد أن أمنه ، فقطعه المتكلمون ، فقال له المأمون : أسلم يا يزدانبخت ! فلولا ما أعطيناك إيه من الأمان لكان لنا ولك شأن ! فقال له يزدانبخت : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة ، وقولك مقبول ! ولكنك من لا يجبر الناس على ترك مذاهبيهم ، فقال المأمون أجل »⁽⁵⁴⁾.

هذه الحرية التي أعطاها المأمون ، دفعت الزنادقة لتنشيط حركتهم ، فظهرت الخرمية ، وتزعمها بابك الذي استفحلا أمره طيلة ما بقي من عصر المأمون ، وقضى عليه المعتصم بعد حروب كثيرة ؛ كلفت الدولة والأمة الكثير من الرجال والأموال ، وكانت السبب في محاولة الأفшиين قلب الدولة وإحياء دين العجم⁽⁵⁵⁾.

ورث الخلافة عن المأمون أخوه المعتصم ، وثورة بابك لم تهدأ بعد ، فبذل جهوداً جباراً للقضاء عليها ، وُفق في نهايتها الأفшиين بالقضاء على بابك وأسره وأخاه ، وقدم بهما سامراء⁽⁵⁶⁾ ولم يكِد الأفшиين ينهي هذه الثورة ، حتى قلب له المعتصم ظهر المجن ، واتهمه بالزنادقة ومحاولة قلب الدولة وتغيير رسومها ،

(53) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 197 — 198 .

(54) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 473 .

(55) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 61 .

(56) أبو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 403 وما بعدها .

وعقد له لأجل ذلك محاكمة طويلة للتشهير به ، وتبير قتله . وقد سبقت هذه التهمة مقدمات وأسباب ، أسهمت في البعد بين الرجلين ، ومهدت لهذه المحاكمة منها :

– إن الأفшин نقم على أبي دلف العجلي ، وهو مضموم اليد بأشياء ، فلما ظفر بيابك شكا أبا دلف للمعتضم ، وسأله ليأمره به ، ففعل ، فكان احمد ابن أبي دؤاد مت指控اً لأبي دلف ، فحاول إبعاد التهمة عن أبي دلف وتبير مخالفته للأفشنين ، لأن الأفشنين ، كان يعتمد مطاولة بابك ، فينفق الأموال ، ويتبسط في الأعمال ، فغرس في نفس المعتضم غرسة شك بالأفشنين⁽⁵⁷⁾.

– إن عبد الله ابن طاهر ، كان يغري المعتضم بالأفشنين ، ويكتب له عن تسيير الأفشنين للأموال إلى أشروسنة ، وقد صادر بعضها في بعض المرات ، فقد هدأ الأفشنين عليه ، وكان الأخير يسمع من المعتضم ما يدل على أنه ي يريد عزل عبد الله عن خراسان ، فطمع الأفشنين في ولائها ، وكاتب مازيار يحرضه على الخروج ظناً منه أن المعتضم يعزل عبد الله ويوليه خراسان وقاتل المازيار⁽⁵⁸⁾.

– وكان من مجرد أحد ولاة الأفشن: وأقربائه ، قد خرج قبل ذلك ، فتحقق المعتضم أمر الأفشنين ، وتغير له⁽⁵⁹⁾.

– اضطُعنَّ أَحْمَدَ ابْنَ أَبِي دُؤادَ عَلَى الأَفْشِينِ بِسَبَبِ أَبِي دَلْفِ الْعَجْلِيِّ فَأَوْغَرَ صَدْرَ الْمُعْتَضِمِ عَلَيْهِ بِجَمْلَةِ تَهْمَةٍ مِنْهَا: أَنَّهُ أَغْرَى، وَيَطْأُ امْرَأَةَ عَرَبِيَّةَ، وَأَنَّهُ كَاتِبُ الْمَازِيَّارِ وَزَيْنُ لِهِ الْعَصَيَانِ⁽⁶⁰⁾ وَانْضَافُ إِلَيْ ذَلِكَ تَهْمَةٌ أَعْظَمُ، وَهِيَ أَنَّهُ حَوَّلَ أَنْ يَصْنَعَ طَعَاماً مَسْمُوماً، يَدْعُوا إِلَيْهِ الْمُعْتَضِمِ وَوَجْهَهُ قَوَادِهِ⁽⁶¹⁾.

(57) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، تحقيق الشالجي ، دار صادر- بيروت 1978. ج : 2 ص : 71.

(58) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 510.

(59) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 510.

(60) محمد كرد علي ، رسائل البلقاء ، ص : 265.

(61) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 349 وما بعدها .

وقائع محاكمة الأفшиين :

حُوكمَ الأفшиين بحضور محمد ابن عبد الملك الزيات وأحمد ابن أبي دؤاد وإسحاق ابن ابراهيم وغيرهم من الأعيان وكان المناظر له ابن الزيات ، وقد أتُهم بعدة تهم :

1 - أنه ضرب رجلين من الص福德 ، بنيا مسجداً ، فكان الأول مؤذن المسجد ، والثاني إمامه ، كل رجل ألف سوط حتى عرى ظهراهما من اللحم . وقد برر الأفшиين صنيعه هذا ، بأنَّ بينه وبين ملك الص福德 عهداً وشرط أنْ يترك كل قوم على دينهم ، وأنَّ هذين الرجلين قد وثبا على بيت فيه أصنام أهل أشرفية ، فأخرجنوا الأصنام ، وجعلوه مسجداً .

2 - أنَّ في حيازته كتاباً محلَّى بالجوهر فيه كفر بالله تعالى . ودافع الأفшиين عن التهمة بقوله : « هذا كتاب ورثه عن أبي ، فيه أدب من آداب العجم ، وما ذكرت من الكفر ، فكنت أستمتع منه بالأدب ، وأترك ما سوى ذلك ، ووجدته محلَّى ، فلم نضطرني الحاجة إلىأخذ الحلية منه فتركته على حاله ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك في منزلك فما ظننت أنَّ هذا يخرج من الإسلام »⁽⁶²⁾ .

3 - أنه أتُهم بأكل المخنوقه ، وأنَّه يزعم أنها أرطبه من المذبوحة ، وأنَّه يقتل كل يوم أربعاء شاة سوداء ، يضرب وسطها بالسيف ، ثم يمشي بين نصفيه ، ويأكل لحمها .

4 - أنه ترك الإختتان . وكان قد وجه له هذه التهمة والتي قبلها أحد الموابدة ، فقال الأفшиين « خبروني عن هذا الذي يتكلم بهذا الكلام ، ثقة هو في دينه ؟ - وكان الموبد مجوسياً - قالوا : لا ، قال : فما معنى قبولكم شهادة من لا تثقون به ولا تُعدُّلونه ؟ ثم أقبل على الموبد ، فقال : هل كان بين متزلي ومنزلتك كوة أو باب تطلع علي منها ، وتعرف أخباري ؟ قال : لا ، فقال : أفليس كنت أدخلك علي ، وأبيك سري ، وأخبرك بالأعجمية وميلي إليها وإلي أهلها ؟ قال :

(62) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 366.

نعم ، قال : فلبيت بالثقة في دينك ، ولا بالكريم في عهلك ، إذا أفشيت سراً أسررته إليك »⁽⁶³⁾.

5 - قبوله مكتابة أهل اشروسنة اليه بما تفسيره بالعربية : الى إله الآلهة من عبده فلان ابن فلان . فدافع الأفшиين هذه التهمة ، بأن القوم كانوا يكتبون بذلك لإبيه وجده وله قبل دخوله الإسلام ، بهذه الطريقة ، فكره أن يضع نفسه دونهم ، فيفسدوا عليه .

6 - وأحضر المازيار ، فاقرَّ أنَّ أخَا الأفшиين ، كتب إلى أخيه قوهيار : « إنَّه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيري وغيرك وغير بابك ؛ فأماماً ببابك ، فإنه بحمقه قتل نفسه ، ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت ، فأبى حمقه إلا أنْ دلَّاه فيما وقع فيه ، فإنَّ خالفت ، لم يكن للقوم من يرمونك به غيري ، ومعي الفرسان وأهل النجدة والباس ، فإنَّ وَجَهْتُ اليك ، لم يبقَ أحدٌ يحاربنا إلَّا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراء . والعربى بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ، ثم اضرب رأسه بالدبوس ، وهو لاءُ الذباب (يعنى المغاربة) ، إنَّما هم أكلة رأس ، وأولاد الشياطين - يعني الأتراء - فإنَّما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة ، فتأتي على آخرهم ، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم »⁽⁶⁴⁾ .

فقال الأفшиين : « هذا يدعى أنَّ أخي كتب إلى أخيه ! لا يجب علي ، ولو كنت كتبت هذا الكتاب إليه لاستميته ، ويثق بي ، ثم آخذه بقفاه ، وأحظى به عند الخليفة ، كما حظي عبد الله ابن طاهر » .

وقد ذكر ابن الأثير رواية مفادها أنَّ الأفшиين كان مختوناً ، لكنه قبل التهمة مخافة كشفه وفضحه بمصحف من الناس »⁽⁶⁵⁾ .

(63) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 366 وما بعدها .

(64) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 365 وما بعدها .

(65) انظر حاكمة الأفшиين في الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ج : 10 ص : 365 وما بعدها . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 513 وما بعدها .

أعيد الأفشين إلى سجنه ومبئع من الطعام حتى مات ، وفي رواية أنه خُبِّقَ ، ثم صُلِّبَ إلى جانب بابك . وقد لاحظ ابن العماد الحنبلي : أن المعتصم كان قد خافه⁽⁶⁶⁾ . ووُجد في داره مجموعة من الأصنام وكتب فيها ديانة المجروس⁽⁶⁷⁾ .

والجدير بالذكر ، أن عدداً من المؤرخين ، يشكرون بزندقة الأفشين ، منهم الدينوري ، الذي رأى أن قتله كان يتحريض من ابن أبي دؤاد⁽⁶⁸⁾ والتبريزي الذي نفى أن يكون الأفشين كافراً أو منافقاً⁽⁶⁹⁾ .

وبعد المعتصم ، تابع الخلفاء الاهتمام بالزنادقة والزنادقة كلما سُنحت لهم الفرصة على الرغم من سيطرة الأتراك عليهم واستثمارهم بالسلطان دونهم ، وسرى بعضاً من ذلك عند الكلام على الحلاج وابن أبي العذاقر . لكنهم في أحيان أخرى ، كانوا يرضخون للأمر الواقع ، فقد لاطف الخليفة الراضي مرداويخ الديلمي ، وبعث إليه بالعهد واللواء على أذربيجان وأرمينية وإيران وقم ونهاوند وسجستان على الرغم من تصريح مرداويخ ، بأنه يريد أن يعيد دولة العجم ودينهم ، ويقهرون دولة العرب⁽⁷⁰⁾ .

تغافل الزندقة في المجتمع العباسى :

لقد تفشت الزندقة في المجتمع الإسلامي ، ونشطت تحاول هدم الدين واحتياط جذوره ، وانتشر الزندقة بين مختلف الطبقات والأمم التي تؤلف المجتمع الإسلامي ، حتى وصلت العدوى إلى البيت الهاشمي نفسه ، وتغلغل الزندقة في مناصب الدولة ، وتعددت أنماطهم وأساليب تخريبهم في المجتمع الإسلامي لا فكأن من الزندقة أدباء وشعراء ورواة ، وكان منهم محدثون وفقهاء

(66)الحنبي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 58.

(67)الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 40.

(68) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص : 403.

(69)أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : 1 ص : 146.

(70) الصولي ، أخبار الراضي والمتنبي ، ط 2 دار المسيرة - بيروت 1979 ص : 62.

وأصحاب كلام ومتصوفة ، مما اضطر الخليفة المهدى لاستحداث جهاز خاص بتتبعهم ، والكشف عنهم ومعاقبتهم على رأسه صاحب الزنادقة⁽⁷¹⁾.

وكان من أشهر أدباء الزنادقة عبد الله ابن المقفع ، الذى قال عنه المهدى : « ما وجدت كتاب زندقة قط ، إلا وأصله ابن المقفع »⁽⁷²⁾ واتهمه البيرونى بعدم الأمانة فيما ينقل ، فقال عن كتاب كليلة ودمنة : « وبودي أن كنت أتمكن من ترجمة كتاب (ينج تتر) وهو المعروف عندنا بكتاب (كليلة ودمنة) فإنه تردد بين الفارسية والهنديّة ثم العربية والفارسية على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه ، كعبد الله ابن المقفع في زيادة باب بربزويه فيه ، قاصداً تشكيك ضعف العقائد في الدين للدعوة إلى مذهب المانوية ، وإذا كان متهمماً فيما زاد ، لم يخل عن مثله فيما نقل »⁽⁷³⁾.

ويقال أنه مرّ ببيت نار للمجوس فتمثل :

يا بيت عاتكة الذي أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل⁽⁷⁴⁾

وفي الأغاني أنه تمثل بهذا البيت عندما مرّ به جماعة من الزنادقة فيهم ابنته ، فخشى أن يسلموا عليه ، فيؤخذ معهم ، ففهموا ، ولم يسلموا عليه⁽⁷⁵⁾ ولو صحت الآراء المنسوبة إليه في كتاب ابن طباطبا⁽⁷⁶⁾ ، لكان رأساً من رؤوس الزنادقة ، غير أنَّ أحمد أمين شك في نسبة هذه الآراء لابن المقفع ، ونسبة الكتاب لابن طباطبا⁽⁷⁷⁾.

أما اتهامه بوضع باب بربزويه من كتاب كليلة ودمنة ، فقد ثبت أنَّ هذا الباب

(71) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : ١ ص : ٣٤٥.٩.

(72) ضيف ، تاريخ الادب العربى ، العصر العبائى الاول ص : ٨١ نقلًا عن أبي المرتضى .

(73) البيرونى ، تحقيق ماللهند ، ج : ١ ص : ١٢٣ .

(74) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : ١ ص : ٥١ .

(75) أبو الفرج الأصفهانى ، الأغاني ، ج : ١٨ ص : ٢٠٠ .

(76) القاسم ابن ابراهيم ابن طباطبا ، كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع (طبع جويدى)

(77) احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج : ١ ص : ٢٢٥ وما بعدها .

من الأصول الفارسية للكتاب ، ولا دور لابن المقفع فيه إلا النقل والترجمة⁽⁷⁸⁾.

ويظهر أنَّ ابن المقفع قد تصرف في ترجمة هذا الباب بعض التصرف يظهر ذلك في المسحة الإسلامية التي تغلف النص ، فصاحبها مؤمن بالله وبالآخرة وبأنَّ هناك ثواباً وعقاباً . فقد قسم الأمور التي يطلبها الناس إلى أربعة أقسام : المال ، والذكر ، واللذة ، والأخرة ، واعتبر أنَّ الذي يعمل ويتبغي بعمله الآخرة لا ينقصه ذلك حظه من الدنيا⁽⁷⁹⁾ ولم يغبط أحداً من نظرائه ، وإنْ كان دونه في العلم وفوقه في الجاه ، وعندما تتوه نفسه إليهم ، يحدثها حديث الناس أو صديقي المانوية ، فيقول : « يا نفس أَمَا تعرِفُنَّ تفعُّلَكَ مِنْ ضُرُّكَ أَلَا تَتَهَيَّنَ عَنْ تَمْنِي مَا لَا يَنْالُهُ أَحَدٌ إِلَّا قَلْ اِنْتِفَاعُهُ بِهِ ! وَكَثُرَ عَنْاؤُهُ بِهِ ، وَاشْتَدَتِ الْمَؤْنَةُ عَلَيْهِ ، وَعَظَمَتِ الْمَشْكَةُ لِدِيهِ . . . يَا نَفْسُ لَا يَبْعُدُ عَلَيْكَ أَمْرُ الْآخِرَةِ ، فَتَمْلِيَ إِلَى الْعَاجِلَةِ فِي اسْتِعْجَالِ الْقَلِيلِ ، وَبَعْ يَكْثِيرَ بِالْيَسِيرِ . . . »⁽⁸⁰⁾.

وبعد هذا الحديث عن الآخرة والإيمان فيها ، وترغيب نفسه بها ، وتحثُّها في البعد عن الدنيا الخادعة المضللة ، ينطلق للتشكيك في الآيات ، فيقول : « وقد وجدت آراء الناس مختلفة ، وأهواءهم متباعدة ، وكل على كل راد ، وله عدو ومغتاب ، ولقوله مخالف . فلما رأيت ذلك ، لم أجده إلى متابعة أحد منهم سبيلاً ، وعرفت أنني إن صدقت أحدهما منهم لا علم لي بحاله كنت في ذلك كالمصدق المخدوع . . . فلما تحرزت من تصديق ما لا يكون . . . عدت إلى طلب الأديان والتلامس العدل منها ، فلم أجده من كلامته جواباً فيما سأله عنه فيها »⁽⁸¹⁾.

(78) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ص : 521 ، إلا أن هذا الأصل لم ينشر فلم يتيسر لي مقابلته مع النص المتناول . ومعرفة مدى التصرف في ترجمته .

(79) ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، تحقيق محمد حسن المرتضى ، المؤسسة المتحدة للكتاب ط 2 بيروت 1980 ، ص : 80 .

(80) مصدر نفسه ص : 81 — 82 .

(81) م . ن . ص : 82 — 84 .

وعندما لم يجد اليقين عند أحد آثر دين الآباء والأجداد بالإعتقاد إلا أنه لم يجد لنفسه قدرة على الثبوت ، وحدثته نفسه بالرغبة في البحث عن الأديان والعقائد إلا أنه وجد نفسه لا يملك القدرة على ذلك لقرب الأجل ، وسرعة انقطاع الدنيا ، فيقول : « رأيت ألا أتعرض لما تخوف منه المكروه ، وأن أقتصر على عمل شهد النفس ، أنه يوافق كل الأديان »⁽⁸²⁾ .

وهو بعد هذا الموقف التشكيكي ، يعود للحديث عن النسك والزهد ، فيرغم فيه ، ويسلب في ذكر حسنته ، لكنه يتهيئه ، ويخاف أن لا يستطيع عليه صبرا « فلم أزدد في النسك نظراً إلا ازدلت فيه رغبة ، حتى هممت أن أكون من أهله ، ثم تخوفت ألا أصبر على عيش الناسك »⁽⁸³⁾ .

ومما يحبب الزهد إلى نفسه الواقع الاجتماعي والسياسي الذي يعيش ، فالزمان شبيه بالصافي وهو كدر . ثم يموج في مدح السلطان في الظاهر ، لينقلب عليه في الباطن ، ويكتيل له الطعنات » فيقول : « فإنه وإن كان الملك حازماً ، عظيم المقدرة ، رفيع الهمة ، بلغ الفحص ، عدلاً مرجواً صدوقاً شكوراً ، رحب الذراع مفتقداً مواطباً مستمراً عالماً بالناس والأمور ، محباً للعلم والخير والأخيار ، شديداً على الظلمة ، غير جبان ولا خفيف القياد ، رفياً بالتوسيع على الرعية فيما يحبون ، والدفع لما يكرهون . فإنما قد نرى الزمان مدبراً بكل مكان . فكان أمور الصدق قد نُزِعَتْ من الناس . فأصبح ما كان عزيزاً فقده مفقوداً ، و موجوداً ما كان ضائراً وجوده ، وكان الخير أصبح ذابلاً ! والشر ناضراً ! وكان الفهم أصبح قد زالت سبله ! وكان الحق ولّى كسيراً ! وأقبل الباطل تابعاً ! وكان آتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكام موكلًا ، وأصبح المظلوم بالحيف مقرراً ، والظالم لنفسه مستطيلاً وكان الحرص أصبح فاغراً فاه من كل جهة ، يتلقف ما قرب منه وما بعده ! وكان الرضا أصبح مجھولاً ! وكان الأشرار يقصدون السماء صعوداً !

(82) ابن المفع ، كليلة ودمنة ، تحقيق محمد حسن المرصفي ، المؤسسة المتحدة للكتاب ، ط 2 بيروت 1980 ص : 85.

(83) مصدر نفسه . ص : 87.

وكان الأخيار يريدون بطن الأرض . . . وأصبح السلطان منتقلًا من أهل الفضل إلى أهل النقص »⁽⁸⁴⁾.

وبعبارة أوضح فإنه عصر انتصر فيه إله الشر على إله الخير ، فزهده في الدنيا دعوة مجوسية في روحها ، ونظرته للواقع الاجتماعي والسياسي نظرة لهفة وأسف ، لهفة على الماضي أيام ملك الأكاسرة ، وازدهار المجوسية ، وأسف لأنَّ الملك انتقل إلى العرب ، ومالت الناس عن دين المجوس وثنوية الخير والشر إلى الإسلام ووحدانية الله .

فزندة ابن المفعع إنَّ صحت ، فانها تمثل الزندة الخفية التي لا تكاد تظهر . وزندة بشار ابن برد كانت أوضح وأصرح ، ودفع حياته ثمنا لها . فقد روى المبرد عن بشار ، أنه كان يتغصب للنار على الأرض ، ويصوب رأي إبليس في امتناعه من السجود لأدم ، وفي ذلك يقول :

« الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبدة مذ كانت النار »⁽⁸⁵⁾

وقد تمادي في غُيُّه وفجوره ، ففضل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين قائلاً :

« إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبيهوا يا معاشر الفجاري النار عنصره وأدم طينة والطين لا يسمون سمو النار »⁽⁸⁶⁾

وممَّا يُروَى عن واصل ابن عطاء ، أنه خاق ذرعاً بتهتكه وفجوره ، فهتف باسمه في المسجد⁽⁸⁷⁾ . وقال لبشار من يعرف طويته « أتأكل اللحم وهو مباین لديانتك - يذهب إلى أنه ثني . . . فقال بشار : ليسوا يدركون أنَّ اللحم يدفع عن شر هذه الظلمة »⁽⁸⁸⁾ .

(84) م . ن . ص : 90 — 91.

(85) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج : 2 ص : 143 — 144.

(86) انظر رسالة الغفران لأبي العلاء نشر كامل كيلاني ج : 2 ص : 137.

(87) المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، ج : 2 ص : 143 — 144.

(88) مصدر نفسه . ص : 143 — 144.

وفي الأغاني ، أنَّ الفضل ابن يعقوب ، قال : « كنا عند جارية لبعض التجار بالخرف تغينا ، وبشار عندها ، فغنت :

إِنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ أَبْيَى
وَإِذَا أَبْيَى شَيْئًا أَبْيَى
وَمَخْضُبَ رَخْصَ الْبَنَى
نَبَكَى عَلَى وَمَا بَكَيْتَهُ

... فطرب بشار ، وقال : هذا والله يا أبا عبد الله أحسن من سورة الحشر⁽⁸⁹⁾ وعقب أبو الفرج على ذلك بالقول : « وقد روی هذه الكلمة عن بشار غير من ذكرته »⁽⁹⁰⁾.

ونرى بشاراً أحياناً يعترف بما ينسب إليه ، كالذي رُويَ عن أحمد ابن خالد عن أبيه ، قال : « كنت أكلم بشاراً وأرد عليه سؤال مذهبة بميله إلى الإلحاد ، فكان يقول : لا أعرف إلا ما عاينته أو عاينت مثله ، وكان الكلام يطول بيننا ، فقال لي ، ما أظن الأمر يا أبا خالد ، إلا كما تقول ، وأنَّ الذي نحن فيه خذلان ، ولذلك أقول :

طَبَعَتْ عَلَى مَا فِي هُوَيٍّ غَيْرِ مُخِيرٍ هُوَيٌّ وَلَوْ خَيْرٌ كَنْتُ الْمَهْذِبَا
أَرِيدُ ، فَلَا أُعْطَى وَأُعْطَى وَلَمْ أَرِدْ وَقْسِرَ عَلَمِي أَنْ أَنْالَ الْمَغْيِبَا
فَأَصْرَفَ عَنْ قَصْدِي وَعَلَمِي مَقْصِرٌ وَأَسِي وَمَا أَعْقَبَتْ إِلَّا التَّعْجِباً»⁽⁹¹⁾

وَرُويَ عن بشار استهانه بالصلوة ، و قوله « إنَّ الذي يقبلها تفاريق يقبلها جملة »⁽⁹²⁾ وعنه قال بعض أصحابه : « كنا إذا حضرت الصلاة نقوم ويقعده بشار ، فنجعل حول ثيابه تراباً ، لنتظر هل يصلى ؟ فنعود والتراب بحالة »⁽⁹³⁾ وزعموا أنه لَمَّا دان بالرجعة ، زعم أنَّ الناس كلهم كفروا بعد رسول الله (ص) فقيل له : وعلى ابن أبي طالب ؟ فقال :

(89) أبو الفرج ، الأغاني ، ج : 3 ص : 55.

(90) مصدر نفسه ، ج : 3 ص : 55.

(91) م . ن . ج : 3 ص : 62.

(92) م . ن . ج : 3 ص : 42 — 43.

(93) م . ن . ج : 3 ص : 42 — 43.

« وما شرثلاثة أم عمر و

بصاحبك الذي لا تصبحينا »⁽⁹⁴⁾

فرد عليه صفوان الأنباري ، فقال :

وأبعد خلق الله من طرق الرشد
علياً ، وتعزو كل ذاك الى برد
طالب ذحل لا يبيت على حقد
وأقرب خلق الله من نسب القرد »⁽⁹⁵⁾

« فيا بن حليف الشؤم واللزム والمعى
أتهجو أبا بكر ، وتخلع بعده
كانك غضبان على الدين كله
توائب أقماراً وأنت مشوه

وكان بشار يهجو حماد عجرد ويتهمه بالزندة ، فقال :

« يا بن نهيا رأسي علي ثقيل
واحتمال الرأسين عباء ثقيل
فإنني بواحد مشغول

... فأساغ حماد هذه الأبيات لشار ، وجعل فيها مكان فإنني بواحد
مشغول ، فإنني عن واحد مشغول ، ليصح عليه الزندة والكفر بالله تعالى »⁽⁹⁶⁾.

وفي رواية أنه قال « والله ما أبالي بهذا من قوله ، وإنما يغبطني منه تجاهله
بالزندة ، يوهم الناس أنه يظن أن الزنادة تبعد رأساً ليظن الجهل أنه لا يعرفها ،
لأن هذا القول تقوله العامة لا حقيقة له ، وهو والله أعلم بالزندة من ماني »⁽⁹⁷⁾.

وكما وجد من يروي زندة بشار ويتحققها ، فقد وجد من ينكرها ويشك
فيها ، ويعزو قتلها لأسباب خاصة ، كهجائه لصالح ابن داود او المهدى.

فقد هجا صالح ابن داود ويعقوب ابن داود الوزير ، فقال :

« هم حملوا فوق المنابر صالحًا
أخاك فضلت من أخيك المنابر

(94) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج : 3 ص : 42—43 .

(95) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 55—56 .

(96) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج : 3 ص : 74 .

محمد كرد علي ، رسائل البلقاء ، ج : 3 ص : 259 .

(97) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج : 3 ص : 76 .

فبلغ يعقوب هجاؤه ، فدخل على المهدى ، فقال له : « إنَّ هذا الأعمى المشرك قد هجا أمير المؤمنين ، قال : وما قال ؟ قال : يعفيني أمير المؤمنين من إنشاده ، فأبى أنْ يعفيه ، فأنشده :

يلعب بالدبوق والصلجان
أبدلنا الله به غيره
ويقال إنَّ بشار ، إنَّما هجا المهدى بسبب منعه من الغزل ، وعدم إعطائه
شيئاً وذلك أنَّ المهدى بلغه قول بشار :

الليل إنَّ وراءه صحا
قول تغليظه وإنَّ جرحا
والصعب يمكن بعدما جمحـا⁽⁹⁸⁾

فأمر المهدى أن لا يقول النسب والأقتله ولم يتبه بشيء رغم مدحه المتكرر له ، فهجاه بقوله (خليفة يزني بعماته) وكان قد هجا قبل ، يعقوب ابن داود بقوله :

إنَّ الخليفة يعقوب ابن داود
خليفة الله بين الرزق والعود

فدخل يعقوب على المهدى ، وأخبره أنَّ بشاراً هجاه وأسمعه بعد إلحاده ، فغضب المهدى وانحدر إلى البصرة في طلب بشار ، فلما قرب منها سمع أذاناً في غير وقته ، فاستفسر عن سبب ذلك ، فإذا بشار يؤذن وهو سكران ، فقال له : « يا زنديق . . . ألهوا بالأذان في غير وقت وأنت سكران » وأمر بقتله⁽¹⁰⁰⁾.

وقيل إنَّه وجد في منزله بعد قتله كتاب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، إنِّي

(98) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 18.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 86—87.

(99) أبو الفرج الأصفهانى ، الأغاني ، ج : 3 ص : 68 وما بعدها.

(100) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 68—73.

أردت هجاء آل سليمان ابن علي ، فذكرت قرابتهم من رسول الله (ص) فأمسكت عنهم إلا أنني قلت :

« دينار آل سليمان ودرهمهم كبابلين حُفَّا بالعفاريت »

لَا يرجيَان ولا يرجي نوالهما كما سمعت بهاروت وماروت »⁽¹⁰¹⁾

قال أبو الفرج إِنَّ المُهَدِّي « لما قرأه بكى وندم على قتلها وقال لا جزى الله

يعقوب ابن داود خيراً »⁽¹⁰²⁾.

وَرَوَى لَهُ مِنَ الشِّعْرِ مَا يَبْدِدُ عَنِ الْشُّكُوكِ مِثْلُ قَوْلِهِ :

« كَيْفَ يَبْكِي لِمَحْبِسِ فِي طَلُولٍ مِنْ سِيقَضِي لِيَوْمِ حَسْ طَوِيلٍ »

إِنَّ فِي الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ لِشَغْلٍ عَنْ وَقْفَ بَرْسَمِ دَارِ مُحِيلٍ »⁽¹⁰³⁾

وقد ظن فيه أبو العلاء خيراً فقال عنه « ولا أحكم عليه بأنه من أهل

النار »⁽¹⁰⁴⁾.

وذهب نكلسون الى اعتباره أحسن مثال للزندقة في عصره لأنَّه كان شعوبياً

يحن الى قومه ووطنه ، ويكره الإسلام ، بينما اعتبره فاجداً شَكَاكَاً ، لكنه لم يتزندق زندقة علمية⁽¹⁰⁵⁾

وكان صالح ابن عبد القدس شاعراً من أصحاب الكلام ، وعنده قال أبو

الفرج إِنَّه صَحَّ التَّوْبَةِ فَقُتِلَ الْمُهَدِّيُّ ، وَقُتِلَ قُتْلَهُ الرَّشِيدُ »⁽¹⁰⁶⁾.

وكان المُهَدِّي قد أمر به فَحُمِّلَ إِلَيْهِ ، فلما خاطبه ، أَعْجَبَ بِأَدْبِهِ ، وَغَزَّارَةِ

(101) المرد ، الكامل في اللغة والادب ، ج : 2 ص : 143 — 144 .

(102) أبو الفرج الاصفهاني ، الأغاني ، ج : 3 ص : 73 .

(103) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء - دار القافة ، بيروت 1964 ج : 2 ص : 643 .
البيهقي ، المحسن والمساوي ، دار صادر ، بيروت 1970 ص : 335 .

(104) أبو العلاء المعري ، رسالة الغفران ، ص : 216 .

(105) زاهية قدورة ، الشعوبية وأثيرها ، ص : 162 .

(106) أبو الفرج الاصفهاني ، الأغاني ، ج : 3 ص : 24 .

(107) مصدر نفسه . ج : 13 ص : 14 — 15 .

علمه ، فأمر بتخليه سبيله ، فلما ولى رده ، وقال له : ألسن القائل :

«رب سر كتمته فكأني
آخرس أو ثنى لسانى عقل
ولو انى أظهرت للناس دينى
لم يكن لي في غير حبى أكل
يا عدى الله وعدى نفسه :

الستر دون الفاحشات ولا يلفاك دون الخير من ستر
فقال : قد كنت زنديقاً ، وقد تبت عن الزندقة . قال : كيف وأنت القائل :
والشيخ لا يترك عاداته حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد الى غيه كذى الضنى عاد الى نكسه
وأخذ غفلته السيف ، فإذا رأسه يتهدى على النطع »⁽¹⁰⁸⁾

« وكان حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد ابن الزبرقان ،
ويونس ابن هارون وعلي ابن الخليل ، يزيد ابن الفيض ، وعبداد ،
وجميل ابن محفوظ ، وقاسم ، ومطیع ووالبه ابن الحساب ، وأبان ابن عبد
الحميد ، وعمارة ابن حرية ، يتواصلون ، وكأنهم نفس واحدة . . . ويونس . . .
كان أشهر بهذا الرأي منهم ، وقد كان كتب كتاباً لملك الروم في مثالب العرب
وعيوب الإسلام بزعمه »⁽¹⁰⁹⁾.

وحمد عجرد مولىبني سوءة ابن عامر ابن صعصعة ، « لم يشتهر في أيام
بني أمية شهرته في أيامبني العباس ، وكان خليعاً ماجناً متهمأ في دينه مر MMA
بالزندة . . . وكان بالكونفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون : حماد عجرد وحماد
الراوية وحماد ابن الزبرقان ، يتندمون على الشراب ، ويتناشدون الأشعار ،
ويتعارضون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يرمون بالزندة جميعاً

(108) ابن القارج ، رسالة ابن القارج ، (رسائل البلغاء) ص: 259.

المخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي - بيروت ، بدون تاريخ ج: 9 ص: 303.

ياقوت ، معجم الادباء ، مصر 1936 ج: 12 ص: 6-8.

(109) الجاحظ ، الحيوان ، ج: 4 ص: 447-448.

وأشهرهم حماد عجرد⁽¹¹⁰⁾، وذكر عنه أبو الفرج معرفة تامة بدين الزندقة⁽¹¹¹⁾ وروي عن أبي نواس قوله « كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزنادقة لمجنونه في شعره ، حتى حبس في حبس الزنادقة ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاوج بيتهن يقرؤون به في صلاتهم ، .. وكان له صاحب يقال له حريب على مذهبة ، قوله يقول بشار حين مات حماد عجرد على سبيل التعزية :

مات ابن نهبي وقد كانا شريكين وحللا كل شيء بين رجلين كراكب اثنين يرجو قوة اثنين تفرقوا وهوى بين الطريقين	بكى حريب فوقره بتعزية تفاوضا حين شابا في نسائهما امسى حريب بما اسدى له غيرا حتى اذا أخذنا في غير وجههما
--	--

يعني أنه كان يقول بقول الشوية في عبادة اثنين ، فتفرقا وبقي بينهما حاثراً⁽¹¹²⁾ وكثيراً ما كان هؤلاء الزنادقة يتهمون بعضهم بعضاً بهذه التهمة ، فكما انهم بشار حماداً وغيره بالزنادقة ، فقد اتهم حماد عجرد عمارة ، فقال :

او كنت أعبد غير رب محمد كالنضر او الفيت كابن المعقد جبل وما جبل الغوي بمرشد فجفوتني بغضأ لكل موحد والارض خالقها لها لم يمهد منه الحميد ومنه ما لم يحصد	لو كنت زديقاً ، عمار ، حبوني او كنت عندك او تراك عرفتني او كابن حماد رئيسة دينكم لكتنى وحدت ربى مخلصاً وحبوت من زعم السماء تكونت والنسم مثل الزرع آن حصادة
---	---

(110) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 13 ص : 73 ج : 5 ص : 166 .
الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 8 ص : 148 — 149 .

ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 11 ص : 249 — 250 .

(111) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 13 ص : 76 .

(112) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 3 ص : 74 .

وحمد أشهر بالزندة من عمارة ابن حرية ، الذي هجاه بهذه

الأبيات «⁽¹¹³⁾ .

ويعتبر الجاحظ أنَّ قول حماد « وجبوت من زعم السماء تكونت » يدل على

جهل حماد بمقالة القوم ، ويراه من مقلديهم⁽¹¹⁴⁾ .

« وهجا حماد ابن الزبرقان حماد الرواية ، فقال :

نعم الفتى لو كان يعرف ربه
ويقيم وقت صلاته حماد
مثل القدوم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامه وجهه⁽¹¹⁵⁾

ورغم خطورة الزندة وخطورة التهمة بها ، فإنَّ كلَّ رجل يخاصم رجلاً ،
كان يتسابق وإيهال عليها ويتناutan بها ، لأنَّها التهمة التي تقضي على الخصم من
أقصر الطرق ، فقد هجا أبو الشمقمق جميل ابن محفوظ ، واتهمه بالزندة ،
وتصوره يساق إلى الموت بهذه التهمة ، فقال :

« هذا جميل على بغله
وقد كان يعدو على رجله
وأنَّ التزندق من شكله
كائي به قد دعاه الإمام
وآذن ربك في قتله »⁽¹¹⁶⁾

كما اتهم بها يحيى ابن زياد الحارثي ، وهو ابن خال أبي العباس

السفاح⁽¹¹⁷⁾ .

ولعلَّ أفضلَ من يمثلُ الزندة الصارخة الممزوجة بعصبية شعوبية ، بالإضافة
لبشار ابن برد ، هو أبو النواس ، فقد كان متهنكاً ، يجري وراء لذاته ، جسرواً

(113) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 4 ص : 443 — 444 .

(114) مصدر نفسه . ج : 4 ص : 443 — 444 .

(115) م . ن . ج : 4 ص : 445 .

(116) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 4 ص : 454 .

(117) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 14 ص : 106 — 107 .

على الموبقات ، يصرح بفجوره ، لا يردعه رادع ، ليس هذا فحسب ، بل يصرح بأنَّ ارتکاب المعاصي والإقدام على المحظورات جهرة تزيد في نشوته وشعوره باللذة والسعادة ، لا يقيم وزناً للمثل الروحية أو الاجتماعية ، فيقول :

« جريت مع الصبا طلق الجمود
وهان عليَّ مأثور القبيح
إِنَّ مَسَافَةَ بَيْنِ جَثْمَانِي وَرُوحِي »⁽¹¹⁸⁾
وهجا قريش ، فقال :

« أَمَا قَرِيشٌ فَلَا افْتَخَارٌ لَهَا
وَإِنَّهَا إِنْ ذَكَرْتَ مَكْرَمَةً
إِنْ قَرِيشًا إِذَا هِيَ انتَسَبَتْ
إِلَى التَّجَارَاتِ مِنْ مَكَاسِبِهَا
جَاءَتْ قَرِيشٌ تَسْعَى بِغَالِبَهَا
كَانَ لَهَا الشَّطَرُ مِنْ مَنَاسِبِهَا

... فبلغ الرشيد في حياته ، فأمر بحبسه ، فلم يزل محبوساً حتى ولـي
محمد »⁽¹¹⁹⁾ واتهمه الفضل ابن الربيع بالزنقة ، فتخلص من التهمة رغم قوله :

اسقنيها يا ذفافة
مزة الطعم سلافه
ذل عندي من قلاها
لرجاء أو مخافه
مثلما ذلت وضاعت
بعد هارون الخلافه
و قال أيضاً :

فجاء بها زيتية ذهبية فلم تستطع دون السجود لها صبرا
عندـها اتهمـه الأمـين بالـزنـقة والـكـفر وـحبـسـه عـلـيـهـا⁽¹²⁰⁾.

والذي يدفع للغرابة حقا هو عدم أخذـه بهذه التـهمـة إلاـ عندما يتـعرض للـدولـة
بشـخصـ الخليـفةـ أوـ أحدـ مـسـاعـديـهـ رغمـ كلـ ماـ يـنـقلـ منـ صـورـ تـزـنـقةـ ،ـ فقدـ قالـ
سلـيمـ ابنـ منـصـورـ :ـ «ـ رـأـيـتـ أـبـاـ نـوـاـسـ فـيـ مـجـلـسـ أـبـيـ ،ـ بـكـىـ بـكـاءـ شـدـيدـاـ ،ـ فـقـلـتـ
إـنـيـ لـأـرـجـوـ أـلـآـ يـعـذـبـكـ اللـهـ بـعـدـ هـذـاـ الـبـكـاءـ أـبـداـ ،ـ فـأـنـشـأـ يـقـولـ :

(118) القالي ، الامالي ، دار الكتاب العربي ، بدون تاريخ - بيروت ، ذيل الامالي ، ص : 63 .

(119) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص 219 .

(120) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 225 - 226 .

لَمْ أَبْكِ فِي مَجْلِسِ مُنْصُورٍ
 وَلَا مِنْ الْقَبْرِ وَأَهْوَالِهِ
 لَكِنْ بَكَائِي لِبَكَاءِ شَادِنَ
 شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْحَسَرِ
 وَلَا مِنْ النَّفْخَةِ وَالصَّورِ
 تَقِيهِ نَفْسِي كُلَّ مَحْذُورٍ

ثُمَّ قَالَ : أَمَا تَرَى الْأَمْرُ الدُّرُّ عَنْ يَمِينِ أَبِيكَ ؟ إِنَّمَا بَكَيْتَ لِبَكَائِهِ »⁽¹²¹⁾.

وَكَانَ يَسْخَرُ بِالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَيَسْخَرُ مِنْ رِجَالِهِ ، كَالَّذِي حَكَاهُ ابْنُ عَائِشَةَ
 مِنْ قَوْلِهِ :

وَحَدَّثَنَا الْخَفَافُ عَنْ وَاثِيلِ
 وَمَسْعَدٍ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ
 قَالُوا جَمِيعاً : أَيْمَا طَفْلَةٍ
 فَوَاصْلَتْهُ ثُمَّ دَامَتْ لَهُ
 كَانَتْ لَهَا الْجَنَّةُ مَفْتُوحَةٌ
 وَأَيْ مَعْشُوقٍ جَفَّا عَاشَقَا
 فَفِي عَذَابِ اللَّهِ بَعْدِ لَهِ

وَخَالِدُ الْحَذَاءِ عَنْ جَابِرٍ
 يَرْفَعُهُ الشَّيْخُ إِلَى عَامِرٍ
 عَلَقَهُمَا ذُو خَلْقٍ طَاهِرٍ
 عَلَى وَصَالِ الْحَافِظِ الْذَّاكِرِ
 تَرْتَعُ فِي مَرْتَعِهَا الزَّاهِرِ
 بَعْدِ وَصَالِ دَائِمٍ نَاسِرٍ
 وَسَحْقِ دَائِمٍ دَاهِرٍ »⁽¹²²⁾

قَدْ يَظْنَنُ أَنَّ أَبَا نَوَاسَ إِنَّمَا كَانَ يَتَمَاجِنُ أَمَّا الزَّنْدَقَةُ الْعُلْمِيَّةُ فَإِنَّهُ لَا يَقُولُ بِهَا
 بَلْ لَا يَكَادُ يَعْرِفُهَا ، وَالْجَاحِظُ اسْتَغْرِبُ جَهْلُ أَبِي نَوَاسِ بِهَا رَغْمَ مَجَالِسِهِ
 الْمُتَكَلِّمِينَ وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ فِي هَجَاءِ أَبَانِ الْلَّاحِقِيِّ ، حَكَايَةُ عَنْ أَبَانِ :

«فَقَالَ كَيْفَ شَهَدْتَمْ
 بِذَٰلِي بَغْيَرِ عِيَانِ
 لَا أَشْهَدُ الدَّهْرَ حَتَّى
 تَعَايَنَ الْعَيْنَانِ
 فَقَالَ سَبْحَانَ رَبِّي
 فَقَلَّتْ سَبْحَانَ مَانِ
 فَقَالَ عَيْسَى رَسُولُ
 فَقَلَّتْ عَيْسَى شَبِطَانَ»⁽¹²³⁾

وَقَدْ عَقَبَ الْجَاحِظُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « وَتَعْجِبِي مِنْ أَبِي نَوَاسَ ، وَقَدْ كَانَ

(121) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج : 7 ص : 439.

(122) م . ن . ج : 7 ص : 439

(123) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 4 ص : 448 — 450

جالس المتكلمين أشد . من تعجب من حماد ، حين يحكى عن قوم من هؤلاء قوله لا يقوله أحد ، وهذه فرة عين المهجو . والذي يقول سبحانه ماني ، يعظم أمر عيسى تعظيمًا شديداً ! فكيف يقول إنه من قبل شيطان ؟ وأما قوله (نفسه خلقته أم من) فإن هذه مسألة ظاهرة على السن العوام ، والمتكلمون لا يحكون هذا عن أحد . . . »⁽¹²⁴⁾

وعندي أنَّ أبا نواس ، شأنه شأن بشار وحماد عجرد يهجون الزندقة بأشياء لا تقرها الزندقة ، ليوهموا الناس بأنهم لا يعرفون الزندقة ولا يقولون بها .

أما نهايته ، وكيف واجه ربِّه ؟ فالبعض يقول : إنه تأله وتعبد ، وقال في

آخر أيامه :

« يا رب إنْ عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأنَّ عفوك أعظم
أدعوك ربِّي كما أمرت تضرعاً ولكن رددت يدي فمن ذا يرحم
مالِي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل ظني ثم أني مسلم »⁽¹²⁵⁾

والبعض الآخر يقول إنه مات على الزندقة ، وكان على رأي الدهرية ، ويروى له وهو على فراش الموت قوله :

« باح لسانِي بمضمر السر وذلك أني أقول بالدهر
وليس بعد الممات منقلب وإنما الموت بيضة العمر »⁽¹²⁶⁾

وأتهم أبان ابن عبد الحميد اللاحقي بالزندة ، وكان قد اتصل بالبرامكة ، ونظم لهم كتاب كليلة ودمنة شعراً⁽¹²⁷⁾ وذكر ابن النديم أنه نظم أيضاً كتاب مزدك⁽¹²⁸⁾ ورآه المعدل ابن غبلان يصلي ، فأندهش من صلاته لعلمه بمذهبه ، فقال :

(124) مصدر نفسه . ج : 4 ص : 451.

(125) ابن العماد الخنلي ، شدرات الذهب ، ج : 1 ص : 347.

(126) ابن العماد الخنلي ، شدرات الذهب ، ج : 1 ص : 347.

(127) أبو الفرج الأصفهاني ، الأهانى ، ج : 20 ص : 73.

الصولي ، أخبار الشرفاء المحدثين ، ص : 1.

(128) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 232.

«رأيت أباناً يوم فطر مصليناً فقسم فكري واستفزني الطرف
 وكيف يصلي مظلوم القلب دينه على دين مان إن ذاك من العجب»⁽¹²⁹⁾
 والجاحظ لم يدفع التهمة عنه ولم يؤكد لها عندما تعرض لقصيدة أبي نواس
 في هجائه لكن الشواهد على صحة تدينه أكثر وأوثق⁽¹³⁰⁾.

وأتهم بالزندة كثير من الشعراء مثل مطبيع ابن إياس ، وقد ذكر أبو الفرج
 عدة روايات تتهمه بالزندة ، «كان ظريفاً خليعاً حلو العشرة مليح النادرة ماجنا
 متهمًا في دينه بالزندة»⁽¹³¹⁾ لكنه سلم من المهدى وكما سلم من المنصور ، ولعل
 موقفه من بيعة المهدى وتأييده لها واحتلاقه الحديث النبوى الذى يزكيها ، كان
 من الأسباب التي جعلت المهدى يدافع عنه أمام المنصور ويقول «أنابه عارف ،
 أما الزندة ، فليس من أهلها ، ولكنه خبيث الدين فاسق ، مستحلل
 للمحaram»⁽¹³²⁾.

وذكر البغدادي : أنه كان مرميًّا بالزندة⁽¹³³⁾ وحمل علي ابن القاسم - وكان
 من أصدقائه - لمطبيع ما يشيعه الناس عنه ، فسأله إنَّ كان. رأى منه شيئاً يدل على
 الزندة ، أو رأه مخللاً بالفرائض في الصوم والصلاه ، لكنه أنشد في إحدى
 الليالي ، وكان علي ابن القاسم ينام عنده ، بأبيات تحقق منها قوله بالزندة ، وإن
 حاول مطبيع بعد ذلك تستيرها ، وهي :

أصبحت جم بلال الصدر عصرًا أكانته إلى عصر
 إن بحت طل دمي وإن تركت وقدت على توقد الجمر
 فلما اتهمه على قوله هذا بالزندة قال ، إنه قال بيئًا ثالثًا ، وأنشد :

(129) الصوالي ، أخبار الشعراء المحدثين ، ص : 7.

(130) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 20 ص : 73 — 78 .
 الصوالي ، أخبار الشعراء المحدثين ، ص : 8 وما بعدها .
 الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 7 ص : 44 — 45 .

(131) انظر ترجمة ابن إياس ، أبو فرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 12 ص : 8 وما بعدها .

(32) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ، ج : 12 ص : 100 — 101 .

(133) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 13 ص : 225 .

مما جناه على أبي حسن عمر وصاحب أبو بكر⁽¹³⁴⁾

وأقرت بنته بالزندة أمام الرشيد ، « وقالت : هذا دين علمي أبي ، وتبت

منه »⁽¹³⁵⁾

ونسب للزندة عدد من الشعراء العرب كوالبة ابن الحباب ، وهو كوفي ،
وكان من الفتى الخلقاء والمجان⁽¹³⁶⁾ واتهم ابن القارح أبا تمام بالزندة ، فذكر
عن الحسن ابن رجاء الكاتب قوله : « جاءني أبو تمام إلى خراسان ، فبلغني أنه
لا يصلني ، فوكلت به من لازمه أياماً ، فلم يره صلى يوماً واحداً ، فعانته ،
فقال : يا مولاي ، قطعت إلى حضرتك من بغداد ، فاحتملت المشقة وبعد
الشقة ، ولم أره ينفل على ، فلو كنت أعلم أن الصلاة تنفعني ، وتركها يضرني ما
تركتها »⁽¹³⁷⁾.

واتهم أبو العلاء دغيل ابن علي الخزاعي ، وقال عنه : « لم يكن له دين ،
وكان يتظاهر بالتشيع ، وإنما غرضه التكسب ، وكم أثبتت نسباً بتنسب ، ولا أرباب
أن دغيل كان على رأي الحكمي وطبقته ، والزندة فيهم فاشية »⁽¹³⁸⁾.

ولم يسلم أبو العناية من تهمة الزندة ، فوشت عليه امرأة ، كانت جارة
له ، أنه يكلم القمر ، واتصل الخبر بحمدوه صاحب الزنادة ، فصار إلى
منزلها ، وبات يرقب أبا العناية حتى رأه يصلى ، ثم يعود إلى مضجعه . وشكى
أبو العناية بعض صحبه ، ما يشيشه الناس عنه ، وقال له : « والله ما ديني إلا
التوحيد » فقيل له : « فقل شيئاً نتحدث به عنك ، فقال :

الآ إتنا كلنا بائد وأيبني آدم خالد

(134) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 12 ص : 88.

(135) مصدر نفسه . ج : 12 ص : 89.

(136) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 13 ص : 487.

(137) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 264.

(138) أبو العلاء المرعي ، رسالة الغفران ، ص : 210.

وكل الى ربه عائد
له ام كيف يجحده الجاحد
تدل على أنه واحد»⁽¹³⁹⁾

ويذهبون كان من ربهم
فيما عجبأً كيف يُغصَّ إلا
وفي كل شيء له آية

الكتاب الزنادقة :

لم تكن الزندقة حكراً على الشعراة ، وإنما تعدتهم للكتاب وفشت فيهم ، كما فشت الشعوبية ، وقد وصفهم الجاحظ بقوله : « والناس منهم إذا حفظ من الكلام فتيقه ومن العلم ملحة ، وروى لبز جمهر أمثاله ولارد شير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ولا بن المقفع أدبه ، وصيير كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنة كثر حكمته ، وتوهم أنه الفاروق الأكبر في التدبير وابن عباس في العلم والتأويل ... »⁽¹⁴⁰⁾.

« فيطعن في القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه . يكتب الأخبار وبهجون نقلتها ، ويتعرض من ذكر الرسول أو صحابته ، ولا يرى في ذلك منفعة ولا علماً إنما هو موله » سياسة أردشير بابكان ، وتدبير أنو شروان ، واستقامة البلاد لآل ساسان ، فإن حذر العيون ؟ وتفقده المسلمين ، رجع بذكر السنن إلى المعقول ، ومحكم القرآن إلى المنسوخ ، ونفي ما لا يُذْرُك بالعيان ، وشبه بالشاهد الغائب ، لا يرتضى من الكتب الا المنطق »⁽¹⁴¹⁾.

ومن هؤلاء الكتاب الزنادقة يونس ابن أبي فروة « وكان زنديقاً ، فطلب ، فاختفى بالكوفة ، ... واستكتب الرشيد يزدا بعادان على ديوان الخراج وكان ثنوياً»⁽¹⁴²⁾.

(139) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغانى ،
ج : 3 ص 142 — 143.

(140) الجاحظ ، ثلاث رسائل ، (نشر فتكل) (ذم اخلاق الكتاب) ص : 42.

(141) مصدر نفسه . ص : 42.

(142) م . ن . ص : 47.

« وكان إبراهيم (ابن إسماعيل ابن داود) شعوبياً ، وكان يتهم بالشنية »⁽¹⁴³⁾ وكان علي ابن عبيدة الريhani « أحد البلغاء والفصحاء له اختصاص بالمأمون ، ويسلك في تصنيفاته ، وتأليفاته طريقة الحكم ، وكان يُرْتَمِي بالزنادقة »⁽¹⁴⁴⁾ واتهم أيضاً محمد ابن الخطيب مولى بنى أمية ، وكان من كتاب البرامكة والغريب في الأمر أنَّ له كتاب « الرد على الزنادقة »⁽¹⁴⁵⁾.

وكان لأصحاب النشاط العقلي زنادقهم ، فقد نسب للزنادقة ثمانة ابن أشرس زعيم القدرية في زمن المأمون والمعتصم والوافق⁽¹⁴⁶⁾ ومن آشتهر بها من علماء الكلام « ابن طالوت ، أبو شاكر ، ابن أخي أبي شاكر ، ابن الأعدي الحريزي ، نعمنان ابن أبي العوجاء ، صالح ابن عبد القدوس ، ولهؤلاء كتب مصنفة في نصرة الاثنين ومذاهب أهلها ، وقد نقضوا كتبًا كثيرةً صنفها المتكلمون في ذلك . . . ومن تشهر أخيراً أبو عيسى السوراق ، وأبو العباس الناشي ، والجيهاني محمد ابن أحمد »⁽¹⁴⁷⁾.

الزنادقة العقلية :

ونوع آخر من الزنادقة العقلية قائم على إنكار الأديان جملة ، وإنكار النبوة والبعث والحساب ، تمثله الدهرية بالإضافة لمن اعتبر العقل إماماً يستطيع من خلاله الوصول إلى كل شيء ولعل أهم من يمثل هذا الإتجاه أحمد ابن يحيى الرواوندي ومحمد ابن زكريا الرازى .

فاما ابن الرواوندي ، فهو « أبو الحسين أحمد ابن يحيى ابن حمد ابن إسحاق الرواوندي من أهل مرو الروذ ، ولم يكن في نظرائه في زمنه أحذق منه

(143) الجاحظ ، ثلاث رسائل ، ص : 48 . (ذم أخلاق الكتاب)

(144) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 173 . ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 14 ص : 51—52

(145) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 175 .

(146) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 172 وما بعدها .

(147) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 473 .

بالكلام ، ولا أعرف بدقيقه وجليله ، وكان في أول أمره حسن السيرة جميل المذهب ، كثير الحباء ، ثم انسلاخ من ذلك كله بأسباب عرضت له «⁽¹⁴⁸⁾». وأشهر كتبه الناج يحتاج فيه لقدم العالم . والزمردة يحتاج فيه لإبطال الرسالة . ونعت الحكمة سفه الله تعالى فيه في تكليف خلقه أمره ، والدامغ يطعن فيه على نظم القرآن . والقضيب يثبت في أنَّ علم الله محدث ، وأنَّه كان غيرَ عالمٍ حتى خلق نفسه علمًا . الفريد في الطعن على النبي عليه الصلاة والسلام . والمرجان في اختلاف أهل الإسلام⁽¹⁴⁹⁾.

وقد نقض الخياط وغيره كُتبه وهو الذي لقَّن اليهود القول بعدم نسخ

شريعتهم⁽¹⁵⁰⁾

ويتلخص موقفه من الدين : بأنَّ العقل هو أصل المعرفة ، وأصل العمل ، والوحى إما أنْ يواافق العقل أو يخالفه ، فإنْ وافق العقل ، فلا حاجة له ، وبالعقل عنه غنى ، وإنْ خالفه فحينئذ يجب رفضه ، يقول «إنَّ العقل أعظم نعم الله . . . وإنَّه هو الذي يعرف به الرب ونعمه ، ومن أجله صح الأمر والنهي والترغيب والترهيب . فإنْ كان الرسول يأتي مؤكداً لما فيه من التحسين والتقييم والإيجاب والحظر ، فساقط عنا النظر في حجته وإجابة دعوته ، إذ قد غنينا بما في العقل عنه ، والإرسال على هذا الوجه خطأ ، وإنْ كان بخلاف ما في العقل من التحسين والتقييم والإطلاق والحظر ، فحينئذ يسقط عنا الإقرار بنبوته»⁽¹⁵¹⁾.

وعلى هذا الأساس رأى في الشريعة الإسلامية ما يتناقض مع العقل كالصلة وغسل الجنابة ورمي الحجارة والطواف في الحج⁽¹⁵²⁾ وانتقاد المعجزات ، وكذب

(148) ابن النديم ، تكميلة الفهرست ، ص : 4 — 5.

محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 263.

(149) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 263.

(150) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص 236.

(151) ادونيس ، الثابت والمحول - الكتاب الثاني ط 2 ، دار العودة ، بيروت 1979 ص : 74

(152) مرجع نفسه . ص : 74.

الأخبار الواردة عن « شرذمة قليلة يجوز عليها الموافطة في الكذب ». وانتقد معجزة هبوط الملائكة ، ومساعدة النبي في بدر متسائلاً عن عدم نصرتها له في أحد رغم تسره بين القتلى⁽¹⁵³⁾ . ويعتقد أنَّ الكلام الإنساني حادث يتعلمه الإنسان عن أبيوه ، يريده بذلك نقض الآية ﴿وَعَلِمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾⁽¹⁵⁴⁾ . ويرى أنَّ إعجاز القرآن ليس بمعجزة فإنه « لا يمتنع أن تكون قبيلة من العرب أفعص من القبائل كلها ، وتكون عدة من تلك القبيلة أفعص من تلك القبيلة ، ويكون واحد من العدة أفعص من تلك العدة . . . وهب أنَّ باع فصاحته طالت على العرب ، مما حكمه على العجم الذين لا يعرفون اللسان ، وما حجته عليهم »⁽¹⁵⁵⁾ .

ورغم إنكاره معجزة الإعجاز في القرآن على النحو الذي ذكرناه ، فقد انكر تحقيقها من الناحية العملية ، ورأى في كلام أكثم ابن صيفي أحسن من « إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ »⁽¹⁵⁶⁾ .

وكما انتقد القرآن من الناحية البلاغية فقد انتقده من الناحية المعنوية ، ورأى فيه ما يناقض العقل ، مثل وصف القرآن للجنة : فيها « آنِهارٌ مِّنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ »⁽¹⁵⁷⁾ وهو الحليب ، ولا يكاد يشتبهه إلا الجائع ، وذكر العسل ، ولا يطلب صرفاً ، والزنجبيل وليس من لذذ الأشربة ، والسدس ، يفرش ولا يلبس ، وكذلك الإستبرق الغليظ من الدبياج . . . ومن تخايل أنه في الجنة يلبس هذا الغلط ، ويشرب الحليب والزنجبيل ، صار كعروض الأكراد والنبط »⁽¹⁵⁸⁾ .

أما الرازى ، فقد انكر النبوة من وجهين . عقلي وتاريخي ، وقال إنَّ العقل أساس المعرفة ، ولذلك يجب أن يكون متبعاً لا تابعاً ، وهو « ينزع نزعة

(153) م . ن . ص : 74 — 75 .

(154) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، آية رقم : 31 .

(155) ادونيس ، الثابت والتحول - الكتاب الثاني ، ص : 76 .

(156) القرآن الكريم ، سورة الكوثر ، آية رقم : 1 ، انظر ادونيس الثابت والتحول ص : 76 .

(157) القرآن الكريم ، سورة محمد ، آية رقم : 15 .

(158) ادونيس ، الثابت والتحول - الكتاب الثاني ، ص : 76 .

فكرة حرفة من كل آثار التقليد او العدوى ، ويؤكد حقوق العقل وسلطاته الذي لا يحده شيء ⁽¹⁵⁹⁾.

الزنادقة الصوفية :

ومن الزنادقة من نشط بين المتصوفين ، وكان أشهرهم في هذا المجال الحسين ابن منصور الحلاج ، ومحمد ابن علي الشلمغاني ، وإن لم ينسب الأخير للصوفية ، فقد كانت حركته استمراً لحركة الحلاج ، ومتابعة لها ، وأضاف إليها القول بالتناسخ ، وكانت صورته صورة الحلاج ⁽¹⁶⁰⁾.

وكان «الحسين ابن منصور الحلاج» ، يُكتَنِي أبا مغيث ، وقيل أبا عبد الله ، وكان جده مجوسياً . . . من أهل فارس ⁽¹⁶¹⁾. وقيل من خراسان من نيسابور ، وقيل من مرو ، وعنه قال ابن النديم «ليس يصح في أمره وأمر بلده شيء البة» ⁽¹⁶²⁾. وكما اختلف في بلده ، فقد اختلف في نشأته ، فقيل نشا بواسط ، وادعى آخرون أنَّ نشأته كانت بستر ⁽¹⁶³⁾.

المهم أنه قدم بغداد ، فخالط الصوفية ، وصاحب من مشيختهم الجنيد ابن محمد ، وعمرو المكي ⁽¹⁶⁴⁾ ودعا إلى المهدي وزعم أنه يخرج من الطالقان ، فاعتقل بسبب دعوته تلك ، وأدخل بغداد وحبس فيها ، واتهم أنه يريد قلب الدولة ⁽¹⁶⁵⁾ ، فاحتال حتى هرب من السجن «وكان رجلاً مشعبداً ومتصنعاً مازجاً

(159) المرجع نفسه . ص : 85.

(160) محمد كرد علي ، رسائل البلقاء ، ص : 263.

(161) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 8 ص : 112 .

(162) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 279 .

(163) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 8 ص : 112 .

(164) مصدر نفسه . ج : 8 ص : 112 .

(165) ابن النديم . الفهرست ، ص : 269 — 270 .

كرد علي ، رسائل البلقاء ، رسالة ابن القارح ص : 262 .

نفسه بكل إنسان على حسب اعتقاده ومذهبـه ، ثم ادعى حلول روح القدس فيه ، وتسـمى بالـإله ، وصارت له الى أصحابـه رقـاع معـنـونـة بهذه الألفـاظ : من الهـوـهوـ الأـزـلـيـ الأولـ ، النـورـ السـاطـعـ الـلامـعـ ، والأـصـلـ الأـصـلـيـ وـحـجـةـ الحـجـجـ ، وـرـبـ الأـرـبـابـ ، وـمـنـشـيءـ السـحـابـ ، وـمـشـكـاةـ النـورـ ، ربـ الطـورـ المـتصـورـ فيـ كـلـ صـورـةـ إلىـ عـبـدـهـ فـلـانـ . وـكـانـ أـصـحـابـهـ يـفـتـحـونـ كـتـبـهـ اليـهـ : بـسـبـاحـانـكـ يـاـ ذـاتـ الذـاتـ ، وـمـنـتهـيـ غـایـةـ اللـذـاتـ ، يـاـ عـظـيمـ ، يـاـ كـبـيرـ ، أـشـهـدـ أـنـكـ الـبـارـيـ القـدـيمـ الـمـنـيرـ الـمـتصـورـ فيـ كـلـ زـمـانـ وـأـوـانـ ، وـفـيـ زـمـانـهـ هـذـاـ فيـ صـورـةـ الـحـسـينـ اـبـنـ مـنـصـورـ عـبـدـكـ ، وـمـسـكـينـ وـفـقـيرـ وـالـمـسـتـجـيرـ بـكـ ، وـالـمـنـيبـ الـلـيـكـ الـراـجـيـ رـحـمـتـكـ ، يـاـ عـلـامـ الـغـيـوبـ ، يـقـولـ كـذـاـ وـكـذـاـ⁽¹⁶⁶⁾ .

وـمـمـا يـنـسـبـ لـهـ قـولـهـ فـيـ الـحـلـولـ :

يـجـبـلـ العـبـرـ بـالـمـسـكـ الـفـقـتـ
فـإـذـاـ أـنـتـ أـنـاـ لـاـ نـفـتـرـقـ
جـبـلـتـ رـوـحـكـ فـيـ روـحـيـ كـمـاـ
فـإـذـاـ مـسـكـ شـيـءـ مـسـنـيـ
وـقـولـهـ :

تـمـرـجـتـ الخـمـرـ بـالـمـاءـ الـزـلـالـ
فـإـذـاـ أـنـتـ أـنـاـ فـيـ كـلـ حـالـ⁽¹⁶⁷⁾
مـزـجـتـ رـوـحـكـ فـيـ روـحـيـ كـمـاـ
فـإـذـاـ مـسـكـ شـيـءـ مـسـنـيـ

وـقـالـ فـيـ حـلـقـةـ أـبـيـ بـكـرـ الشـبـليـ :

يـجـلـ عـنـ وـصـفـ كـلـ حـيـ
مـنـ كـلـ شـيـءـ بـكـلـ شـيـ
فـمـاـ اـعـتـذـارـيـ إـذـاـ إـلـيـ
«ـيـاـ سـرـ سـرـ يـدـقـ حـتـىـ
وـظـاهـرـأـ بـاطـنـاـ تـبـدـيـ
يـاـ جـمـلةـ الـكـلـ لـسـتـ غـيـرـيـ

وـهـوـ يـعـتـقـدـ أـنـ الـعـارـفـ مـنـ اللهـ يـمـنـزـلـةـ شـعـاعـ الشـمـسـ ، مـنـهـاـ بـدـأـ وـالـيـهـ

يـعـودـ⁽¹⁶⁸⁾

(166) الـبـيـرونـيـ ، الـأـكـارـ الـبـاقـيـةـ ، صـ : 211—212.

(167) الـخـطـيـبـ الـبـغـادـيـ ، تـارـيـخـ بـغـدـادـ ، جـ : 8 صـ : 115.

(168) كـردـ عـلـيـ ، رـسـائـلـ الـبـلـغـاءـ ، صـ : 262—263. (رسـالـةـ اـبـنـ الـقـارـحـ).

وبسبب دعوه الحلول ، ادعى أنه يستطيع أن يقول مثل القرآن⁽¹⁶⁹⁾ وأمن به قوم ، وادعوا له الألوهية ، فقبض حامد الوزير على جماعة منهم ، وناظرهم في ذلك ، فذكروا له «أنهم قد صح عندهم أنه إله ، وأنه يحيي الموتى»⁽¹⁷⁰⁾.

«وقد اختلف فيه المتكلمون ، والفقهاء ، والصوفية ، فاما المتكلمون ، فأكثراهم على تكفيه ، على أنه كان على مذهب الحلولية ، وقبله قوم من متكلمي السالمية بالبصرة ، ونسبوه الى حقائق معاني الصوفية»⁽¹⁷¹⁾.

وانقسم فيه مشايخ الصوفية منهم من برأ منه ومنهم من قبله ،⁽¹⁷²⁾ وظن الغزالى وعبد القاهر الكيلانى فيه خيراً واعتذرا عنه ، وكان لما خرج ليقتل ، قال :

طلب المستقر بكل أرض فلم أر لي بأرض مستقرا
أطعنت مطاعمي فاستعبدتني ولو أني فنت لكتن حرا⁽¹⁷³⁾
وقد تشكيك ابن الأثير فيما نسب اليه ، وروى أن الحلاج أنكر التهمة ،
وقال : «أعوذ بالله أن أدعى الربوبية أو النبوة ، إنما أنا رجل عبد الله عز وجل»⁽¹⁷⁴⁾.

وظهر بعد الحلاج رجل يدعى محمد ابن علي ابن أبي العذاقر⁽¹⁷⁵⁾ الشلمغاني⁽¹⁷⁶⁾ وكانت صورته صورة الحلاج⁽¹⁷⁷⁾ ، فادعى أنه رب الأرباب عن طريق الحلول والتناسخ وأبطل الشريعة ، فقبض عليه وعلى أصحابه الراضي بالله وقتلهم . وكان

(169) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 8 ص : 121.

(170) مصدر نفسه . ج : 8 ص : 133.

(171) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 261.

(172) مصدر نفسه . ص : 262.

(173) الدميري ، حياة الحيوان المكبرى ، ج : 1 ص : 245—246.

(174) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 8 ص : 290 وما بعدها.

(175) ورد هذا اللقب بروايات مختلفة منها : العذافر والعذاقر والقرقر .

(176) نسبة الى قرية من قرى واسط تعرف بشلمغان .

(177) كرد علي ، رسائل البلقاء ، ص : 263 . (رسالة ابن القارج) .

من معتقداته : أنَّ الله حل في آدم وإبليس ، ثم في إدريس وإبليس ثم في نوح وإبليس ثم في هود وإبليس ، ثم في صالح وإبليس ، ثم في إبراهيم وإبليس ، ثم في هارون وإبليس ثم في سليمان وإبليس ثم في عيسى وإبليس ، ثم في تلاميذ عيسى وأباليتهم ثم في علي ابن أبي طالب وإبليس ، ثم في ابن أبي العذاقر وإبليس » ، ويصف أنَّ الله عز وجل يظهر في كل شيء بكل معنى ، وأنَّه في كل أحد بالخاطر الذي يخطر بقلبه ، فيتصور له ، يغيب عنه كأنَّه يشاهد ، وأنَّ الله اسم لمعنى ، ومن احتاج إليه الناس فهو إلههم ، ولهذا يستوجب كل كفي أنْ يُسمَّى الله ، وأنَّ كل واحد من أشياعه لعنه الله ، يقول : إنَّه رب لمن هو دون درجته ، وإنَّ الرجل منهم يقول : إني رب فلان ، وفلان رب فلان ، حتى الانتهاء إلى ابن أبي العذاقر ، لعنه الله ، فيقول : أنا رب الأرباب ، إله الآلهة ، لا ربوبية لرب بعدي ⁽¹⁷⁸⁾ والعذاقرية ينكرون أنْ يكون الحسن والحسين أولاد على ، لأنَّ من اجتمعت له اللاهوتية لم يكن له والد ولا ولد ، ويسمون موسى ومحمدًا بالخائنين لأنَّهم يدعون : أنَّ هاروناً أرسل موسى ، وأنَّ علياً أرسل محمدًا ، فخانهما . ويقولون إنَّ الملائكة من ملك نفسه ، وإنَّ الجنة معرفتهم (العذاقرية) والنار الجهل بهم ، ويغتفرون الصيام والصلوة والإغتسال ، ويتناكحون على غير تزويع ، وبيبحون الفروج ، ويتهادون النساء ، وكانوا يرون البراءة من الطالبين والعباسيين ⁽¹⁷⁹⁾ وقد تغير بابن أبي العذاقر قوم منهم : إبراهيم ابن أبي عون ⁽¹⁸⁰⁾ والحسين ابن القاسم ابن وهب الذي وزر للمقتدر ، وأبو جعفر وأبو علي ابن بسطام ، وابن شبيب الزيارات ، وأحمد ابن عبدوس ⁽¹⁸¹⁾.

وقد ذكر لهم ياقوت رسائل وجوابات ، لا يخاطب بمثلها البشر بشراً مثلهم ⁽¹⁸²⁾.

(178) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 1 ص : 245 وما بعدها .

(179) مصدر نفسه . ص : 243 ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج : 8 ص : 290 .

(180) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 211 شذرات الذهب ج : 2 ص : 293 .

(181) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج : 2 ص : 90 . وما بعدها .

(182) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 1 ص : 234 وما بعدها .

استغلالُ الزندقةِ للتنكيل بالمعارضة :

وبعد ، هل كانت الزندقةُ فاشيةً لدرجة اضطرت الدولة لاستنفار أجهزتها في سبيل القضاء عليها واجتثاث أصولها ؟ وهل كان هذا العمل خالصاً إلى الله تعالى ، بريئاً من الأغراض والخصومات السياسية والشخصية ؟

إنَّ ما يلفتنا لهذا العصر هو تبني العامة إلى هذا المعنى ، فكان ينسب إليه كل من تظهر منه بادرة مجنون واستهتار بأمور الدين ، كما إنَّها تهمة يتهم بها كل إنسان من يعانده أو يعاديه ، صحيح أنَّ الزندقة كانت موجودة وكان الزندقة ناشطين في مختلف الطبقات ، لكنهم لم يشكلوا حركة أو حزباً ينظم نشاطهم ، ويرعى تحقيق أهدافهم ، فبقيت الزندقة عملاً فردياً يختلف الدافع إليه باختلاف الأشخاص .

واتخذت السلطة العباسية من الزندقة ستاراً للتنكيل بمعارضيها وأشياعهم . وقد مر معنا كيف تساهل أبو جعفر المنصور مع الزندقة وكيف استغلتهم لماربة السياسية ، وكيف اجتهد المهدي في دفع التهمة عن مطيع ابن إيس ، لمعونة الأخير له في ثبيت البيعة .

وقد تعجب الأستاذ أحمد أمين كيف أنَّ بشاراً ظل طول حياته « يقول الشعر الماجن الخليع ويترعرع للدين من قريب أو بعيد ، ويظل في ذلك ثمانين عاماً أو نحوها ، فلا يتعرض له أحد ، إلا ما نهاء الخليفة عن الغزل ! بل نرى المهدي - وهو أكبر من اضطهد الزندقة - يحميه ، ويتأول له الفقهاء ، فلما بلغ الثمانين أو جاوزها ، هجا يعقوب ابن داود . . . وهجا المهدي نفسه فأفاحش ، فعند ذلك - فقط - عوقب بشار على زندقته ! »⁽¹⁸³⁾. ولما أفسد الربع المهدى على شريك القاضي ، اتهم المهدى شريكه بالزنادقة⁽¹⁸⁴⁾. وكان الأعراب في بادية البصرة قد

(183) أحد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : 1 ص : 157 .

(184) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 43 .

ثاروا وقطعوا الطريق ، فجرد المهدى لهم الجيوش ، وأشاع بأنهم قطعوا

الصلة⁽¹⁸⁵⁾.

وطالما مدح الأصمي البرامكة وغدر في مجالسهم ، فنكبا ، واتهموا بأنهم زنادقة على دين المجوس ، فقال الأصمي :

إذا ذكر الشرك في مجلس أنارت وجوه بنى برمك
وإن تُلِيتْ عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

وقيل فيهم :

إن الفراغ دعاني إلى ابتناء المساجد
وإن رأيي فيها كرأي يحيى ابن خالد⁽¹⁸⁶⁾

ومدح علي ابن جبلة العكوك أبو دلف العجلبي بقصيدة فيها :

« إنما الدنيا أبو دلف بين باديه ومحترمه
فإذا ولَى أبو دلف ولَتَ الدنيا على أثره
كل من في الأرض من عرب بين باديه إلى حضره
مستعير منك مكرمة يكتسيها يوم مفتخره

فأعطاه أبو دلف مائة ألف درهم ، ولما بلغت المأمون ، غضب غضباً شديداً على العكوك ، فطلَّبَ ، فتهربَ . فاجتهدوا إلى أن جاؤا به مقيداً ، فلما صار بين يديه (المأمون) قال له : « يا ابن اللخاء ، أنت القائل في مدحك لأبي دلف : كل من في الأرض من عرب .. جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ، ويفتخرون بها ! فقال : يا أمير المؤمنين ، أنتم أهل بيت لا يقال بكم ، لأن الله تعالى اختصكم لنفسه على عباده ، وآتاكم الكتاب والحكم ، وإنما ذهبت في شعرني

(185) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 77.

(186) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 51.

ابن العماد الحنفي ، ج : 1 ص : 206 ، 337.

لأقران وأشكال أبي دلف : فقال : والله ما أبقيت من أحد ولقد أدخلتنا في الكل ، وما استحل دمك بهذا ، ولكن بكفرك حيث قلت في عبد ذليل :

أنت الذي تنزل الآيات منزلها وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما نظرت مدى طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وأجال

ذاك هو الله يا كافر ، اخرجوا لسانه من قفاه ، ففعلوا به ذلك فمات »⁽¹⁸⁷⁾

لقد تحيل المأمون الحيل على العكوك حتى اتهمه بالزنادقة والكفر وقتلها عليها ، لأنَّ مدح رجلاً في شعر يرى المأمون أنه أحق بالمدح في هذا الشعر ، في حين أنَّ الزنادقة ورؤسائهم ، كانوا يأتونه ، ويجاهرون بآرائهم في مجالسه ويناظرونه ، ويعدون إلى ديارهم سالمين .

والزنادقة في أي حال لم تكن سمة هذا العصر كما قد يُخَيِّلُ اليَنا ، فهي « بمعنى الشك أو الإلحاد ، كانت حظ قليل من المفكرين إذا قيس بالعدد العديد من المؤمنين . ولذلك استطاع المؤرخون ، وكتاب المقالات الدينية أن يسموا الزنادقة على شَكْهُم في زندقة بعضهم ، ولكن كان من العسير أن يسموا المؤمنين ، لأنَّ الإيمان هو الأساس ، والزنادقة ليست إلا شذوذًا في اتجاه التيار العام »⁽¹⁸⁸⁾ وفشلَت الشعوبية في هذا المجال فشلاً كاملاً وانتصر الإسلام .

(187) ابن حجة ، ثمرات الأوراق ، ج : ١ ص : ١١٢ .

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : ٢ ص : ٣٥ .

(188) احمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : ١ ص : ١٥٨ .

الفصل الثاني

الحركات الشورية ذات الأساس الديني وعلاقتها بالشعوبية

الحركات الثورية

ذات الأساس الديني وعلاقاتها بالشمولية

لَئِنْ تَسْتَرَ الزَّنادِقَةُ فِي عُمْقِ الدُّولَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَأَظَهَرُوا إِلِيْ إِسْلَامَ وَأَسْرَوْا غَيْرَهِ حِرْصًا عَلَى حَيَاتِهِمْ ، وَلَئِنْ فَشَلُوا فِي تَنْظِيمِ صَفَوفِهِمْ فِي حَرْكَةٍ ثُورِيَّةٍ تَسِيرُ فِي تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمْ إِلَى الْأَمَامِ . فَقَدْ جَاهَرُوا بِعَقَائِدِهِمْ فِي الْأَقْالِيمِ الْفَارَسِيَّةِ ، وَقَامُوا بِسَلْسَلَةٍ مِنَ الْحَرْكَاتِ الثُّورِيَّةِ ، كَانَ هَدْفُهَا الْقَضَاءُ عَلَى الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَالْعُودَةُ بِيَلَادِهِمْ إِلَى الْحَالَةِ السِّيَاسِيَّةِ الْدِينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ قَائِمَةً قَبْلَ الْفَتحِ الْعَرَبِيِّ .

وَإِذَا كَانَ انتِقالُ الْحُكْمِ مِنَ الْأَمْوَابِينِ إِلَى الْعَبَاسِيِّينِ ، يَعْنِي نِهايَةَ الْعَهْدِ ذِي الصِّبَغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْخَالِصَةِ ، وَبِدَائِيَّةِ عَهْدِ ذِي الصِّبَغَةِ اسْلَامِيَّةِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُرِضِ الْمُتَعَصِّبِينَ مِنَ الْفَرَسِ تَامَ الرُّضْيِ . لَكِنَّهُمْ قَبْلُهُ وَعَاصِدُوهُ فِي الْبِدايَةِ ، لَأَنَّهُ يُتَحِّلُّ لَهُمْ حُرْيَةُ أَكْثَرٍ فِي الْعَمَلِ عَلَى تَحْقِيقِ أَهْدَافِهِمُ الْقَومِيَّةِ وَالْدِينِيَّةِ . وَكَانَ لِقَتْلِ أَبِي مُسْلِمِ الْخَرَاسَانِيِّ أَثْرٌ هَامٌ فِي نَشُوبِ الْعَدِيدِ مِنَ الْشُّورَاتِ الْفَارَسِيَّةِ ، فَقَدْ تَبَنَّتْ الْخَرَمِيَّة^(۱) وَجَعَلَتْهُ رَمْزاً مَلْهُماً لِلثُّورَةِ عَلَى الْعَرَبِ وَإِسْلَامِ ، «وَكَانَ الدِّينُ الْإِيْرَانِيُّ

(۱) الْخَرَمِيَّةُ ، وَهُمُ الْمُحَمَّرَةُ ، يَتَشَرَّوْنَ فِيهَا بَيْنَ آذَرِيْجَانَ وَأَرْمَنْيَةَ وَبِلَادِ الدِّيْلَمِ ، وَهَذَانَ وَدِينُورَ وَأَصْفَهَانَ وَبِلَادِ الْأَهْمَازِ ، وَهُمْ مُحَوسُونَ فِي الْأَصْلِ ، وَصَاحِبُهُمْ مَزْدَكُ الْقَدِيمُ «أَمْرُهُمْ بِتَنَاهُلِ الْلَّذَاتِ ، وَالْإِنْكَافِ عَلَى بَلْوغِ الشَّهَوَاتِ ، وَالْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَالْمَوَاسِيَّةِ وَالْإِخْلَاطِ» ، وَتَرَكَ الإِسْتِبَدَادُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَوَطَمَ مُشارِكةً فِي الْحَرَمِ وَالْأَهْلِ ، لَا يَمْتَنِعُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مِنْ حَرَمَةِ الْآخَرِ ، وَلَا يَمْنَعُهُ ، وَمَعَ هَذِهِ الْحَالِ فَيَرُونَ أَفْعَالَ الْخَيْرِ ، وَتَرَكَ الْقَتْلَ وَادْخَالَ الْآلَامِ عَلَى النَّفُوسِ ، وَلَمْ يَذْهَبْ فِي الْضَّيَافَاتِ لِيَنْ لَاحِدٌ مِنَ الْأَمَمِ ، إِذَا أَصَافُوا الْإِنْسَانَ لَمْ يَمْنَعُهُ مِنْ شَيْءٍ يَلْتَمِسَ . . . وَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ مَزْدَكُ الْآخِرِ» ، وَأَحَدُ بَابِكَ فِي مَذَاهِبِ الْخَرَمِيَّةِ الْقَتْلُ وَالْغَصْبُ وَالْحَرْبُ وَالْمَلَةُ وَادْعَى أَنَّهُ إِلَهٌ . أَبْنُ النَّدِيمِ ، الْمَهْرَسْتُ ،

ص : 479 — 480.

القومي . . . لا يزال يؤثر في عقول الناس تأثيراً قوياً»⁽²⁾.

وقد بذلت قبل ذلك جهود حثيثة في بعثها وتهذيبها ، قام بها فريد الذي حاول تهذيب المجنوسية والعودة بها إلى أصلتها الزرادشتية ، فادعى أنه صعد إلى السماء ، وأن الله أوصى اليه ، فتبعه خلق كثير من المجنوس ، وكان قد خالف الديانة المجنوسية في أكثر الشرائع ، وصدق زرادشت ، «وزعم أنه يُوحى اليه في السر ، وفرض عليهم سبع صلوات ، صلاة في توحيد الله ، وصلاة في خلق السموات والأرض ، وصلاة في خلق الحيوان وإرزاقه ، وصلاة في الموت ، وصلاة في البعث والحساب ، وصلاة في أهل الجنة والنار وما أعد لهم ، وصلاة في الموت»⁽³⁾ وأمرهم بالسجود ناحية الشمس على ركبة واحدة وإرسالهم الشعر وترك الزمرة عند الطعام ، وحرم ذبح الحيوان إلا ما هرم ، وشرب الخمر وأكل الميتة ونكاح الأمهات والبنات والأخوات وبنات الأخ ، وشى به الموابنة ، فعرض عليه أبو مسلم الخراساني الإسلام فقبله ، ثم لم يقبل إسلامه لأنَّه تَكَهَّن ، فُقتل وصُلِّب⁽⁴⁾.

وإذا قتل بها فريد بتحريض من الفرس المجنوس أنفسهم ، فإنَّ قتل أبي مسلم الخراساني من قبل المنصور قد أُجْعَجَ العواطف الفارسية ، وانقسم أشياعه بين مصدق بميته ومنكر ، فزعم إسحاق الترك - أحد دعاته في بلاد ما وراء النهر - أنه حي وأنَّه محبوس في جبال الري ، وأنَّه يخرج في وقت يعرفه . وادعى أنه نبي أرسله زرادشت وزعم أنَّ زرادشت حي أيضاً وَأنَّه يخرج حتى يقيم الدين لهم⁽⁵⁾ . فقد أصبح أبو مسلم بعد مقتله المهدى المنتظر عند الخرمية من المجنوس . والحق أنَّ كثيراً من علماء المجنوس ورجالاتهم كانوا يشيرون بين

(2) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص : 181 — 182.

(3) البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 210 — 211.

(4) مصدر نفسه . ص : 210 — 211.

ابن النديم ، الفهرست ، ص : 482 وما بعدها .

(5) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 483.

الناس حتمية خروج «إنسان يعيد دولة المجروسية ، ويستولي على الأرض كلها ويزيل ملك العرب»⁽⁶⁾

هذا الأمر جعل نفوسهم تتوق لخروج هذا الرجل ، فناصروا كل رافع راية علمه يكون القائم الذي يتظرون .

ثورة سباد :

أما الذي رفع راية الثأر لأبي مسلم فهو سباد الذي خرج بطلب بدمه ، فسار في جيش كبير إلى الري فغلب عليها ، وعلى قومس وما يليها واستولى على خزائن أبي مسلم . وكان قد تسمى فيروز أصبهذ وأظهر أنه يريد أن يقصد الكعبة وبهدتها ، كثر أتباعه ومعظمهم من أهل الجبال وطبرستان ، فوجه المنصور جمهور ابن مرار العجلاني في عشرة آلاف فارس ، فلما التقى الجمعان قدم سباد السبايا من النساء المسلمات « فلما رأين عسكر المسلمين قمن في المحامل ونادين : وامحمداء ! ذهب الإسلام ، ووقيعت الريح في أثوابهن ، فنفرت الإبل ، وعادت على عسكر سباد ، فتفرق العسكر ، وكان ذلك سبب الهزيمة ، وتبع المسلمين الإبل ، ووضعوا السيوف في المجروس ومن معهم فقتلوهم كيف شاؤوا ، وكان عدد القتلى نحوً من ستين ألفاً⁽⁷⁾ وفر سباد فُقتل في فراره بين طبرستان وقومس ، وقد استمرت ثورته سبعين يوماً⁽⁸⁾ .

ثورة استاذ مبس :

ولكن القضاء السريع على سباد وثورته ، لم يقض على النكمة في صدور

(6) البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 213.

(7) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 481.

(8) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 306.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 481.

ابن طباطباه الفخري ، ص : 171.

أتباعه ، ثبّقى تضطّرُم وتناجح وتنظر ، فخرج أستاذ سيس ، فادعى النبوة ، وكثُر أتباعه حتى بلغوا ثلاثة ألف مقاتل فاستولى بهم على خراسان ، وهاجم مرو الروذ ، فنهض لقتاله الأجسم المروذى ، فُقتلَ واستُبيَّحَ عَسْكَرُهُ ، فوجئ له المنصور عدة من القواد فهزّهم ، منهم : معاذ ابن مسلم ، وجبرائيل ابن يحيى ، وحماد ابن عمرو ، وأبو النجم السجستاني ، ودادود ابن كرار ، وأخيراً وُقُتِّ خازم ابن خزيمة ، فهزمه بعد معركة قتل فيها أكثر من سبعين ألفاً وأسر من أتباعه أربعة عشر ألفاً ، وانهزم أستاذ سيس ، وتحصن في جبل ، فحاصره خازم وأجبره على الإسلام فقيده وأعْنَقَهُ وأكثر من ثلاثين ألفاً⁽⁹⁾.

ثورة المقنع :

ولم تهدأ الخرمية لا في زمن المهدى ولا في عهد الرشيد ، فظهر المقنع الخراساني ، وكان رجلاً أعمور من أهل مرو ، ويسمى حكيمًا وقيل عطاء وسمى نفسه هاشماً ، وادعى أنه التجسد الجديد للذات الإلهية بعد أبي مسلم وكان يقول : إن الله خلق آدم ، فتحول في صورته ، ثم في صورة واحد واحد من الأنبياء ، حتى تحول في صورة أبي مسلم الخراساني ، ثم تحول إلى هاشم - يعني المقنع - وكان يغطي وجهه بقناع من ذهب ، وقال بتناصخ الأرواح وتابعه خلق من ضلال الناس ، وكانوا يسجدون ناحيته ويقولون : يا هاشم أعنَا⁽¹⁰⁾

«وكاتب خاقان واستجده ، واجتمع إليه البيضة والترك ، فأباح لهم الأموال والفروع وقتل من خالف ، وشرع لهم جميع ما أتى به مزدك»⁽¹¹⁾ .

وقد غالب على عقولهم بالتمويه والسحر والنيرجات ، من ذلك أنه أظهر لهم

(9) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 . ص : 591 وما بعدها .

الخليل ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 225 .

(10) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 38 — 39 .

(11) البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 211 .

صورة قمر يطلع ، ويراه الناس من مسافات بعيدة ، ففتنهم فعظم اعتقادهم فيه وصدقه⁽¹²⁾.

فما كان من المهدى إلا توجيه الجيوش في طلبه ، فهزم جيشاً بعد آخر حتى استطاع سعيد الحرشى هزيمته ، وحصاره بقلعته بكش ، فلما أيقن بالموت ، أحرق أهله ونفسه ، وقيل شرب سماً وسقاهم ، فدخل المسلمين القلعة فوجدوها خالية ، خاوية ، فاحتزوا رأسه ، وأرسلوه إلى المهدى ، وكان بحلب⁽¹³⁾.

الخَرْمَيْة :

وظهرت الخرميَّة مجدداً ، فوجه إليهم محمد الأمين عبد الله ابن مالك الخزاعي ، فقضى على ثورتهم ، وشردهم⁽¹⁴⁾ . ولكن إلى حين ، فما إن اشتعلت الحرب بين الأمين والمأمون ، واضطرب حبل الأمن في البلاد ، حتى أحست الخرميَّة أنَّ الفرصة مؤاتية هذه المرة أكثر من ذي قبل ، فأعلنوا ثورتهم بقيادة بابك الخرمي ، الذي يتسبُّب في رواية إلى فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني ، التي يتسبُّب إليها الفاطمية من الخرميَّة⁽¹⁵⁾ وقيل في نسبة روايات أخرى . ومهما يكن من أمر ، فإنَّ جاويidan⁽¹⁶⁾ صاحب جبل البذ اصطفاه لنفسه ، فلما مات من أثر جراحة كانت قد أصابته في بعض حروبه ، اتفقت امرأته مع بابك وكان يتعشقها ، ويفجر بها ، بأن تروي لاصحاب زوجها أنَّ جاويidan قد صرخ قبل موته بأنَّ روحه ستحل في بابك وتتشترك مع روحه ، وأنَّ بابك سيبلغ بالخرميَّة أمراً لم يبلغه أحد ، ولن يبلغه بعده أحد ، وأنَّ الرجل الذي سيملك الأرض ، ويرد المزدكيَّة

(12) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس دار صادر 1978 ج : 3 ص : 263.

(13) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 9 ص : 338 ، 342 البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 211 . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 38—39 . كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص : 259 .

(14) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 391—392 .

(15) مصدر نفسه . ص : 402 .

(16) جاويidan ، يعني الدائم الباقى / ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 328 .

إلى عزها ومنتها ، فلما تجمع إليها الجيش وتساءلوا ، لماذا لم يدع بهم ، ولم يوص إليهم اعتذر بقولها : إنهم كانوا متفرقين في منازلهم ، فخشى أن انتشر الخبر ، أن لا يأمن عليهم شرة العرب ، فصدقوها ، وسألوها عن وصيحة جاويidan ، فأخبرتهم بما كانت قد تأمرت مع بابك عليه ، فأذعن القوم ، وتملك أبابك عليهم⁽¹⁷⁾.

نستطيع من خلال الحوار الذي جرى بين المرأة وبابك ثم بينها وبين أتباع زوجها أن نتبين الأهداف التي كانوا يحلمون جميعاً بتحقيقها ، من الإستقلال ، حتى العودة بالمزدكية إلى سابق عزها بل إلى عز ما بلغته في يوم من الأيام !

المهم أنَّ بابك تزعم أتباع جاويidan ، واستغل فترة الإضطراب والقلق التي تلت قتل الأمين ، فأعلن عصيانه ، وفشلت جميع حملات المأمون في القضاء عليه . وأخيراً هزم بابك ، وفتحت مدینته على يد الأشين كير قواد المعتصم بعد حروب دامت زهاء عشرين عاماً كلفت الدولة الكثير من العناء والأزمات ، وبلغت الضحايا أكثر من ربع مليون قتيل . ويعد سبب صمود بابك كل هذه الفترة لحماسة أتباعه ، واندفعهم ، واستعجال المأمون بالأزمات الداخلية العديدة التي نسبت إثر توليه السلطة والتي وقفت حائلاً دون الإهتمام الكلي ببابك ثورته أضف إلى ذلك وعورة الإقليم الذي ثار به بابك ، وتحالفه مع الروم والعديد من القوى المحلية الأخرى⁽¹⁸⁾.

(17) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 480 وما بعدها .

(18) انظر في هذه الفرة ، الديبوري ، الاخبار الطوال ، ص : 402 .
الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، ج : 10 ص : 244 .

انسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 29 ، ج : 4 ص : 55 .
ابن النديم ، الفهرست ، ص : 480 وما بعدها .

البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 266 وما بعدها .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 328 وما بعدها .

ولم تك ثورة بابك تخمد حتى اشتعلت ثورة المازيار ابن قارن ابن بنداء حس صاحب جبال طبرستان ، وكان المأمون قد اصطنهه وولاه ، فتمرد أيام المعتصم ، وبعَيْد القضاء على بابك ، وكان السبب منافرة وعداوة بينه وبين عبد الله ابن طاهر والي خراسان الذي أوجر صدر المعتصم عليه ، وقام الأفшинين بلعب دور المحرض لمازيار على الثورة طمعاً أن يوليه المعتصم خراسان . فأظهر دين المحمرة وجبي الخراج بسرعة واستعد للمواجهة مع جنود الخلافة ، واعتدى على المسلمين ، فكلف المعتصم عبد الله ابن طاهر بحربه ، فاستناب عمه الحسن ابن الحسين الذي حاربه وأسره ، وحمله إلى سامراء ليلقى مصير بابك ، وفي عاصمة الخلافة ، فضح الدور الذي لعبه الأفشنين في هذه الثورة وأقر المازيار بتحريض الأفشنين له ، وكُشفت مكاتبات تدل على مؤامرة كبيرة كانت تحاك ضد العرب والمسلمين ، ولما عزم المعتصم على قتلهم ، قيل له : لا تجعل عليه ، فإنَّ عنده أموالاً ، فأنشد :

« إنَّ الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب⁽¹⁹⁾
فقتله ، وصلبه بجانب بابك ، وأمر بسجن الأفشنين حتى مات ، ثم صلبه مع صاحبيه ، وقد خلد أبو تمام هذه المناسبة بقصيدة يقول فيها :

إذ صار بابك جار مازيار
كاثنين ثان إذ هما في الغار
من ناطس خبراً من الأخبار
أيدي السموم مدارعاً من قار
قيدت لهم من مربط النجار
أبداً على سفر من الأسفار

« ولقد شفى الأحساء من برحائهما
ثانية في كبد السماء ولم يكن
وكأنما اتبذا لك بما يطروها
سود اللباس كأنما نسجت لهم
بكروا وأسرعوا في متون ضوامر
لا ييرحون ومن رأهم خالهم

وقيل هذا في وصف الأفشنين خاصة :

(19) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج : 22 ص : 22

رمقوا أعلى جذعه فكأنما رمقوا الهلال عشية الإفطار⁽²⁰⁾

وقد بقى طائفة تؤمن بمازيار كما آمنت ببابك ، ولكنها تظهر الإسلام خوفاً من السلطان⁽²¹⁾ .

يمكنا القول بعد استعراض هذه الحركات إنَّ الدعوة العباسية أسهمت في تنشيط الشعور القومي بين الفرس ، وساعدت على بirth الحركات الدينية الفارسية ، بتهيئة الظروف الملائمة لها ، وخاصة الخرميَّة التي رفعت راية الشورة على أساس برنامج سياسي اقتصادي ديني متكمال ، يتلخص بتطبيق اشتراكية مزدك على الصعيد الاجتماعي وضرب الإسلام على الصعيد الديني ، وإعادة السلطان إلى العجم على الصعيد السياسي .

ويلاحظ الدوري : أنَّ الصدام بين العرب والفرس ، كان يقابله صراع موازٍ بين الموجوسية والإسلام . وأنَّ هذه الثورات لم تكون إسلامية مهما تستر أصحابها بالإسلام ، وأنَّ فشلها يشعر بقوة السلطان القائم⁽²²⁾ في حين رأى فاروق عمر أنَّ هذه الثورات كانت نتيجة طبيعية لقيام الدولة العباسية فالداعية العابسيون قد حرکوا أفكاراً وأملاً كان من الصعب إخمادها والقضاء عليها وفشل السلطنة العباسية في تطبيقها فأصبت الشعوب الإيرانية بخيبة أملٍ مريرةٍ فعبروا عن نعمتهم بمناصرة الثوار ضد السلطة العباسية المركزية سواء أكان الثوار من الفرس كسباذ أو اصحاب الترك والمقنع وغيرهم أو كانوا من العرب كجمهور ابن مرار العجلي وعبد الجبار الأزدي ورافع ابن الليث وأنَّ الطابع الاجتماعي والإقتصادي كان متلازماً مع الطابع الديني الذي كان مزيجاً من تعاليم الإسلام والدينات الفارسية⁽²³⁾ .

(20) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج : 5 ص : 123 .

(21) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 61 وما بعدها .

البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 268 وما بعدها .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 495 وما بعدها .

(22) الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص : 32 وما بعدها .

(23) F. Omar, Islamic Culture, Vol. 48, January 1974, Ilader Abad. P. 1—9.

الباب الثالث

الفصل الأول : الشعوبية والبعد الاجتماعي

الفصل الثاني : الشعوبية والبعد السياسي

الفصل الأول :

الشعوبية والبعد الاجتماعي

الشعبية والبعد الاجتماعي

الإنسان بفطرته كائن اجتماعي ، عاش في إطار الجماعة منذ عرف الوجود ، ولم يعرف العزلة المطلقة في أي دور من أدوار حياته ، ذلك لأنه بحكم تكوينه الطبيعي بحاجة إلى غيره لتأمين حاجاته المختلفة ، وكما ستحيل على الإنسان أن يعيش في عزلة عن أفراد مجتمعه ، كذلك ستحيل على المجتمعات أن يبقى بعضها في عزلة عن بعض ، فقد خصت الطبيعة كلّ مجتمع بلون من الانتاج تحتاج إليه المجتمعات الأخرى ، مما يضطرها للتبدل ، ومن ثم لتكوين العلاقات فيما بينها .

وهذه العلاقات - مع الزمن - تكون تفاعلاً حضارياً إنسانياً عاماً ، فنظهر الفلسفات الإنسانية ، وتتجلى القيم والمثل العليا التي يجب أنْ تسود العلاقات الإجتماعية ، التي تنشأ عادة استجابة لنشاط أو سلوك اجتماعي . وهذه العلاقات تشمل كُلَّ ما يقيمه الإنسان في مجتمعه وخارج هذا المجتمع من صلات ، تختلف باختلاف المجتمعات تبعاً لتراثها الثقافي والحضاري .

والعرب حين اندفعوا خارج جزيرتهم ، لم يندفعوا فاتحين فحسب بل مبشرين أيضاً برسالة جديدة هي : « الإسلام ». فاللتقت حضارتهم الصحراوية البسيطة بحضارة البلدان المفتوحة ، ولا سيما بحضارة الفرس . ورغم أنَّ التمايز كان عظيماً بين الحضارتين ، وقواعد السلوك الإجتماعي متباعدة لدى الشعوبين ، فقد تزاوجت الحضارتين ، وتفاعلتا ، وأسهما في ارتقاء الحضارة الإسلامية ، وخلال عملية التزاوج تلك حدث كثير من المنافسة بين الحضارتين ، وكانت كل

حضارة تحاول فرض نفسها وإثبات وجودها في المجتمع الجديد

ولقد نجح العرب في تمثيل الإسلام تمثلاً صحيحاً قبل أن ينطلقوا بدينهم الجديد خارج شبه الجزيرة العربية . والإسلام لا يمثل بعداً ميتافيزيقياً أو إيماناً غبياً فقط ، إنما يقرر قواعد سلوك الإنسان الاجتماعي ، لا تقل أهميتها عن معتقداته في البعث والحساب ، وعليه فإن للإسلام بعداً إجتماعياً ، ويترعرر على معتقده أن يحترم في سلوكه الاجتماعي أوامر الدين ونواهيه .

وبعد ، هل انتصر الشعوبيون اجتماعياً بعد أن انتصر العرب في الحرب والسياسة كما ترى زاهية قدورة؟⁽¹⁾.

صحيح أن الحياة الاجتماعية « لم تُبحث في تلك المهدود من الناحية التاريخية بحثاً وافياً »⁽²⁾ كما تقول السيدة قدورة ، وأن المؤرخين لم يلتفتوا إلى المجتمع كله ، ولم يصوروا إلا حياة النخبة من الخلفاء والأمراء والقادة والعلماء والأدباء . أما العامة من الجنود والخدم والعمال ، فلم يلتفت إليها أحد إلا بما يتصل بحياة تلك الطبقة الممتازة . فمصادر البحث قليلة ، والمادة الاجتماعية في هذه المصادر متباذلة ، لا تفي بالغرض ، ولا تشبع نهم الباحث والمحقق ، لكننا مع ذلك نستطيع أن نتبين الخطوط العامة لذلك المجتمع ، ونلمح أن صراعاً كان يدور فيه ، بين العقلية السامية والأمية ، بين سلوك إسلامي وآخر مجوسى أو متأثر مباشرة أو غير مباشرة بالمجوسية .

وإذا كانت الحياة الاجتماعية تمثل كل ما يفرزه المجتمع أو يتوجه من عادات وتقالييد وأعراف وأدب ودين وفلسفة وعلم وفنون . فالانتصار الاجتماعي لم يكن للفرس بقدر ما كان للعرب .

وإذا اعتربنا أنه من المستحيل أن تطمس حضارة معالم حضارة أخرى مهما كان الفارق بينهما كبيراً في التطور والرقي أو الفتورة والشباب ، استطعنا أن ندرك

(1) زاهية قدورة ، الشعوبية وائرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 175 وما بعدها .

(2) مرجع نفسه . ص : 176 .

السبب في بقاء ومقاومة الكثير من العادات والتقاليد الفارسية التي لم يكن العرب والمسلمون بحاجة إليها . فقد أعطت العرب الشعوب الأخرى الدين واللغة وكثيراً من العادات والتقاليد العربية ، والمجتمع برمتها مصبوغ بصبغة دينية والمجتمع على العموم محكم بمسلك إسلامي بروحه ومظاهره . وما الإنتصار الظاهري الذي رأته الدكتورة قدورة ، إلا انتصار المدنية على البداءة ، وهو تطور كان سيصل إليه المجتمع الإسلامي سواء اغترف من معين الحضارة الفارسية أو لم يغترف . لقد كان للفرس دور في تسريع هذا التطور وزيادة نموه دون شك ، لكنه تطور تفرضه الحياة ومنطقها . فلا يعد إذن انتصاراً سهلاً للشعوبية كما ظنت الدكتورة قدورة ، فالعرب لم يتركوا الشعوبية تغزوهم « بمحض اختيارهم وملء إرادتهم »⁽³⁾ .

قد يكون لرأي ابن خلدون بعض التأثير في تكوين رأيها ، فهو يقول في المقدمة : « لما كان الفتح ، وملكوا (العرب) فارس والروم ، واستخدمو بناهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ، فقد حُكِيَ أنه قدم لهم المرقق ، فكانوا يحسبونه رقاعاً ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى ، فاستعملوه في عجينهم ملحًا ، ومثال ذلك كثير ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم في مهنيهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم ، أفادهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بتطور الحضارة والتشرف في الأحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والأنية ، وسائر الماعون والخربيّة⁽⁴⁾ ، وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليلي الأعراس ، فأتوا من ذلك وراء ^{الغاية⁽⁵⁾} .

(3) الدكتورة زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 198 .

(4) الخربي : سقط المئع

(5) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 172 .

فابن خلدون يقرر حتمية تاريخية في قانين التطور الحضاري ، فمن الطبيعي أن يقتبس العرب من حضارة غيرائهم كل ما يساعدهم على التطور والرقي دون أن يُسمّى ذلك انتصاراً للشعوبية أو غيرها ، فالحضارات تتفاعل وتتمازج ، وقليما شهد التاريخ نمو حضارة بمعزل عن الحضارات الأخرى ، وهذا كان شأن الحضارة العربية الإسلامية . فقد بقيت في روحها وعطاياها عربية رغم كل العناصر التي مازجتها . لذلك سمح بحثنا في بعض المظاهر الحضارية والاجتماعية حيث حصل صدام بين العرب والشعوبية !

فقد شنت الشعوبية هجماتها على ماضي العرب وتراثهم بهدف خلخلة القيم والمفاهيم العربية ، وخلق شعور بالتفص والتخلّف لدى العرب⁽⁶⁾.

الشعوبية والأنساب العربية :

ولما كان العرب يفاخرون بأنسابهم، ويبالغون فيها ، وعلى أساسها تُحدَّد المكانة الاجتماعية في كثير من الأحيان . انطلقت الشعوبية تعتقد هذه الظاهرة ، وتظهر هشاشة تلك الأنسب وعدم صحتها ، فادعوا أنَّ العرب كانوا « يرتكبون العظام ، من نكاح الحيض والعبالي ، واجتماع النفر على إثبات امرأة واحدة في الطهر الواحد ، وادعاء الأدعية وأولاد الأضيف »⁽⁷⁾ وزعموا أنَّ « نكاح العرب في جاهليتها على ضروب منها : أنَّ أحدهم كان يرسم لامرائه أنْ ترسل الى فلان وتستبضع منه ، ثم يعزلها في أيام حملها رغبة منه في نجابة الولد ... ومنها أنه كان يقول لآخر : انزل عن امرأتك لي ، وانزل لك عن امرأتي ، فيفعلان بالبدال ، ومنها أنَّ النفر كانوا يغشونها ، فإذا وضعت الحقة بأبيه ، فإنَّ لم

(6) قال الملاحظ : « والشعوبية والأزاميرية المبغضون لآل النبي (صلعم) واصحابه من فتح الفتوح ، وقتل المجروس ، وجاء بالاسلام ، تزيد في جشودة عيشهم وخشنونه ملبيهم ، وتنقص من نسيهم ورفاقه عيشهم ». الملاحظ ، البخلاء ، ص : 319.

(7) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في المقل أو مرذولة ، ج : 1 ص : 148

تعرفه ، عرفته القافة ، ومنها نكاح المقت بامرأة الأب والإبن واسم الولدمته ضيزن»⁽⁸⁾.

«وقالت الشعوبية : إنما كانت العرب في الجاهلية ، ينكح بعضهم نساء بعض في غاراتهم بلا عقد نكاح ولا استبراء من طمث ، فكيف يدرى أحدهم من أبوه ؟ وقد فخر الفرزدق ببني ضبة حين ييتزون العيال في حروبهم في سيبة سبوها من بني عامر ابن صعصعة ، فقال :

فظلت وطلوا يركبون هبيرة⁽⁹⁾ وليس لهم إلا عواليم ستر⁽¹⁰⁾

وصورت الشعوبية العرب « كالذئاب العادية ، والوحش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ، ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موثقون في حلق الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الأبل ، فإذا أدركهن الصريح ، استنقذن بالعشي ، وقد وطئن كما توطأ الطريق المهيـع⁽¹¹⁾ ، فخر بذلك شاعر ، فقال :

والحق ركب المر دفات عشيـة

فقيـل له : ويلك ، وأـي فـخر لـك أـن تـلحق بـالـعشـيـ، وقد نـكـحـنـ وـأـمـتـهـنـ ؟⁽¹²⁾

وهذه المقالة لم تكن عند من يشعر بوضاعة النسب من الشعوبين فحسب ، بل إن بعض المتحدرـينـ منـ أـسـرـ فـارـسـيـةـ عـرـيقـةـ ،ـ والمـتـمـتـعـينـ بـمـكـانـةـ اـجـتمـاعـيـةـ وـسـيـاسـيـةـ عـالـيـةـ ،ـ كـانـواـ يـضـيـقـونـ ذـرـعـاـ بـالـأـنـسـابـ الـعـرـبـيـةـ وـالـفـخـرـ بـهـاـ ،ـ فـحتـىـ الـفـضـلـ ابنـ يـحـيـىـ الـبـرـمـكـيـ ،ـ وـهـوـ مـنـ هـوـ فـيـ الـمـكـانـةـ الـإـجـتمـاعـيـةـ وـالـسـلـطـةـ السـيـاسـيـةـ ،ـ كـانـ يـؤـلـمـهـ الـفـخـرـ بـالـنـسـبـ الـعـرـبـيـ ،ـ فـنـسـبـ حـدـيـثـاـ لـقـسـ ابنـ سـاعـدـهـ فـيـهـ :ـ «ـ وـجـدـنـاـ الـأـحـسـابـ لـيـسـ بـالـأـبـاءـ ،ـ وـالـأـمـهـاتـ وـلـكـنـهاـ أـخـلـاقـ مـحـمـودـةـ»⁽¹³⁾

(8) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 83

(9) الهبـيرـ :ـ ماـ كـانـ مـطـمـتـاـ مـنـ الـأـرـضـ وـحـولـهـ مـرـتفـعـ وـمـنـ الـأـنـسـانـ ماـ كـثـرـ لـحـمـهـ

(10) ابنـ عبدـ رـبـهـ ،ـ العـقـدـ الـفـرـيدـ ،ـ جـ :ـ 3ـ صـ :ـ 325ـ .ـ

(11) الطريق المهيـعـ :ـ الطـرـيـقـ الـوـاسـعـ الواـضـعـ .ـ

(12) ابنـ عبدـ رـبـهـ ،ـ العـقـدـ الـفـرـيدـ ،ـ جـ :ـ 3ـ صـ :ـ 319ـ—ـ320ـ .ـ

(13) إبراهـيمـ ابنـ محمدـ البـيـهـيـ ،ـ الـمحـاسـنـ وـالـمـساـوىـ ،ـ صـ :ـ 327ـ .ـ

« وحين تهاجم الشعوبية العرب ، وتحاول رسم أسطورة مربكة للأنساب ، نجد من يكتب بروح المؤرخ المحقق ، ليظهر متانة الأنساب العربية ، ولبيين دور العرب في التاريخ الإسلامي عامه ، أنظر الى (أنساب الأشراف للبلاذري) وتأمل محتوياته ، تر أن هيكل هذا التاريخ يستند الى الأنساب العربية ، وتشعر بأن العرب كانوا محور التاريخ الإسلامي ، وهو في خلال عرضه لهذا التاريخ ، يكشف لك عن مصدر الحيوية فيه ، وعن مركز الثقل في سيره »⁽¹⁴⁾

اتهام الشعوبية للعرب بالآفلاس الحضاري :

وكما حاولت الشعوبية هدم الأساس الذي تقوم عليه فضيلة النسب العربي ، فقد حاولت إظهار العرب بلا حضارة يعتد بها ، فهم شعب حديث النشأة ، طري العود ، قياساً الى حضارات الأمم الأخرى ، فقالت : « ولم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض لها ملوك تجمعها ، ومداين تضمها ، وأحكام تدين بها ، وفلسفة تتتجها ، وبدائع تتفننها في الأدوات والصناعات ، مثل صنعة الديباج ، وهي أبدع صنعة ، ولعب الشطرنج ، وهي أشرف لعبة ، ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ، ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون ، والاسطراطاب الذي يعدل به النجوم ، ويدرك علم الأبعاد ودوران الأفلاك ، وعلم الكسوف وغيرها من الآثار المتقنة »⁽¹⁵⁾.

فأين العرب من كل ذلك ولم يكن لها ملك يملكها ويجمع سعادها ، ويدبر مصالحها ، وينصف مظلومها ، ويقمع ظالمها . وكيف تقارن العرب بغيرها من الأمم وهي لا تنتاج إنسانياً لها سواء بالصناعة أو بغيرها .

والعرب لم يكن لها غير الشعر « وقد شاركتها فيه العجم ، وذلك إن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعرض ، مما الذي يفخر به العرب على العجم ؟ »⁽¹⁶⁾.

(14) عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص : 76.

(15) ابن عبد ربه ، المقد الفريد ، ج : 3 ص : 319

(16) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 319

وانبرى أنصار العروبة ، يردون هذه التهم ، ويدافعون عن حياة العرب في صحرائهم ، ويفخرون بمازفهم ، ويأنّ العرب في جاهليتها كانت «تحتال في تخلیدها (أي المآثر) بأنّ تعتمد في ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها . وعلى أنّ الشعر يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح ، وفضيلة المآثر على السيد المرغوب اليه ، والممدوح به ، وذهبت العجم على أنّ تقييد مآثرها بالبيان ، فبنوا مثل كرد بيداد ، وبني أردشير بيضاء أصطخر وببيضاء المداين والحضر والمدن . . . »⁽¹⁷⁾.

فالعرب متحضرون رغم تبديهم ، ويتحلون باشرف أحوال الأمراء⁽¹⁸⁾ ، فقد شاركوا العجم بالبناء بعد انفرادهم بالشعر «فبنوا غمدان ، وكمبة نجران ، وقصر مارد وقصر مأرب وقصر شعوب والأبلق الفرد» ، وفيه وفي مارد قالوا: «تمرد مارد وعز الأبلق وغير ذلك من البيان»⁽¹⁹⁾ .

بل زعموا أنّ للعرب خصائصٍ وخصالاً لا تجتمع لأمة غيرهم ، وقد حدد ابن الكلبي هذه الخصال بقوله ؛ «كانت في العرب خاصة عشرُ خصال ، لم تكن في أمة من الأمم : خمس منها في الرأس ، وخمس في الجسد ، فأمّا التي في الرأس : فالفرق ، والسواك ، والمضمضة ، والإستنشاء ، وقص الشارب . وأمّا التي في الجسد : فتقليم الأظفار ، وتنف الإبط وحلق العانة ، والختان ، والإستنجاء ، وكانت في العرب خاصة القيافة ، لم يكن في جميع الأمم أحد ينظر إلى رجلين ، أحدهما طويل والأخر قصير ، أو أحدهما أسود والأخر أبيض ، فيقول : هذا القصير ابن هذا الطويل وهذا الأسود ابن هذا الأبيض إلا في العرب»⁽²⁰⁾.

(17) المحاط ، الحيوان ، ج : 1 ص : 72—73 .

البيهقي ، المحاسن والمساوي ، ص : 10—11 .

(18) التوحيدي ، الامتناع والمؤانسة ، تحقيق احمد امين واحد الزين ، مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج : 1 ص : 83 .

(19) المحاط ، الحيوان ، ج : 1 ص : 73 .

(20) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 246 .

طعن الشعوبية على العرب بسميتهم بما ليس في لغتهم :

وكما عابت الشعوبية العرب في أنسابها ، وموروثها الحضاري ، فقد راحت ، تسخر من أسماء العرب ، وتستشنع تسميتهم ، وتطعن عليهم ، وتنسب إليهم التسمية بما لا أصل له في لغتهم . مما دفع ابن دريد اللغوي للرد عليهم ، فوضع كتاب الإشتقاق لدفع هذه الشبهة ، وقد صرخ عن غايته في مقدمة كتابه فقال : « كانت الأميون من العرب ... في جاهليتهم الجهلاء ، وضلالتهم العمياء ، لهم مذاهب في أسماء ابناهم وعيدهم وأتلادهم ، فاستشنع قوم إثنا جهلاً وإثماً تجاهلاً ، تسميتهم كلباً وكلياً وأكلب ، وخنزيراً وقرداً وما أشبه فطعنوا من حيث لا يجب الطعن ، وعابوا من حيث لا يستبط عيب . فشرحنا في كتابنا هذا أسماء القبائل والعمائر ، وأفخاذها وبطونها»⁽²¹⁾ وقد رد على الذين طعنوا على العرب بأنهم يسمون بما لا أصل له في لغتهم ، وبما لا يقع عليه اصطلاح من أوليائهم . فقال إنهم « عدوا أسماء جهلوها اشتقاها ، ولم ينفذ علمهم في الفحص عنها ، فعارضوا بالإنكار واحتجوا بما ذكر الخليل ... : أنه سأله أبا الدقيش : ما الدقيقش ؟ فقال : لا أدرى إنما هي أسماء نسمها ولا نعرف معانها . وهذا غلط على الخليل ، وادعاء على أبي الدقيش . وكيف يغبي على أبي عبد الرحمن الخليل ابن أحمد ... مثل هذا وقد سمع العرب سمت : « دقيناً ودقيناً ودقيناً ودقيناً»⁽²²⁾ »

وقد أجاب على من تساءل لماذا تسمى العرب أبناءها بالأسماء المستشنعة ، وتحخص عبيدها بالأسماء المستحسنة ؟ فقال : « إن للعرب مذاهب في تسمية أبنائها ، فمنها ما سموه تفاؤلاً على أعدائهم نحو غالب وغلاب ، وظالم ، وعازم ... ومنها ما تفأليوا به للأبناء نحو نائل ، ووائل ، وناج ... ومنها ما سمي بالسباع ترهيباً لأعدائهم : نحو أسد وليث ... ومنها ما سمي بما غلظ وخشن من الشجر تفاؤلاً أيضاً نحو طلحة وسمرة ... ومنها ما سمي بما غلظ من

(21) ابن دريد ، الاشتقاقيات ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المسيرة 1979 ، بيروت ، ص : 3.

(22) ابن دريد ، الاشتقاقيات ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المسيرة 1979 / بيروت ص : 3.

الأرض . . . مثل حجر وحثير . . . ومنها أن الرجل يخرج وامرأته تمضي فيسمى ابنة بأول ما يلقاه من ذلك ، نحو : ثعلب ، وثعلبة . . .⁽²³⁾.

مهاجمة العادات العربية :

وانطلق الشعوبون ، يجردون العرب من كل فضيلة ، ويلصقون بها كل رذيلة ممكنة ، فعابوا عليهم أسلوب حياتهم ، ومطاعتهم ، وملابسهم وعاداتهم ، من كرم ونجلة . كما عابوا عليهم أساليبهم في القتال ، وحتى آدابهم وخطبهم لم تسلم من هجمات الشعوبية .

فطعنوا على العرب أكلها الضباب ، وسموها بهذه الصفة ، قال أبو نواس :

«إذا ما تسمى أكلك مفاحراً فقل عد عن ذا كيف أكلك للضباب
تفاخر أبناء الملوك سفاهةً وبذلك يجري فوق ساقك والكعب»⁽²⁴⁾
«دخل كاتب على مريض ، فوجده يئن ، فخرج من عنده ، فوجد طائراً ،
يقال له الشعانيين بباب الطاق (محله في بغداد) ، فاشتراه ، وبعث به اليه ،
وكتب كتاباً ينتفع فيه ، ويدرك أنه يقال له الشعانيين ، شفاء من الآنيين . فأجابه :
لو عطست ضباً ، لم تكن عندي إلا نبطياً ، فاقصر عن بعضك ، وسهل
كلامك»⁽²⁵⁾.

والفردوسي يعيّب على العرب في الشاهنامة أكلهم الضباب ، وشربهم حليب النوق ، ويرأها السبب في تخيل عقولهم⁽²⁶⁾.

وكما عاب العجم طعام الأعراب واتخذوه مادة للسخرية بهم ، فقد دافع

(23) مصدر نفسه . ص : 5—6.

(24) الحافظ ، الحيوان ، ج : 6 ص : 101—102.

(25) محمد كرد علي ، رسائل البلقاء ، الرسالة العذراء ، ص : 245.

(26) مجله المغادث ، عدد : 1256 ، ص : 35.

الأعراب عن طعامهم ، وعابوا أطعمة الفرس ، فذِكَرَ أنَّ رجلاً من بني عامر كان على مائدة الفضل ابن يحيى ، فذكر الضب ومن يأكله ، فأفقرت الفضل في ذمه ودم آكله ، ولم يكن على المائدة عربي غير ذلك الرجل ، ثم أتَيَ الفضل بصفحة فيها فراخ الزنابير ، فخرج العربي وهو يقول :

« وعلج يعاف الضب لؤماً وبطنه وبعض أدام العلح هام ذباب »⁽²⁷⁾

بل إنَّا نرى بعض العرب يتقرَّزُ من أكل الدجاج ، وبعض أنواع السمك ، ويجادل بأفضلية الضب عليها ، فقد ذكر الدميري أنَّ أحد أبناء تيم الله تلکأَ عن أكل الدجاج ، لأنَّه رأَه يأكل العذرة⁽²⁸⁾ وقال غيره ، يفضل الضباب على ماَكلَ الفرس :

ترى أبْتغى من صيده وأخاته
وشالت شمالي زايل الضب باطله
تمشي على القيزان⁽²⁹⁾ حولاً حلائله
تطلى بورس⁽³¹⁾ بطنه وشواكله⁽³²⁾
لحم الله شاريء وقبح آكله⁽³³⁾

« أقول له يوماً وقد راح صحبي
فلما التقت كفي على فضل ذيله
فأصبح محنوذاً نضيجاً وأصبحت
شدید اصفار الكشيتين⁽³⁰⁾ كأنما
فذلك أشهى عندنا من نتاجكم
وقال أبو الهندي :

« وإنَّي لأشهى قدید⁽³⁴⁾ الغنم

« أكلت الضباب، فما عفتها

(27) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 6 ص : 91 — 92.

ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 3 ص : 280.

(28) الدميري ، حياة الحيوان الكبير ، ج : 1 ص : 331.

(29) القيزان : جم قوز وهو الكثيب الصغير من الرمال .

(30) الكشيتين : ومفردهما كشية : مشحمة بطن الضب او اصل ذنبه

(31) الورس : صبغة صفراء يصبغ بها

(32) شواكله : جم شاكلة وهي الم hacra .

(33) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 3 ص : 212.

(34) القدید : اللحم الملوح المحفف بالشمس

أتيت به فاترا في الشيم⁽³⁶⁾
 فما زلت منها كثير السقم
 فلم أر فيها كضب هرم
 وبيس الدجاج شفاء القرم
 ولا تشهي نفوس العرب⁽³⁷⁾
 ومكنا⁽³⁸⁾ الضباب طعام العرب «⁽³⁹⁾
 وكان افتخار الشعوبين بالوان طعامهم وأنواع شرابهم ، الدافع للجاحظ
 وغيره ، للرد عليهم ، وذكر ألوان من أطعمة العرب ، ممدوحها ومذمومها ،
 ويرهان أنَّ العرب في جاهليتها ، عرفت من أنواع الأطعمة ما يضاهي أطعمة
 الفرس⁽⁴⁰⁾ فقال : « وهم من أحسن الأمم حالاً مع الغيث ، وأسوئهم حالاً إذا
 خفت السحاب . . . وإذا نظرت في أشعارهم ، علمت أنهم قد أكلوا الطيب
 وعرفوه ، لأنَّ النائم من الطعام لا يكون إلا عند أهل الشراء وأصحاب
 العيش »⁽⁴¹⁾.

وعن رمي العرب بأكل الكلاب والناس ، قال : « والعرب إذا وجدت رجلاً
 من القبيلة قد أتى قبيحاً ، ألزمت ذلك القبيلة كلها ، كما تمدح القبيلة بفعل
 جميل ، وإن لم يكن ذلك إلا بواحد منها »⁽⁴²⁾ وبعد أن يذكر الأدلة والشاهد على
 رأيه ، يقول : « وهذا الباب يكثر ويطول ، وفيما ذكرنا دليل على ما قصدنا إليه
 من تصنيف الحالات ، فإنَّ أردته مجموعاً ، فاطلبه في كتاب الشعوبية⁽⁴³⁾ .

(35) الحنيذ : المشوي

(36) الشيم : فقرة الدميري بماء الأسنان والظاهر أنه معنٍّ البرد

(37) البهط : كلمة سندية : الأرز بطيخ باللبن والسمن بلا ماء .

(38) مكن الضباب : بيضها

(39) ابن قببة ، عيون الاخبار ، ج : 3 ص : 210 — 211

(40) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 297

(41) مصدر نفسه . ص : 319 .

(42) مصدر نفسه . ص : 326 — 327 .

(43) مصدر نفسه . ص : 331 .

وطعنت الشعوبية على أساليب العرب في القتال ، وعابت عليهم أسلحتهم البدائية ، التي كانوا يستعملونها ، وقد فند الجاحظ مزاعمهم ، ورد عليهم في كتابه *البيان والتبيين* ⁽⁴⁴⁾.

كما هاجم الشعوبيون فضيلة الكرم العربية ، وصوروها دليلاً على سوء التصرف والبعد عن التفكير السليم ، فصنف سهل ابن هارون الشعوبي رسالة يمدح فيها البخل ، ويحتاج له ، ويرغب فيه ، وقد أثبت الجاحظ هذه الرسالة في بداية كتابه *البخلاء* ⁽⁴⁵⁾ وكما صنف سهل ابن هارون رسالة في البخل ، فقد صنف أبو العاص ابن عبد الوهاب التقفي رسالة يذم فيها البخل وأهله ، ويمدح فيها الكرم وأهله ⁽⁴⁶⁾.

وبالجملة ، فإنَّ كتاب *البخلاء* ، يصبح بالسخرية من أهل مرو وخراسان ، وبخلهم وطريقة تفكيرهم . ولكن هل أقرَّ الفرس جميـعاً بالبخل واتحلوه ؟ لا ، والشاهد على ذلك كثيرة ومتناشرة في كتب الأدب والتاريخ ، لذلك حاول بعضهم إظهار مزايا الكرم الفارسي ، وأنهم أكرم من العرب وأحرزـوا ، فقد « تنازع رجل من أبناء الأعاجم وأعرابـي في الضيافة ، فقال الأعرابـي : نحن أقرـى للضيف قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنـا أحـدنا ربـما لم يـملك إلـآ بـعـيراً ، فإذا حلـ به ضـيف نـحرـ له ، قال العـجمـي : فـنـحن أـحـسـن مـذـهـباً فـي القرـى مـنـكـمـ ، قال : وما ذـاكـ ؟ قال : نـسـمـي الضـيف مـهـمـانـ ، وـمـعـنـاه أـكـبـرـ مـنـ فـي المـنـزلـ وـأـمـلـكـنـا بـهـ » ⁽⁴⁷⁾.

اتهام العرب بقلة نتاجهم العقلي :

وركزت الشعوبية هجومها على النتاج العقلي للعرب ، فغيرتهم بحدائـة علمـهم ، وقلـة نتاجـهم وابتـكارـهم ، فالعرب لا يـعرفـون الحـملـانـاتـ ، ولا صـنـعةـ

(44) الجاحظ ، *البيان والتبيين* ، ج : 3ص : 399 — 403

(45) الجاحظ ، *البخلاء* ، ص : 21

(46) مصدر نفسه . ص : 22 وما بعدهـا .

(47) البهـتي : *المحـاسـنـ وـالـمـساـوىـهـ* ، ص : 187

الشبيه ، ولو لا غضار الصين : ما عرفوا الغضار ، وما صنع العرب منه ظاهر فيه التوليد ، لا يقارب الصيني في المنفعة والجودة . والعرب في ذلك لا يخرجون من أمررين : إما تقليد الغير ، والسير على خطاهم ، وإما أن يتها لهم الشيء عن طريق الصدفة والإتفاق . فاما الإبتكار والإختراع فليس من طبعهم . وقالوا : « وقد علمتم أن أول شأن الجمامات ، إنَّ أم جعفر ، أمرت الرحالين أنْ يزيدوا في سير النجية التي كانت عليها ، وخففت فوت الرشيد ، فلما حرَّكت ، مشت ضربوا من المشي وصباً من السير ، بجمزت خلال ذلك ، ووافقت امرأة تحسن الإختيار ، وفهم الأمور ، فوجدت لذلك الجمز راحة ، ومع الراحة لذة ، فامرتهن أن يسيروا بها في تلك السيرة ، فما زالوا يقربون ، ويبعدون ، ويخطرون ، ويصيرون ، وهي في كل ذلك تصويبهم ، وتخطئهم على قدر ما عرفت ، حتى شدوا من معرفة ذلك ما شدوا ، ثم إنها فرغتهم لإتمام ذلك حتى تم ، واستوى ، وكذلك ، لا يخلو جميع أمركم من أن يكون اتفاقاً أو اتباعاً أثراً»⁽⁴⁸⁾.

وفخرت الشعوبية بأن « ليس للعرب كتاب أقليدس ولا المحسطي ولا الموسيقي ولا كتاب الفلاحة ولا ما يجري في صالح الأبدان ، ويدخل في خواص الأنفس »⁽⁴⁹⁾ ، وحاولت إشاعة مفهوم بين الناس يقول : بأن حملة العلم في الإسلام من الأعاجم ، محاولين بذلك إظهار العرب وكأنهم على هامش الحياة الفكرية⁽⁵⁰⁾ ، حتى انطلت تلك الفكرة على ابن خلدون ، فقال : « من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر ، وإنْ كان فيهم العربي في نسبته ، فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي »⁽⁵¹⁾.

(48) الباحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 83—84

(49) الترجيدي ، الامتناع والمؤانسة ، ج : 1 ص : 89.

(50) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 328—329 ، انظر تفاصير المولاي على العرب بكثرة الفقهاء ،

(51) ابن خلدون ، المقدمة ، 543

بل لقد حاولوا إظهار الأعراب ، وكأنهم لا يعرفون الإسلام وشعائره فحاكوا الروايات التي تؤيد فكرتهم ، وتلوّحـي بصدق ما يقولون ، من ذلك ما رواه : أن أعرابياً قدم على ابن عم له بالحضر « فأدركه شهر رمضان ، فقيل له : أبا عمرو ، لقد أتاك شهر رمضان ، قال : وما شهر رمضان ؟ قالوا : الإمساك عن الطعام ، قال : أبالليل أم النهار ؟ قالوا : لا ، بالنهار ، قال : أفترضون بدلاً من الشهر ؟ قالوا : لا ، قال : فإن لم أصم فعلوا ماذما ؟ قالوا : تضرب وتحبس ، فصام أيامًا ، فلم يصبر ، فارتاحل عنهم ، وجعل يقول :

« يقول بنو عمي وقد زرت مصرهم تهـأ أبا عمرو لشهر صيام
فقلت لهم هاتوا جرابي ومزودي سلام عليكم فاذهبوا سلام
فبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر علي ولا منـاع أكل طعام »⁽⁵²⁾

وافتخر بعضهم بالعلم كردة فعل على افتخار العرب بانسابها ، فقال :

« ما لي عقلي وهـمـي حـسـبي ما أنا مـولـى وـماـ أنا عـربـي
إذا انتـمـيـ منـتمـ إلىـ أحدـ فإـنـيـ منـتمـ إلىـ أدـبـيـ »⁽⁵³⁾

لكنَّ المتصررين للعرب والعروبة دافعوهم في منطقهم هذا ، وردوا عليهم وبالغوا في الرد ، فقال البغدادي : « وصنف أرسطاً طاليس في طبائع الحيوان كتاباً ، وما ذكرت الفلسفـةـ منـ هذاـ النوعـ شيئاًـ الاـ مـسـرـوقـاًـ منـ حـكـماءـ الـعـرـبـ الذينـ كانواـ قبلـ زـيـانـ الـفـلـاسـفـةـ ،ـ منـ الـعـرـبـ الـقـحطـانـيـةـ وـالـجـرـهـمـيـةـ ،ـ وـالـطـسـمـيـةـ ،ـ وـسـائـرـ الـأـصـنـافـ الـحـمـيرـيـةـ .ـ وـقـدـ ذـكـرـتـ الـعـرـبـ فيـ أـشـعـارـهـ وـأـمـثـالـهـ جـمـيعـ طـبـائـعـ الـحـيـوانـ .ـ وـإـنـماـ أـخـذـ أـرسـطاـ طـالـيـسـ الفـرقـ بـيـنـ مـاـ يـلدـ وـمـاـ يـبـيـضـ مـنـ قـوـلـ الـعـرـبـ فيـ أـمـثـالـهـ :ـ كـلـ شـرـقـاءـ وـلـودـ ،ـ وـكـلـ حـسـكـاءـ بـيـوضـ »⁽⁵⁴⁾.

وقال الجاحظ : « وـقـلـ مـعـنـىـ سـمـعـنـاهـ فـيـ بـابـ مـعـرـفـةـ الـحـيـوانـ مـنـ الـفـلـاسـفـةـ

(52) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 3 ص : 223.

(53) الابشيـيـ ، المستـنـطـرـ فيـ كـلـ فـنـ مـسـتـنـطـرـ ، ج : 1 ص : 24.

(54) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 307 — 308.

وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين ، إلا ونحن قد وجدناه أو قررناً منه في أشعار العرب والأعراب ، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا . ولو لا أن يطول الكتاب لذكر ذلك أجمع ⁽⁵⁵⁾ .

ورد ابن قتيبة ، بقوله : « ولو إنَّ مؤلِّفَ حدَّ المِنْطَقَ بلغَ زَمَانَنَا هَذَا حَتَّى يُسْمِعَ دَفَّاقِيَّاتِ الْكَلَامِ فِي الدِّينِ وَالْفَقْهِ وَالْفَرَائِصِ وَالنَّحْوِ ، لَعَدَ نَفْسَهُ مِنَ الْبَكْمِ ، أَوْ يُسْمِعَ كَلَامَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وَصَاحِبِتِهِ ، لَا يَقِنُ أَنَّ لِلنَّعْرَبِ الْحُكْمَةَ وَفَصْلَ الْخَطَابِ » ⁽⁵⁶⁾ . وقد يصل التعلق ببعض العرب إلى مواقف فيها كثير من التجني ، كاعتقاد البعض بأن « نساء العرب في الجملة أعنقر من رجال العجم » ⁽⁵⁷⁾ .

وكما عكف الشعوييون على تنقص العرب من كل فضيلة فقد ذهبوا ، يكيلون المديح للعجم عامة والفرس خاصة ، ويزييدون في أحاديث مآثرهم وحسن درايتهم ، فهذا ابن المقفع لا يكف عن كيل المديح لأنو شروان وزيره بزرجمهر وبرزويه وسائر ملوك الفرس تارة على لسانه وتارة على لسان ذلك الهندي الذي ساعد بربزويه على اقتناص كليلة ودمنة ⁽⁵⁸⁾ ، وقد فطن الناس لزيادة الفرس في نفحهم وفخرهم بأمجادهم وملوكيهم ، فقد اتهمهم الجاحظ بذلك ورد على أحد مزاعمهم بأن كسرى أبروريز استنتاج دغفل ، فقال : « تكفينا هذه الحجة ، وهي بيننا وبينكم ، أوليس قد جهد في ذلك جميع الملوك من جميع الأمم في قديم الدهر ، فلم يستنتجو إلا واحداً ، وعلى أَنَّ هذه الأحاديث من أحاديث الفرس ، وهم أصحاب نفع وزيادة ولا سيما في كل شيء مما يدخل في باب العصبية وزيادة في أقدار الأكاسرة ، وإن كانوا كذلك فهم أظنان ، والمتهم لا شهادة له . ولكن هل رأيتم قط هندياً أقر بذلك ؟ أو هل أقرت بقايا سائر الأمم للفرس بهذا الأمر » ⁽⁵⁹⁾ ، وقد تندر الأصممي على تزييد الفرس في أخبارهم ،

⁽⁵⁵⁾ الجاحظ ، الحيوان ، ج : 3 ص : 268 .

⁽⁵⁶⁾ ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، ص : 5 .

⁽⁵⁷⁾ الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 286 .

⁽⁵⁸⁾ ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، ص : 22 وما بعدها .

⁽⁵⁹⁾ الجاحظ ، الحيوان ، ج : 7 ص : 188 — 189 .

فقال : « قال الخليل ابن سهل : يا أبا سعيد أعلمت أن طول رمح رستم كان سبعين ذراعاً من حديد مصمت في غلظ الراقود ؟ قال : فقلت : ها هنا أعرابي له معرفة ، فاذهب بنا اليه نحدثه بهذا : فذهبت به الى الأعرابي ، فقال له ذلك ، فقال الأعرابي : قد سمعنا بهذا ، وقد بلغنا أن رستم واسفنديار أتيا لقمان ابن عاد بالبادية ، فوجداه نائماً ورأسه في حجر أمّه ، فقالت لهما : ما شأنكمما ؟ فقالا : بلغنا شدة هذا الرجل ، فأتباه ، فاتبه من كلامهما ، فنفخهما ، فألقاهمما الى أصفان ، فقيورهما اليوم بها ، فقال الخليل : قبحك الله ما أكذبك فقال : يا ابن أخي ، ما بيننا شيء إلا وهو دون الراقود »⁽⁶⁰⁾.

نفي العصبية بين الشعوبية والعرب :

وتفشت العصبية بين الشعوبية وأنصار العروبة الى الحيوان ، فتعصب كل قوم لحيوان بلدتهم ، فتعصب العرب للجمل والكلب ، وتعصب الفرس للدجاج والهنود للفيل وغير ذلك ، ووضعوا الأحاديث الشريفة التي تنصر وجهة نظرهم ، حتى صار من الحماقة والبله أن ينمّ إنسان حيواناً مختصاً بيده ، فقد قال الجاحظ عن هندي يتعصب على الفيل « وكان من أموف الناس ، وأرقفهم رقاعة ، مع تيه شديد وعجب ورضا عن نفسه ، وسخط على الناس ، فمن حمقه ، أنه هندي وهو يتعصب على الفيل »⁽⁶¹⁾ وعن تعصب العرب للإبل ، يقول الجاحظ : وقلت مرة لعبد الكلبي ، وأظهر من حب الإبل والشغف بها ما دعاني الى أنْ قلت له : أبينها وبينكم قربة ؟ قال نعم ، لها فيما خؤولة ، إنّي والله ما أعني البخاتي ، ولكنني أعني العراب ، التي هي أعراب ! قلت له : مسخك الله تعالى بغيراً ! قال : الله لا يمسخ الإنسان على صورة كريم ، وإنما يمسخه على صورة لثيم ، مثل الخنزير ثم القرد »⁽⁶²⁾. ويروى أنّ أعراباً أدخل على كسرى ليعجب من جفاته

(60) البهقي ، المحاسن والمساوئ ، ص : 392 — 393.

(61) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 7 ، ص : 109.

(62) مصدر نفسه . ج : 4 ص : 100.

ووجه له ، فقيل له « أي شيء أبعد صوتاً؟ قال : الجمل ، قال : فما هي أطيب لحم؟ قال : الجمل ، قال : فما هي أنهض بالحمل؟ قال الجمل »⁽⁶³⁾ ومثلكما تعصب العرب للجمل ، فقد تعصبا على الدجاج ، فيروى أنَّ أعرابياً سُئل : « تعرف القرني؟ قال : « وما لي لا أعرف القرني؟ فوالله لربما لم يكن غذائي إلا القرني يحسن لي . قال : فقلت له : إنَّها دويبة تأكل العذرة ! قال : ودجاجكم تأكل العذرة »⁽⁶⁴⁾ .

وإذا تعصب العرب للجمل والحيوانات الصحراوية ، فقد تعصب الفرس للدجاج ، وأحاطوا الديك بهالة من القدسية ، فزعموا : أنَّ الديك يحرس من الشيطان⁽⁶⁵⁾ وأنَّ من كان في داره ديك أبيض أفرق لم يدخله شيطان⁽⁶⁶⁾ وأنَّ الرجل إذا ذبحه ، لا يزال ينكب في أهله وماله⁽⁶⁷⁾ .

ورروا على لسان النبي محمد أحاديث مختلفة ، يظهر فيها فضل الديك ، فزعموا أنَّ الرسول (ص) قال : « الديك الأبيض صديقي وعدو الشيطان ، يحرس صاحبه وبسبع دور خلفه . وكان النبي (ص) يقنيه في البيت والممسجد »⁽⁶⁸⁾ وفي حديث آخر : « الديك الأبيض الأفرق حبيبي وحبيب حبيبي ، جبريل يحرس بيته وستة عشر بيتاً من جيرانه »⁽⁶⁹⁾ لكن هذه الأحاديث لم تنطل على العامة من المسلمين ، فاتهما كل من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزنقة⁽⁷⁰⁾ .

(63) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 194 . (قد يكون هذا الخبر موضوعاً لكن يصرر مدح تعصب العرب للجمل) .

(64) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 525 .

(65) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 377 .

(66) الملاحظ ، الحيوان ، ج : 2 ص : 207 .

(67) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 259 . الدميري ، حياة الحيوان الكبri ، ج : 1 ص : 44 .

(68)الدميري ، حياة الحيوان الكبri ، ج : 1 ص : 344 .

(69)مصدر نفسه . ج : 1 ص : 344 .

ابن العماد الحنبلي ، شرات الذهب ، ج : 2 ص : 121 .

(70)الملاحظ ، الحيوان ، ج : 2 ص : 207 .

وبعد هل أثُرْتْ حملات الشعوبية على منزلة العرب الإجتماعية؟

إن الشواهد التي بين أيدينا تنطق بغير ذلك ، فقد ظل العربي يمثل أرستقراطية اجتماعية ، يغبطه عليها أبناء العناصر الأخرى ، والمصادر جمِيعاً لا تذكر أنَّ عربياً حاول التخلص من عروبيته ، بل إنَّ الكثير من أصحاب الباقة والوجاهة من كتاب وأدباء وشعراء ورجال سياسة أدعوا نسباً عربياً ، وقد تصدى لهم من تعصب لأصله من الفرس والأعاجم فهاجموا من ادعى نسباً في العرب ، فقد «وقف رجل من بنى زيد ... على بشار ، فقال له : يا بشار ، قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الإنقاء منا ، وترغبهم في الرجوع إلى أصولهم ، وترك الولاء ، وأنت غير زاكِي الفرع ولا معروف الأصل ، فقال بشار : والله لأصلِي أكرم من الذهب ولفرعي أزكي من عمل الأبرار ، وما في الأرض كلب يسود أنَّ نسبك له بنسبة ، ولو شئت أنَّ أجعل جواب كلامك كلاماً لفعلت»⁽⁷¹⁾.

ويروي البلاذري ، أنه كان من العجم من لا يقبل بنسبة ولاية في العرب⁽⁷²⁾ وانتقض بشار ، وثار ، لما قيل له : ما للموالي والشعر ، فلم يشتم الرجل الذي خاطبه أو يهجه ، إنما عمِم ذلك حتى عم العرب جمِيعاً ، فقال :

«أحن كُسيت بعد العربي خزاً
ونادمت الكرام على العقار
بني الأحرار حسبك من خسارٍ
تفاخر يا ابن راعية وراع
شركت الكلب في ولع الاطار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح
وينسيك المكارم صيد فار
تريع بخطبه كسر الموالى
ولم تعقل بدرج الديار
وتزعى الصأن في البلد القفار
وتغدو للقنافذ تدرِّيها
فليتك غائب في حرناـر
وتشح الشـمال للاـبسـيهـا
على مثـليـنـ منـ الحـدـثـ الكـبارـ»⁽⁷³⁾

(71) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 3 ص : 51.

(72) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص : 32.

(73) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 3 ص : 33 — 34.

فواضح أنَّ بشاراً يعير العرب ببداوتهم ، فهم رعاة ، حفاة ، عراة ، لا يقدرون على شرب الماء النظيف ، فيشركون الكلب في شرابه أما غذاؤهم فقار وقفت ، وهم متوضعون يعيشون في الفيافي والقفار مع الإبل والماشية . فإذا تغيرت بهم الحال ، فلبسوا الخز ، ونادموا الكرام على الشراب ، يفخرون الموالي ، ويفخرون عليهم وهم أصل المدينة والحضارة ؟ أما حقد بشار على العرب وكراهته لهم على أعلى مستوى ، فيظهر في بيته الآخرين ، فما مقام الأعرابي بين الموالي إلا تدنيس لهم ، وتعكير لصفائهم .

أسلوب السخرية من العرب :

· أما علي ابن الخليل ، فقد هجن من انتسب إلى العرب ، وترك أصله ، سخر في غضون ذلك من العرب ، وقارن حياتهم وبладهم بحياة العجم وببلادها ، فقال :

« يا أيها الراغب عن أصله
مني تعربت وكنت امراً
لو كنت صرت إلى دعوة
لكف من وجدي ولكنني
فلو تراه صارفاً أنفه
لقلت جلف منبني دارم
دعموص رمل زل عن صخرة
تبنو عن الناعم أعطافه
والخز والسنحاب واللين »⁽⁷⁴⁾

ولكن كل هذه الحملات ، لم تمنع كثيراً من الموالي من الإدعاء في العرب ، فقد كان لعني ابن الخليل صديق من الدهاقين ، فغاب عنه فترة ، ثم أصاب غنى ، فادعى أنه منبني تميم ، فجاءه على ابن الخليل ، فلم يأذن له ، ولم يسلم عليه فهجاه بقوله :

(74) أبو الفرج الاصفهاني الاغاني ، ج : 13 ص : 18 — 19

ويصبح يدعى العربا
ك يدركه إذا طلا
ترى في ظهره حدبا
طعم يذهب السفبا
وضبا واترك اللعبا
ك والنسرين والغربا⁽⁷⁵⁾
وقام مولياً هرباً

بروح بنسبة المولى
فلا هذا ولا هذا
أتيناه بشبوط
فالآن أمالبخلك من
قصد لأخيك يربوعاً
فرشت له قريح المسـ
فامسك أنفه عنها

وهجا أبوносأس أشجع ابن عمرو ، لأنه ادعى نسباً عربياً ، فقال فيه :

«وقل لمن يدعى سليمي سفاحا
لست منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت من سليمي كواو⁽⁷⁶⁾
الحقّ في الهجاء ظلماً بعمرو»

وهذا إبراهيم ابن المديبر ، وقد تولى الولايات الجليلة ، ثم الوزارة ، وكأنه
يدعى أنه من ضبة⁽⁷⁷⁾ وسخر الجاحظ من بعض من أدعى نسباً في العرب ،
قال : «كان يأتيني رجل فصحيح من العجم... فقلت له : هذه الفصاحة ،
وهذا البيان لو أدعى في قبيلة من العرب لكت لا تُنَازع فيها . قال : فأجباني
إلى ذلك فجعلت أحفظه نسباً حتى حفظه ، وهذه هذا . فقلت له : الآن لا تهـ
 علينا ، فقال : سبحان الله ، إن فعلت ذلك فإذا أنا دعـي »⁽⁷⁸⁾ .

والواقع أنه لم يتتبـ للعرب إلا من كان ذا جاه أو مركز اجتماعي وكانـ
يألف معه أن يكون من الموالـي ، فهـذا عمارة ابن حمزة مولـى أبي جعـفر
المـنـصـور ، يقول للمـهـدي ، وقد سـئـلـ عنـه ، فأجابـ : بأنه أخـوه وابـنـ عـمـه ، إنـما
انتـظرـتـ ، أـنـ تـقـولـ : مـوـلـايـ ، فـانـفـضـ ، وـالـلـهـ ، يـدـيـ منـ يـدـكـ »⁽⁷⁹⁾ .

(75) مصدر نفسه . ج : 13 ص : 18 .

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 7 ص : 127 .

(76) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 7 ص : 130 — 131 .

(77) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 1 ص : 226 — 227 .

(78) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 16 ص : 94 .

(79) مصدر نفسه . ج : 15 ص : 245 — 246 .

واسحاق ابن ابراهيم الموصلي ، رغم الجاه الذي أصابه ، والشهرة التي وصل إليها ، لم يجد أمامه ، لتعزيز مركزه الاجتماعي إلا الولاء لبيت عربي ، فقال :

«إذا كانت الأحرار أصلي ومنصبي
رافع ضيمي خازم وابن خازم
عطست بأنف شامخ وتناولت
يداي الثريا قاعداً غير قائم»⁽⁸⁰⁾

هجوم الشعوبية على اللغة العربية :

وكانت اللغة العربية من الأهداف الرئيسية لهجمات الشعوبية ، باعتبارها لغة القرآن ، والوعاء الثقافي لتراث العرب الحضاري ، فهاجموها من حيث هي لغة ، كما حاولوا تخريبها ، وهزَّ الثقة بمعانيها ، ومدلولاتها ، عن طريق وضع الشعر ونحله لشعراء الجاهلية وصدر الإسلام ، وقد مَرَّ معنا كيف عابوا على العرب أسماءهم ، واتهموهم بالتكلم بما لا أصل له في لغتهم . وعباب البيروني على العربية كثرة مترافاتها ، فقال في معرض حديثه عن الهند : «فإنهم يسمون الشيء بأسماء كثيرة جداً ، والمثال بالشمس ، فإنهم سموها بألف اسم على ما ذكروا ، كتسمية العرب الأسد بقريب من ذلك ، بعضها مقتضبة اقتضاياً ، وبعضها مشيقة من الأحوال المتغيرة فيه ، أو الأفعال الصادرة... . وهم ، ومن شابههم ، يتتجرون بذلك ، وهو من أعظم معایب اللغة».

إذا كان للشيء الواحد أسماء كثيرة ، ولم يكن سبب ذلك استبداد كل قبيلة ، أو كل طفة بواحد منها ، وكان في الواحد منها كفاية ، اتصفت الباقية بالهمَّ والهذيان والهُدَرِ ، وصارت سبب التعمية والإخفاء أو تحمل المشاق لحفظ الجملة بلافائدة غير ضياع العمر»⁽⁸¹⁾

وأما ابن امفع فقد آلمه ، أنْ يرى قومه ، وقد هجروا لسانهم القومي

(80) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 6 ص : 341

(81)البيروني ، تحقيق ما للهند من مقوله ، ج : 1 ص : 185

وأقبلوا على اللسان العربي ، يتعلمونه ، ويستعملونه في حياتهم اليومية ، فدعا قومه للتمسك بلغتهم ، وعدم تركها ، فكتب في باب الناسك والضيف « وأنك تركت لسانك الذي طبعت عليه ، وأقبلت على لسان العبرانية ، وهو لا يشاكلك . وأخاف الآتدركه ، وتنسى لسانك ، وترجع إلى أهلك وأنت شرهم لساناً . فإنه قد قيل : إنه يعد جاهلاً من تكلف من الأمور ما لا يشاكله ، وليس من عمله ، ولم يؤذبه عليه آباؤه وأجداده من قبل »⁽⁸²⁾ .

وانطلقت فئة أخرى تعمل على تخريب اللغة عن طريق نشر الفساد فيها ، كخلف الأحمر الذي كان يقول الشعر ، وينسبه لشعراء العرب الأقدمين ، فلا يفطن له أحد ، « من ذلك قصيدة التي نحلها ابن أخت تأبظ شرأ ، والتي أولها :

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلاً دمه ما يطل

جازت على جميع الرواة ، فما فطن لها إلا بعد دهر طويل بقوله :

خير ما نابنا مصمثال جل حتى دق فيه الأجل

فقال بعضهم : جل حتى دق فيه الأجل من كلام المولدين ، فحيثذا أقرَ خلف⁽⁸³⁾ وفعل مثل فعله حماد الراوية الذي كان « يخلط الشعر بأبيات له . قال حماد : ما من شاعر إلا قد زدت في شعره أبياتاً جازت عليه ، إلا الأعشى ، أعشى بكر ، فإني لم أزد في شعره قط غير بيت ، فأفسدت عليه الشعر ، قيل له : وما البيت الذي أدخلته في شعر الأعشى ؟ فقال :

« وإنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا»⁽⁸⁴⁾
وكان المفضل الضبي يقول : « قد سلطَ على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ، يخطيء في روايته أم يلحن ؟

(82) ابن المفعع ، كلبنة ودمنة ، ص : 271 وما بعدها .

(83) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج : 2 ص : 674 . أبو الفرج ، الأغاني ، ج : 5 ص : 74
ابن النديم ، الفهرست ، ص : 74 ، ياقوت ، معجم الادباء ، ج : 11 ص : 66

(84) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 6 ص : 131، 136 .

قال : ليته كان كذلك ، فإنَّ أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر ، يشبه به مذهب رجل ، ويدخله في شعره ، ويحمل عنه في الأفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ⁽⁸⁵⁾ .

وأمثال خلف وحماد كثيرون ، انطلقوا يعيّبون أساليب العرب في أشعارها وأمثالها وحكمها وخطبها ⁽⁸⁶⁾ .

ولكن رغم هجمات الشعوبية على العربية ، وآدابها ، فقد صمدت تلك اللغة ، وأصبحت ليس لغة الدين والسياسة فحسب ، بل لغة العلم والثقافة في كافة أرجاء العالم الإسلامي ، وهجرت الشعوب المختلفة أستتها ، وتكلمت بالعربية ، ووضعت مؤلفاتها فيها ، وقد عَلَّ ابن خلدون تغلب العربية بقوله : «إن لغات أهل الأمصار ، إنما تكون بلسان الأمة ، أو الجيل الغالبين عليها ، المخططين لها ، لذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالشرق والمغرب لهذا العهد عربية ، وإنْ كان اللسان المصري قد فسدت ملكته ، وتغير إعرابه ، والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم ، والدين والملة صورة للوجود وللملك ، وكلها مواد له ، والصورة مقدمة على المادة ، والدين ، إنما يستفاد من الشريعة ، وهي بلسان العرب ، كما أنَّ النبي (ص) عربي ، فوجب هَجْر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع مَمَالِكِها .

واعْبَرْ ذلك في نَهْيِ عُمَرَ (ص) عن بطانة الأعاجم ، وقال إنَّها خَبْ ، أي مكر وخديعة ، فلما هَجَرَ الدين اللغات الأعجمية ، وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً ، هجرت كلها في جميع ممالكها ، لأنَّ الفاسق تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام في طاعة العرب ،

(85) أبو الفرج الأغاني ، ج : 5 ص : 172

(86) سكون لنا عودة لهذا الموضوع في باب الشعوبية والبعد الادبي

وهجّر الأئمّة لغاتهم في جميع الأمصار والممالك ، وصار اللسانُ العربيُّ لسانهم ، حتى رسخ ذلك في جميع أمصارهم ومدنهم ، وصارت الألسنة العجمية دخلة فيها وغريبة »⁽⁸⁷⁾ .

وبعماً لذلك ، فقد فسدت ملكة اللغة العربية لمحاالتها أهلها للأعاجم وإقبال الناس من سائر الأمم على تعلمها ، فدخلتها كثير من الألفاظ الفارسية والرومية ، وفشا اللحن ، وفساد الألسن ، حتى قيل إنَّ الشعبي مر بقوم من الموالي يتذاكرون النحو ، فقال : « لَئِنْ أَصْلَحْتُمْهُ ، إِنَّكُمْ لَأُولُوْنَ مِنْ أَفْسَدِهِ »⁽⁸⁸⁾ .

الشعيوبة ومحاولة تزييف الحديث النبوي :

وكما حاولوا تزييف الشعر العربي بالوضع والنحل ، فقد حاولوا تزييف الحديث الشريف ، لما لهذا الحديث من أهمية في حياة العرب خاصة وال المسلمين عامة ، ولعل أصدق مثال لذلك ، الدور التخربي الذي قام به عبد الكريم ابن أبي العوجاء . وقد حاولوا في غضون ذلك دس الأحاديث التي تفضل العجم على العرب . فقد رروا أنَّ رسول الله قال : « رأيت غنماً سوداً ، ودخلت فيها غنم كثير بيض ، وقالوا : فما أولته يا رسول الله ؟ قال العجم ، يشركونكم في دينكم وأنسابكم ، قالوا : العجم ، يا رسول الله ؟ قال : لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لثالثه رجال من العجم »⁽⁸⁹⁾ . وفي حديث آخر ، أنَّ النبي محمداً قال : « لأنابهم أوثق مني بكم »⁽⁹⁰⁾ . ليس هذا فحسب ، فقد تخرصوا على لسانه (ص) حديثاً لا يُعقل أنْ يتفوّه به ، ورائحة الحقد والكراهية على العرب فيه واضحة ، منه أنَّ قريشاً قالت للنبي : (ص) « أتباعك من هؤلاء الموالي كبلال وعمار وصهيب خير من قصي ابن كلاب وعبد مناف وهاشم وعبد شمس ؟ فقال نعم ، والله ، لَئِنْ كانوا قليلاً ليكثُرُنَّ ، وإنْ كانوا وضعاء ليشرفُنَّ ، حتى يصيروا نجوماً يُهتَدَى بهم »

(87) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 379.

(88) ابن عبد ربه ، المقدّم الفريد ، ج : 2 ص : 275.

(89) الدميري ، حياة الحيوان الكبير ، ج : 2 ص : 189—190.

(90) شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص : 76.

وَيُقْتَلَى ، فَيَقُولُ : هَذَا قَوْلُ فَلَانٌ وَذَكْرُ فَلَانٍ ، فَلَا تفخِّرُونِي بِآبائِكُمُ الَّذِينَ مُوتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّمَا يَدْهُدُهُ الْجَعْلُ بِمُنْخِرِهِ خَيْرٌ مِّنْ آبائِكُمُ الَّذِينَ مُوتُوا فِيهَا ، فَاتَّبَعُونِي أَجْعَلُكُمْ أَنْسَابًا»⁽⁹¹⁾ وَكَمَا حَاوَلُوا تَفْضِيلُ الْعِجمَ عَلَى الْعَرَبِ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ (ص) فَقَدْ نَسَبُوا حَدِيثًا لِلْإِلَامِ عَلَيِّ (ع) يَتَسَبَّبُ فِيهِ لِلنُّبُطِ ، فَقَالَ رَدًّا عَلَى سُؤَالٍ «نَحْنُ قَوْمٌ مِّنْ نُبَطِ كُوثِي»⁽⁹²⁾ .

هَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَأَمْثَالُهَا دَفَعَ بَعْضَ الْمُتَعَصِّبِينَ لِلْعَرَبِ لِلرَّدِّ عَلَيْهَا بِالْمُثَلِّ ، فَأَطْلَقُوا لِعْنَانَ لِمَخْيَلَاتِهِمْ ، يَضْعُونُ الْأَحَادِيثَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ بِمَا يَنْسَبُهُمْ مِّنَ الْقَوْلِ ، كَمِثْلِ الْحَدِيثِ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ (ص) وَالَّذِي يَقُولُ «إِذَا سَأَلْتُمُ الْحَوَاجِزَ ، فَاسْأَلُوا الْعَرَبَ ، فَإِنَّهَا تَعْطِي لِثَلَاثِ خَصَالٍ : كَرَمٌ أَحْسَابُهَا ، وَاسْتِحْيَاءٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَالْمَوَاسِةُ لِللهِ»⁽⁹³⁾ . وَإِنَّهُ قَالَ : (ص) «يَا سَلْمَانَ ، لَا تَبْغُضِنِي ، فَتَفَسَّرُ دِينِكَ ، قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ، كَيْفَ أَبْغُضُكَ وَبِكَ هَدَانِي اللهُ؟ قَالَ : لَا تَبْغُضِنِي الْعَرَبَ فَتَبْغُضُنِي»⁽⁹⁴⁾ . وَإِنَّهُ قَالَ : (ص) : «مَنْ غَشَّ الْعَرَبَ لَمْ يَدْخُلْ شَفَاعَتِي وَلَمْ تَنْلِهِ مُودَتِي»⁽⁹⁵⁾ .

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ الْمُجَتَمِعَ الْعَبَاسِيَّ كَانَ خَلِيلًا مِّنَ الْعَرَبِ وَالْعِجمَ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْعَنَاصِرِ الْأُخْرَى ، وَأَنَّ الشَّعُوبِيَّةَ لَمْ تَهَدُّ أَنْ تَحرِيِّصَ الْأَعْاجِمَ عَامَةً وَالْفَرَسِ خَاصَّةً لِلإنْقِضَاضِ عَلَى الْمُكتَسَبَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَدْمِيرِهَا . فَفَشَّلتَ تَبَعًا لِذَلِكَ الْعَصَبِيَّةَ ، حَتَّى أَنَّ حَرْبًا وَقَعَتْ بَيْنَ اُنْصَارِ الْأَمِينِ بِسَبِّبِ دَابَّةٍ كَانَ يَرْكِبُهَا أَحَدُ الْعَرَبِ ، فَتَعْرَفَ عَلَيْهَا أَحَدُ الْأَبْنَاءِ ، وَتَخَاصِّمَ الرِّجَلَانِ ، وَاقْتَلَاهُ ، فَشَبَّتِ الْحَرَبُ بَيْنَ الْأَبْنَاءِ وَعَرَبِ الزَّوْاقيْلِ بِسَبِّبِهَا ، بَلْ إِنَّ تَلْكَ الْحَادِثَةَ كَانَتِ السَّبَبُ الَّذِي دَفَعَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ابْنِ مَاهَانَ لِلثُّورَةِ بِبَغْدَادِ وَخَلْعِ الْأَمِينِ»⁽⁹⁶⁾ .

(91) عبد كرد علي ، رسائل البلقاء ، رسالة ابن القادح ، ص : 267.

(92) ياقوت ، معجم البلدان ، انظر مادة كوثي .

(93) ابن عبد ربہ العقد الفريد ، ج : 3 ص : 246.

(94) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلقاء) ص : 375.

(95) مصدر نفسه . ص : 375.

(96) الطبری ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 10 ص : 161.

وأصبحت العادات الإجتماعية خليطاً من عادات العرب والفرس والأمم الأخرى وانتشر اللهو والمجون بين أبناء الطبقات الموسرة ، فأقبلوا على اللذة والموبيقات ينهلون منها ويدعون الناس إليها ، لا يردعهم طهر ولا دين ، وكان رواد هذه الدعوة والمرججون لها من الفرس والزنادقة ، وما سيرة مطعيم ابن إيساس ، وبشار وأبي نواس والحمدان الثلاثة وغيرهم كثير إلا مثل بسيط لنمط الحياة التي كانوا بها يبشرون . وفشا التغزل بالغلمان وهي عادة ما عرفها المجتمع العربي من قبل ، وانتشر بالإضافة لل فهو والمجون الغناء الذي لا يستغنّ عنه في مجالس الشرب والسمسر ، وارتفعت أسعار الجواري المغنيات ارتفاعاً خيالياً⁽⁹⁷⁾ وأصبح بعض المغنيين شهراً تفوق شهرة الكثير من العلماء والزعماء والقرواد كابراهيم الموصلي وابنه إسحق وابن جامع وغيرهم من أهل الغناء وأرباب الموسيقى ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج يستفيض بذكر أخبارهم ومجالسهم وتوزع المعنون على مدارس بعضها متأثر بالغناء والموسيقى العربية والبعض الآخر متأثر بالموسيقى الفارسية ، وحتى الغناء باللغة الفارسية ، استمر وطرب إليه العرب كما طرب الفرس ، فقد وصف أبو نمام إحدى المغنيات الفارسيات فقال :

« مرَّتْ أوتارها ، فشجتْ وشاقتْ فلو يستطيع سامعها فداتها
ولمْ أفهم معانيها ولكنْ ورتْ كبدي فلمْ أجهل شجاها
فبتْ كأننيْ أعمى معنىْ يحب الغانيات ولا يراها »⁽⁹⁸⁾

وانشرت في المجتمع الإسلامي عادة الإحتفال بعيدي المهرجان والنيروز ، وهو عيدان فارسيان ، وكان الخليفة يتقبل فيهما التهاني والهدايا ، كما كان الناس يحتفلون فيهما احتفالاً عاماً⁽⁹⁹⁾ .

والنسيء عادة جاهلية حُرِّمَها الإسلام . وقد حاول دهاقنة الفرس منذ زمن هشام ابن عبد الملك أن يؤخرنَا النيروز - وهو موعد افتتاح الخراج ، بحججة أنَّ

(97) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 5 ص : 6 وما بعدها ونواح عديدة ومتفرقة أخرى

(98) كرم البستاني ، المجاني الحديثة ، ج : 3 ص : 95.

(99) الجاحظ ، الناج في أخلاق الملوك ، بيروت 1970 ، ص : 148

الغلال لم تنضج بعد ، لكنهم فشلوا في ذلك ، فلما كانت أيام الرشيد ، اجتمعوا إلى يحيى ابن خالد ابن برمك ، وسألهو تأخير النیروز شهرین ، فهم بذلك ، لكنه تراجع لأنّ خصوصهاتهم بالتعصب للمجوسية ، وبقي الأمر على حاله حتى أيام المتوكل ، فأمر بتأخير النیروز إلى سبعة عشر من حزيران ، فقال البحتری :

« إنّ يوم النیروز قد عاد للعہد
د الذي كان سنہ أردشیر
أنت حولته إلى الحالة الأو
لى وقد كان حائراً يستدير
منهم الحمد والثناء ومنك الـ⁽¹⁰⁰⁾
عدل فيهم والنائل المشكور»

أما في السياسة ، فكان للأثر الفارسي الحظ الأوفر والنصيب الأكبر « إذ كانوا (الفرس) هم الأول في ذلك ، وعنهمأخذنا قوانين الملك والمملكة ، وترتيب الخاصة والعامة ، وسياسة الرعية ، وإلزام كل طبقة حظها ، والإقتصار على جدياتها»⁽¹⁰¹⁾ فقد كانت الدولة العباسية مطبوعة بطابع الفرس⁽¹⁰²⁾ من حيث النظم ، وأساليب الحكم ، وتقسيم الناس إلى طبقات ، وإلزام كل طبقة بزي معين ، يجب أن ترتديه ، خاصة ، في المحافل الرسمية والدخول على السلطان .

وسنحاول إبراز الأثر الفارسي والدور الشعوري فيه على الحياة السياسية في الدولة العباسية في الفصل التالي .

(100) البيروني ، الآثار الباقية عن الأمم الخالية ، ص : 31 وما بعدها .

(101) الباحث ، الناج في أخلاق الملوك ، ص : 31 .

(102) الباحث ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 553 .

**الفصل الثاني :
الشعوبية والبعد السياسي .**

**العلاقات السياسية في الخلافة العباسية
بين العرب والفرس والأتراك .**

الشهمية والبعد السياسي

العلاقات السياسية في الخلافة العباسية بين العرب والفرس :

لم يُشكّل انتصار الدعوة العباسية وقيام دولتها انتصاراً للعنصر الفارسي أكثر من الأهداف المعلنة لتلك الثورة كالمساواة والعدالة الإجتماعية بين المسلمين ، فالدولة ما زالت عربية في كل شيء تقريباً ، وانتقال مركز الخلافة من الشام إلى العراق لم يكن نتيجة لتأثير الفرس أو اعترافاً بفضلهم كما رأى أرنولد والدكتورة قدوره⁽¹⁾ بقدر ما كان نتيجة لاستمرار التناقض بين المصريين ، الذي كان سائداً أيام إمارتي الغساسنة والمناذرة ، والذي استؤنف كما هو معلوم أيام علي (ع) ومعاوية . كما لم يكن اختيار بغداد بسبب قربها من فارس أو بعدها عن البيزنطيين كما ظنت الدكتورة قدوره⁽²⁾ إنما بنى المنصور بغداد ليتخذها عاصمة للدولة ، ف تكون خالصة الولاء للعباسيين ، يتزلمها أنصارهم وقاد دوّلتهم .

أما اختيار موضعها فإنَّ هذا الإختيار ، لم يكن نتيجة كونها قرية فارسية يقام فيها كل عام سوق عظيمة ، إنما تم اختيار الموضع لما يمتاز به من توسط الأمصار وما يشكل ذلك الموقع من أهمية عسكرية واقتصادية ، فضلاً عن حسن مناخه . أما الأثر الفارسي في تحطيطها ، فإنه لم يكن وحيداً ولا غالباً ، وإنْ لم يكن من عادة العرب بناء المدن المدورة ، فكذلك لم يُعرف لأمة أخرى مدن على هذا

(1) د. زاهية قدوره ، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 201 .

(2) مرجع نفسه . ص : 202 .

الطراز ، فقد قال البغدادي : « لا يعرف في الدنيا كلها مدينة مدورة سواها »⁽³⁾ .

لذلك لا يمكننا أن نذهب مذهب (Le Stronge) بالتأكيد على الأثر الفارسي في بناء بغداد⁽⁴⁾ لأن المنصور لما أراد بناءها « أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمة الأرضين ، فمثل لهم صفتها التي في نفسه ، ثم أحضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم فأجرى عليهم الأرزاق ، وكتب إلى كل بلد في حمل من فيه ومن يفهم شيئاً من أمر البناء »⁽⁵⁾ .

فمقدمة المدينة قد تمثلها المنصور في نفسه قبل أن يشرع في بنائها . وبناء المدينة لم يكونوا من الفرس وحدهم ، وإنما استقدموا من مختلف الأمصار والبلدان ، لهذا فإننا لا نستطيع الجزم بغلبة الطابع الفارسي في تخطيطها وبنائها ، وإنما هي مزيج أو خلاصة لحضارات عدة تماماً كما هي الحضارة العباسية .

وأقطع المنصور مدنته رجالات الدولة ومواليها ، وهؤلاء عرب وعجم ، فكان طبيعياً أن يظهر التناقض بين الفريقين من حين آخر . لكن سلطة الخليفة العربي بقيت مطلقة وغالباً ما كان قوله الفصل في هذه المنازعات .

وقد ترددت في السياسة العباسية كلمات أخذت دلالتها من الحياة السياسية العامة في الدولة : كالشيعة⁽⁶⁾ والمسودة⁽⁷⁾ والمبيضة⁽⁸⁾ وأهل خراسان⁽⁹⁾ وأهل

(3) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 1 ص : 67.

(4) د. زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها الاجتماعي السياسي ، ص : 203.

(5) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 1 ص : 66 - 67.

(6) الشيعة : أصبحت هذه الكلمة تطلق على شيعةبني العباس وأنصارهم ، أما شيعةبني علي ، فن أصبح اسمها في القاموس العباسي السنية او الرافضة والغالبية وما اشبه من الاسماء والتعرّوت . انظر ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج : 2 ص : 108 - 114 . عيون الاخبار ، ج : 1 ص : 204 . الدينيوري ، الاخبار الطوال ، ص : 361 - 332 . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 196, 218, 254, 347, 408, 356.

الشام⁽¹⁰⁾ لا بد من الانتباه لمعناها الإصطلاحية حتى لا نقع بالتباس وقع فيه كثير من الباحثين .

وبعد فكيف كانت سياسة الخلفاء العباسيين نحو العرب والفرس ؟

إن الدعوة العباسية قامت على تنفيذ مخطط دقيق نهض به حزب منظم يضم العربي والعجمي ، وانتصار العباسين يعني انتصار حركتهم ، فتبوا زعماؤها مراكز الدولة المختلفة . وال الخليفة لم يشترط أن يكون معاونه من العرب ، كما كانت الحال في الدولة الأموية إنما شرطه أن يكونوا من أصحاب السابقة بالعمل والإخلاص للبيت العباسي . بل لعله راعى أن يكون مساعدوه الأقربون من الموالي والفرس تحقيقاً لمبدأ المساواة بين المسلمين⁽¹¹⁾ ولظنه بأن الوزارة أقصى طموحهم ، بينما تشكّل خطراً كبيراً على الخليفة ومصير الخليفة لو تسلّمها رجلٌ من قريش أو بني هاشم لأن طموحه قد لا يقف عندها .

لكنَّ هذا المنصب المستحدث (الوزارة) كثيراً ما كان السبب في نشوء

(7) المسودة : لما ظهر دعاة العباسين وانصارهم بقيادة أبي مسلم الخراساني لبسوا السواد حداداً على الامام محمد ابن علي ابن عبد الله ابن عباس ، وكان أول من سود حرثيش ، مولى خزانة ، ثم سود من بعد قحطبة بن شبيب . واصبح السواد شعار الدولة العباسية ولباس رجالها وانصارها وعماها . انظر : الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 339.

(8)الميسنة : كل من تمرد على الدولة العباسية او ثار عليها سواء كان من ولاتها او غيرهم ، كان يخلع السواد رمز الدولة ، فيوصف بالميسن . يعني التمرد على الدولة ، فان قيل : بيش فلان يعني خلع الطاعة . انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 432-434 . نواح أخرى .

(9)أهل خراسان : اصيّحوا المقدمين في الدولة العباسية لأن النصر جاء على أيديهم ، وكانت تعني اللفظة كل من كان يقطن خراسان سواء كان عربياً او عجيناً فقد اطلقت هذه اللفظة على ابياً مسلم الخراساني ، كما اطلقت على بسام ابن محمد ابن سام وعلى خزيمة ابن حازم وعلى قحطبة ابن شبيب وابناته . انظر : ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 1 ص : 204 . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 135 .

134

(10) أهل الشام : وكانت تعني شيعةبني مروان ، فقد قال محمد ابن علي ابن عبد الله ابن عباس حين وجه دعاته «اما أهل الشام ، فليس يعرفون الا آل ابي سفيان وطاعة بني مروان عداوة لنا راسخة وجهلاً متراكماً» . ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج : 1 ص : 204

(11) عبد العزيز الدوري ، الجلدور التاريخية للشعوبية ، ص: 30

صراعات بين الخليفة والوزير أو بين الوزير وغيره من رجال الدولة وقوادها . فمنصب الوزير جديد في الدولة العربية ، لم تكن له نظم محددة أو سلطات مُقرّرة ، فينبع تشابكاً في الصالحيات بين الوزير والخليفة . وقد ولد هذا الصراع باكراً منذ بدء الدولة العباسية ، وأبو سلمة الخلال كان الضحية الأولى لهذا الصراع . وقد عزت المصادر المختلفة سبب نكبته لمحاولته العدول عن البيعة للسفاح إلى رجل من سلالة علي⁽¹²⁾ أما السبب الحقيقي فأظنه تصرف أبي سلمة في شؤون الحكم دون الرجوع إلى الخليفة ، « فكان يصرف الأمور دون مؤامرة »⁽¹³⁾ « ويظهر من الإدلال والقدرة على أمير المؤمنين ، وكان يقيم عنده كل ليلة إلى حين من الليل ، فإذا أراد الخروج والرجوع إلى منزله ، قرب إلى دابته إلى المجلس ، فيركب منه دون غيره »⁽¹⁴⁾ .

فالسبب الحقيقي لنكبته إذن استبداده بالحكم دون الخليفة وإدلاله عليه ، لأنّه السبب في توليته ، وكان على العباسيين أن يحسبوا حساب أبي مسلم الخراساني ، لأنّهم لو قتلوا أبا سلمة دون علمه ، لأفسد عليهم أمرهم ، فأوحروا إليه تبرّعهم من أبي سلمة ، فأرسل إليه من اغتاله ، وقد انفرد ابن خلكان برواية تقول إنّ أبا مسلم هو الذي حرض الخليفة على الخلال ، ولمّا رأى إحجام الخليفة عنه ، أرسل له من اغتاله ، فقال الشاعر :

إنَّ الْوَزِيرَ وَزِيرَ الْآلِ مُحَمَّدٌ أُودِيَ فَمَنْ يَشْنَاكُ كَانَ وَزِيرًا⁽¹⁵⁾

فكأن هذا الشعر قد تنبأ بمصير الوزير في الدولة العباسية ، فقتلما نجا من تسمى بهذا الإسم . ولما علم السفاح أنّ أبا سلمة قد أغتيل أنسد :

(12) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج : 2 ص : 120 — 121 . الدينوري ، الاخبار الطوال ، ج ص : 370
الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ج : 9 ص : 140 . المسعودي ، مرسوج الذهب ، ج : 3 ص : 68
ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 409 . ابن الطقطقي ، الفخرى ، ص : 155 — 153
ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج : 1 ص : 195 — 196

(13) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص : 370 .

(14) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج : 2 ص : 120 — 121 .

(15) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 436 .

إلى النار ، فليذهب ومن كان مثله على أي شيء فاتنا منه نأسف⁽¹⁶⁾

تخلص السفاح من أبي سلمة ، وأدار النظر بالخلص من أبي مسلم ، فأرسل له سباع ابن النعمان الأزدي ، فضممه إليه وأمره إن رأى فرصة أن يثب على أبي مسلم ، فيقتله ، انتبه أبو مسلم للأمر ، فقتل سباعاً⁽¹⁷⁾ فتهيب السفاح أبا مسلم ، وأرسل أخاه أبا جعفر في ثلاثة رجالاً إلى خراسان ، فلم يستقبله أبو مسلم استقبلاً يرضى به ، وكان بالوفد عبد الله ابن الحسين ابن علي ، فقام إليه سليمان ابن كثير ، ولاطهه بكلام ، فعلم أبو مسلم بذلك وقتل سليمان « وكتب إلى محمد بن الأشعث أن يأخذ عمال أبي سلمة ، فيضرب أعنفهم ، واستعمل أبو العباس عيسى ابن علي على فارس ، فاحتبسه محمد ، وهم بقتله »⁽¹⁸⁾ فلما عاد أبو جعفر أونغر صدر السفاح على أبي مسلم ، وقال له : « لست ب الخليفة ولا أمرك بشيء ، إن لم تقتل أبا مسلم ، فقال أبو العباس : وكيف ذلك ؟ قال : لا والله ما يعبأ بنا ، ولا يصنع إلا ما يريد ، فقال له أبو العباس : إسكت ، واكتمها »⁽¹⁹⁾.

وطمع أبو مسلم في إمارة الحج ، فكتب إلى أبي العباس ، يستأذنه في الحج ، فأذن له ، وقال : لو لا إن أبا جعفر يحج ، لاستعملتك على الموسم . حاول أبو جعفر أن يقنع أخيه بالخلص من أبي مسلم خلال هذه الرحلة ، لكن السفاح رفض ذلك ، لما كان يتهييه من أهل خراسان وموالاتهم لأبي مسلم . خرج أبو مسلم إلى الحج ، فكان إذا كتب لأبي جعفر ، يبدأ بنفسه ، ثم يكتب إليه « لا يهؤنك ما في صدر الكتاب ، فإلئني لك بحيث تحب ، ولكنني أحب أن يعلم أهل خراسان أن لي منزلة عند أمير المؤمنين »⁽²⁰⁾ .

(16) ابن خلكان : وفيات الائمان ، ج : 1 ص : 196.

(17) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 455.

(18) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج : 2 ص : 124 — 125.

(19) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج : 2 ص : 124 — 125. الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 9 ص : 142 ابن الطقطقى ، الفخرى في الآداب السلطانية ، ص : 168 — 169.

(20) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج : 2 ص : 132.

ويظهر أنَّ العباسين كانوا قد بدأوا بترويج الإشاعات حوله تمهيداً لقتله ، فقد ذكر الطبرى أنَّ أبا مسلم كان « يصلح العقاب ، ويكسوا الأعراب في كل منزل ، فكان الصوت له ... فكان الأعراب يقولون : هذا المكذوب عليه »⁽²¹⁾ .

وفي طريق العودة من الحج ، تُوفَّى السفاح ، وتمت الْبَيْعَةُ لأبي جعفر المنصور ، لكنَّ عمه عبد الله ابن علي ادْعَى الْبَيْعَةَ لنفسه ، فوجه أبو جعفر أبا مسلم الخراسانى لقتال عبد الله ابن علي ، فنازله أبو مسلم وهزمه ، وحاز عскره وخزائن أمواله ، فأرسل أبو جعفر يقطن ابن موسى ورجلًا معه على القبض ، فغضب أبو مسلم ، وشتمه ، وهم بالعودة إلى خراسان ، فما زال المنصور يلطف به ، ويرسل الرسل له حتى قتله عن رأيه ، واستقدمه إليه ، فقتله . وكان إسحاق ابن مسلم والحسن ابن قحطبه يحرضان المنصور على أبي مسلم⁽²²⁾ .

وكانت جملة المأخذ التي أُجعَّدت على أبي مسلم تؤكِّد جميعها تبرم المنصور من القوة والإدلال التي كان يتظاهر بها أبو مسلم ، فقد سأله أبو جعفر المنصور مسلم ابن قتيبة عن أبي مسلم ، فقال : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فقال : حسبك يا أبا أمية »⁽²³⁾ .

وكانَت أسباب النفور والكره بين الرجلين كثيرة منها : أنَّ أبا جعفر طلب الحذاء من أبي مسلم في موسم الحج ، فقدمها له أبو مسلم وحدتها عليه ، وكذلك غضب لَمَا أرسَلَ من يخصِّي عليه الأموال⁽²⁴⁾ وكان من مأخذ أبي جعفر عليه ، كتابه إلى أبي العباس ينهاه فيه عن الموات ، وتقدمه إياه في طريق العودة من الحج ، وعدم الرجوع إليه أو انتظاره بعد موت أبي العباس ، ومراغمته إياه

(21) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 9 ص : 159.

(22) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 133-136.

الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص : 378 وما بعدها .

الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 9 ص : 159 وما بعدها .

(23) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 26 ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 3 ص : 153.

(24) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 26.

وخروجه الى خراسان ، وكتابته له يبدأ بنفسه ، وكتابته له يخطب أمينة بنت على ، وزعمه أنه ابن سليمان بن عبد الله ابن عباس⁽²⁵⁾ .

قال أبو جعفر بعد قتله أبا مسلم : « ثلاث كن في صدرى ، شفى الله منها : كتاب أبي مسلم إلى وأنا خليفة : عافانا الله وإياك من السوء . ودخول رسوله علينا قوله : أيكم ابن الحارثية ؟ وضرب سليمان ابن حبيب ظهري بالسياط »⁽²⁶⁾ .

وكان أبو مسلم قد بدأ يظهر تغيراً في ولائه للعباسين ، فقد قيل له : « أيها الأمير ، لقد قمت بأمر لا يقتصر بك ثوابه عن الجنة في إقامة دولة بني العباس ، فقال : خوفي من النار والله ، أولى من الطمع في الجنة ، إنني أطفيت من أمية جمرة ، وألهبت من بني العباس نيراناً ، فإنما أفرح بالإطفاء ، فواحزناً من الإلهاب . وحدث أبو نملة عن أبيه ، قال : سمعت أبا مسلم بعرفات في الموقف ، يقول باكيًا : اللهم إنني تائب إليك مما لا أظن أنك تغفره لي ، فقلت : أيها الأمير ، أيعظم على الله عز وجل غفران ذنب ؟ فقال : إنني نسجت ثوبًا من الظلم لا يبلى ، ما دامت الدولة لبني العباس ، فكم من صارخ وصارخة تلعني عند تفاقم الأمر ، فكيف يغفر الله عز وجل لمن هذا الخلق خصماً ؟ قيل : ولما سخط عليه المنصور ، ووكل به سهدام المرودي قال له يوماً : الويل لك من الخليفة ، فقال : الويل لي من ربِّي ، وأين يقع ويل ساعة من عذاب الأبد ؟ »⁽²⁷⁾ .

وكان أبو مسلم لا يظهر عصبية للعجم ، فقد « ظهر ... بستة عشر كتاباً ، وجدها من عيسى ابن ماهان إلى كامل ابن مظفر صاحب أبي مسلم ، يعيّب فيها أبي داود ، وينسبه فيها إلى العصبية وإيشاره العرب وقومه على غيرهم من أهل

(25) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ج : 9 ص : 159-169 ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 154 . وفيات الأعيان : آسية ابنة علي ج : 3 ص : 180 .

(26) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 26 .

(27) البهقى ، المحاسن والمساوئ ، ص : 298 .

الدعوة ، وأنَّ في عسکره ستة وثلاثين سرداقاً للمستامة ، فبعث بها أبو مسلم إلى أبي داود ، وكتب إليه : هذه كتب العلَج الذي صيرته عدل نفسك ، فشأنك به ، فكتب أبو داود إلى عيسى ابن ماهان ، يأمره بالإِنْصَراف إليه .. فلما قدم عليه . . . « وثبت عليه الجند ، فقتلوه ⁽²⁸⁾ .

وعلى الرغم من هذا ، فقد كان لقتل أبي مسلم على يد الخليفة أبعد الأثر في نفوس الفرس ، فعدَّه بعضهم تجسيداً للروح الإلهية واعتبره قوم أنه ما مات لكنه غَيْب ، وكان قتله سبباً لكثير من الثورات القومية التي كانت تهدف إلى استئصال العرب والإسلام من الديار الفارسية وقد مر معنا ذكر الرواندية ، ثورة المقنع واستاذ سيس والخرمية .

تخلص العباسيون بقتل أبي مسلم من مراكز القوى التي كانت تشاركتهم السلطة بفضل موقعها من الدعوة العباسية ، وصفوا الجو لأبي جعفر المنصور الذي وإن تخلص من أبي مسلم وتفوذه ، فإنه لم يصرف النظر عن الفرس والتعاون معهم بعد القضاء عليه ، فكان يقرب مواليه ، ويحسن لهم ، وكان السبب في ذلك ، أنه ظفر ب الرجل من كبراء بنى أمية ، فسأله المنصور : « من أين أتيَ بنو أمية حتى انتشر أمرهم ؟ قال من تضييع الأخبار . . . قال فعندَ من وجدوا الوفاء ؟ قال : عند مواليهم . . . فأراد المنصور أن يستعين في الأخبار بأهل بيته ، ثم قال : أضع من أقدارهم ، فاستعان بمواليه » ⁽²⁹⁾ . أما نظرته لمواليه ، فإنَّ خير ما يمثلها تلك الحادثة التي وقعت حين ولَى مسلم ابن قتيبة البصرة ، فضرب أحد موالي المنصور ، فغضب المنصور ، وقال : « عليَّ تجرأ مسلم ! لا جعلَنَّه نكالاً ، فقال ابن عياش - وكان جريئاً عليه - يا أمير المؤمنين ، إنَّ مسلماً لم يضرب مولاك قوته ولا قوة أبيه ، ولكنك قلدته سيفك ، وأصعدته منبرك ، فأراد مولاك يطأطئه

(28) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 9 ص : 152.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 5 ص : 456.

(29) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 9 ص : 305.

منه ما رفعت ، ويفسد ما صنعت ، فلم يحتمل ذلك ، يا أمير المؤمنين إن غضب العربي في رأسه ، فإذا غضب ، لم يهدأ حتى يخرجه بلسان أو يد ، وإن غضب النبطي في استه ، فإذا غضب وخريء ذهب غضبه ، فضحك أبو جعفر⁽³⁰⁾ . وأما عماله ، فكان معظمهم من العرب باستثناء قلة قليلة مثل عمارة ابن حمزة ومطر وخالد ابن برمك ، وابنه يحيى⁽³¹⁾ .

أما المهدى ، فكان السبب في تقريره الموالى لين عريكتهم وسهولة قيادهم ، فقد قال له عبد الصمد ابن علي : « يا أمير المؤمنين ، إنّا أهل بيت قد أشربَ قلوبنا حُبَّ موالينا وتقديمهم وأنّك قد صنعت من ذلك ما فرط فيه ، قد وليتهم أمرك كلّها ، وخصّصتهم في ليلك ونهارك ، ولا آمن تغيير قلوب جندك وقوادك من أهل خراسان ، قال : يا أبا محمد ، إنّ الموالى يستحقون ذلك ليس أحد يجتمع فيه ، أنْ أجلس للعامة ، فأدعوا به ، فأرفعه ، حتى تحك ركبته ركبتي ، ثم يقوم من ذلك المجلس ، فاستكفيه سياسة ذاتي ، فيكيفها ، لا يرفع نفسه عن ذلك إلّا موالى هؤلاء ، فإنّهم لا يتعاظمهم لي ذلك ، ولو أردت هذا من غيرهم ، لقال : أين وليك والمتقدم في دعوتك ، وأين من سبق إلى دعوتك لا أدفعه عن ذلك⁽³²⁾ .

إلا أنّ هذا لا يعني تغليب الموالى على العرب ، وإن زاد نفوذهم وعظم في عهد المهدى ، فقد ظلل التوازن قائماً بين جناحي الدولة : العرب والعجم ، وعندما أغزى ابنه هارون ، وضم إليه الربيع ابن يونس والحسن ابن قحطبة ، أرسل الحسن ابن قحطبة إليه : « يا أمير المؤمنين - جعلني الله فداك - أغزيت هارون وضممتني والربيع إليه ، وأنا قريع قوادك والربيع قريع مواليك ، وليس

(30) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 29.

(31) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 152 وما بعدها (قد أحصيت الولاة في الدولة العباسية منذ ابتدائها حتى سنة 160 هـ . فلم أجد من العمال غير العرب إلّا قلة قليلة بالنسبة لما يروى عن نفوذ الفرس في الدولة) .

(32) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 14.

تطيب نفسي بأنْ نخلِّي جمِيعاً بابك »⁽³³⁾ .

إضافةً لتعقب المهدى للزنادقة وقتلهم والتفتيش عنهم مع الإشارة بأنه قد ذهب الكثير في هذه الحملة لمجرد الشك في ولائهم لسياسة الدولة .

وبدأ الجيش يمارس نوعاً من الضغط على الخلافة ، يظهر ذلك من الإشارة إلى خوف الموالي والقواد من ثورة الجندي ومطالبتهم بأرزاقيهم⁽³⁴⁾ ، وهي إشارة ، لم تسبق من قبل ، وسنرى أنَّ هذا الضغط سيتحول إلى سيف مسلط على رقاب الخلفاء خاصة في العهد التركى .

وما زال نفوذ العجم يقوى شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ أوجه في زمن الرشيد ، ليعود ، فيخبو بعد نكبة للبرامكة ، لكنَّه ما لبث أنَّ سطع من جديد في عهد المأمون ، بعدما أثبتت خراسان للمرة الثانية أنها القادرة على تحديد مصير الخلافة العباسية . ففسدت العصبية العربية « لعهد المعتصم وابنه الواثق ، واستظهارهم بعد ذلك ، إنما كان بالموالي من العجم والترك والديلم والسلجوقية ، وغيرهم ، ثم تغلب العجم الأولياء على النواحي ، وتقلص ظل الدولة ، فلم تكن تعلو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم وملكوها ، وصار الخلاف في حكمهم ، ثم انقرض أمرهم ، وملك السلجوقية من بعدهم ، فصاروا في حكمهم ، ثم انقرض أمرهم ، وزحف التتار ، فقتلوا الخليفة ومحوا رسم الدولة »⁽³⁵⁾ .

الوزارة في الدولة العباسية :

« إن تاريخ الوزراء في العصر العباسى الأول ، هو سلسلة احتكاكٍ وتصادم بين الخلفاء وبين الوزراء ، ولم يكن الوزراء جمِيعاً من الفرس ، وإن كانوا جميعاً يتسبون إليهم ، كأبي أيوب الموريانى الخوزي ، ولقد كان الخلفاء يمثلون الثقافة العربية الإسلامية الشاملة ، وكانوا يمثلون السلطان العربى الإسلامى

(33) مصدر نفسه . ج : 9 ص :

(34) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 21.

(35) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 155.

بنظر غير العرب ، وهم رمز الكيان القائم . أما الوزراء ، فنجد بينهم من اتخذ هذه الناحية في الصراع السياسي الخفي بين العرب والفرس على السلطة في العاصمة »⁽³⁶⁾ .

فأبو سلمة الخلال انتهى بالقتل ، وكذلك أبو مسلم الخراساني ، وقام بأعباء الوزارة بعده خالد ابن برمك دون أن يتسمى بالوزير مخافة القتل ، بالرغم من تتمتع بكل صلاحيات الوزير فقد كان المستشار الأول عند المنصور ، والمسؤول الإداري والمالي للجيش العباسي⁽³⁷⁾ .

ولم تكن الوزارة في أيام المنصور « طائلة لاستبداده ، واستغاثاته برأسه وكفاءته ، مع أنه كان يشاور في الأمور دائمًا ، وإنما كانت هيته تصغر لها هيبة الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف ، فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق »⁽³⁸⁾ .

وأما ميله للفرس الذي تستدل عليه الدكتورة قدورة من جملة ملاحظات ، خطابه للخراسانيين بعد الهاشمية « يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا ، وأنصارنا ، وأهل دعوتنا ، ولو بايعتم غيرنا ، لم تبايعوا خيراً منا »⁽³⁹⁾ فأهل خراسان - كما سبق أن بينا - عرب وعجم ، ومحاطيته لهم ، كانت على هذا الأساس ، وهو كذلك بوصيته في أهل خراسان⁽⁴⁰⁾ أما صرفه للخدم ، لأنه كان عربياً ، فإنفة منه للعرب ، أن يكون أحدهم عبداً حتى في قصر الخلافة⁽⁴¹⁾ وهو وإن أوصى ابنه بمواليه فقد أوصاه بأهل بيته ، قال : « وأوصيك بأهل بيتك ، أن تظهر كرامتهم ، وتقديمهم ، وتكثر الإحسان إليهم ، وتعظم أمرهم ، وتوطئ الناس أعقابهم ،

(36) عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشمعية ، ص : 36-37.

(37) M. Shaban. Islamic History: a new interpretation. V.2.P. 11).

(38) ابن الطقطقي ، الفخرى في الأداب السلطانية ، ص : 174.

(39) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 311.

(40) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 319.

(41) مصدر نفسه . ج : 9 ص : 317.

وتوليهن المنابر ، فإن عزك عزهم ، وذكرهم لك »⁽⁴²⁾ . وأماماً مواليه ، فكان يعتبرهم كماله وعيده يستخدمهم في غایاته ، فقد قال للمهدي : « يابني إني جمعت لك من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وجمعت لك من الموالى ما لم يجمعه خليفة قبلي ، وبنيت لك مدينة لم يكن في الإسلام مثلها ، ولست أخاف عليك الا أحد رجلين : عيسى ابن موسى وعيسى ابن زيد ، فأماماً عيسى ابن موسى فقد أعطاني من العهود والمواثيق ما قبلته ، ووالله لو لم يكن إلا أن يقول قوله لما حفته عليك ، فاخوجه من قلبك ، وأماماً عيسى ابن زيد ، فانفق هذه الأموال ، واقتلت هؤلاء والموالى ، واهدم هذه المدينة حتى تظفر به ثم لا ألومنك »⁽⁴³⁾ وقد مر موقفه من أبي مسلم لما حاول أن يتطاول على الخليفة رغم إخلاصه وخدمته للعباسيين⁽⁴⁴⁾ ولما اكتشف المنصور خيانة وزيره الموريانى ، نكبه وأهل بيته ، وصادر اموالهم ، وفي ذلك قال الشاعر الكوفي :

طته طوعاً أزمة التدبير
رأته من رأسهم بنكير
سمان ودارت عليه كف المدير
إذ دعوه من بعدها بالأمير
من تسمى بكاتب أو وزير »⁽⁴⁵⁾

« قد وجدنا الملوك تحسد من أعد
وإذا رأوا له النهي والأم
شرب الكأس بعد حفص سلب
ونجا خالد ابن برمك منها
أسوا العاملين حالاً لديهم

وعندما تولى المهدي الخلافة ، انتقل نفوذ الفرس نقلة جديدة الى الأمام على الرغم من أن المهدي يتحدر من أب وأم عربين ، والربع الذي كان يتزعم المعسكر العربي كما تزعم الدكتورة قدورة ، لم يكن عربياً ، وإنما كان لقيطاً ، وهو في أحسن الحالات كان من الموالى ، فقد روى ابن قتيبة ، أن شاباً دخل

(42) مصدر نفسه . ج : ٩ ص : 319.

(43) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : ٦ ص : 321.

(44) د. زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها .. ، ص : 211 وما بعدها .

(45) ابن الطقطقى ، الفخرى في الأداب السلطانية ، ص : 176.

على المنصور ، فسأله عن وفاة أبيه ، فقال « مات رحمه الله يوم كذا وكذا ، وكان مرضه رضي الله عنه كذا وكذا ، وترك عفا الله عنه من المال كذا وكذا ، فانتهـرـهـ الـرـبـيعـ وـقـالـ :ـ أـبـيـ يـدـيـ أـمـيـرـ المـؤـمـنـينـ ،ـ تـوـالـيـ الدـعـاءـ لـأـيـكـ !ـ فـقـالـ الشـابـ :ـ لـاـ الـوـمـكـ ،ـ إـنـكـ لـمـ تـعـرـفـ حـلـوةـ الـأـبـاءـ ،ـ فـمـاـ عـلـمـ أـنـ الـمـنـصـورـ ضـحـكـ مـثـلـ ضـحـكـهـ يـوـمـذـ ،ـ وـكـانـ الـرـبـيعـ لـقـيـطاـ »⁽⁴⁶⁾ وـهـوـ الـذـيـ أـوـقـعـ بـالـوـزـيرـ أـبـيـ عـبـيدـ اللـهـ ،ـ وـكـانـ الـمـو~الـيـ «ـ يـشـعـونـ عـلـىـ أـبـيـ عـبـيدـ اللـهـ عـنـدـ الـمـهـدـيـ ،ـ وـيـسـعـونـ عـلـيـهـ عـنـدـهـ ،ـ فـكـانـ كـتـبـ أـبـيـ عـبـيدـ اللـهـ تـفـذـ عـنـدـ الـمـنـصـورـ بـمـاـ يـرـيدـ مـنـ الـأـمـوـرـ ،ـ وـتـخـتـلـيـ الـمـو~الـيـ بـالـمـهـدـيـ ،ـ فـيـلـعـونـهـ عـنـ أـبـيـ عـبـيدـ اللـهـ ،ـ وـيـحـرـضـونـهـ عـلـيـهـ .ـ .ـ .ـ فـلـمـ رـأـيـ أـبـوـ عـبـيدـ اللـهـ غـلـبـةـ الـمـو~الـيـ عـلـىـ الـمـهـدـيـ ،ـ وـخـلـوتـهـ بـهـ ،ـ نـظـرـ إـلـىـ أـرـبـعـةـ رـجـالـ مـنـ قـبـائـلـ شـتـىـ مـنـ أـهـلـ الـأـدـبـ وـالـعـلـمـ ،ـ فـضـمـهـمـ إـلـىـ الـمـهـدـيـ فـكـانـواـ فـيـ صـحـابـتـهـ ،ـ فـلـمـ يـكـونـواـ يـدـعـونـ الـمـو~الـيـ يـخـتـلـونـ بـهـ »ـ وـلـكـنـ أـبـوـ عـبـيدـ اللـهـ أـبـيـ مـنـ أـحـدـ هـؤـلـاءـ الـأـرـبـعـةـ بـالـإـنـفـاقـ مـعـ الـرـبـيعـ ،ـ فـقـتـلـ وـلـدـهـ بـتـهـمـةـ الـرـزـنـدـقـةـ⁽⁴⁷⁾ وـاضـمـحـلـ أـمـرـهـ ،ـ وـلـمـ يـكـنـ مـصـيرـ أـبـيـ عـبـيدـ اللـهـ يـعـقـوبـ اـبـنـ دـاـوـدـ بـأـحـسـنـ مـنـ غـيرـهـ فـيـ وزـارـتـهـ لـلـمـهـدـيـ ،ـ وـكـانـ الـرـبـيعـ قـدـ أـشـارـ بـتـوزـيرـهـ ،ـ فـاسـتـوزـرـهـ وـقـدـمـهـ عـلـىـ جـمـيعـ النـاسـ حـتـىـ قـالـ بـشـارـ اـبـنـ بـرـدـ يـهـجـوـهـ :

بني أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب ابن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خلافة الله بين الناي والعود

وـذـلـكـ لـأـنـ الـمـهـدـيـ اـشـتـغلـ بـالـلـهـ وـالـلـعـبـ وـسـمـاعـ الـأـغـانـيـ ،ـ وـفـوـضـ الـأـمـوـرـ إـلـىـ يـعـقـوبـ اـبـنـ دـاـوـدـ ،ـ وـحاـولـ يـعـقـوبـ رـدـهـ عـنـ ذـلـكـ وـوـعـظـهـ فـقـالـ لـهـ أـحـدـ نـدـمـائـهـ :

فـدـعـ عـنـكـ يـعـقـوبـ اـبـنـ دـاـوـدـ جـانـباـ وأـقـبـلـ عـلـىـ صـهـباءـ طـيـبةـ النـشرـ
ثـمـ إـنـ السـعـةـ مـاـ زـالـواـ يـسـعـونـ بـيـعـقـوبـ حـتـىـ نـكـبـهـ الـمـهـدـيـ ،ـ وـجـعـلـهـ فـيـ حـبـسـ

(46) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 2 ص : 50.

(47) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 339 وما بعدها .

التجليد في المطبع ، وكان السبب إطلاقه أحد العلوين وكان قد وَكَله به المهدى ⁽⁴⁸⁾ .

وعلى العموم فإنَّ الربيع ما كان ليهتم بمعسكته يتزعمه ، إنما كان همه أن يصل إلى السلطة حتى عن طريق الدس والوشایة ، فعل ذلك مع أبي عبيد الله واقتدى به ابنه الفضل ، فدس على البرامكة بعد ذلك وتسبب في نكبهم .

البرامكة والوزارة :

والبرامكة أسرة فارسية ، عاصرت الدعوة العباسية ، وأمنت بها ، وعملت لها ، فلما انتصرت هذه الدعوة ، وصارت الدولة للعباسيين ، شارك البرامكة في الحكم ، وتدرجوا حتى بلغوا أقصى نفوذهم وأمجادهم أيام الرشيد الذي نكبهم ، واستأصل شأفتهم « وكان جدهم برمك من مجوس بلخ ، وكان يخدم التوبهار ، وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقف فيه النيران ، واشتهر برمك المذكور وبنيه بسدانته » ⁽⁴⁹⁾ .

ويعود السبب في بزور نجم الأسرة البرامكية في الدولة العباسية ، إلى خالد ابن برمك الذي كان على اتصال بمحمد ابن علي ابن عبد الله ابن عباس ومن بعده من أئمة العباسيين ، فلما انتصرت الدعوة العباسية ، تقلد مناصب مختلفة كديوان الخراج والجند حتى استوزره السفاح بعد مقتل أبي سلمة الخلال ⁽⁵⁰⁾ وكانت علاقته بالسفاح علاقة وطيدة حتى أنَّ السفاح دفع بابنته ربيطة إلى خالد ، فأرضعتها زوجته ، وأُرْضِعَت ابنة لخالد من زوجة السفاح ⁽⁵¹⁾ . وهذه العلاقة ما

(48) التنويхи ، الفرج بعد الشدة ، ج : 3 ص : 260.

ابن الطقطقي ، الفخرى في الآداب السلطانية ، ص : 184-186.

(49) ابن حلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 6 ص : 219.

(50) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 9 ص : 148.
الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص : 89.

ابن الطقطقي ، الفخرى في الآداب السلطانية ، ص : 156.

ابن حلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 6 ص : 219.

(51) ابن حلكان ، الوزراء والكتاب ، ص : 89.

كانت لتشاً ، لو لم يكن خالد يتمتع بعاقلة رشيدة ، تؤهله لتأسيس أسرة لعبت دوراً بارزاً ومميزة في تاريخ الدولة العباسية . وكان خالد يميل إلى أبناء قومه من الفرس ، ويحاول التوسيع عليهم والإبقاء على تراثهم ، من ذلك ما رُويَ عن المنصور ، أنه لما أراد بناء بغداد ، شاور فيما شاور خالد ابن برمك في هدم إيوان كسرى وحمل حجارته إلى بغداد ، فأشار عليه بأن لا يفعل معللاً حجته بالقول : « لأنَّه (الإيوان) علم من أعلام الإسلام يستدل به الناظر إليه على أنه لم يكن ليُزال مثل أصحابه عنه بأمر دنيا ، وإنما هو على أمر دين ... وإنَّ فيه مصلَّى على ابن أبي طالب صلوات الله عليه ، قال (المنصور) : هيئات با خالد ، أبيت إلا الميْلَ إلى أصحابك العجم »⁽⁵²⁾ فلم يأخذ المنصور برأيه ، واتهمه بالميل لقومه ، لما رأه من شدة احترامه لتراث العجم وخوفه على هذا التراث من الزوال والاندثار ، فحضر منه ، وهمَّ به ، ولكن الظروف تغيرت ، فعدل عن رأيه ، واستعمله وابنه يحيى على الموصل وأذربیجان ، فكانت المحنة الأولى التي يتلقاها البرامكة ، وذلك أنَّ المنصور اتهم خالد ابن برمك ، وصادره على ثلاثة آلاف ألف درهم ، وأجلَّه ثلاثة أيام لإدائها ، وإنَّ فيان مصيره سيكون الموت ، استصرخ خالد أصدقائه ، أو من كان يتبادل وإياهم المنافع مثل عمارة ابن حمزة ومبارك التركي ، وصالح صاحب المصلى ، فأجابوه ، وبعثوا بأموالهم إليه ، فدفعها إلا القليل ، ولكن الظروف السياسية ، كانت قد تغيرت ، فولأَه المنصور الموصل وولي ابنه يحيى أذربیجان⁽⁵³⁾ ولما تولى مقاطعة فارس لعهد المهدي ، تصرف في تدبير خراجها ، ووضع عنها خراج الشجر ،⁽⁵⁴⁾ فلما توفي المهدي ، بُويع بالخلافة لولده الهادي ، وبولاية العهد للرشيد . فجَّدَ الهادي في

(52) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 9 ص : 260-261.

ابن الطقطقى ، الفخرى في الأداب السلطانية ، ص : 157.

(53) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 9 ص : 289 وما بعدها .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 15-16.

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 243.

(54) الجهميشاري ، الوزراء والكتاب ، ص : 151.

خلع الرشيد من ولاية العهد ، وكان في حجر يحيى ابن خالد ابن برمك ، فاحتال
يحيى كُلَّ حيلة في منع حدوث ذلك⁽⁵⁵⁾ .

وسلمت الْبَيْعَةُ للرشيد ، فلَمَّا صارتُ الخلافة إِلَيْهِ ، كافأَ يحيى عَلَى
صنيعه ، واستوزره ، وأوكلَ أموره إِلَيْهِ قائلاً : « قد قلدتك أَمْرَ الرَّعْيَةِ وَأَخْرَجْتَهُ مِنْ
عِنْقِي إِلَيْكَ ، فاحكُمْ فِي ذَلِكَ بِمَا تَرَى مِنَ الصَّوَابِ ، وَاسْتَعْمَلْ مِنْ رَأْيِتِكَ ،
واعزلَ مِنْ رَأْيِتِكَ ، وَامْضِ أَمْرَ الْأَمْرِ عَلَى مَا تَرَى ، وَدَفِعْ إِلَيْهِ خَاتَمَهُ ، فَفِي ذَلِكَ
يقول إبراهيم الموصلي :

« ألم ترَ أنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ سَقِيمَةَ
فَلَمَّا ولَى هَارُونَ أَشْرَقَ نُورُهَا
بِيمَنِ أَمِينِ اللَّهِ هَارُونَ ذِي النَّدِيَةِ
فَهَارُونَ وَالِيَّهَا وَيَحِيَا وَزَيْرُهَا »⁽⁵⁶⁾

وَمَا إِنْ أَطْلَقْتَ يَدُ يَحِيَا فِي حُكْمِ الدُّولَةِ ، حَتَّى أَرْسَلَ وَلَدَهُ الْفَضْلَ إِلَى
خَرَاسَانَ وَالْيَالِيَّ عَلَيْهَا ، فَأَثْبَتَ الْأَخِيرَ جَدَارَةَ فِي الْحُكْمِ وَنِيَاهَةَ ، وَأَسْسَ جِيشًا ضَخْمًا
سَمَاهُ الْعَبَاسِيَّةَ ، وَجَعَلَ لَوَاءَهُ لِلْعَبَاسِيِّينَ ، وَقَدْ بَلَغَ تَعْدَادَ ذَلِكَ الْجَيْشِ خَمْسَ مِئَةَ
أَلْفَ جَنْدِيٍّ ، اسْتَقْدَمَ مِنْهُمْ إِلَى بَغْدَادِ عَشْرِينَ أَلْفًا ، فَسَمِّوْا بِالْكَرْبَلَيَّةِ ، وَخَلَفَ
الْبَاقِينَ فِي خَرَاسَانَ ، فَمَدْحُومَهُ مَرْوَانُ ابْنُ أَبِي حَنْصَةَ وَخَلَدَ هَذَا الْحَدِيثُ بِقَوْلِهِ :

عَنْ الْحَرُوبِ إِذَا مَا تَأْفَلَ الشَّهَبُ
مِنَ الْوَرَاثَةِ فِي أَيْدِيهِمْ سَبَبُ
كَتَابِ مَا لَهَا فِي غَيْرِهِمْ إِرَبُ
مَا أَلْفَ الْفَضْلِ مِنْهَا الْعِجْمُ وَالْعَرَبُ
مِنَ الْأَلْفَوْنِ الَّتِي أَحْصَتَ لَكَ الْكِتَبُ
« ما الفضل إلا شهاب لا أقول له
حام على ملك قوم غير سهمهم
أمست يد لبني ساقى الحجاج بها
كتائب لبني العباس قد عرفت
أثبت خمس مئين في عدادهم

(55) وجاء في التنويхи ، الفرج بعد الشدة ، ج : 4 ص : 94 ما يفيد بأن مؤامرة قد حيكت على الهايدي
وكان أبطالها الخيزران ويحيى البرمكي وإبراهيم ابن ذكوان الحراني وهارون الرشيد ، وانظر ابن
الآثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 96-99 ومقالة فاروق عمر بعنوان هارون الرشيد في :

Encyclopédie De L'Islam Nouvelle Edition. Tome IV.P. 239.

(56) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 10 ص : 50

يقارعون عن القوم الذين هم أولى بأحمد في الفرقان إنْ نُسِبُوا
 إنَّ الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق يبقى على جود كفيه ولا ذَهَبُ»⁽⁵⁷⁾
 وكان الفضل والرشيد أخوين من الرضاع ، وفي ذلك قال ابن أبي حفصة
 مدح الفضل :

كفى لك فضلاً أنَّ أفضل حرة غذتك بشدي وال الخليفة واحد
 لقد زنت يحيى في المشاهد كلها كما زان يحيى خالداً في المشاهد»⁽⁵⁸⁾
 وكان الرشيد قد قلده الوزارة قبل أخيه جعفر ، وكان يكن له احتراماً شديداً
 حتى أنه احتشم من خطابه بعزله ، فقال لـ يحيى ابن خالد : «قد احتشم من
 الكتاب إليه في ذلك ، فاكتفيه ، فكتب والده إليه : قد أمر أمير المؤمنين بتحول
 الخاتم من يمينك إلى شمالك ، فكتب إليه الفضل : قد سمعت مقالة أمير
 المؤمنين في أخي ، وأطعت ، وما انتقلت عنني نعمة صارت إليه ، ولا غربت
 عنني رتبة طلعت عليه»⁽⁵⁹⁾.

أما جعفر ، فكان «متمكاناً عند الرشيد ، غالباً على أمره ، واصلاً منه ،
 وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم يبلغه سواه ، حتى أنَّ الرشيد اتخذ ثواباً له زيقان
 فكان يلبسه هو وجعفر جملة ، ولم يكن للرشيد صبر عنه»⁽⁶⁰⁾ وقلده البريد ودور
 الضرب والطرز في جميع الكور ، وأشاركه معه في النظر في المظالم⁽⁶¹⁾ ، ليس
 هذا فحسب ، وإنما قسم الرشيد ملكه بين ولديه يحيى ، فولى جعفر ابن يحيى
 المغرب كلَّه ، وولى الفضل الشرق كلَّه⁽⁶²⁾ وكان الفضل ينهد إلى ما يليه من

(57) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 10 ص : 62-63.

(58) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 4 ص : 27.

(59) مصدر نفسه . ج : 4 ص : 27-28.

(60) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 1 ص : 332 (وفي تاريخ بغداد للبغدادي مثل ذلك مع اختلاف في اللفظ) ، ج : 7 ص : 152.

(61) الجهميـاري ، الوزراء والكتاب ، ص : 204.

(62) مصدر نفسه . ص : 190.

الأعمال في حين أن جعفر ابن يحيى كان يُوَكِّلُ في أعماله من ينوب عنه ويبقى في بغداد مع الخليفة ، وقد توجس يحيى ابن خالد خيفة من العلاقة الحميمة التي كانت بين جعفر والرشيد ، وتوقع لها نهاية مؤسفة ، فكان ينهى ولده عن كثرة مخالطته الرشيد ، وكان يحذر الرشيد من تسليم زمامه إلى جعفر ، فيقول له : « يا أمير المؤمنين ، إني أكره مداخل جعفر ، ولست آمن أن ترجع العاقبة على في ذلك منك ، فلو أغفiate ، واقتصرت على ما يتولاه من جسيم أعمالك لكن أحـبـ إلى وأولـىـ بـتـفضـيلـكـ ، وآمنـ عـنـديـ » فقال له الرشيد « ليسـ بـكـ هـذـاـ ، ولكنـ بـكـ أـنـ تـقـدـمـ عـلـيـهـ الفـضـلـ »⁽⁶³⁾ وكان يقول لـيـحـيـيـ : « أـنـ لـلـفـضـلـ وـأـنـ لـجـعـفـرـ »⁽⁶⁴⁾ وذكر الجهيـاريـ : أـنـ يـحـيـيـ ابنـ خـالـدـ كـانـ يـعـلـمـ أـنـ جـعـفـرـ سـيـكـونـ السـبـبـ فيـ نـكـبـةـ أـسـرـتـهـ ، وـيـعـلـمـ تـارـيـخـ حدـوثـ تـلـكـ النـكـبـةـ »⁽⁶⁵⁾ .

وكان جعـفـرـ أـبـنـ يـحـيـيـ عـظـيمـ الإـدـلـالـ وـالـقـدـرـةـ عـلـىـ الرـشـيدـ ، حتىـ أـنـهـ كانـ يـصـرـفـ الأـعـمـالـ دـوـنـ مـؤـامـرـتـهـ ، وـالـمـصـادـرـ تـجـمـعـ تـقـرـيـباـ عـلـىـ روـاـيـةـ مـفـادـهـ أـنـهـ وـهـ بـعـدـ الـمـلـكـ اـبـنـ صـالـحـ مـنـ بـيـتـ الـمـالـ أـلـفـ دـرـهـمـ ، وـضـمـنـ لـهـ رـضـىـ الـخـلـيـفـةـ وـزـوـجـ اـبـنـهـ اـبـتـةـ الـخـلـيـفـةـ وـوـلـاـهـ مـصـرـ ، وـقـدـ تـعـجـبـ إـبـرـاهـيمـ اـبـنـ الـمـهـدـيـ مـنـ إـقـدـامـ جـعـفـرـ اـبـنـ يـحـيـيـ عـلـىـ الرـشـيدـ ، وـتـزـوـيجـهـ بـنـاتـهـ مـنـ دـوـنـ اـسـتـئـذـانـهـ ، وـتـعـجـبـ مـنـ أـمـرـ الرـشـيدـ وـإـمـضـائـهـ مـاـ أـمـضـىـ جـعـفـرـ »⁽⁶⁶⁾ .

وـكـانـ الرـشـيدـ قـدـ ضـمـ الـأـمـيـنـ لـلـفـضـلـ اـبـنـ يـحـيـيـ ، وـالـمـأ~مـونـ لـجـعـفـرـ اـبـنـ يـحـيـيـ ، وـلـذـلـكـ لـعـبـ الـفـضـلـ دـوـرـاـ كـبـيـراـ فـيـ تـولـيـةـ الـعـهـدـ لـلـأ~مـيـنـ »⁽⁶⁷⁾ .

وـأـخـيـراـ صـحـتـ فـرـاسـةـ يـحـيـيـ اـبـنـ خـالـدـ ، إـذـ قـتـلـ الرـشـيدـ جـعـفـرـ اـبـنـ يـحـيـيـ ،

(63) مصدر نفسه . ص : 225.

(64) مصدر نفسه . ص : 189.

(65) مصدر نفسه . ص : 249.

(66) الجهيـاريـ ، الـوزـراءـ وـالـكـتابـ ، ص : 213.

التـنـوـخـيـ ، الـفـرـجـ بـعـدـ الشـنـدـ ، جـ : 1ـ صـ : 362.

ابـنـ خـالـكـانـ ، وـقـيـاتـ الـأـعـيـانـ ، جـ : 1ـ صـ : 331-330 ، ثـمـراتـ الـأـورـاقـ ، جـ : 1ـ صـ : 74.

(67) الجهيـاريـ ، الـوزـراءـ وـالـكـتابـ ، ص : 193.

وصلب جثته ، واعتقل أباءه وإنوته وصادر أموالهم وأسبابهم وعمالهم والمقربين منهم ، واستأصل شأفتهم ، ولم يترك لهم إلا ذكرى محمولة على أجنحة الأساطير ، تتناقلها الأجيال ، وتحاول سبر أعمق العلاقة بين الرشيد والبرامكة ، والتعرف على السبب الحقيقي الذي أدى إلى سقوطهم من حلق ، ونكبتهم على هذا النط المروع .

والحقيقة أن الرشيد لم يتغير للبرامكة فجأة ، ولكنه استشار نصائحه أولاً ، فذكر عن إسحاق ابن علي العباسي ، أنه قال : « كنت أسيراً للرشيد يوماً والأمين عن يمينه والمأمون عن شماله ، فاستدناي وقدمهما أمامه ، فسايرته ، فجعل يحدثني ، ثم بدأ يشاورني في أمر البرامكة ، فأخبرني بما أصرر عليه لهم ، فلأنهم استوحشوا من أنفسهم ، ولأنني عنده بالموضع الذي لا يكتمني شيئاً من أمرهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا تنقلني من السعة إلى الضيق ! فقال الرشيد : إلا أن تقول ، فإنني لا أتهمك في نصيحة ، ولا أخافك على رأي ولا مشورة ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنني أرى نفاستك عليهم بما صاروا إليه من النعمة والسعادة ، ولذلك أنا تأمر وتنهي ، وهم عبيد لك بإنباتك إليهم ، فهل ذلك كله إلا بك ؟ قال ، - وكانت أحطب في حبال البرامكة - فقال لي : فضياعهم ليس لولدي مثلها ، وتطيب نفسى بذلك لهم ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الملك لا يحسد ولا يحقد ، ولا ينعم بنعمة ثم يفسد نعمته ، قال : فرأيته قد كره قولي ، وزوى وجهه عنى ، قال إسحاق : فعلمت أنه سيقع بهم ، ثم انصرفت فكتمت الخبر ، فلم يسمع به أحد ، ... حتى قتلهم ، وكان أشد ما كان إكرااماً لهم ، وكان قتلهم بعد ست سنين من تاريخ ذلك اليوم »⁽⁶⁸⁾.

وقال مسرور الخادم إنّه سمع الرشيد وهو متصل بأستار الكعبة ، يقول : « اللهم إني أستخبارك في قتل جعفر ابن يحيى ، ثم قتله بعد ذلك بخمس أو ست سنين »⁽⁶⁹⁾ . وحتى يحيى ابن خالد شعر بتغير الرشيد عليه وذمه له ، فقال « إنه

(68) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 5 ص : 296.

(69) الجاحظ ، الناج في أخلاق الملوك ، ص : 73-74.

لم يكن مني في هذه الحال التي ذُمني فيها شيءٌ لم يكن مني في ذلك الوقت الذي أحمدني فيه . ولكن المدة إذا إذنت بالإنقضاء جعلت المحاسن متساوية⁽⁷⁰⁾ لقد اختمرت في رأس الرشيد فكرة التخلص من البرامكة طويلاً ، فعمل على تقليل نفوذهم وتحديد صلاحياتهم ، حتى لا يترك غيابهم عن مسرح الأحداث فراغاً في أجهزة السلطة أو اختلالاً في الميزان السياسي لكثره ما كان لهم من الأشياع والأتباع ، ثم تخلص منهم ، وعلى الرغم من الخطأ الدقيقه التي رسمها الرشيد ، واعتمدها في ذلك ، فقد اختلت فارس ، وانتقضت عليه ، فأحس بالخطورة وسار إليها بنفسه ، لكنه قضى في الطريق ، فدُفن بطوس ، ليفسح المجال لمرحلة جديدة من الصراع بين العصبية العربية والفارسية .

وبعد ما هي الأسباب والدوافع التي حفزت الرشيد على إنزال ما أنزل

بهم ؟

كما سبق أنْ بَيْنَا ، فنكبة البرامكة ، لم تكن نزوة من نزوات الرشيد العابرة ، لكنها نتيجة لفكرة اختمرت في رأسه لسنوات عديدة ، والبرامكة شعروا بتغير الرشيد عليهم ، كما شعروا بتائب الخصوم من حولهم لكنهم صبروا يتظرون مصيرهم ، ولم يحاولوا دفع ذلك المصير ، وتجنب تلك الكارثة ، باستثناء ما يُروى عن محاولة موسى ابن يحيى بالوثوب بخراسان⁽⁷¹⁾ ، فجعفر البرمكي سمع التحذير من الرشيد نفسه ، وعلم أنه يَهُمُّ بِهِ ، فعندما تأمل الرشيد عنق جعفر ، سأله الأخير عمَّا يتأمل ، فأجابه بما أخافه ، فاستعاذه وقبله ، وقد أفصح الرشيد عن غايته من تأمله لعنق جعفر ، فقال لابن الربيع : « ما تأملت عنقه إلا لموضع السيف منها »⁽⁷²⁾ .

وقد علل الرواة والمؤرخون أسباب النكبة تعليقات مختلفة منها : أنَّ البرامكة قد احتازوا الأموال دون الرشيد ، وتصرفا بأمور الدولة على هواهم ،

(70) الجهميـاري ، الوزراء والكتاب ، ص : 226.

(71) الطبرـي ، تاريخ الأـمـم والمـلـوـك ، ج : 10 ص : 90-94.

(72) الجهمـاري ، الوزـراء والكتـاب ، ص : 216.

فاطلقوا رجلاً من آل أبي طالب كان في أيديهم⁽⁷³⁾ وأنَّ محمد ابن الليث رفع رسالة إلى الرشيد فيها : « إنَّ يحيى ابن خالد لا يغنى عنك من الله شيئاً ، وقد جعلته فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه ، فسألتك عما عملت في عباده وببلاده ، فقلت : يا رب إني استكفيت بمحني أمور عبادك ، أتراء تحتج حجة يرضي بها ، مع كلام فيه توبخ وتقرير ، فدعوا الرشيد يحيى وقد تقدم إليه خبر الرسالة ، فقال : تعرف محمد ابن الليث ، قال : نعم ، قال : فأي الرجال هو ؟ قال : متهم على الإسلام ، فأمر به ، فوضع في المطبع دهراً . وأنَّ الرشيد قتل جعفر ابن يحيى بسبب إطلاقه يحيى ابن عبد الله ابن حسن ، وإيصاله إلى مأمه ، واتصال الخبر بالرشيد عن طريق ابن الريبع ، فدعوا بجعفر ، فسألة عن يحيى ، فاعترف بما صنع ، فتغير الرشيد ، وأصبح يعد العدة للتخلص من البرامكة . ومنها أنَّ جعفر ابن يحيى أنفق على دار له نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، وقد لاحظ ابراهيم ابن المهدي ، أنَّ هذا الإنفاق الفاحش قد يغير قلب الخليفة عليه ونبهه إلى ذلك .

ومنها أنَّ السبب في نكتبهم يعود لدعوة دعاها يحيى ابن خالد في الكعبة وهو متعلق بستارها ، فاستجابها الله ، ونكتبهم بها .

ومنها ارتياض الرشيد بموسى ابن يحيى أثر وشایة من الفضل ابن الريبع ، إضافة إلى القصة التي تروى عن زواج العباسة أخت الرشيد بجعفر ابن يحيى شريطة لا يمسها ، ونكتب جعفر بهذا الشرط⁽⁷⁴⁾ .

ثم أورد الطبرى رواية أخرى ، تقول : إنَّ الرشيد أراد شراء جارية بمائة ألف دينار ، فاستفطع ذلك يحيى ابن خالد ، واحتج بعدم وجود المال الكافى ، فغضض الرشيد لعدم وجود مائة ألف فى بيت المال ، وأصرَّ على الطلب ، فقدمها

(73) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 377.

(74) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 94-79.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 175 وما بعدها .

ابن المقفعي ، الفخرى ... ، ص : 209.

يحيى دراهم ، ليستكثرها الرشيد ، ويعدل عن الشراء ، وبالفعل استكثرها الرشيد ، وعدل عن الشراء ، وأخذ في التفتيش عن أموال البرامكة ، ثم أمر الرشيد يحيى ابن خالد بأن يعطي أحد أصحاب الأدب ثلاثين ألف درهم ، فتكلما يحيى ، فاحتال الرجل حتى وصل حديثاً بقول عمر ابن أبي ربيعة :

وعدت هند وما كانت تعد ليت هنداً أنجزتنا ما تعد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد»

ولما أصبح يحيى ابن خالد غادراً على الرشيد ، بادره الرشيد بالقول «قد أردت البارحة أن أرسل إليك بشعر أنشديه بعض من كان عندي ثم كرهت أن أزعجك ، فأنشدها البيتين ، فقال : ما أحسنهما يا أمير المؤمنين ، وفطن لما أراد»⁽⁷⁵⁾.

أما ابن قتيبة ، فقد علل تلك النكبة بزواج جعفر ابن يحيى من اخت الرشيد ، وقد سماها فاختة⁽⁷⁶⁾.

وذكر التنخي أن جعفر ابن يحيى قتل عبد الله ابن الأفطس ، وكان الرشيد قد حبسه عنده ، دون أمر الرشيد ، فلما أرسل الرشيد مسروراً الكبير لقتل جعفر ، قال له : إن سألك عن ذنبه الذي أقتلته من أجله ، فقل له : إنما أقتلتك بابن عمي ابن الأفطس الذي قتلتة من غير أمري⁽⁷⁷⁾.

وكان الفضل ابن الربيع قد أغدر صدر الرشيد على البرامكة ، بسبب حادثة حقدها عليهم ، وذلك أنه صار إلى يحيى ابن خالد ، أو إلى ولده الفضل في حاجة له ، فلم يرفع إليه رأسه ، ولا قضى حاجته ، فقام مغضباً ، فلم يكتثر له ، فتمثل :

(75) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 11 ص : 11-10.
البيهقي ، المحسن والمتساوئ ، ص : 374-373 (مع تغيير في الرواية)

(76) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج : 2 ص : 172-173.

(77) التنخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 4 ص : 114-115.

عسى وعسى يثنى الزمان عنانه يدور زمان والزمان يدور
فيعقب روعات سروراً وغبطة وتحدث من بعد الأمور أمرؤ
فلم يكن بين ذلك ، وبين أن سخط الرشيد على البرامكة ، واستوزر
الفضل ابن الريبع إلا أياماً بسيرة⁽⁷⁸⁾ . وكان الرشيد يتهم البرامكة بموالاة عبد
الملك ابن صالح والعمل معه للإنقلاب على الرشيد⁽⁷⁹⁾ .

وكان الرشيد حريصاً على عدم التصریح بالسبب الذي من أجله فتك
بالبرامكة ، فقد سأله عليه بنت المهدی ، فقالت : « ما رأيت لك يوم سرور تاماً
منذ قتلت جعفرأ ، فلاي شيء قتلته ؟ فقال : يا حیاتی ، لو علمت أن قميصي
يعلم السبب الذي قتلت له جعفرأ لأحرقه⁽⁸⁰⁾ .

وقد نفى ابن خلدون قصة العباة نفياً مطلقاً ، وعلّل ذلك ، بأدلة منها :
أن منصب العباة في دينها وأبويها وجلالها لا يسمح لها بذلك ، وأنها قريبة عهد
ببداؤه العروبة وسذاجة الدين بعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفحش ، واستحاله
لحم نسبيها بجعفر ابن يحيى وتذنيس شرفها العربي بمولى من موالي العجم .
 وأن الرشيد على بعد همه وعظم آبائه لا يقدم ولا يستسيغ لنفسه أن يصهر إلى
موالي العجم ، وبعد استبعاده للقصة ، يقرر أن سبب نكبة البرامكة كان سياسياً
واقتصادياً ، سياسي لاستبدادهم على الدولة ، ومشاركتهم السلطان ، وغلوتهم عليه
وتقربيهم رجال الشيعة . واقتصادي بسبب احتجانهم الأموال والضياع ، إضافة إلى
عقاب السعاية والغيرة والمنافسة في الاستبداد من الخليفة فمن دونه⁽⁸¹⁾ .

ونحن نميل إلى القول بأن انكبتهم قد أسهمت فيها عوامل متعددة ساعدت
في إذكاء نار الحقد والضغينة في قلب الرشيد ، منها :

(78) التوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 1 ص : 307-308.

(79) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 183-184.

(80) الصولي ، أشعار أولاد الخلفاء ، ص : 57.

(81) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 15 وما بعدها .

— أنهم استمروا بالسلطة دون انقطاع لفترة طويلة نسبياً ، وكل طويل مملول .

— وأنهم بحكم المربي والمنشا والمعاملة اليومية مع الخليفة ، قد اكتسبوا جرأة وداللة عليه ، قد تجاوزت كل حد ، فجعفر ابن يحيى أصبح يزوج بنات الرشيد دون استئذانه ، فال الخليفة والحال هذه كالمحجور عليه ، له من الخلافة الإسم ، ولهم العمل ، فكان لا بد من وضع حد لتلك العلاقة الشاذة .

— وكان لاستشارتهم بالسلطة جانب اقتصادي ، إذ استأثروا بأموال الدولة ، يختزنونها ، ويذرونها دون حساب أو رقيب بينما الخليفة يطلب القليل أحياناً فلا يحصل عليه .

— تقربيهم من الناس ، وتواضعهم لهم مع حاجة الناس إليهم ، جعلتهم يتمتعون بسمعة طيبة أين منها سمعة الخلفاء . وازدحام الشعراء على أبوابهم ، وكيل المدائخ لهم بصفات لا تناسب غير الرجل الأول في الدولة .

— تقربيهم أنصارهم وملء مراكز الدولة بهم وخاصة الفرس .

— الوشاية بهم ، وتضليل سبائهم وتأليب أعدائهم ، من يطمح بالحلول محلهم كالفضل ابن الربيع وعلي ابن عيسى ابن ماهان وعبد الله ابن مالك الخزاعي الذي أحس الرشيد بتجني البرامكة وحقد them عليه وحرصهم بإبعاده عن الخليفة ونکبه⁽⁸²⁾ .

— تقربيهم من رجال الشيعة ، ومساعدتهم بالأموال ، وخاصة إطلاق جعفر ابن يحيى ، ليحيى ابن عبد الله ابن حسن .

— غيرة الرشيد على حرمه ، فليس بمستبعد أن تحاول زبيدة الإيقاع بالبرامكة ولصق أي تهمة بهم لأنّ يحيى ابن خالد كان يشدد على حرم الرشيد وبضيق عليهم ويفصل أبواب القصر ليلاً⁽⁸³⁾ .

(82) التوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 3 ص : 126.

البيهقي المحسن والساوى ، ص : 387.

(83) ابن خلkan ، وفيات الأعيان ، ج : 1 ص : 333 وما بعدها .

كل هذه العوامل تكاملت وأسهمت في نكتبهم ، أما اتهامهم بالزنادقة فقد ألمنا به في باب الشعوبية والبعد الديني ، وقد نفت الدكتورة قدورة تلك التهمة ، فقالت « فاتهام البرامكة بالزنادقة لا يقوم على دليل واضح ملموس ، وإنما اتهمهم بذلك المؤرخون الذين تلوا عصرهم ، وكانوا متأثرين بأقوال أعدائهم ، كابن النديم وغيره . ولم يؤثر عن البرامكة أنهم اعتنقوا شيئاً من أقوال الزنادقة ، كالقول بعبادة إلهين أو التناصح أو الإباحة ، أو الحلولية أو غير ذلك من العقائد التي كان يُرمي معتنقيها بالزنادقة ، ولم يثبت عليهم ثبوتاً قاطعاً أنهم علقوا المجامر بالكعبة عن سوء قصد... الواقع أننا لم نسمع عن زندقتهم إلا بعد نكتبهم »⁽⁸⁴⁾ .

وبعد فما علاقة البرامكة بالشعوبية ؟ وأين موقعهم منها ؟ وهل لكتبهم صلة بها ؟

إن موقع البرامكة من الخليفة ومركزهم في الدولة كان يحتم عليهم الحذر من إظهار مشاعرهم والإفصاح عما يخالفهم من عصبية بصورة علنية ، غير أن الحذر ما كان ليمنع حدوث بعض الأمور التي تؤكد ميلهم للعجز وحرصهم على إعلاء العنصر الفارسي وصونه وحفظ حقوقه ونشر ثقافته . وقد مرّ معنا مشورة خالد البرمكي على المنصور لما استشاره في هدم إيوان كسرى ، ومحاولة يحيى ابن خالد تأخير النوروز نحو الشهرين وتراجعه عنها مخافة التهمة بالتعصب للمجوسية⁽⁸⁵⁾ . كذلك مر معنا تعصب الفضل ابن يحيى على الضب ولعنه ولعن آكله والمقصود العرب طبعاً . وقد روى التنوخي حكاية دخول الأصممي على الرشيد وإنشاده قصيدة ذي الرمة

« ما بال عينك منها الماء ينسكب »

وكان جعفر ابن يحيى حاضراً ، فإن الأصممي مضى في إنشادها حتى وصل

(84) د. زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي ، ص : 277.

(85) البيروني ، الآثار الباقية ، ص : 31 وما بعدها .

إلى وصف الجمل ، فقال جعفر : ضيق علينا ما اتسع من مسامرة السهر ، بجمل أجرب ، فقال الرشيد : اسكت ، فهي التي سلبتك تاج ملكك ، وأزعجتك عن قرارك ، ثم جعلت جلودها سياطاً ، تُضربُ بها أنت وقومك عند الغضب «⁽⁸⁶⁾» فالرشيد يعلم سبب حقد جعفر البرمكي وأمثاله على الجمال ، لذلك أجابه هذا الجواب القاسي ، هذه الفلتات وغيرها تبنيء بشعور البرامكة الخفي بأنهم كانوا مع الشعوبية في عواطفهم احتضنوها وأمدّوا أربابها بالمساعدة ، فهذا ذلك مناخاً جيداً للشعوبية ونشاطها إذ وجدت في البرامكة الملاذ والحمى ، فنشطت تشن الحملات على العرب والعروبة ، وقد تجلى ذلك بأمور أوجزها الدكتور الدوري بالقول : «إنَّ البرامكة الذين تربعوا على دست الوزارة سبعة عشر سنة ، حاولوا تقرب العنصر الفارسي ، وربما ذهبوا أبعد من ذلك ، مما ولد ردة فعل ضدهم ، وقد لاحظ ذلك من محطات رئيسة هي :

- تقرب بنى سهل من المأمون وهم يومند من المجروس .
- محاولة اضطهادهم للعرب .
- توسيع طبقة الكتاب وتأكيد أهميتها وهي طبقة مثقفة ثقافة فارسية .
- تشجيع الترجمة من الفهلوية إلى العربية .
- تبنيهم عناصر فارسية متطرفة كسهل ابن هارون وهو من أعلام الشعوبية .
- دور البرامكة في العهد للمأمون ، ليعطوا للعنصر الفارسي رمزاً في العاصمة يعمّلون باسمه بحجّة كونه ابن أختهم .
- تمجيد الكتاب للبرامكة ومحاجمة الرشيد والدولة بعدهم «⁽⁸⁷⁾» .

(86) التنوي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 3 ص : 304-305.

(87) د. عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص : 37-38.

- انظر التنوي ، الفرج بعد الشدة : ج : 3 ص : 249 ، وفيه قصة مزداها أنَّ أَحْمَدَ بْنَ أَبِي خالد كان قد أحسن إلى البرامكة في سجنهم ولم يكن يحْمِي قادرًا على مكافأته ، فاعطاه رسالة إلى الفضل ابن سهل مختومة بنصف خاتم ، وكانت بقية الرسالة والختم مع الفضل .

وكان لنكبة البرامكة الأثر البالغ على الدولة فاضطربت أنحاء البلاد المختلفة ، وشعر الرشيد بالفراغ من بعدهم ، وندم على ما كان منه في أمرهم ، وذكر عنه أنه لو وثق بصفاء نيتهم ، لأعادهم على ما كانوا عليه ، « وكان الرشيد كثيراً ما يقول : حملونا على نصائحنا وكفانا ، وأوهمنا أنهم يقظون مقامهم ، فلما صرنا إلى ما أرادوا لم يغنا عننا ، وأنشد :

أقلوا علينا لا أباً لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا»^(٨٨)
ولما مات يحيى ابن خالد ، وجد في جيده رقعة مكتوب فيها : « قد تقدم الخصم والمدعى عليه في الأثر ، والقاضي هو الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بينة ، ولما قرأ الرشيد الرقعة بكى يومئذ كلّه ، واستمر أياماً يتبعن الأسى في وجهه »^(٨٩) .

الفترة بين الأمين والمأمون :

قضى البرامكة ، وقضى الرشيد بعدهم بوقت وجيز ، لكن الصراع على السلطة لم ينته . إنما كانت نهاية الرشيد نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى أخطر وأشد على الأمة والدولة من سابقتها .

وذلك إنَّ الرشيد كان قد أوصى بولاية العهد لولده محمد من زوجته زبيدة ، ولقبه الأمين ومن بعده لولده عبد الله ، ولقبه المأمون ، وكتب العهد بذلك ، وأشهد الشهود من وجوده بنى هاشم والقواد ، ولما حجَّ سنة ست وثمانين ومائة ، علق الرشيد العهدين في الكعبة الشريفة ، وأخذ العهود والمواثيق على الآخرين

(٨٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : ٦ص : 228-229. وأنظر في ذلك مقالة فاروق عمر في Encyclopédie De L'Islam, Nouvelle Edition Tome III.P. 239.

(٨٩) ابن العماد الحنفي ، شذرات الذهب ، ج : ١ ص : 328 ، وزعم حجاب في مظاهر الشعوبية في الأدب العربي أن الرشيد قتل بيد فارسية استقاماً للبرامكة وبتخطيط مسبق من يحيى ابن خالد البرميكي ص : 203 وما بعدها .

أن لا يحاول أحدهما خلع صاحبه أو الغدر به ، وعمم ذلك على عماليه⁽⁹⁰⁾ وكان يخشى غدر الأمين بأخيه المأمون ، وقد أفصح عن مخاوفه تلك عندما عاتبه زوجته أم جعفر في أمر ابنيه ، مدعية أنه أعرض الأمين عن العدد والقاد ، وصبر ذلك إلى أخيه دونه ، فأجابها : « ... إني وليت ابنك السلم ، وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المصالح ، ومع هذا ، فإننا نتخفف بابنك على عبد الله ، ولا نتخفف عبد الله على ابنك إن بُويع »⁽⁹¹⁾ وظهرت مخاوفه كذلك في العهد الذي كتبه على الأمين في مكة ، فكان نتيجة ذلك الخوف ، أن جعل المأمون مستقلًا عن أخيه استقلالاً تاماً ، ليس للأمين عليه ولا على أحد من أصحابه سلطان بيد ولا لسان⁽⁹²⁾ .

والظاهر أن الرشيد كان يميل إلى المأمون ، ويراه الأصلح والأنسب للخلافة ، لكن زوجته زبيدة أم الأمين وأخواه من بني العباس ، عرفوا كيف يؤثرون على الرشيد ، فجعلوه يقدم الأمين في ولادة العهد على أخيه ، وقد أفضى الرشيد بما يحالجه ليحيى ابن خالد ابن برمك ، فقال له : « ... وقد عنيت بتصحيح هذا العهد ، وتصييره إلى من أرضي سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وأمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم ماثلون إلى محمد بأهوائهم ، وفيه ما فيه من الإنقياد لهواه ، والتصرف مع طويته ، والتذير لما حوتة يده ، ومشاركة النساء والإماء في رأيه ، وعبد الله المرضي الطريقة ، الأصيل الرأي ، المؤتوق به في الأمر العظيم فإن ملت إلى عبد الله أخطئتبني هاشم ، وإن أفردت محمد بالأمر ، لم آمن تخليطه على الرعية »⁽⁹³⁾ .

(90) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 73 وما بعدها .
المسعودى ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 364 .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 173 .

(91) المسعودى ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 363 .

(92) ينظر مضمون العهدين في الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 73 .

(93) المسعودى ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 363 .

فاستقر رأيه بعد خلوته ببيحى ابن خالد ، أن يجعل للأمين ثم للمأمون من بعده ، وذلك لظنه أنه ببيعته ولديه قد تفادى غضب آل عباس ، واطمأن في ذات الوقت ، بأنَّ الخلافة صائرة إلى ثقته عبد الله .

ولكن الأمور جرت على غير ما أملَّ ، فبدأت عقارب الحسد والغيرة تنهش قلب الأمين من أخيه المأمون ، مما جعل المأمون خائفاً على مصيره ، حذراً من الإنفراد مع الأمين في بغداد . فلما أراد الرشيد المسير إلى خراسان لمحاربة رافع ابن الليث ، استخلف الأمين على بغداد ، وأمر المأمون بالمقام بها ، فقال الفضل ابن سهل للمأمون : « لست تدرى ما يحدث بالرشيد ، وخراسان ولايتك ، ومحمد الأمين المقدم عليك ، وإنْ أحسن ما يصنع بك آنْ يخلعك ، وهو ابن زبيدة ، وأخواه بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها ردء له ، فاطلب إلى أمير المؤمنين : أنْ تسير معه ، فطلب إليه ذلك ، فأجابه بعد امتناع ⁽⁹⁴⁾ فخرج مع الرشيد حتى جرجان ، ثم فارق الرشيد إلى مرو ، ومعه من قواد أبيه : « عبد الله ابن مالك ويحيى ابن معاذ ، وأسد ابن يزيد ، والعباس ابن جعفر ابن محمد ابن الأشعث ، والسندي الحرشي ، ونعميم ابن حازم ⁽⁹⁵⁾ » .

وأما الأمين ، فقد أكلته نار الغيرة والحسد ، لما علم أنَّ أباه قد جدد العهد للمأمون ، وأشهد من معه على ذلك ، وأقرَّ له بجميع ما معه من الأموال والعدة والجند ، فأرسل بكر ابن المعتمر ، وأرسل معه الكتب ، وأوصاه بكتتها حتى وفاة الرشيد ، وبعد وفاته فتحت الكتب وكان منها كتاب إلى أخيه صالح ، يأمرُه فيه بتسيير العسكر واستصحاب ما فيه ، وأنْ يتصرف برأي الفضل ابن الريبع ⁽⁹⁶⁾ .

فلما قرأت الكتب ، تشاور ابن الريبع والقواد في اللحاق بالأمين ، فقال الفضل ابن الريبع : « لا أدع ملكاً حاضراً لأخر ما أدرى ما يكون من أمره . وأمر

(94) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 2017.

(95) مصدر نفسه . ج : 6 ص : 212.

(96) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 124 وما بعدها .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 223-222.

الناس بالرحيل ، فرحلوا محبة لإهلهم ووطنهم ، وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون «⁽⁹⁷⁾ .

جمع المأمون قواد أبيه ، واستشارهم ، فأشاروا عليه أن يلحقهم بألفي فارس جريدة خيل ، فيردهم ، فحضره الفضل ابن سهل ، وأشار عليه أن يرسل لهم رسولاً ، يذكرهم العهود والمواثيق . لكن الفضل ابن الريبع تنازل ، وحاول من معه الفتنة بالرسول ، وشتموا المأمون . فلما عاد الرسول ، قال الفضل ابن سهل للمأمون : « أعداء قد استرحت منهم ، ولكن أفهم عنى ما أقول لك إن هذه الدولة لم تكن فقط أعز منها أيام أبي جعفر ، فخرج عليه المقنع وهو يدعى الربوبية ، وقال بعضهم طلب بدم أبي مسلم ، فتضعضع العسكر بخروجه بخراسان ، فكفاه الله المؤونة ، ثم خرج بعده يوسف البرم ، وهو عند بعض المسلمين كافر ، فكفى الله المؤونة ، ثم خرج استاذ سيس يدعوه إلى الكفر ، فسار المهدي من الري إلى نيسابور ، فكفى الله المؤونة ، ولكن . . . أخبرني كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع ؟ قال : رأيتهم اضطربوا اضطراباً شديداً (قال :) وكيف بك وأنت نازل في أحوالك ، وبيعتك في أعناقهم ، كيف يكون اضطراب أهل بغداد . إصبر ، وأنا أضمن لك الخلافة »⁽⁹⁸⁾ .

المهم أن هذه الحادثة جعلت المأمون حذراً ، يراقب أفعال أخيه ، ويرتاب به ، ولا يطمئن إلى تصرفه ، كما أنها كانت الدافع المباشر الذي حرك الفضل ابن الريبع وحفره على تحريض الأمين ، وإغرائه بأخيه ، خوفاً من انتقام المأمون منه عقاباً ل فعلته بتسخير الأموال والجنود إلى بغداد بعد وفاة الرشيد ، فقال للأمين : « ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعد الله والقاسم أخويك ، فإن البيعة كانت لك متقدمة قبلهما ، وإنما أدخلنا فيها بعده واحداً بعد واحد ، وأدخل في ذلك من رأيه معه علي ابن عيسى ابن ماهان ، والستني وغيرهما من بحضرته ، فازال

(97) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 122.

(98) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 124-128.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 224-222.

محمدًا عن رأيه ، فأول ما بدأ به محمد عن رأي الفضل ابن الربيع ، فيما دبر من ذلك أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم ابن الرشيد »⁽⁹⁹⁾ .

فلما علم المأمون بما فعله الأمين ، علم أنه يدبر في خلعه ، فقطع عنه البريد ، وأسقط اسمه من الطرز ، وكان رافع ابن الليث قد استأمن للمأمون ، فامنه ، فالتحق به⁽¹⁰⁰⁾ .

وتربيص المأمون يرقب أخاه ، وما يصدر عنه من أفعال في حين كان الأمين يدبر في خلع أخيه مع أعوانه وأركان دولته في بغداد . ويستشيرهم ، فكان مما قاله عبد الله ابن خازم « أنشدك الله يا أمير المؤمنين ، أن تكون أول الخلفاء نكث عهده ، ونقض ميثاقه ، ورد رأي الخليفة قبله »⁽¹⁰¹⁾ .

وقال خزيمة ابن خازم : « يا أمير المؤمنين ، لم ينصحك من كذبك ، ولم يغشك من صدقك ، لا تجريء القواد على الخلع ، فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهد ، فينكثوا عهدهك وبيعتك ، فإن الغادر مخذول ، والناثك مغلول . فأقبل الأمين على علي ابن عيسى ابن ماهان ، قبسم وقال : لكن شيخ الدعوة ، ونائب هذه الدولة لا يخالف على إمامه ، ولا يوهن طاعته . ثم رفعه إلى موضع لم يرفعه إليه قبلها ، لأنَّه كان هو والفضل ابن الربيع يعينانه على الخلع ، ولرج الأمين في خلع المأمون ، حتى أنه قال يوماً للفضل ابن الربيع : يا فضل ! أحيا مع عبد الله ؟ لا بد من خلعه ، والفضل يعده »⁽¹⁰²⁾ .

وأشار عليه كاتبه اسماعيل ابن صبيح بعدم خلعه ونكث عهده ، فلما رأى إصراره على الخلع ، أشار عليه بالكتابة إليه ، يأمره بالقدوم ، فإنْ قدم ، فعل به

(99) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 10 ص : 130 . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج : 6 ص : 227 وما بعدها . ابن الطقطقى ، الفخرى في الأدب السلطانية ص : 213

(100) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوک ، ج : 10 ص : 130 .

(101) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 228 وما بعدها .

(102) مصدر نفسه . ج : 6 ص : 228 وما بعدها .

ما يزيد⁽¹⁰³⁾ وأما يحيى ابن سليم فإنه قال : « يا أمير المؤمنين ! كيف تفعل ذلك مع ما قد أكد الرشيد من بَيْعَتِه ، وأخذ الشرائط في الكتاب الذي كتبه ؟ فقال الأمين : إنَّ رأي الرشيد كان فلتة شبهاً عليه جعفر ابن يحيى »⁽¹⁰⁴⁾ .

كتب الأمين لأخيه ، يدعوه للقدوم عليه ، فأبى وجرت بينهما مكاتبات طويلة ، حاول كل منهما قتل صاحبه عن رأيه . ولكن بطانة كل منهما كانت تشحذ همة صاحبها في المضي بما خطط له ورسمه ، فما كان من الأمين إلا أن قطع الخطبة لأخيه ، وأمر بالدعوة لابنه موسى ، وسماه الناطق بالحق ، ووَلَاه خراسان ، وجهز علي ابن عيسى ابن ماهان بجيش كبير ، ووجهه إلى خراسان ، وأمره أن لا يؤجل المأمون إلا ثلاثة .

التقى ابن ماهان بقائد المأمون طاهر ابن الحسين ودارت رحى معركة كان النصر فيها لطاهر ، فوجه الأمين عبد الرحمن الأنباوي بجيش آخر من الأبناء ، لكنه لقي مصرير ابن ماهان ، وتواتت انتصارات طاهر حتى حاصر بغداد مع هرثمة ابن أعين وعبد الله ابن مالك ، وُقُتِّلَ الأمين ، وتمت الْبَيْعَةُ للمأمون⁽¹⁰⁵⁾ .

و سنحاول الآن تلمس الصراع الشعوبي والنزاع العربي الفارسي في هذه الفتنة بين الأخوين ، إضافة إلى عهد المأمون لعلي الرضا بولاية العهد من بعده ! ونتساءل : هل الصراع بين الأمين والمأمون صراع بين العرب والفرس ؟ كما زعمت زاوية قدورة⁽¹⁰⁶⁾ ، أم كان تنافساً على السلطة بين الأخوين ، حطب فيه جماعة من المستفيدين ، ودفع الشعب بأكمله ضريبة هذا التنافس ؟ هل أعرضت الشعوبية عن الأمين ، وانخرطت تقاتل في صفوف المأمون ؟ والبيعة لعلي

(103) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص : 392 وما بعدها .

(104) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : ٦ ص : 229 وما بعدها .

(105) ينظر الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص : 394 وما بعدها . المسعودي ، مروج الذهب ، ج : ٣ ص : 397 وما بعدها . ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : ٦ ص : 222 وما بعدها . ابن الطقطقي ، الفخراني في الآداب السلطانية ، ص : 213 وما بعدها . ابن العماد الحنلي ، شذرات الذهب ، في أخبار من ذهب ، ج : ١ ص : 342 وما بعدها .

الرضا ، هل كانت استدراراً لعطف الخراسانيين الفرس ، أم محاولة لغدوة السيف الشيعية في كل من العراق وشبة الجزيرة العربية ؟

لقد رأت زاهية قدوره ، أنَّ الأمين قد أحاطت به بطانة من العرب أو ممن يميل إليهم كالفضل ابن الربيع ، وعلى ابن عيسى ابن ماهان وبكر ابن المعتمر والسندي ابن شاهك ، في حين أنَّ المؤمنون قد انحاز إلى المعسكر الفارسي ، وأحاط نفسه بطانة شعوبية على رأسها الفضل ابن سهل وهرثمة ابن أعين ، وظاهر ابن الحسين وابنه عبد الله ، وأنَّ الفتنة بين الأحويين تمثل فيها التزاع الشعوبي والصراع العربي الفارسي أصدق تمثيل⁽¹⁰⁷⁾.

فهل كان الفضل ابن الربيع عربياً أو يميل إلى العرب ؟ أم أنه كان يميل إلى السلطة ويماليء السلطان الأقوى ؟ إنَّ لم تكن وشایته بالبرامكة دليلاً على ميله للسلطة وحبه للإشتراك بها ، فقوله بعد وفاة الرشيد لدليل كافٍ على ميله وأهوائه ، فقد قال بعد موت الرشيد « لا أدع ملكاً حاضراً لآخر ما أدرى ما يكون من أمره »⁽¹⁰⁸⁾ .

فإنحيازه لجانب الأمين لم يكن بداع الغيرة على العرب بقدر ما كان حرصاً على استمراره بالسلطة وخوفاً من غضب الأمين . وقدوره نفسها تقول عنه « وكانت تدفع الفضل ابن الربيع دافع شخصية »⁽¹⁰⁹⁾ . وأما على ابن عيسى ابن ماهان ، فقد كان يطمع بولاية خراسان ، ويُظهر منه أنه على استعداد لفعل أي شيء للوصول إلى غايته ، وربما كان يطمع بالإستقلال بها عن الدولة ، وقد ارتات به الرشيد أكثر من مرة⁽¹¹⁰⁾ .

أما القوة العسكرية التي كانت تقاتل عن الأمين فلم تكن من العرب فقط .

(156) زاهية قدوره ، الشعوبية وأثرها السياسي والإجتماعي ، ص : 222.

(107) زاهية قدوره ، الشعوبية وأثرها السياسي والإجتماعي ، ص : 222.

(108) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 223.

(109) زاهية قدوره ، الشعوبية وأثرها السياسي والإجتماعي ، ص : 227.

(110) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 100.

وإنما كان عمامتها الأبناء وجل هؤلاء كان من الأعاجم⁽¹¹¹⁾ .

وعلى الأمين ثار السفياني ، وما أظنه ثار بالعجز أو استنصر بهم⁽¹¹²⁾ أضف إلى ذلك ظهور النزعة الشعوبية في جند الأمين ظهوراً واضحاً وتورطها في معارك ضد العرب ، لما حاول عبد الملك ابن صالح أن يجعل من عرب الشام وفلسطين كتلة في وجه المأمون ، فافتuel أحد الأبناء عراكاً مع بعض الزواقيل بسبب دابة ، وجرت الحرب بين العرب والأبناء وقد تزعم الأبناء وقتل الحسين ابن علي ابن عيسى ابن ماهان ، وقد ارتات بنويا الأمين ، فعاد بجنه إلى بغداد وحرضهم على الوثوب بال الخليفة وخلعه ، فخلعه وسجنه وبایع للمأمون⁽¹¹³⁾ .

وابن نواس الشاعر الشعبي المشهور لازم بغداد ومدح الأمين .

أما المأمون ، وإن اتخذ من مرو عاصمة اضطرارية له ، فإن جل أصحابه من العرب كانوا ، وليس من العجم ، وإن غالب عليه الفضل ابن سهل وكان مقدماً عنده ، فلشدة إخلاصه له ، وحسن تأثيره للأمور ، أضف إلى ذلك أن قواده من العرب قد امتنعوا في البداية عن المساعدة على تأجيج العداوة بين الأخرين ، لا لميلهم للأمين ولكن لظنهم أن الأمور قد تسوي بين الأخرين بالي هي أحسن .

والفضل إن حرض الخراسانيين على القتال في صف المأمون بقوله : « ابن اختنا وابن عم رسول الله »⁽¹¹⁴⁾ فقد تقرب من العرب وحاول عطفهم على المأمون ، والمأمون لم يستوزره ، إلا بعد أن رفض قواده من العرب أن يكون أحدهم بهذا الموضع منه⁽¹¹⁵⁾ .

(111) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 154.

(112) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 155.

(113) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 161 وما بعدها .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 257 وما بعدها .

(114) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 225.

(115) مصدر نفسه . ج : 6 ص : 224 وما بعدها .

والمأمون لم يصل إلى الخلافة ولا حازها لولا عنابة الفضل ابن سهل فقد شغب الجندي على المأمون بعد توجيهه طاهر ابن الحسين لقتال علي ابن عيسى ابن ماهان ، فهم بالهرب ، فمنعه الفضل من ذلك وما زال يتربص بالجند ، حتى جاءت البشائر بانتصار طاهر⁽¹¹⁶⁾ .

وبعد ، هل كان هرثمة ابن أعين شعورياً؟ وهو من العرب ورجالاتها المعدودين ، وكذلك عبد الله ابن مالك ، وشبيب ابن حميد ابن قحطبة وعبد الرحمن ابن عبد الملك ، هل كل هؤلاء فقدوا الحس بعروبتهم ، وتجندوا لخدمة الشعورية؟

كان الفضلُ ابن سهل شعورياً وكذلك كان أخوه ما في ذلك شك ، لكنه مع ذلك كان شديد الإخلاص للمأمون وذلك لسببين :

أولاً : طمعه بالسلطة ، فإذا حصل المأمون عن طريق الخلافة ، يعني القضاء على مستقبله السياسي .

ثانياً : إن انتصار المأمون يؤمن له السير بخططه الشعوري قدماً إلى الأمام . وهو في سبيل ذلك اغتال هرثمة ابن أعين ، لأنَّه حاول تحذير المأمون من خططه الشعورية⁽¹¹⁷⁾ وأبعد طاهر ابن الحسين لأنَّه يقضي على آماله بتزعم المعسكر الشعوري⁽¹¹⁸⁾ .

فالصراع بين الأخرين لم يكن إذن صراعاً بين العرب والفرس ، ولم يأخذ طابعاً عنصرياً حاداً ، كما يحاول تفسيره بعض المحدثين⁽¹¹⁹⁾ وإنْ تدخلت فيه النزعات العربية والفارسية ، فقد تدخلت فيه نزعات أخرى ، كأطماع القيادة الشخصية ، سواء أكانوا عرباً أو من الفرس ، أضف إلى ذلك عوامل اقتصادية غذت الصراع وساعدت في حسمه لصالح المأمون . والنزعه الشعورية وُجدت في

(116) التنوي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 2 ص : 351.

(117) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 236 وما بعدها .

(118) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 226.

(119) زاهية قدورة ، الشعورية وأثرها الإجتماعي والسياسي ، ص : 222.

معسكر الأمين ، كما وُجِدَتْ في معسكر أخيه . ولعلَّ ما حصل في جند عبد الملك ابن صالح كافٌ لتصوير الحس الشعوي لدى الأبناء ، وهم عظم العسكر في جند الأمين .

وذلك أنَّ الأمين كان قد أطلق عبد الملك ابن صالح من سجن الرشيد لما تولى الخلافة ، فاعتبر عبد الملك إطلاقه مُنَهَّ من الأمين عليه ، وأراد مكافأته عليها ، فاقتصر على الأمين أنْ يولي الشام ، ليصنَّع له من عربها جندًا ينصره في نصاله ضد أخيه ، فولاه الشام والجزيرة ، وقواه بالمال والجند ، فكاتب عبد الملك عرب الشام بالقدوم عليه ، فقدموا ، واجتمع له منهم الكثير ، لكنَّ الأبناء ، وهم عامة من قدم مع عبد الملك من بغداد ، شعروا بملامح خطة سياسية يدبرها عبد الملك ، فافتعلوا نزاعاً مع عرب الشام ، بسبب دابة كانت مع بعض الزواقيل ، فادعى أحد الأبناء ملكيتها ، وهاجت عصبيتهم ضد العرب خاصة بعد قول عبد الملك - وقد علم بني المعركة الأولى ، وكان مريضاً مدنفاً - : « واذلاه ، تستضام العرب في دارها ومحلها وببلادها »⁽¹²⁰⁾ فاستؤنفت المعركة من جديد ، فتشتت الأعراب ، وعاد الحسين ابن علي ابن ماهان بجنته إلى بغداد ، وقد اضطُفِنَ على الأمين واعتقد أنه يدبر للخلاص من الأبناء ، فاستقبلته بغداد بحفاوة باللغة شارك فيها عامة القواد والرؤساء والashraf ، وأرسل الخليفة بطلبه ، فأبى ، وقال : ما أنا بمله ولا معن ولا مضحك ولا مسامر . فلما أصبح جمع الأبناء إليه ، وكلمهم ، فقال : « يا عشر الأبناء ، إنَّ خلافة الله لا تجاوز بالبطر ، ونعمه لا تستصحب بالتجبر والتكبر ، وإنَّ محمداً ي يريد أنْ يوتغ أديانكم ، وينكث يَعْتَكُم ، ويفرق جمعكم ، وينقل عزكم إلى غيركم ، وهو صاحب الزواقيل بالأمس ، وبالله إنْ طالت به المدة ، وراجعته من أمره قوة ، ليرجعون وبَالْ ذَلِكَ عَلَيْكُم ، وليرفَنْ ضرره ومكرهه في دولتكم ودعوتكم ، فاقطعوا أثره قبل أنْ يقطع آثاركم »⁽¹²¹⁾ .

(120) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 161 وما بعدها .

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 258-259 .

(121) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 163-165 .

وثار بالأمين فخلعه وسجنه ، وأخذ البيعة للمأمون ، فطالب الجندي بأرزاقهم ، فلم يعطوا ، فشغبوا عليه ، واغتنم محمد ابن أبي خالد ذلك - وهو من شيوخ الأبناء ، وقد نعم على الحسين بن علي زعامته - فحضر الجندي عليه ، وساعدته في ذلك أسد الهربي وأخرون ، فقاتلوا الحسين وأسروه ، وكسروا قيود الأمين ، وأجلسوه على كرسي الخلافة ، وجاؤه بالحسين أسيراً ، فلامه الأمين ، ثم عفا عنه ، وقلده ما وراء بابه ، لكنه حاول الهرب ، فُقتل ، واختفى الفضل ابن الربيع⁽¹²²⁾ .

وإذا كان عجبًا أن يؤتى بالحسين أسيراً للأمين وقد تأكد عداوه في طلاقه ، ويقلده أمره ، فأعجب من ذلك هرب الحسين ومحاولته الوصول إلى معسكر طاهر وختفاء الفضل ابن الربيع في الوقت نفسه ، ولعل مؤامرة قد تآمر بها الرجالان ، فلما قُتل حسین ، خاف الفضل من كشف أمره ، فاختفى لذلك .

أما في معسكر المأمون ، فقد قويت الشعوبية وأشتد أمرها وذلك لأسباب منها :

- أن قادة العرب وعلى رأسهم عبد الله ابن مالك ، قد أنسحروا الطريق أمام الفضل ابن سهل ، لتدبير شؤون المأمون عندما أحجموا في البداية عن التدخل بين الخليفة وأخيه ، وقالوا : « هذا أمر لا يحل ... من الذي يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه »⁽¹²³⁾

- نجاح الفضل ابن سهل بقيادة الحزب المأموني ، وتأليفه أبناء العرب حوله ، فكان يقول « للتميمي : نقيمك مقام موسى ابن كعب ، وللربيعي مقام أبي داود خالد ابن ابراهيم ، ولليماني نقيمك مقام قحطبة ومالك ابن الهيثم »⁽¹²⁴⁾

= ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 259.

(122) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 163-165.

(123) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 128.

(124) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 129.

وتقرب للخراسانيين بأن حط عنهم ربع الخراج ، وضرب على وتر العصبية الفارسية ، فذكرهم بحسب المأمون من جهة أمه ، وكان إذا خاطبهم دعاه « ابن اختنا وابن عم رسول الله »⁽¹²⁵⁾ .

– نجاح طاهر ابن الحسين القائد الخراساني المشهور بقيادة الجبهة العسكرية .

هذه الأسباب قَوْتُ الروح المعنوية لدى الشعوبية ، فنشطت تعامل على تحقيق أهدافها بالسيطرة على الدولة ، وتحويتها شيئاً شيئاً إلى سلطة فارسية يتزعمها الفضل ابن سهل وأخوه الحسن . فحجب الفضل المأمون ، ومنع عنه من الأخبار إلا ما يراه مناسباً ، وغالباً ما كان يفسر له الحوادث تفسيرات مناقضة لحقيقة⁽¹²⁶⁾ وقد تناهت هذه الحقيقة إلى العراق وبلاد العرب وتحدى الناس بها ، فكانت سبباً لعدد من الثورات كثورة ابن طباطبا في الكوفة وثورة الحرية في بغداد⁽¹²⁷⁾ .

وكان عبد الله ابن مالك من سادة العرب ومقدميهم عند المأمون فكان الفضل يقع فيه ويدس عليه ويغير على سمعته فيشوها في المحافل العامة⁽¹²⁸⁾ ولما حاول هرثمة ابن أعين خرق الطوق المضروب على المأمون وتبصيره بخطورة السياسة التي ينتهجها الفضل وأخوه الحسن ، قام الفضل بتشويه صورته عند المأمون ، ونسب إليه من الأمور كل أمر مستفظع ومكره ، فلما وصل هرثمة إلى المأمون لم يسمع منه وأمر به إلى السجن ، فدبر له الفضل من اغتاله⁽¹²⁹⁾ .

أما شعوبية طاهر ابن الحسين واله ، فقد ظهرت بشكلها السياسي والأدبي .

(125) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 225.

(126) أنظر رأى عبد العزيز الدورى في الفضل ابن سهل : الجنون التاريخية للشعوبية « ص : 39 . »

(127) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 227.

المسعودى ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 26 وما بعدها .

(128) التورى ، الفرج بعد الشلة ، ج : 1 ص : 369 .

(129) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج : 10 ص : 236 .

سياسيًّا : احتال طاهر بشتي العجيل ، حتى ولى حراسان ، فلَمَّا اشتدت شوكته فيها ، قطع خطبة المأمون تمهيداً للتمرد والعصيان لوأسفه عمره⁽¹³⁰⁾ ، لكنه استطاع مع ذلك أن يثبت سلطته ، فتعاقب عليها أبناءه بعده ، وارتبطوا إسمياً بالخلافة ، ساعدتهم على ذلك طموحهم وانتشار الوعي الفارسي⁽¹³¹⁾ .

وأدبيًّا : بتغني طاهر وأله بقتلهم الخليفة ، فكان طاهر يقول : « قتلت خليفة وسقطت الخلافة »⁽¹³²⁾ ، وكان ينشد :

« قتلت الخليفة في داره وأنهبت بالسيف أمواله

ويهدد العرب بشدة فنكة كفوله :

وقتلت الجباررة الكبارا
إلى المأمون تبتدر ابتدارا
يطير من رؤوسهم الشرارا⁽¹³³⁾ »

وربما هدد المأمون في بعض شعره ، وافتخر بأن لا سلطة للمأمون عليه ،
قوله :

وأعتتها مني بإحدى المتألف
بقيت عناء بعده للخلافة
كأنني فيها من ملوك الطوائف
فياما لرشد أو لرأي مخالف⁽¹³⁴⁾ »

« غضبت على الدنيا فأنهبت ما حوت
قتلت أمير المؤمنين وإنما
وأصبحت في داري مقينا كما ترى
وقد بقيت في أم رأسي فتكة

(130) مصدر نفسه ، ج : 10 ص : 256-257.

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 62-63.

(131) عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص : 41.

(132) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج : 10 ص : 257.

(133) الطبرى ، تاريخ الأمم ، ج : 10 ص : 209.

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 354.

(134) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 2 ص : 57.

وافتخر ابنه عبد الله كذلك بقتل الأمين⁽¹³⁵⁾ ورد عليهما كثير من الشعراء العرب ، ولنا إلى ذلك عودة عند الكلام عن الشعوبية والبعد الأدبي .

عهد المأمون لعلي ابن موسى الرضا

لقد أعطى المؤرخون محاولة المأمون في نقل الخلافة إلى علي ابن موسى الرضا أهمية خاصة إذ اعتبروها محاولة قام بها الفضل بن سهل تمييذًا لنقل السلطة من العرب إلى الفرس ، ولتحويل الدولة العربية إلى ملك كسرامي يسيطر عليه المجوس . هذه الإتهامات نفسها كيلت للفضل بن سهل على مسمع ومرأى من المأمون ، فقد واجهه نعيم بن خازم : «إنك إنما تريد أن تُزيل الملك عنبني العباس إلى ولد علي ، ثم تحطال عليهم ، فتصير الملك كسراميًا ، ولو لا أنك أردت ذلك ، لما عدلت عن لبسته على ولدك وهي البياض إلى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس ، ثم أقبل على المأمون ، فقال : الله الله يا أمير المؤمنين ، لا يخدعنك عن دينك وملكك»⁽¹³⁶⁾ .

لكن المأمون لم يتراجع عن خطته ، ومضى في تنفيذها ، وقد عزت أكثر المصادر القديمة سبب ذلك إلى شعور المأمون مع أبناء عممه ، وما لحقهم من أذى في مختلف العهود ، إضافةً إلى ذلك أنه لم يَرْ في ولد العباس ولد علي «في وقته أحدًا أفضل ولا أحق بالأمر من علي ابن موسى الرضا»⁽¹³⁷⁾ فأراد أن يكافيءه علياً ، ويرد جميله ، لأنـهـ أعنيـ عـلـيـاًـ لـمـاـ وـلـيـ الـخـلـافـةـ ، وـلـيـ عـبـدـ اللهـ

.(135) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 59-57.

(136) الجهشاوي ، الوزراء والكتاب ، القاهرة 1938 ص : 313.

(137) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 243.

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 28.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 326.

ابن القطفي ، الفخرى في الآداب السلطانية ، ص : 217.

ابن عباس البصرة ، وعبيد الله ابن عباس اليمن ، وقثم بن عباس البحرين ،
« وما ترك منهم أحداً إلا ولاه »⁽¹³⁸⁾ .

هذا ما روتة العديد من المصادر التاريخية الموثقة عن سبب العهد لعلي ابن موسى الرضا ، إضافة لميل المأمون إلى التشيع ، وإظهاره العطف عليهم حتى بعد وفاة الرضا والعودة إلى السواد .

فهل كان المأمون مؤمناً بما يقول ويظهر ، وهذا الإيمان هو السبب في استدعائه علي الرضا وأخذ البيعة له بولاية العهد ؟ أم إنَّ هذا الشعور والإيمان الديني كان غلافاً لخطة سياسية تضمن وقف الشيعة إلى جانبه ؟

لقد مال الدوري إلى القول بأنَّ المأمون أراد من وراء البيعة كسباً سياسياً ، ووافقه زاهية قدورة على ذلك⁽¹³⁹⁾ وفي محاورة المأمون لعلي بن موسى تأكيد على هذا الأمر ، فقد سأله المأمون علياً : « بم تدعون هذا الأمر ، قال : بقرابة علي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبقرابة فاطمة منه . فقال له المأمون : إنْ لم يكن ها هنا إلَّا القرابة ، فقد خلف رسول الله (ص) من أهل بيته ، من كان أقرب إليه من علي ، أو من في مثل قعدهه ، وإنْ كان بقرابة فاطمة منه ، فإنَّ الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس علي في هذا الأمر حق وهم حيان ، فإذا كان الأمر كذلك فإنَّ علياً قد ابتزهما حقهما ، وهما صحيحان ، واستولى على ما لا يجب له ، فما أجابه علي ابن موسى شيء »⁽¹⁴⁰⁾ .

فالmAمون لم يكن يؤمن بحق علي وأبنائه في الخلافة ، وموقفه الإيجابي من علي ابن موسى لا يمكن تفسيره بأكثر من صفة سياسية أراد من خلالها المأمون لا تحيد طرف في المعركة فحسب ، وإنما كسبه إلى جانبه ، وهو شيعة آل علي ، وذلك أنَّ المأمون رأى في ثورات الشيعة المتالية خطراً يهدد سلطانه ، وبيث

(138) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 334

(139) زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها .. ص : 299-298

(140) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 198

الإضطراب في أرجاء مملكته ، فأراد بصنعه ذاك ، أن يخمد الثورة الشيعية في وجهه ، وأن يوجه سيفها إلى نصرته والقضاء على جيوب المقاومة له في بغداد وال العراق . فقد سبقت بيته للرضا ثورات شيعية في كل من الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن⁽¹⁴¹⁾ وكان سبب هذه الثورة المتشعبية « تحدث الناس بالعراق - بينهم - أن الفضل بن سهل قد غالب المأمون ، وأنه قد أنزله قصراً حججه فيه عن أهل بيته ، ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يرمي الأمور على هواه ، ويستبد بالرأي دونه ، فغضب لذلك بالعراق من كان بها من بني هاشم ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل بن سهل »⁽¹⁴²⁾ .

فالفضل بن سهل لم يكن شيعياً ولا ثقة عند الشيعة ومن أجل تسلطه قامت ثورتهم ، وإن يكن وافق المأمون على خطته ، فتحسبه أراد من ذلك أن يقول الناس ببغداد : هذا من عمل الفضل بن سهل ، فتحولت الشيعة من معارضته إلى مؤيدة ومعاضدة ، فوقف إلى جانب المأمون وحسن له الرأي في أمر البيعة .

نجح المأمون في تنفيذ خطته ، وتحولت شيعة الكوفة إلى مناصريه ، واندفعوا يقاتلون في صفوفه أهل بغداد ، وقام بأمرهم العباس ابن موسى وأخوه أبي السرايا⁽¹⁴³⁾ .

لكن الفضل بن سهل لم ينجح في التقرب منهم ، ولم تنتهي مواقفه على علي الرضا ، الذي أدرك نوایاه وما يفعل له من حجب المأمون ، ومنع الأخبار عنه ، وحكم الامبراطورية الإسلامية نيابة عنه ، فدخل على المأمون وصارحه بنوایا الفضل وصنعه ، وتمويهه عليه ، وأخبره أنَّ أهلَ بغداد قد صيروا عمه إبراهيم بن المهدي خليفة ، وأنهم ينقمون عليه مكان الفضل والحسن ابني سهل منه ، ومكان بيته لعلي الرضا بولايته العهد ، وأنَّ وجوه أهل العسكرية يعلمون ذلك ،

(141) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 26-27.

(142) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 227.

(143) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 246.

فاستدعاهم المأمون ، وسألهما ، فما اجترؤوا على إخباره بشيء حتى أمنهم من الفضل بن سهل ، فأبانتوا له حقيقة الأمر ، وما صنع ، ويصنع ابن سهل ، فأمر بالمسير إلى بغداد ! ولما علم ابن سهل بما جرى ، تعنتهم ، فضرب بعضهم ، وحبس بعضاً ، ونفت لحي البعض الآخر ، مما اضطر علي الرضا لمعاودة المأمون وتبصيره ، بما آتاه أمر الفضل ، وتذكيره بأمانه لهم ، فأجابه المأمون : « أنه يداري ما هو فيه »⁽¹⁴⁴⁾ .

فابن سهل قد أحكم السيطرة على خراسان ، فالأمر فيها له لا للمأمون ولا لأحد من قواده ، وسلطنة علي الرضا لا تundo الجرأة الأديبية التي دفعته لتبصير المأمون بخطط ابن سهل الشعوبية ، ومحنة الركون إليه . فكيف تكون بيعة المأمون للرضا بهدف التقرب من أهل خراسان وهي خاضعة للفضل ومركز قوته⁽¹⁴⁵⁾ .

وإذا كان خلفاء بني العباس قبل المأمون قد ساروا على نهج للنظرية التي تقول : « إذا كان الوزير يساوي الملك ، في المال والهيبة والطاعة من الناس فليصرعه الملك ، وإن لم يفعل ، فليعلم أنه المصروع »⁽¹⁴⁶⁾ فإن المأمون قد طبق النظرية بعينها ، ولكن بحنة أكثر ودهاء أشد ، فإنه لم يبطنش بمن أراد التخلص منهم جهرة ، ولكنه استعمل أساليب أفعى وأنجع من ذلك ، فدبّر خطة لاغتيال الفضل بن سهل ، ثم قتل قاتلته ، وأرسل رؤوسهم إلى أخيه الحسن بن سهل⁽¹⁴⁷⁾ ومن بعده تخلص من علي الرضا عن طريق السم ، وأرسل إلى بني العباس : أنكم ، إن نعمتم مكان علي ابن موسى مني ، فقد مات ، فردوه عليه بأغلال جواب واستمرروا بمعانده⁽¹⁴⁸⁾ ، وكانوا قد ثاروا عليه قبل بيعته للرضا ، وحاربوا

(144) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 249 وما بعدها .

(145) أنظر زاوية قدوره ، الشعوبية وأثيرها .. ص : 299 وما بعدها . وقد زعمت أن المأمون بايع للرضا طلباً لكسب أهل خراسان وتأييدهم له .

(146) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 1 ص : 45.

(147) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 250.

(148) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 251 ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 28
ابن العماد الحنبلي ، شدرات الذهب ، ج : 2 ص : 6.

نائبه الحسن ابن سهل حتى أخر جوه من بغداد⁽¹⁴⁹⁾ ، تابع المأمون سيره الى بغداد ، فلما قرب منها اختفى عمّه ابن شكلة ، فدخل بغداد وشعاره الخضراء ، ثم عاد الى السواد بعد أن كلّمه زينب بنت سليمان ابن علي في ذلك⁽¹⁵⁰⁾ وكان نتيجة الصراع على السلطة في عهده ، أنه وإن لم يكن في جوهره صراعاً بين العرب والفرس ، فقد تداخلت فيه خيوط العصبية العرقية ، وانفسح المجال للشعوبية ، فنشطت في معسكر الأمين كما نشطت في معسكر المأمون على حد سواء . وكان انتصار المأمون على أيدي فارسيةٍ حُرَاسَانِيَّةٍ إرهاصاً آخر للشعوبية ، فنشطت في عهد المأمون بحرية لم تيسّر لها في العهود السابقة . وأصبح للشعوبية رموز علنية في السلطة تجاهر بآرائها ، لا تخشى بطش الخليفة ولا تخاف سلطاته ، وإنما تذكره دائماً بما لها من أياد عليه بقتل أخيه وسوق الخليفة إليه . ولما فشل الفضل ابن سهل في مخطظه الشعوي ، تحرك بباب الخرمي ، ورأى الظروف مؤاتيةً ، فعمل لاجتثاث المسلمين وسحقهم جهده⁽¹⁵¹⁾ وكان قتل الأمين أول تعيّد على حرمة الخلافة العباسية ، وكان أول خليفة يقتل على أيدي مواليه ، ولم يعد المأمون وخلفاؤه من بعده ، ينظرون الى مواليهم وقوادهم ، نظرة المنصور أو الرشيد ، وإنما كإخوان لهم ، يوجبون لهم على أنفسهم الشكر ، وقد شكر المأمون عبد الله ابن طاهر ، ومدحه بقوله :

« أخي أنت ومولاي ومن أشكراً نعماء
فما أحببت من أمر فإن الدهر أهواه
وما تكره من شيء فإنني لست أرضاه
لك الله لك الله»⁽¹⁵²⁾

(149) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 238 وما بعدها .

(150) المسعودى ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 334 .

(151) راجع ما كتب عن البابكية في هذه الرسالة .

(152) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 276 .

وأكثر من ذلك ، فقد كتب إليه المعتصم ، يفتديه ، وكان عليهأ :

« أعزز علىي بأن أراك علياً
أو أن يكون بك السقام نزيلاً
فوددت أنني مالك لسلامتي
فأغيرها لك بكرة وأصيلاً
ف تكون تبقى سالماً سلامتي
وأكون مما قد عراك بديلاً
هذا أخ لك يستكري⁽¹⁵³⁾
وكذا الخليل إذا أحب خليلاً »

ولكنَّ هذا لا يعني استسلام الجبهة العربية ، فحاول عبد الملك بن صالح الإستعانة بعرب الشام ، وتشكيل جبهة منهم للوقوف بوجه الشعوبية وأطماعها لكنَّ القدر لم يفسح له في ذلك ، فتوفي قبل أن يستكملَ ما كان بدأه . وانتشرت الثورات في العراق وببلاد العرب على ابني سهل بالرغم من مقتل الأمين ، وقد شارك فيها السنة والشيعة على السواء « اشتعلت الثورة في العراق والجزيرة العربية حول الرأية الشيعية ، ما دام الخليفة العباسي يسير في دائرة فارسية »⁽¹⁵⁴⁾ ودفع الفضل بن سهل ثمن سياسته التي انتهج . ولما تطاول طاهر بن الحسين وجاهر بالعصيان سرعان ما جاءه العقاب الأليم .

كما كان للجانب الاقتصادي دور في صراع الأخرين ، فخراسان استواثقت للمؤمنون لما حط ربع الخراج عنها ، وكثيراً ما كان الجندي ، يشغبون في هذا الجانب أو ذاك طمعاً في المال ، وينحازون من معسكر إلى نقيضه⁽¹⁵⁵⁾ وقد أدرك المؤمنون تأثير الاقتصاد والمال على الشعب في ولائه لهذا الحاكم أو ذاك ، فقال للفضل بن سهل : « قد كان لأخيرأي لو عمل به لظفر . فقال الفضل : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : لو كتب إلى أهل خراسان وطبرستان والري ودبناوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة ، لم نخل نحن من إحدى خصلتين : إما ردنا فعله ، ولم نلتفت إليه ، فعصانا أهل هذه البلدان ، وفسدت نياتهم ، فانقطعوا عن معاونتنا . وإما قبلناه ، وأمضيناها ، فلا نجد ما نعطي منه من معنا ، وتفرق

(153) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 253.

(154) عبد العزيز الدوري ، الجذور التاريخية للشعوبية ، ص : 40.

(155) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 172 وما بعدها .

جندنا ، ووهي أمرنا ، فقال الفضل : الحمد لله الذي ستر هذا الرأي عنه وعن أصحابه⁽¹⁵⁶⁾ .

وانكشفت الرؤية أمام بصر الأمين ، فعلم بعد فوات الأوان أنَّ الْكُلَّ به طامع من معه ومن عليه ، فقال : « وددت أنَّ الله قتل الفريقين جميعاً ، فما منهم إلا عدو : من معي ومن علي ، أمَّا هؤلاء فيريدون مالي ، وأمَّا أولئك فيريدون نفسي ، وقال :

تفرقوا ودعوني يا معاشر الأعوان
فكلكم ذو وجوه كثيرة الألوان
وما أرى غير أفك وترهات الأماني
ولست أملك شيئاً فسائلوا إخواني
فالويل فيما دهاني من نازل البستان

يعني طاهر بن الحسين⁽¹⁵⁷⁾ » .

إضافة إلى ذلك فقد ظهرت فئة من الشعب تدعو الناس إلى التفرق عن المقاتلين ، ولا ترى في ذلك القتال منفعة إلا للمغامرين أصحاب الأطماع وكان لسان حالهم يقول :

إذا ما العيش ساعدنا فلسنا
نبالي بعد من كان الإماماً⁽¹⁵⁸⁾

خلافة المعتصم وبده النفوذ التركي :

تُوفِّيَ المأمون ، فُبُيِّعَ لأخيه أبي إسحاق محمد المعتصم بالخلافة من بعده ، وكان المعتصم قد ضاق ذرعاً بالشعوبية ومحاولتها في التسلل إلى السلطة مرة بعد أخرى ، حتى قويت واشتد أمرها في زمن المأمون .

(156) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 1 ص : 87

(157) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 418

وكان الصراع بين الأمين والمأمون ، قد استند العصبية العربية ، وأفقدها زخمها ، مما حمل المعتصم أن يكلّ أمر سلامته الشخصية إلى فرقة من الموالي بعضها من البربر غالبيتها من الأتراك ، وقد أقبل هؤلاء من بلاد ما وراء النهر ، بعضهم عن طريق النخاسة والبعض الآخر على سبيل الجزية يؤدّيها الأمّاء الوطنيون إلى خزانة الدولة⁽¹⁵⁹⁾ .

لم يلبث هؤلاء الترك أن كثروا لدى المعتصم خاصة بعد توليه الخلافة ، وكانت حفاة عجماً ، يركبون الدواب ، ويترافقون في شوارع بغداد وأسواقها ، فتأذت منهم العامة ، وربما ثار الناس ببعضهم ، فقتلوه أو جرحوه . فشكّت ذلك الأتراك إلى المعتصم ، فعم على الخروج بهم من بغداد⁽¹⁶⁰⁾ وقد تخوفَ من ثورة البغداديين عليه وعلى أتراكيه ، خاصة ، وأنه كان يتخفّف الحربيّة من الأبناء ، ويخشى وثوبيهم عليه وعلى أتراكيه ،⁽¹⁶¹⁾ فخرج من بغداد يرتاد موضعًا لمسكره ، فأعجبه موقع سامراء وجودة مناخه فبني له قصرًا في الوزيرية ، وأقطع القطائع للأتراك ، وجاورهم بالفراغنة والأشروسية وغيرهم .

وكان جنده يتّالف من عناصر متعددة منهم الأتراك الذين خصمهم بزي مميز عن سائر جنده ، ومنهم المغاربة وهؤلاء عرب وبربر ، ومنهم الخراسانيون من الفراغنة والأشروسية⁽¹⁶²⁾ .

وبصنيعه هذا ، مهدّ للأتراك السبيل للتحكم بمصير الدولة والخلافة بعد وقت قصير ، وقد أحس ابن سعد بخطر هؤلاء الأتراك المستقبلي على العرب ،

(158) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 84 وما بعدها .

(159) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 155.

بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص : 208.

(160) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 309 وما بعدها .

السعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 53 وما بعدها .

الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 3 ص : 346.

(161) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 450 وما بعدها .

(162) السعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 53 وما بعدها .

فروى حديثاً مفاده أن الترك سيردون العرب في يوم من الأيام إلى بوايدهم⁽¹⁶³⁾.

ازداد عدد الأتراك في جند المعتصم بسرعة حتى بلغوا بضعة عشر ألفاً⁽¹⁶⁴⁾ وصار لهم من القوة والنفوذ ما خشيه المعتصم نفسه ، فندر على اصطناعهم وحار في أمرهم⁽¹⁶⁵⁾ وقد هجاه دُعْل المخزاعي ، وشَعَّ عليه اصطناع الأتراك واستبداد الفضل ابن مروان بأمر الخليفة ، فقال :

ولم تأتنا عن ثابن لهم الكتبُ
خيار إذا عُدُوا وثامنهم كلبُ
لأنك ذو ذنب وليس له ذنبُ
وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
يظل لها الإسلام ليس له شعبُ⁽¹⁶⁶⁾

«ملوك بنى العباس في الكتب سبعة
فذلك أهل الكهف في الكهف سبعة
وأني لأعلي كلبهم عنك رفة
لقد ضاع ملك الناس إذ ساس ملکهم
وفضل ابن مروان يثلم ثلمة

وكان الفضل ابن مروان ابن ماسرخس ، قد اتصل بالمعتصم قبل الخليفة ، فصيরه المعتصم وزيراً ، فصار صاحب الخليفة ، وصارت الدواوين كلها تحت يده ، فاكتنز الأموال ، ومنع الخليفة منها ، واعتقل عليه بالعلل ، وصارت له دائرة على الخليفة ، فكان يتعرض عليه في رد بعض أموره ، وكثير الناقمون عليه ، فدسوا أحد المضحكيين ، وهو المعروف بالهفتني ، فقال للالمعتصم : «إنما لك من الخليفة الإسم ، والله ما يجاوز أمرك أذنيك ، وإنما الخليفة الفضل بن مروان الذي يأمر ، فينفذ أمره من ساعته»⁽¹⁶⁷⁾ فقد المعتصم على وزيره الفضل ، وحد من صلاحياته ، لكنه لم يجرؤ على عزله ومصادرة أمواله إلا بعد خروجه من بغداد إلى القاطل⁽¹⁶⁸⁾ وكان جملة ما أخذ منه من الأموال مليون دينار نقداً وبقيمه أثائاً وآنيةً . وهذا المصير تبأله به أحد الشعراء ، فقال :

(163) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص : 209.

(164) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 3 ص : 346.

(165) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 11 ص : 9-8.

(166) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 312.

(167) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج : 10 ص : 312.

(168) مصدر نفسه . ج : 10 ص : 313 وما بعدها .

« تفرعت يا فضل ابن مروان فاعتبر
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم
وإنك قد أصبحت في الناس ظالماً
(١٦٨)

وثبت في وزارة المعتصم محمد ابن عبد الملك الزبيات ، فكان الغالب على أمره هو والقاضي أحمد ابن أبي دؤاد الذي مثل الجناح العربي في دولة المعتصم ، وعرف كيف يستحوذ على قلب الخليفة ، حتى قال بعض معاصريه : « ما رأيت أحداً قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبي دؤاد ، وكان (المعتصم) يُسأل عن الشيء بيسير فيمتنع منه ، ثم يدخل ابن أبي دؤاد ، فيكلمه في أهله وفي أهل التغور وفي الحرمين وفي أقصى أهل المشرق والمغرب ، فيجيئه إلى كل ما يريد »^(١٦٩) . وكان المعتصم « لا يفعل فعلًا باطنًا ولا ظاهراً إلا برأيه »^(١٧٠) .

هذا النفوذ الذي تتمتع به ابن أبي دؤاد وظفه بعناية لخدمة المصالح العربية ، فكان المدافع الناجع عن رجالاتها وقضاياها ، وكان المعتصم يرتاح لهذا الدور ، ويقدره لابن أبي دؤاد^(١٧١) وقد ظهر تعصبه للعرب والعروبة في أجل صوره ، لما دخل على الأفшиين ، وقد هم الأخير بالفتوك بأبي دلف القاسم ابن عيسى العجلي ، وكان الأفшиين ، يحسده للعرب والمشجاعة ، فحاول بكل ما أوتيه من قوة منع الأفшиين من قتله . فلما فشل في استلال الضغينة من قلب الأفшиين ،

(١٦٩) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 221.

(١٧٠) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 1 ص : 83.

(١٧١) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 84.

(١٧٢) كان المعتصم مع ندائه ، وقد عزم على الإصطدام ، إذ بصر بغلام أحمد ابن أبي دؤاد ، فقال : « هذا غلام ابن أبي دؤاد يتعرف علينا والساعة يأتي ، فيقول : فلان الهاشمي وفلان القرشي وفلان الانصاري وفلان العربي ، فيعطينا بحوانجه مما عزمنا عليه ، وأنا أشهدكم إني لا أقضى اليوم له حاجة » ولما حضر ابن أبي دؤاد انسط له المعتصم ، وقضى له جميع حوانجه ، ولما تركهم ، فرضه المعتصم بكلام حسن .

انظر المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 97 وما بعدها .

وقف ، فقال له : إنَّه رسول المعتصم إليه ، يأمُرُه أن لا يحدث بالقاسم حدثاً ، وأشهد العدول على تأديته الرسالة ، وقام من فوره ، فدخل على المعتصم وأعلمَه بصنيعه ، فاستحسن الخليفة ذلك وأقرَّه عليه⁽¹⁷³⁾ .

وأئمَّة خالد ابن يزيد ابن مزيد الشيباني باحتجاج الأموال ، وغضب عليه المعتصم ، فشفع له ابن أبي دؤاد ، وخرج والخلعة تخفق على رأسه ، والناس يتوقعون الإيقاع به ، فصاح به رجل : « الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب ، فقال : مه ، سيد العرب - والله - ابن أبي دؤاد »⁽¹⁷⁴⁾ .

لكن موقف المعتصم من ابن دؤاد كان موقفاً شخصياً ، لم يؤثر على السياسة العامة للسلطة ، ولشن تراجع النفوذ الفارسي في عهده ، فإن الموقف العربي لم يتدع بم هذا التراجع . والحقيقة أنَّ النفوذين العربي والفارسي ، قد تراجعا ليفسحا الطريق أمام نفوذ جديد هو النفوذ التركي . فأصبح النزاع ثلاثياً بعد أنْ كان ثنائياً ، واشتد أواهه ، فالخرمية بقيادة بابك واصلت نضالها ضد العرب وبنיהם ، حتى إذا وُفقَ الأفшиين بالقضاء عليها وأسر زعيمها بابك ، تكشفت مؤامرة بقيادة العباس ابن المأمون وبتحريض من القائد العربي عجيف ابن عنبرة هدفها التخلص من المعتصم وسائل قواه من الأتراك⁽¹⁷⁵⁾ وثارت الخرمية من جديد بقيادة مازيار وبتحريض من الأفшиين نفسه⁽¹⁷⁶⁾ مما زاد في نفوذ الأتراك وسيطرتهم على الدولة .

ولما توفي المعتصم وتولى ابنه الواثق الخليفة ، لم يلبث أنْ سوج أشناس

(173) ابن خلkan ، وفيات الأعيان ، ج : 1 ص : 82

(174) التوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 2 ص : 60 .
ابن خلkan ، وفيات الأعيان ، ج : 1 ص : 87

(175) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 10 ص : 344 وما بعدها .

(176) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج : 6 ص : 510 ، راجع ما كتب عن الخرمية ومحاكمة الأفшиين فيما سبق من الرسالة .

وشاخين بالجوهر⁽¹⁷⁷⁾ فازداد نفوذ الأتراك وتدعمت مواقعهم في السلطة ، وتصرف محمد ابن عبد الملك الزيارات في شؤون الخلافة حتى أنه صار يولي الولايات ، ويعد الألوية⁽¹⁷⁸⁾ وهو أول من فعل ذلك في دار الخلافة وكان ذلك قبل من عمل الخلفاء . واهترت في أيام الواثق هيبة الدولة ، لا سيما في شبه الجزيرة العربية ، وتمردت بعض القبائل ، وقطعت الطرق في الحجاز . لكن بغا الكبير - وهو أحد القواد الأتراك - استطاع تدوينها والقضاء على عناصر الفتنة⁽¹⁷⁹⁾ .

وكان يقاسم الأتراك نفوذهم الفرس ممثليين بعد الله ابن طاهر الذي كان يتولى مسؤوليات الحرب والشرطة إضافة إلى ولاية السواد وخراسان والري وطبرستان وما يتصل بها وكرمان ، وكانت هذه الإمارة لأبيه من قبل ، فلما توفي ولـي الواثق ابنه طاهر ابن عبد الله مكانه⁽¹⁸⁰⁾ .

النفوذ التركي :

وبوفاة الواثق ، فقدت الخلافة هييتها ، واستولى الأتراك على مقدراتها ، وصار الخلفاء العوبة في أيديهم ، يولون من شاؤوا فإذا ملوه ، أو أحستوا منه تغيراً خلعواه وقتلوه ، أو سملوا عينيه ، وبایعوا من توسموا فيه الضعف والوهن ، وأول ضحية للأتراك كان المتوكل ، ويعود السبب في توليه الخلافة إلى زعماء الأتراك أنفسهم ، وبعد وفاة الواثق جيءَ بابنه محمد ليبايعوه ، فأبى وصيف التركي ، وقال : « أما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة » وكان غلاماً صغيراً فتذاكروا فيمن يولوه ، فاستقر رأيهم على المتوكل ، فجاء به بغا الشرابي ، وبایعه قاضي القضاء أحمد ابن أبي دؤاد ، وسائل قراد الترك⁽¹⁸¹⁾ .

(177) الطيري ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 9.

(178) مصدر نفسه . ج : 11 ص : 18 .

(179) مصدر نفسه . ج : 11 ص : 12 (من هذه القبائل : بنو سليم وبنو هلال ، وبنو نمير)

(180) مصدر نفسه . ج : 11 ص : 13 .

(181) م.ن. ج : 11 ص : 26 .

حاول المتكفل أنْ يرضي أصحاب الحديث ، فألغى القول بخلق القرآن ، وتشدد في أمر النصارى ، وعُنِفَ بالشيعة⁽¹⁸²⁾ وفتى بمحمد بن عبد الملك الزيات الذي وزر للمعتصم والواثق ، وصدر ابن أبي دؤاد⁽¹⁸³⁾ واصتم بالأتراء ، وكان أول اصتمامه بإيتاخ الذي كان قد رفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم إليه أعمالاً كثيرةً ، وأوكل إليه أمر التخلص من اراد الخليفة قتلهم مثل محمد ابن عبد الملك الزيات وأولاد المأمون من سندس وصالح ابن عجيف ، وقد تولى المتكفل وإيتاخ يشغل مناصب هامة في الدولة ، ويتمتع بنفوذ عريض ، فقد كان إليه أمر الجيش والبريد والحجابة ودار الخلافة ، فعربد عليه المتكفل - وكان في حالة سكر - فهم إيتاخ بقتله ، فلما أفاق المتكفل من سكره ، حدث بما كان منه ، فاعتذر لإيتاخ ، وبدأ يعد العدة للتخلص منه ، فدس له من حسن في عينه الحج ، فاستأذن في ذلك ، فأذن له ، وفي طريق العودة ، أشير إليه ، ليمرّ في بغداد ، فيجلس لبني هاشم ، ويعطيهم جوائزهم ، وهناك فُضّ عليه وأودع السجن حتى مات⁽¹⁸⁴⁾ .

وضاق المتكفل ذرعاً بالأتراء ، فعزّم على الرحيل إلى دمشق ، فقال يزيد ابن محمد المهلي يحذر من كيد الأتراء وانقلاب العراقيين عليه :

«أطن الشام تشمّت بالعراق
إذا عزم الأمير على انطلاق
فقد تبلّى المليحة بالطلاق»⁽¹⁸⁵⁾

وصل الخليفة إلى دمشق ، وأظهر عزمه على المقام بها ونقل دواوين الملك إليها ، وأمر بالبناء ، فاستاءت الأتراء ، وشعب عليه الجندي ، وطالبوها بأرزاقهم⁽¹⁸⁶⁾ مما أضطر المتكفل للعدول عن رأيه ، والعودة إلى مقره في سامراء ، وكان الأتراء

(182) مصدر نفسه . ج : 11 ص : 44.

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 82.

(183) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 88 — 96.

(184) الطبرى ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 33 — 34.

(185) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 114.

(186) الطبرى ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 55.

قد حاولوا التخلص منه في الشام فمنعهم منه بغا الكبير ، فأعملوا الحيلة بالتفريق بين الرجلين ، فأوهموا المتوكل أنَّ بغا يريد الفتوك به ، وأوهموا بغا أنَّ جماعة من الأتراك ستحاول قتل الخليفة . فلم يَرِ المتوكل إلَّا الانتظار حتى الميعاد المضروب ، وأماماً بغا ، فأقبل بعسکر يحرس الخليفة . وال الخليفة لا يشكُّ بأنه مقتول ، حتى طلع الصباح ، وبيغا يتحرّسُه ، والأمر عند المتوكل خلاف ذلك ، فاستوحش من بغا ، فلما أراد العودة إلى العراق ، استخلفه على الشام⁽¹⁸⁷⁾.

وفي سامراء وجد الأتراك فرصتهم للتآمر على المٌتوكل الذي جعل ولاية عهده لثلاثة من بنيه : المتتصر والممعز والمؤيد⁽¹⁸⁸⁾ ، وما لبث التنافس أن ظهر بين المتتصر والممعز ، ومال المٌتوكل لولده الممعز بتأثير من عبيد الله ابن يحيى ابن خاقان والفتح ابن خاقان ، في حين مال الأتراك إلى المتتصر ، ووُجِدوا فيه ضالاتهم ووسيلة تغطية لما عزمو الإقدام عليه ، فاغتالوا المٌتوكل في مجلس سمه ، وقتلوا معه الفتح ابن خاقان ، وبابعوا المتتصر بالخلافة ، وأجبروا إخوته على البيعة له . وادعوا أنَّ الفتح قَتَلَ المٌتوكل ، فُقِيلَ به⁽¹⁸⁹⁾ .

لم تطل أيام المتتصر في الخلافة أكثر من ستة أشهر . وكان الأتراك قد أحواله عليه بخلع أخيه من ولاية العهد مخافة أن يصل أحدهم إلى الخلافة ، فيتقمّل لأبيه⁽¹⁹⁰⁾ .

رضخ المتتصر لإرادة الأتراك ، فخلع أخيه من ولاية العهد ، لكنه أظهر الندم على ما صنع بأبيه ، وعزم على تفريـق الأتراك والحد من نفوذهـم ، فأخرج وصيفاً إلى طرسوس بحجة الغزو ، وأظهر بغضـه لـبـغا الصـغـير ، ونيـته في قـتـلـ الأـتـراك ، وـظـهـرـ ذـلـكـ مـنـهـ ، فـعـالـجـهـ الأـتـراكـ ، فـرـشـواـ طـبـيـهـ ابنـ طـيـفـورـ بـثـلـاثـيـنـ أـلـفـ دـيـنـارـ ، فـفـصـدـهـ بـرـيـشـةـ مـسـمـوـةـ ، وـقـيـلـ إـنـ السـمـ دـسـ لـهـ فـيـ كـمـثـرـيـ⁽¹⁹¹⁾ .

(187) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 115 — 117.

(188) الطيري ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 38.

(189) مصدر نفسه . ج 66-62.

المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 117 — 121.

(190) الطيري ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 75 وما بعدها .

توفي المنتصر ، واجتمع الموالي « وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير ، وأتامش ومن معهم ، فاستحلقوا قواد الأتراك والمفاربة والأشروسية ، وكان الذي يستحلفهم علي ابن الحسين ابن عبد الأعلى الإسکافي كاتب بغا الكبير ، على أن يرضوا بمن يرضي به بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش وذلك بتدبير أحمد ابن الخصیب فحلف القوم ، وتشاوروا بينهم ، وكرهوا أن يتولى الخليفة أحد من ولد المتكىل لقتلهم أباء وخوفهم أن يغتالهم من يتولى الخليفة منهم ، فأجتمع أحمد ابن الخصیب ومن حضر من الموالي على أحمد ابن محمد ابن المعتصم⁽¹⁹²⁾ ، وجرت أثناء ذلك محاولة لرد المعترض إلى الخليفة لكن المحاولة فشلت ، وتغلب الأتراك وأمضوا البيعة للمستعين⁽¹⁹³⁾ واصبح الأمر لهم ، والمستعين لا أمر له بينهم ، فزَّجَ نفسه بالصراع الدائر بين أمراء الأتراك ، محاولاً بذلك استرداد بعض السلطة التي كانت لأسلامه ، وكان الخلاف قد استحكم بين باغر - وهو أحد قتلة المتكىل - وبغا بسبب حماية الأخير لواحد من أعداء باغر ، فأراد المستعين تأمیر باغر ، ليتقرب إليه ، فاتفق بغا مع وصيف على التخلص من باغر الذي حاول الفتک بال الخليفة إضافة إلى بغا ووصيف ، ولما قُتل باغر هاجت الأتراك ، فلاذ المستعين وبغا ووصيف إلى بغداد هرباً من هياج الأتراك⁽¹⁹⁴⁾ فنزل دار محمد ابن عبد الله ابن طاهر ، وكان الأمر والتدبیر لوصيف وبغا ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

« خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما يقول البيغا »⁽¹⁹⁵⁾

خشى الأتراك والفراغنة وغيرهم من أصحاب النفوذ بسامراء من صنيع

(191) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 134 .

ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج : 20 ص : 118 .

(192) الطبری ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 82 .

(193) مصدر نفسه . ج : 11 ص : 82 وما بعدها .

(194) الطبری ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 94 وما بعدها .

(195) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 145 .

المستعين ، وايقنوا بزوال عزهم ، إذا استقر الخليفة في بغداد ، فأرسلوا له من يعتذر عنهم ويعرف بذريتهم ، لكن المستعين لم يجدهم إلى طلبه ، ورفض العودة إلى سامراء ، فرجع الرسل ، وأخبروا أصحابهم ما كان من المستعين .

أطلق المعتر من سجنه ، وبابيعه الأتراك بالخلافة ، فصار للناس خليفة في بغداد وأخر في سامراء ، وهاجم الأتراك بغداد ، وظهروا على أهلها ، فكتاب محمد ابن عبد الله ابن طاهر المعتر وجنجع إليه ، وما إلى الصلح على خلع المستعين ، بعد أن ظهر من بغا ووصيف ومن معهما تعصباً للأتراك⁽¹⁹⁶⁾ فشارط العامة في بغداد مؤيداً للمستعين وناصرة له ، لكن محمد ابن عبد الله عرف كيف يهدى الناس ، وأمضى ما سبق الاتفاق عليه ، فخلع المستعين نفسه من الخلافة شريطة الأمان له ولأهلة ولولده⁽¹⁹⁷⁾ ، فقال بعض الشعراء :

« خَلَعَ الْخِلَافَةَ أَحْمَدُ ابْنُ مُحَمَّدٍ
وَسِقْيَتُ الْمَالِيَّ لِهِ أَوْ يُخْلَعُ
أَحَدُ تَمْلِكِهِمْ يَسْتَمْتَعُ
وَيَزُولُ مَلْكُ بْنِ أَبِيهِ وَلَا يُرَى
إِلَيْهَا بْنِ الْعَبَاسَ إِنَّ سَبِيلَكُمْ
فِي قَتْلِ أَعْبُدْكُمْ طَرِيقٌ مَهِيجٌ
رَقِعْتُمْ دُنِيَاكُمْ فَتَمْزَقْتُمْ بَكُمْ الْحَيَاةَ تَمْزِقًا لَا يُرْقَعُ »⁽¹⁹⁸⁾

ولم يلبث المستعين بعد خلعه قليلاً حتى قُتل ، وكان متصلاً للأموال سيء التصرف بها حتى قيل أن والدته صنعت له بساطاً من الذهب والجوهر بقيمة مليون وثلاثين ألف دينار ، وأرسلت له ليراه ، فكسر عن ذلك وأنبه أصحابه ، فأرسلت إليه لقد أنفقت عليه كذا وكذا ، وكانت أشتتهي أن تراه ، فأمر لها بالقيمة نفسها لتتصنع مثله ، ففعلت ، ومضى إليها ، فرأه ، وفعل به ك فعله الأول⁽¹⁹⁹⁾ ، ولو أنفق هذه الأموال وغيرها في اصطناع الناس لتجنب المصير القاتم الذي صار إليه .

(196) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 97 وما بعدها .

(197) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 97 وما بعدها .

السعودى ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 162 — 163 .

(198) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 138 .

(199) الاتلبي ، المستطرف في كل فن مستطرف ، ج : 1 ص : 164 .

ارتقى المعتز سيدة الخلافة بسيوف قتلة أبيه ، فقال بعضهم يصف تسلّط الأتراك وضعف الخلفاء :

« لله در عصابة تركية
قتلوا الخليفة أحمد ابن محمد
وطغوا فأصبح ملوكاً متقدماً
وكسوا جميع الناس ثوب الخوفِ »⁽²⁰⁰⁾
ردوا نوائب دهرهم بالسيفِ
وإمامنا فيه شبيه الضيفِ »⁽²⁰¹⁾

حاول المعتز الاستئثار بالسلطة لنفسه ، فخلع أخيه المؤيد من ولاية العهد ، وزج به في السجن ، ودبر قته بعد أن تناهى له الأخبار بعزم الأتراك على إنقاذة⁽²⁰²⁾ ومَدَّ بصرة نحو الأتراك ، فحاول ضربهم بعضهم البعض ، وكان بغَا الصغير يحرضه على العودة إلى بغداد ، فيأبى عليه المعتز ، فلما حصلت منافرة بين بغَا وبايكباك ، اغتنم المعتز غفلةً من بغَا ، ومضى إلى بايكباك ، ثم وقع بغَا بين يديه ، فقتله⁽²⁰³⁾ .

« وكان المعتز في حياة بغَا ، لا يلتصق بالنوم ، ولا يخلع سلاحه ، لا في ليل ولا في نهار ، خوفاً من بغَا ، وقال : لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم لبغَا رأسى أو رأسه لي ، وكان يقول : إنني أخاف أنْ ينزلَ عليَّ بغَا من السماء أو يخرج عليَّ من الأرض »⁽²⁰⁴⁾ .

فَلَمَّا رأى الأتراك إقدام المعتز عليهم ، وإعماله الحيلة في إفائهِم ، وتقديم المغاربة والفراغنة عليهم ، ساروا إليه بأجمعهم ، وطالبوه بالأموال ، وقرعواه بذنبه ، وكان الأتراك قد أرسلوا إليه يطلبون منه خمسين ألف دينار على أنْ يقتلوه صالح ابن وصيف ، ويستوى لـ الأمر فارسل إلى أمّه ، يعلمهها اضطرابهم عليه ، وأنه خائف على نفسه منهم ، فانكرت أنْ يكون لديها مال ، فُوجِدَ في خزانة لها بعد قتل ولدها ما يقارب الثلاثة ملايين من الدنانير ، وُسُرِّيَّ بعده بالخلافة محمد

(200) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 169 .

(201) مصدر نفسه . ج : 4 ص : 176 .

(202) الطبرى ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 156 .

(203) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 177 .

ابن الواثق ، وسُمِّيَ المهتدي بالله⁽²⁰⁴⁾ فصحت بالمعتز تلك الظرفة التي أطلقها أحد الظفراء في بداية عهده ، لَمَا أَخْبَرَ المنجمون ليروا كم يعيش وكم يبقى في الخلافة ، فقال : « أنا أَعْرَفُ مِنْ هُؤُلَاءِ بِمَقْدَارِ عُمْرِهِ وَخَلْفَتِهِ فَقَالُوا لَهُ : فَكُمْ تَقُولُ إِنَّهُ يَعْيَشُ ؟ وَكُمْ يَمْلِكُ ؟ قَالَ : مَهْمَا أَرَادَ الْأَتْرَاكُ ، فَلَمْ يَبْقَ فِي الْمَجْلِسِ إِلَّا مِنْ ضَحْكٍ »⁽²⁰⁵⁾.

حاول المهتدي أنْ يتجنب مصير أسلافه ، من الخلفاء ، فأظهر الورع والزهد ، واقتصر بالنفقات ، وسار بسيرة عمر ابن عبد العزيز ، فلم تشفع له سيرته عند الأتراك ، فجعلوا مصيره كمصير أسلافه ، وكان صراعه مع الأتراك باكراً ، وبعد قتل المعترض اتجه موسى ابن بغا نحو سامراء ، وكان خارجها مطالباً بدم المعترض والكتاب وأموالهم ، وأموال قبيحة أم المعترض ، فلَمَّا وصل موسى إلى قرب سامراء ، اختفى صالح ابن وصيف ، فدخل موسى سامراء ، وأخذ العهود على المهتدي أنْ لا يغدر به ، وظفر بصالح ابن وصيف ، فقتله⁽²⁰⁶⁾.

وصادف خروج مساور الشاري ، واشتداد شوكته ، فأرسل المهتدي لحربه موسى ابن بغا وبايكباك ، وعمل على الإيقاع بين الرجلين ، فأرسل لكل منهما بقتل صاحبه ، انكشفت خطة المهتدي ، فرجع القائدان إلى سامراء ، ونشبت الحرب بين بايكباك والمهتدي ، فُقِتِلَ بايكباك ، واجتمع الأتراك على المهتدي ، فقتلوه ، وقد بلغ بهم الحقد عليه مبلغاً حتى شرب بعضهم من دمه⁽²⁰⁷⁾.

ونتيجة للفوضى السياسية في دار الخلافة ، وتنافع الأتراك على السلطة

(204) الطبرى ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 160 وما بعدها.

السعودى ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 178 .

ابن العماد العنطلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 130 .

(205) ابن القطقى ، الفخرى في الأدب السلطانية ، ص : 243 .

(206) الطبرى ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 191 وما بعدها.

السعودى ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 184 — 185 .

(207) الطبرى ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 10 ص : 202 وما بعدها.

السعودى ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 185 وما بعدها .

والنفوذ فيها ، وجرأتهم على الخلفاء ، وتفاقم الأزمات الإقتصادية ، تجرا حكام الولايات ، فاستقلوا بولاياتهم عن الدولة المركزية ، وأسسوا دويلات عددة في شرق البلاد وغربها لا تربطها بالحكومة المركزية إلا علاقة رمزية واهية ، وقامت ثورة الزنج بالقرب من البصرة كنتيجة مباشرة لضعف الدولة وسوء الحالة الإقتصادية والظلم الاجتماعي ، واشتد خطّرها . وفشا أمر القرامطة ، وانتشر أمرهم ، وتحركوا بحرية شبه تامة بعيدين عن رقابة الدولة ، وآمنين من بطشها .

ولما اعتلى المعتمد على الله سدة الخلافة ، كانت ثورة الزنج قد نفاقت ، فخف شغب الأتراك عليه ، لاشغالهم بهذا الخطر الداهم ، وفشلهم في إخماده ، فتولى الموفق أخو الخليفة الجيش ، وقام بحرب صاحب الزنج ، وقد مع ولده أبي العباس الحملات الموفقة حتى استطاع بالنهاية استئصال ثورته والقضاء عليها⁽²⁰⁸⁾

وكان للمعتمد من الخلافة الاسم ولأخيه الأمر والتدبير ، وقد يحتاج إلى القليل من المال فلا يحصل عليه ، فقال :

«ليس من العجائب أنَّ مثلِي
يُرى ما قَلَّ ممتنعاً عليه
وتوخذ بأسمِه الدُّنيا جميعاً
إليه تُحملُ الأمْوَال طرأً
وما من ذاك شيءٍ في بيده
ويمنع بعض ما يُجيءُ إليه»⁽²⁰⁹⁾

فحاول التخلص من قبضة أخيه ، فكاتب ابن طولون ، واتفق معه على الالتحاق به ، لكن الموفق فَيَطَّلَّ للأمر ، وأرسل ، فرد أخيه إلى سامراء وحجر عليه ، وكان الموفق قد حاول عزل ابن طولون عن مصر ، فأبى ، ودعا الخليفة إلى تحرير نفسه من أخيه ، ولما جَبَّلَ بين الخليفة وابن طولون ، قطع ابن طولون الخطبة بولايته للهارب الموفق ، فأمر الموفق بلعنه على المنابر⁽²¹⁰⁾.

(208) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج : 11 ص : 245 وما بعدها .
المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 99 وما بعدها .

(209) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 174 .

(210) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص : 222 وما بعدها .

وسرعان ما توفي ابن طولون وخلفه ابنه خمارويه ، فأرسل الموفق ابنه أبا العباس لقتاله ، لكنه انهزم عنه في معركة الطواحين ، وعاد أدراجه الى العراق⁽²¹¹⁾ .

وكان على الموفق أن يجاهه خطراً آخر ، فقد تغلب يعقوب ابن الليث الصفار على خراسان وطبرستان ، وقوى أمره ، فاعترف به الموفق لكنه يعقوب أبي إلا السير نحو بغداد ، فواقعه الموفق ، وهزمه ، فعاد يعقوب الى خراسان⁽²¹²⁾ وكان بين ابن الليث وصاحب الزنج هدنة ، فلا يتعرض أحد للآخر⁽²¹³⁾ .

ولما توفي المعتمد على الله ، بُويع ابن أخيه بالخلافة ، وتسمى المعتصم بالله ، فهادن خمارويه ابن أحمد ابن طولون ، وتزوج ابنته ، وخلف يعقوب الصفار أخوه عمرو ، فاعترف إسمياً بسلطة الخلافة ، وسكنت الحروب ، واستعادت الخلافة شيئاً من هيئتها ، لكن الأتراك ما ليثوا أن عادوا ، واستبدوا بالأمور زمن المقتدر ، وعظم أمر القرامطة وعاثوا في البلاد وأفسدوا ، فحاول ابن المعتز أن يعيد أمجاد الخلافة ، وساعدته في ذلك محمد ابن داود الجراح وأحمد ابن يعقوب القاضي والحسين ابن حمدان ، ولعب الأمير العربي ابن حمدان دوراً هاماً في ذلك ، واتفقوا على قتل المقتدر ووزيره والأمير فاتك ، فقتل حسين ابن حمدان الوزير وفاتك ونجا المقتدر ، وتحصن ، وعاد الأتراك ، فقضوا على حركة ابن المعتز في مهدها وقتلوا⁽²¹⁴⁾ وكان عبد الله ابن المعتز من أفالصل الأدباء ، والأتراك لا يولون إلا من توسموا فيه الجهل والغباء ، فقد طلب المكتفي من وزيره كتاباً يلهم بها ، ويقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدم الوزير الى النواب بتحصيل ذلك ، وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة ، فحصلوا شيئاً من كتب التاريخ ،

(211) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 210.

(212) الطبرى ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 236 وما بعدها .
ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 145.

(213) الطبرى ، تاريخ الامم والملوک ، ج : 11 ص : 245.

(214) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 221.

وفيها شيء مما جرى في الأيام السالفة من وقائع الملوك وأخبار الوزراء ومعرفة الحيل في استخراج الأموال . فلما رأه الوزير قال لنوابه : والله إنكم أشد الناس عداوة لي ، أنا قلت لكم حصلوا له كتاباً يلهو بها ، ويستغل عنني وعن غيري فقد حصلتم له ما يعرفه مصارع الوزراء ، ويوجد الطريق إلى استخراج المال ، ويعرفه خراب البلاد من عمارتها . ردوها ، وحصلوا له كتاباً فيها حكايات تلهيه ، وأشعار طربره »⁽²¹⁵⁾ .

وكان الوزير بعد موت المكتفي قد عزم على مبايعة ابن المعز ، فخلال به بعض الكتاب ، فقال له : « أيهذا الوزير ، هذا الرأي الذي قد رأيته في مبايعة ابن المعز ليس بصواب . قال الوزير : كيف ذلك ؟ قال : أي حاجة لك أن تجلس على سرير الخلافة من يعرف الذراع والميزان والأسعار ، ويفهم الأمور ، ويعرف القبيح من الحسن ، ويعرف دارك وستانك وصنعيتك ؟ الرأي أن تُجلس صبياً صغيراً ، فيكون اسم الخلافة له ، وَمَعْنَاهَا لَكَ ، فتربيه إلى أن يكبر فإذا كبر عرف لك حق التربية ، وتكون أنت قد قضيت أوطارك من صغره »⁽²¹⁶⁾ .

ولعل أوضح صورة للخلافة ، وما تردد فيه ، في ذلك العهد ما جاء على لسان الراضي ، وهو أحد حلفاء ذلك الزمن المنكود بالاتراك ، ، قال : « كأنني بالناس يقولون : أرضي هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركي ، حتى يتحكم في المال ، ويفرد بالتدبير ؟ ولا يدرؤن أن هذا الأمر أفسد قبلى ، وأدخلني قوم فيه بغير شهوتي ، فسلمتُ إلى ساجية وحجرية ، يتسبحبون علي ، ويجلسون في اليوم مرات ، ويقصدونني ليلاً ، ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه ، وأن يكون له بيت مال ، وكانت أتوقى الذماء في تركي الحيلة عليهم ، إلى أن كفاني الله أمرهم ، ثم دبر الأمر ابن رائق ، فدببره أشد تسحباً في باب المال منهم ، وانفرد بشربه ولهوه . ولو بلغه وبلغ من قبله أن على فرسخ منهم فرساناً قد أخذوا الأموال ، واجتاحوا الناس ، فقيل لهم ، اخرجوا اليهم فرسخاً ، لطلبو المال ،

(215) ابن الطقطقي ، الفخرى في الأداب السلطانية ، ص : 7

(216) مصدر نفسه . ص : 7 — 8

وطالبوا بالإستحقاق ، وربما أخذوه ، ولم يبرحوا ، ويتعذر الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية ، بل على أسبابي ، وأمر فيه بأمر فلا يمثل ، ولا ينفذ ، ولا يستعمل ، وأكثر ما فيه أن يسألني فيه كلب من كلابهم ، فلا أملك رده ، وإنْ رددته ، غضبو وتجمعوا ، وتكلموا »⁽²¹⁷⁾.

وهذا بحكم التركي يتصرف ، وكان الراضي عبد من عبيده ، فإذا قُدِّمَ له طعام أو شراب ، وُضعَ بين يدي الراضي ، فياكل منه ثم يُوضعَ بين يديه « وكان (الراضي) يستعفِي من هذا ، فلا يعفيه »⁽²¹⁸⁾ . فلا بدعة إن زَفَرَ الراضي مثل هذه الزفات .

وفي أيام المتنبي حاول العرب استعادة ما فقدوه من مجذ ونفوذ ، وكانت سلطة الدولة المركزية قد ضعفت وتلاشت ، حتى صارت الخلافة تدفع الجزية للقراطمة بغية تأمين سلامه الحجاج⁽²¹⁹⁾ ، وكثرت المنافسة بين الأتراك والديالمة ، واستولت الديالمة على بغداد بقيادة البريدي ، وارتحل الخليفة وأعوانه إلى سامراء⁽²²⁰⁾ والتحق به الحسين ابن سعيد ابن حمدان⁽²²¹⁾ ، وناصر الحمدانيون الخليفة ، فاشتدت المنافسة بين الحسن ابن عبد الله ابن حمدان وابن رائق ، ففتك الحسن ابن عبد الله الحمداني ، بابن رائق ، وأشاع في بغداد نينا الفتوك به ، ونبأ آخر مفاده أن السلطان زاد الفارس عشرة دنانير ، وزاد الرجل ديناراً ، فطالب الدياليم من أبي الحسين البريدي تلك الزيادة ، وحاول توزون - أحد قواد الأتراك - أن ينتك بالبريدي ، لكنه فشل في ذلك ، فالتحق بالخليفة ، وحرضه على البريدي ، ووصف له انتقاض أمره⁽²²²⁾ .

(217) أبو بكر الصولي ، أخبار الراضي والمتنبي ، ص : 41 – 42.

(218) مصدر نفسه . ص : 42.

(219) مصدر نفسه . ص : 205.

(220) مصدر نفسه . ص : 222 وما بعدها .

(221) مصدر نفسه . ص : 224.

(222) مصدر نفسه . ص : 226 – 227.

انتقض أمرُ البريدي ، فانسحب من بغداد ، ودخلها الحسن ابن عبد الله ، ومعه الأموال لعمارتها وإصلاح ضياع السواد ، فضج الناس بالدعاء وضررت مائة قبة ، ودخل الخليفة بغداد بعد غيبة دامت ثلاثة أشهر وعشرين يوماً ، فخلع على الحسن ابن عبد الله وطوق وسور بسوارين ، وُسُمِّيَ ناصر الدولة وخلع على أخيه الحسين ابن عبد الله ولقب بسيف الدولة⁽²²³⁾ .

وحاول ناصر الدولة إصلاح الحكم ، فاشتد على الذئاب لعيشهم وفسادهم فأطماَن الناس ، وصَكَ النقود ومنع الصيارفة من التلاعب بها . وحاول الاقتصاد بنفقات الدولة ، فأسقط أرزاً المرتزقة من المولدين⁽²²⁴⁾ وضيق على الخليفة في نفقاته⁽²²⁵⁾ .

لم يرق ذلك الخليفة وأتراكه ، فبدأت المؤامرات تحاك على الحمدانيين ، وأشيع في العامة أنَّ ناصر الدولة قد ضيق على الخليفة في نفقاته ، وأنَّ السبب في فرض الضرائب ، وكُثُفَ الأمْرُ عن محاولة للتخلص منه⁽²²⁶⁾ .

وكان سيف الدولة يحارب البريديين في واسط ، فبدأ الأتراك يتململون ، ويتوانلون عن القتال . وكان ناصر الدولة قد أطلق أرزاً للناس ، فقبضها الخليفة ، واحتاجنها لنفسه . فعلم ناصر الدولة بذلك ، وتأهَّل الأنبياء إليه بتمرد الأتراك على أخيه سيف الدولة ، ونهبهم متاعه . فغضب ، وعزم على ترك بغداد ، لكنَّ الناس ضجوا من ذلك ، واجتمعوا ، وسائلوه الآية يترك بغداد ، فوعدهم بذلك⁽²²⁷⁾ .

اشتدت الوحشة بين ناصر الدولة والمتقي بسبب المال ، وحاول المتقي الغدر به فرحل عن بغداد ، ودخلها توزون التركي⁽²²⁸⁾ .

(223) أبو بكر الصوري ، أخبار الراضي والمتقي ، ص : 227—228.

(224) مصدر نفسه . ص : 231.

(225) مصدر نفسه . ص : 235.

(226) مصدر نفسه . ص : 236.

(227) مصدر نفسه . ص : 239.

(228) مصدر نفسه . ص : 241 وما بعدها .

أحسن المتفق بالخطأ الفادح الذي ارتكبه بحق ناصر الدولة ، خصوصاً بعد أن تحكم فيه الأتراك ، فكاتب ناصر الدولة ، وأبدى رغبة بالمصير إليه ، فأرسل ناصر الدولة ابن عمه الحسين ابن أبي العلاء إلى ظاهر بغداد ، فخرج إليه الخليفة . وكان قد خاف من الأتراك على حياته⁽²²⁹⁾ .

لم يلبث الصراع أن نشب بين الأتراك والحمدانيين بسبب إجرائهم الخليفة ، وتولى سيف الدولة قيادة المعركة ضد الأتراك ، فوقعه توزون ، وأنزل الهزيمة به بسبب غدر الأعراب منبني نمير وفتشر بسيف الدولة ، فتكلّم توزون وناصر الدولة على الصلح ، لكن المتفق أبي ذلك ، فاستؤنفت الحرب من جديد ، فاحتل توزون الموصل ، وسيطر بالصلح بين ناصر الدولة وتوزون فارتّحل الخليفة إلى الرقة وكاتب ابن طفع الأخشيد⁽²³⁰⁾ .

تم الصلح بين الأتراك والحمدانيين ، ذلك أن توزون أحسن بخطير ابن بويه ، وكان قد نزل واسط وجمع الضرائب والخارج ، وأظهر أنه متوجه إلى بغداد بأمر من الخليفة⁽²³¹⁾ .

اتجه ابن بويه إلى بغداد ، فوقعه توزون وهزمته⁽²³²⁾ عندها يئس المتفق من الظرف بتوزون فكاتبه على العودة إلى بغداد وشرط شروطاً قبلها توزون وأشهد الشهود على نفسه ، فلما أقبل الخليفة إلى بغداد قبض عليه توزون فخلعه وسلم عينيه وبايع ابن المكتفي بالخلافة⁽²³³⁾ وسمى المستكفي بالله ، وفي أيامه غلب بنو بويه والديلم على بغداد وانتهى عهد الأتراك⁽²³⁴⁾ .

(229) أبو بكر الصولي ، أخبار الراضي والمتفق ، ص : 246 وما بعدها .

(230) مصدر نفسه . ص : 250 — 257 .

(231) مصدر نفسه . ص : 258 .

(232) مصدر نفسه . ص : 262 وما بعدها .

(233) مصدر نفسه . ص : 267 وما بعدها .

(234) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 4 ص : 356 وما بعدها .

الباب الرابع
الشعبية والبعد الأدبي

تمهيد : الأثر الشعوي في التجديد الأدبي
الفصل الأول : الشعبية الأدبية في الشعر واتجاهاتها .
الفصل الثاني : الشعبية ومظاهرها في الشعر
الفصل الثالث : الحركة الأدبية المناوئة للشعبية
وأساليبها في التصدي للشعوبين .

تمهيد

الشعوبية والأدب

الشعوبية وأثرها في التجديد :

قامت الدعوة العباسية بحركة انقلابية في الدولة العربية ، فلم يكن من نتائجها استبدال الأسرة الحاكمة فحسب ، وإنما أحدث انقلاباً يكاد أن يكون شاملًا في كُلّ شيء ، فُنقلَ مركزُ الحكمِ من الشام إلى العراق ، وشارك الفرس فيه مشاركة فعالة ، واستحوالت أساليبه ونظمه وتقاليده ، وتغيرت ، وظهر الأثر الفارسي فيه جلياً واضحاً للعيان .

وكما أثر الفرس في الحكم عن طريق مشاركتهم فيه ، فقد أثروا في الشؤون الاقتصادية والإجتماعية وال عمران ، وشاركوا في الحياة العلمية والأدبية والدينية ، فنهض بهم شعراء وكتاب وعلماء ومتجمون ، وأسهموا إسهاماً فعالاً في بناء الحضارة العباسية وفي إغناء الثقافة العربية والأدب العربي ، تدفعهم إلى ذلك دافع ونوازع مختلفة : سياسية واجتماعية وحضارية ، فأدخلوا الكثير من النظم والتقاليد الفارسية في الحكم والسياسة . وعمدوا إلى عاداتهم وتقاليدهم وأزيائهم وأذواقهم في مأكلهم ومشاربهم ، فأحيوها ، وعملوا على نشرها وتعيمها . كما عمدوا إلى تراثهم ، فعرضوا كنوزه عن طريق ترجمة هذه الكنوز واستلهامها .

نهض عبد الله ابن المقفع ، فترجم كتاباً عديداً من آداب الفرس وسير ملوكهم وكان بلغياً كاتباً شاعراً مضطلاعاً باللسانين العربي والفارسي ، معجبًا

بحضارة الفرس وأدابهم ، فترجم كتاب خدا ينامة في السير وكتاب آلين نامة في الأصر ، وكتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك وكتاب الناج في سيرة أنوشروان ، وكتاب الأدب الكبير والأدب الصغير والبيتية في الرسائل⁽¹⁾ ، كما ترجم كتاباً في الطب والمنطق كانت قد تُرجمت قديماً إلى الفارسية⁽²⁾ . واقتدى باين المفعع كثيرون مِنْ حذقوا اللسانين العربي والفارسي أمثال آل نوبيخت⁽³⁾ وسهل ابن هارون⁽⁴⁾ وسلم صاحب بيت الحكمة⁽⁵⁾ وغيرهم كثير⁽⁶⁾ فترجموا التراث الفارسي في الأدب والسير والتاريخ والعلوم ، وأتقن كثير من العلماء والأدباء اللغتين العربية والفارسية⁽⁷⁾ وامتزج العرب بالفرس سواء في بغداد او حواضر الأمصار ، وتأثروا بكثير من العادات وأساليب الحياة الفارسية ، وقد هيأ لهذا الامتزاج أسباب منها :

– نزول القبائل العربية في البلدان المفتوحة وامتزاجها بشعوبها في السكن وعن طريق المصاهرة وتسرّى الإماء .

– نظام الولاء الذي شرعه الإسلام ، وجعله يتخذ شكل رابطة تشبه رابطة الدم .

– دخول أكثر الشعوب في البلدان المفتوحة الإسلام وامتزاجهم بأهله من العرب .

– إقبال الناس على تعلم اللغة العربية لأنها لغة الدين ولغة الدولة الرسمية ،

(1) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 172.

(2) مصدر نفسه . ص : 337.

(3) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 251.

(4) مصدر نفسه . ص : 174.

(5) مصدر نفسه . ص : 174.

(6) الجاحظ ، العجوان ، ج : 1 ص : 55 (وفيه إشارة إلى كتب للزنادقة التي ترجمت ككتب مانى وبيصان ومرقيون وغيرهم من أعمال الزنادقة ، وفيه أيضاً وصف لهذه الكتب ووصف ما كان الزنادقة يبالغون فيه من اختيار أنواع الورق الجيدة والحرير الأسود اللامع وإجاده الخط) .

(7) الجاحظ ، البيان والتبين ، ج : 1 ص : 193 ، وفيه : أنَّ موسى الأسواري « كان من أعاجب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقدع العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ثم يتحول وجهه إلى الفرس ، فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدرى بأي لسان هو ألين » .

فلم يمض قرن على الفتوح العسكرية ، حتى أخذت اللغة العربية تسود أرجاء العالم الإسلامي ، فقد أقبل عليها حتى من تمسك بدين آبائه ، فهجرت لغات الفرس والنبط والسريان والأقباط والبربر ، وأقبلت هذه الشعوب على اللغة العربية تغترف من معينها ، وتعبر فيها عن نفسها .⁽⁸⁾

لم تكن الحضارة الفارسية وآدابها ومعارفها الرافد الوحيد للحضارة العربية العباسية ، فقد شاركتها حضارات أخرى لا تقل شأنًا عنها بل قد تزيد كالحضارة الهندية واليونانية . كل هذه الحضارات امتنجت وتزاوجت مع الحضارة العربية الإسلامية ، فكان لهذا الامتزاج والتزاوج ثمرة عظيمة زاهية هي الحضارة العباسية .

فقد ترجمت الكتب الهندية إلى العربية في الأدب والفلسفة والطب ، والنجوم⁽⁹⁾ . وكان أثر اليونان عظيمًا بما نقل عنهم من علوم في الطب والهندسة والرياضيات والطبيعة والجغرافية والفلك والفلسفة والمنطق ، وتعهد الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة حرمة تلك وأنشئت المراصد الفلكية ، وأسس الرشيد بيت الحكم⁽¹⁰⁾ ، وأقام الحفظة عليها ، وقد بلغت حركة الترجمة أوجها في زمن المأمون الذي أهتم اهتماماً عظيماً بالعلوم الفلسفية والعقلية ، وبعث البعث إلى بلاد الروم للبحث عن الكتب وحملها وترجمتها ، كما قام بعض سراة القوم بجهد مشكور في هذا المجال كالبهرامي وآل نويخت وآل موسى ابن شاكر⁽¹¹⁾ .

فأصبحت اللغة العربية لغة الثقافة والعلم ، ولغة الدين والدولة ، واتسعت

(8) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ص : 89—90.

(9) ترجم كثير من الكتب الأدبية الهندية منها : كليلة ودمنة وستندياد الكبير وستندياد الصغير وكتاب البد ، وكتاب أدب الهند والصين ، وكتاب هابل في الحكمة وكتاب قصة هبوط آدم ، وغيرها ، وقد سرد ابن النديم أسماء الكتب الهندية في الطب والنجوم وأسماء العلماء الذين وصلت كتبهم إلى العرب : انظر الفهرست ، ص : 378—424—425.

(10) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 5 (وفيه إشارة أن بيت الحكم اسس زمن الرشيد) .

(11) ابن النديم ، الفهرست ، الفن الثامن من المقالة السادسة ، ص : 329 وما بعدها . (وفيه حكاية عن حلم رأه المأمون فكان دافعه لإرسال المترجمين إلى الروم في طلب الكتب) .

ثقافة العصر ، وتنوعت معارفه ، وأقبل العلماء والأدباء والدارسون ينكثون على تحصيل هذه المعرف وفهمها واستلهامها ، « وكانت الثقافة الفارسية الشعبية أبعد تأثيراً في المحيط العربي لهذا العصر ، فقد دخل جمهور الفرس في الإسلام ، واقتبس العرب كثيراً من صور حياتهم .. وكانوا يحتفلون معهم بآعيادهم .. . ويحكون عنهم أقاصيدهم عن رسم وإسفنديار وأخبارهم عن ملوكهم وحكمائهم .. . وكانت المجوسية لا تزال حية بمعابد نيرانها ، ونحلها المختلفة من زرادشية ومانوية ومزدكية ، وما كانت تجتمع عليه هذه النحل من ثنوية وإيمان بأن للعالم إلهين : إلهًا للنور وإلهًا للظلمة »⁽¹²⁾ فافتَّرْتْ هذه الديانات وخاصة المزدكية على الأخلاق والتحلل الخلقي - وأسهمت بنشر المجنون والزندة والنزوات الإباحية .. .

هيئات هذه البيئة للشعراء والأدباء رقياً عقلياً بعيداً ساعدَ في كثرة الكتب المترجمة عن الهند والفرس واليونان ، كما ساعد في إنمائِه كثرة المحاورات والمناظرات بين أصحاب الفرق الإسلامية أو بينهم وبين أصحاب الملل الأخرى ، فكان الشعراء يشهدون هذه المناظرات وقد يشاركون فيها ويسألون عن غواصتها ، وقد حض بشار على طلب المعرفة وسؤال أهلها عن غواصتها ، فقال :

« شفاء العمى طول السؤال وإنما دوام العمى طول السكت على الجهل
فكن سائلاً عما عناك فإنما دعيت أخا عقل لبحث بالعقل »⁽¹³⁾

وكان كثير من الشعراء والأدباء من أصول غير عربية ، يحملون ثقافاتهم الأصلية ، فكان حرياً أن يتحول الأدب العربي ، ويتطور ونظهرُ فيه أنواع أدبية جديدةً لو لا ظروف عديدة وفت حائل دون بلوغ هذه الغاية منها :

– الباعث الديني الذي دفع العلماء إلى دراسة القرآن الكريم وفهمه وتفسيره،

(12) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، المصر العابسي الأول ، ص : 95.

(13) ابن قبيطة ، عيون الاخبار ، ج : 2 ص : 132 ، ديوان بشار ، تحقيق بدر الدين العلوى - دار الثقافة - بيروت 1981 ص : 190 – 191.

فيعكسوا على الشعر الجاهلي والإسلامي يستعينون بهذا التراث الشعري لفهم لغة القرآن والحديث النبوى لأن «للعرب أمثال واستعاقات وأبنية وموضع كلام ، يدل عندهم على معانיהם وإرادتهم ، ولذلك الألفاظ مواضع آخر ولها حيثيات دلالات آخر ، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد ، والمثل ، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك»⁽¹⁴⁾ .

- الباعث السياسي : فقد أظهر الخلفاء محافظطة شديدة على لغة القرآن ، ودفعوا العلماء إلى دراستها والتعمق فيها ، ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأخبار وأيام وأشعار وقربوا أصحابها ، وأسندوا إليهم الوظائف الكبيرة في الدولة ، فسرى في القصر جو محافظت كان على الشعراء والوافدين أحذاؤه⁽¹⁵⁾ .

- ولوع الناس بالقديم ، وحرص العرب على تراثهم وإبرازه بصورة لا تقل نضارة عن تراث الفرس لهذا قدموا الأدب الجاهلي على كل أدب ، وقدموا رجال العصر الجاهلي على الإسلاميين ، فالجاحظ يحكى عن تقديم حاتم في الكرم سبيلاً وجهاً وهو كونه جاهلياً ، يقول : « ولو كان الأمر فيها مفوضاً إلى تقدير الرأى لكان ينبغي لغالب ابن صعصعة أن يكون من المشهورين بالجود دون هرم وحاتم . فإن رأيْتَ أنْ زَعَمْتَ أنَّ غالباً كان إسلامياً وكان حاتم في الجahلية ، والناس بما ثر العرب في الجahلية أشد كلفاً فقد صدقت»⁽¹⁶⁾ .

- إضطلاع أهل اللغة ب النقد الشعر ، وهؤلاء محافظون يفضلون القديم على الحديث للأسباب الآتية الذكر ولأنَّ فيه شواهدن النحوية واللغوية ، وكانت مجالس الخلفاء حافلة بهم مثل الأصمسي وأبي عبيدة والكسائي وغيرهم . فكان الشعراء يجهدون لنيل استحسانهم لأنَّ في ذلك رضى الخليفة أو الأمير «وبذلك أصبح اللغويون سدنة الشعر في هذا العصر وحراسه ، فمن نوهوا به

(14) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 153 — 154.

(15) ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ص : 139.

(16) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 2 ص : 108.

طار اسمه ، ومن لوحوا في وجهه خمل وغدا نسياً منسيّاً⁽¹⁷⁾ وصار الشعراء يعرضون قصائدهم على أهل اللغة ، فما استحسنوه منها أظهروه ، وما استحبهو ستروه ، وأدرك أهل اللغة أهميّتهم بالنسبة للشعر والشعراء وأنهم صيارة الشعر وجهابذته⁽¹⁸⁾ .

- «قُوَّةُ الْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَشَدَّةُ سُلْطَانِهَا عَلَى النُّفُوسِ وَقُدرَتِهَا عَلَى الْمُقاوَمَةِ»⁽¹⁹⁾ واعتبر طه حسين أن عدم اطلاع الأجيال الجديدة على آداب الأمم الأخرى ، كان من الأسباب الوكيدة في عدم اتخاذ النّاج الأدبي وجهة أكثر استحالة وأعظم أثراً وأكثر إنتاجاً⁽²⁰⁾

على أن عدم إطلاع الأجيال الجديدة على آداب الأمم الأخرى أمر مشكوك فيه بل إن ما نرجحه هو اطلاعهم على كثير من تلك الآداب ، ومن يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم يرى كثيراً من أدب الفرس والهنود قد وضع تحت أبصار العباسين ، ليقلدوه ويحتذوه . فقد حاول سهل ابن هارون حكاية كليلة ودمنة ، فألف كتاب ثعلة وعفرا كما ألف كتاب النمر والثعلب⁽²¹⁾ وحاول محمد ابن عبدوس الجهمياني وضع مؤلف على غرار هزار أفسانه الفارسي ، أراد أن يجمع فيه «ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته ، لا يعلق بغيره ، وأحضر المسامرین فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما يحلو بنفسه ، وكان فاضلاً ، فاجتمع له من ذلك أربعينية ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ثم عاجلته المنية»⁽²²⁾ وقد عرف العرب كتاب الخطابة

(17) ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ص : 139.

(18) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 17 ص : 16.

(19) طه حسين ، حديث الأربعاء ، دار المعارف بمصر ط 9—1974. ج : 2 ص : 22

(20) مرجع نفسه . ج : 2 ص : 22.

(21) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 174.

(22) مصدر نفسه ، ص : 423.

لأرسطو ونقله أكثر من مترجم كما فسّر الفارابي أبو نصر ، كما عرفوا كتاب الشعر واختصره الكندي⁽²⁷⁾ .

ويتحدث الجاحظ وكأنه عرف الشعر عند الأمم الأخرى واستمع إليه ، فما وجد له مزيّة تدنيه من الشعر العربي ، فقال : « والدليل على أنَّ العرب أطلقوا أنْ لغتها أوسع وأنَّ لفظها أدقُّ ، وأنَّ أقسام تأليف كلامها أكثر والأمثال التي ضربت أجود وأسيّر .

والدليل على أنَّ البديهة مقصورة عليها ، وأنَّ الإرتجال والإقتضاب خاصٌ فيها : ما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الفرس والروم شعرًا؟ وكيف صار النسب في أشعارهم والذي أدخلوه في غنائهم ، وفي الحانهم ، إنما يقال علىأسنة نسائهم ، وهذا لا يصاب في العرب إلا القليل اليسير ، وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة ، على الأشعار الموزونة»⁽¹⁴⁾ .

فقد عرف العرب آداب الأمم الأخرى أو اطّلعوا على نماذج منها على الأقل واقتبسوا معانيها لكنهم احتفظوا بأساليبهم في التعبير الشعري عنها وظلّت نظرتهم إلى شعرهم القديم نظرة إعجاب شديد وظلّ الشعر الجاهلي الغاية التي يصبو إليها الشعراء ، وقد لاحظ ذلك أحمد أمين فقال : « إنَّ نفوذ العرب في أدبهم - وخاصة في شعرهم - كان أقوى من أي نفوذ آخر ، فقد ظلل الشعر حافظاً لأوزانه الجاهلية ، وتقاليده إلى عصتنا ، ولم تستطع أمّة بتفوذهما مهما عظم أنْ تحوله . وكل ما قلناه من أثر فارسي ، فإنما كان في بعض العناصر التي تصب في القالب - لا في القالب نفسه .

وأبو نواس يحاول أن يخرج على الجاهليين ، ويقول :

صفة الطلول ببلاغة الفدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

(23) مصدر نفسه ، ص : 349 — 350.

(24) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 1. ص : 200.

ولكنه - مع هذا - لا يستطيع أن يتحرر من قيوده ، ولو فعل لَمَّا قُرِئَ ولا سُمع⁽²⁵⁾ .

إذاً فقد كان « تأثير الأدب الجاهلي في الأدب الإسلامي شديداً قوياً ، وجعل الإسلاميين يحتذون حذوه ، ولا يخرجون كثيراً عن قيوده ، فلَمَّا كانت ثقافات الأمم الأجنبية في العلوم واصحة الأثر ، فأثرها في الأدب خفيف ، ولو كان شديداً قوياً لأدخلوا على بحور الشعر الجاهلي بحوراً فارسية أو يونانية ولتحرروا أحياناً من القافية ، ولأدخلوا ضرب الشعر التصصي أو التمثيلي ولأرسوا طريقة جديدة لنهج القصيدة ، فلم يتقيدوا ببكاء أطلال ولا وقوف على ديار ولهجروا الغزل الطويل ، يدخلون به على مدح الممدوح ، ولفعلوا كثيراً من أمثال ذلك ، ولحدثت ثورة في الشعر والأدب ، فنقلته نقلة جديدة كما حدث في العلوم »⁽²⁶⁾ .

وظهرت الشعوبية في هذا العصر سَافِرَةً ، فقد أحس الفرس بقوتهم وبما قدموه من خدمات للأسرة الحاكمة ، فعبروا عن مشاعرهم المكتوبة في أيام الأموريين ، وجاهروا بعصبيتهم العرقية ، فقالوا بتفضيل الفرس على العرب وبحدوث فضل العرب على غيرهم من الأمم ، وظهرت هذه النزعة فيما أنتجوه من الأدب ، وظهرت الزندقة ، وتفضلت خاصة بين المثقفين والكتاب والشعراء ، وتأثروا بما فيها من دعوة للتهتك والتهاك على اللذة والإباحية والمجون ، وتغاضى السلطان في كل ما لا يهدد السلطة القائمة . فعبروا عن عواطفهم وأهوائهم بحرية تامة دون رقيب من دين أو أخلاق أو سلطان ، « ففك الناس كما أحبوا ، وعاشوا كما أحبوا ... أصبحت العواطف حرة ، فأصبحت الألسنة حرة ونشأ من حرية العواطف تنافس في اللذة ... ثم تغيرت ألفاظ الشعر لهذا السبب نفسه ... أصبحت تستطيع أن تصف نفسها من غير تكلف ولا تقيد بقديم ، وإذا كان الشاعر يستطيع أن يشرب جهراً دون أن يستخفى من الشرطة فما له لا يصف

(25) احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ص : 377 – 378

(26) احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ص : 378

الخمر كما يحب ، دون أن يخشى سطوة الأصمسي⁽²⁷⁾ .

الأثر الشعوبي في التجديد الشعري :

وكان بشاراً ابن برد في طليعة الشعراء المجددين ، وقد أكثر من الإباحية والتصريح في شعره ، حتى صَبَّجَتْ العادة منه ، فتدخل المهي لوضع حدًّا لبعض وفجوره ، ولكنه على الرغم من شعوبته ، وزندقته وحقده الشديد على العرب والإسلام ، فإنه على الصعيد الأدبي ، لم يقطع صلاته بالشعر القديم ، وكان المديح أهمًّا عَرَضاً يصلُّه بتراث العرب الأدبي ، فحافظ في هذا المجال محافظة شديدة على السنن الموروثة « سواء من حيث جزالة الصياغة ورصانتها ومتانتها ، أو من حيث المنهج الذي سار عليه القدماء »⁽²⁸⁾ .

ولعل هذا ما دفع شوقي ضيف إلى القول « وعجب حقاً أن يستطيل بشار على العرب وعلى دينهم الحنيف ، وأن يقهره شعرهم ، ويملك عليه ذات نفسه ، ويُسخره ليكون أداةً من أدوات ازدهاره ، ويرهاناً بينماً على قوة شخصيته ، تلك الشخصية التي يظل فيها الماضي الفني ماثلاً ، مهما سقط على أصحابه من اختلافات في الزمان والمكان ، ومهما وقع عليهم من مؤثرات حضارية وثقافية ، ومهما ألحدوا في العروبة والدين »⁽²⁹⁾ .

وأما الذي تصدى لتقالييد العرب الأدبية في الشعر ، وحاول هدمها ، فهو أبو نواس ، وكانت شعوبته شاملةً ، حقد على العرب ، وحاول النيل من كلّ ما يمت إلىهم بصلة ، هتف بهم في صحوه وسكره ، في جذبه ولهموه ، وتسل الدعوة للتجديد في الشعر وتقاليده سبيلاً للنيل من العرب ، وشتمهم والسخرية منهم ، كقوله :

(27) طه حسين ، حديث الأربعاء ، ج : 2 ص : 36 — 37.

(28) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ص : 204.

(29) مصدر نفسه . ص : 208.

وَعْجَتُ أَسْأَلُ عن خَمَارَةِ الْبَلْدِ⁽³⁰⁾
 وَلَا شَفَى وَجْدٌ مَنْ يَصْبُرُ إِلَى وَتَدِ⁽³¹⁾
 لَا دَرْ دَرْكٌ قُلْ لَيْ مَنْ بَنُو أَسَدِ⁽³²⁾
 لِيْسَ الْأَعْارِبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
 صَفَرَاءُ تُعْنِقُ⁽³³⁾ بَيْنَ الْمَاءِ وَالزَّبْدِ⁽³⁴⁾

«عَاجَ الشَّقِيقُ عَلَى دَارِ يَسَائِلُهَا
 لَا يُرْقِي ءَالَّهُ عَيْنِي مِنْ بَكَى حَجَراً
 قَالُوا ذَكَرْتَ دِيَارَ الْحَيِّ مِنْ أَسَدٍ
 وَمَنْ تَمِيمٌ وَمَنْ قِيسٌ وَأَخْرَوْتُهُمْ
 دَغْ ذَا عَدْمُتُكَ وَأَشْرَبَهَا مُعْتَقَةً»

وَهُوَ إِذَا لَمْ يَشْتُمُ الْعَرَبَ ، فَابَلَ بَيْنَ صَخْرَائِهِمُ الْقَاحِلَةَ وَحِيوانَهَا وَبَيْتَهَا ،
 وَبَيْنَ الْجَاهِرَةِ وَوَرَودَهَا ، وَدَعَاكَ لِتَرْكِ الصَّحْرَاءِ وَأَطْلَالِهَا ، وَمَا فِيهَا مِنْ حَيْوانَاتِ
 وَنَبَاتَ ، وَإِلْقَابُ عَلَى الْحَيَاةِ الْمَدِينَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ بَسَاتِينَ وَكَرْوَمٍ وَحَانَاتٍ تَقْدُمُ
 أَجْوَادُ أَنْوَاعِ الْخَمُورِ بَيْنَ الْأَسَنِ وَالنَّرجِسِ :

فَمَا لَدِيهَا رَجْمُ تَسْلِيمٍ⁽³⁵⁾
 فَإِنَّهُ دَاعِيَةُ الشُّوْمِ⁽³⁶⁾
 وَعُجْجُ إلى النَّرجِسِ عَنْ شَيْجٍ وَقِيْصُومٍ⁽³⁷⁾ (38)

«أَبْخَلْتُ عَلَى الدَّارِ يَنْكِلِيمِ
 وَالْعَنْ غَرَابَ الْبَيْنِ بِغَضَّالِهِ
 وَعُجْجُ إلى النَّرجِسِ عَنْ شَيْجٍ وَقِيْصُومٍ»

وَتَارَةً يُخَاطِبُ بَاكِيَ الْأَطْلَالِ ، وَيَتَعَجَّبُ مِنْ بُكَائِهِ ، كَفَ يَبْكِي أَطْلَالًا قَدْ
 عَفَتْ وَتَغَيَّرْتْ ، وَتَبَدَّلَتْ مَلَامِحُهَا ، وَهَجَرَهَا أَصْحَابُهَا ، وَيَتْسَاءَلُ مَا الْفَائِدَةُ مِنْ
 هَذَا الْبَكَاءُ ، بَلْ مَا الْحَكْمَةُ فِيهِ :

(30) عاج : أقام ووقف وعطف رأس البعير بالزمام . الشقى : يقصد به الذي يقف بالطلول ويسائلها وقد أطلق عليه هذا اللفظ سخرية واستهزاء

(31) رقا الدمع : جف وسكن . وجد : حزن . يصبو : يحن .

(32) أسد : أحد بطون العرب من مصر . لا دررك : لازماً عملك .

(33) تعنق : تسرع وتحرك . والعنق نوع من سير الإبل والدواب ، يشير بذلك إلى حركة الخمر في الكأس حين يصعب عليها الماء فيكون لها زيد عالق بها فهي تحرك حركة مشاهدة بين الماء والزبد .

(34) أبو نواس ، الديوان ، ص : 46 — 47.

(35) رجع تسليم : رد سلام

(36) الـبيـن الفـراقـ وإـضـافـةـ الغـرـابـ لهـ تـشـاؤـمـاـ بـنـعـيـهـ الـذـيـ يـعـقـدـونـ آـنـ نـذـيرـ آـذـىـ وـهـلاـكـ وـالـشـوـمـ الشـوـمـ

(37) عج : مل . النرجس : زهر معروف . العوسج : شجر مسائق

(38) أبو نواس ، الديوان ، ص : 155.

«أبا باكي الأطلال غيرها البلى
بكينت بعين لا يجف لها غرب⁽³⁹⁾
انتفت دارا قد عفت وتغيرت⁽⁴⁰⁾
فاني لما سالمت من نعمتها حرب⁽⁴¹⁾

وتارة أخرى ، يجد نفسه مضطراً لوصف الأطلال والدمن ، ليتفق شعره في دور الخلفاء ، ولربما طلب ذلك منه ، فيشعر بالمحببة قد حلّت به أو حلّ هو فيها ، فيتململ من ذلك ، ويصرح بتبرّمه من هذا الصنيع ، ولجوئه إلى مثله اضطراراً كقوله :

«أعز شعرك الأطلال والدمن القفرا
فقد طال ما أزري به نعمتك الخمرة⁽⁴²⁾
دعاني إلى نعمت الطلول مسلط
تضيق ذراعي أن أجوز له أمرا⁽⁴³⁾
 وإن كنت قد جشممتني مرکباً وعرا⁽⁴⁴⁾»

وهو يحتاج بأن الصحاري ونعمتها ، والأطلال ووصفها ، ليست من بيته ، فكيف يصف ما لا يراه ، داعياً الشعراً لوصف الكرم والخمرة لأنها من بيته ، ويتسائل كيف يذهل الشعراً عن وصف الخمرة وهي مائلة أمامهم ، لا بل يجهرون منها عباء ، وبهيمون بوصف صحاري لم يروها ، وأطلال لم يسمعوا بها ، وإنما هو التقليد الأعمى لمن مضى ، ومن يحاول التقليد لم يسلم من الوهم وإنما :

«صفة الطلول ببلاغة القدم
فعلم تذهب عن مشغشعة
فاجعل صفاتك لابنة الكرم⁽⁴⁶⁾
وتهيم في طلل وفي رسم
تصف الطلول على السماع بها⁽⁴⁵⁾

(39) الغرب : الدمع أو مسلله

(40) عفت : امتحن معالهما ، سالمت : صالحنت ، نعمتها : وصفها .

(41) مصدر نفسه . ص : 10

(42) الأطلال : جمع طلل وهو الشاحن من آثار الدار ، الدمن : جمع دمن وهي آثار الدار ، أزري به : عباء

(43) مسلط : قاهر متغلب . تضيق ذراعي : تضيق طاقته ، أجوز له أمراً : أعرض عنه .

(44) تسمع وطاعة وفي رواية بالنصب ، وكلها جائز ولكن تخریج . جشممتني : كلفتني .

(45) مصدر نفسه . ص : 21

(46) القدم : الصبي عند الكلام في رخاوة وقلة فهم .

وإذا وصفت الشيء متيناً لم تخلُ من زللٍ ومن وهمٍ⁽⁴⁷⁾

وقف أبو نواس بقوّة مع التجديد ، تدفعه شعوبية صارخة ، أشهمت في تحويتها عوامل عديدة ، لسنا الآن معين بالكشف عنها ، إنما نريد القول أن دعوته للتجديد لم تكن مترفة الغايات ، فالتزامه بهذه القضية نابع من شعوبته ، ولكن هل وفق أبو نواس في تجديده ، هل استطاع استبدال العروض الخليلية ؟ هل ابتكر الرواً من الشعر لم تكن معروفة عند العرب ؟ إن ذلك لم يحصل . صحيح تطورت الخمرية على يديه ، وأصبحت قصيدة متكاملة ، فلم يعد للبيت الشعري استقلاله بها ، وإنما أصبحت القصيدة كلاً متكاملاً . وصحيح أنه حلق في طردياته لكنه لم يكن السابق للقول في هذا المجال أو ذاك .

الح الشاعر على المقدمة الطللية في القصيدة العربية ، حتى غدت هاجساً كبيراً يؤرقه في صحوه وسکره ، فما جديده في هذا المضمار ؟ إنه بالرغم من دعوته المتكررة لتجاوزها ، لم يستطع ذلك ، فذكر الصحراء ، ووصفها سلباً وإيجاباً ، ولم يكتف بوصف الأطلال مقدمة لقصائده في المدح ، وإنما تعداها إلى الهجاء والغزل والخمريات ، فبدلأ من القول : إن الوقوف على الأطلال من ثاني يقول : « فما الوقوف على الأطلال من شأني » وبدل الأمر بالبكاء عليهما ، يأمر بعدم البكاء ، وهو على الرغم من ذلك يسكر ، وتأخذه نشوة الخمرة ، فيتنزع تشابيه من الصحراء التي طالما نعاها ، وسخر من أهلها ، وتعجب من يطالبه بوصفها ، فإذا هو يعقر دنان الخمر بدل البعير ، وإذا الجنادب والدبى والظليم تنزو ، وتقفر من كأسه :

« حتى إذا عقرت سالت سلالتها في قعر معصرة كالعندم القاني⁽⁴⁸⁾

تنزو جنادبها في وجه شاريها مثل الدبى حاجة طش بقيعان⁽⁴⁹⁾

(47) أبو نواس ، الديوان ، ص: 57—58.

(48) عقرت : يربى عصرق . سلالتها : السلالة ما انسلا من شيء يربى عصاراتها . العندم القاني : الدم الأحمر .

(49) تنزو : ثتب ، الجنادب : الجراد الدبى : أصغر الجراد ، الطش : المطر الضعيف : القيعان : مفرداتها قاع : الأرض السهلة وقد انفجرت عنها الجبال والأكاك .

حتى إذا اضطفت الأقداح وانسَطَ
خلَّا الظُّلْمِيَّ بغيرَهْ نَهَلَانِ⁽⁵¹⁾
وقد يقف على الأطلال ، ويُخاطِبُهَا فَتَشِيرُ حِينَهُ وشوقَه ، ولكن لا
لسكانها ، وإنما لِمَا تخبئه من دنان الخمرة والله :

«لِمَنْ طَلَّ عَارِيَ المَحْلُ دَفِينٌ
عَفَا آيَةً إِلَّا خَوَا لِدُجُونٌ⁽⁵²⁾
كما اقْتَرَنَتْ عندَ الْمَبْيَتِ حَمَائِمُ
غَرَبِيَّاتُ مَنْسَى مَا لَهُنْ وُكُونٌ⁽⁵³⁾
دِيَارُ الْتِي أَمَّا جَنَّى رَشَفَاتِهَا
فَيَحْلُوُ ، وَأَمَامُهَا فَيلِينُ»⁽⁵⁴⁾

أو يخضع لِتقاليدِ القصيدةِ العربية ، فيقف على الطلل ، ويأمر بالوقوف
عليه ، وينتهي ، ويعرف بخصوصه :

أَرَبَعَ عَلَى الطَّلَلِ الَّذِي انتَسَطَ
لَعْبَتْ بِهِ رِيحُ يَمَانِيَّةٍ
فَلَيْلَنْ عَفَا وَعَقَتْ مَعَالِمَهُ
منه المعالمَ أنْجُمَ النَّحْسِ
وحواصِبُ ترْكَتُهُ كَالْطَّرْسِ⁽⁵⁵⁾
فلقد خضعتْ وكتُتْ ذَا نَفْسِ⁽⁷⁶⁾

وأبو نواس ، وإن لم يتخَلَّ عن المقدمة الطلليلة في خمرياته أو مدحاته ،
فما استطاع التخلِّي عنها في هجائه ، فقد وصفها وصفاً سلبياً في هجائه لعدنان
ومضر :

«لَيْسَ بِدَارٍ عَفَتْ . وَغَيْرَهَا
صَرْبَانٌ مِنْ قَطْرِهَا وَحَاصِبِهَا»⁽⁵⁷⁾

(50) الظليم : ذكر النعام ، نهلان : اسم جبل .

(51) أبو نواس ، الديوان ، ص : 113.

(52) دفين : بعيد عن العيون ، عفا : درس : آية : علاماته ، الخوالد الأنافي وهي الحجارة التي تنصب
لتوضع عليها القدر ، جون : سود .

(53) اقترنَتْ : اجتمعت ، وكون : جمع وكن وهو العش .

(54) أبو نواس الديوان ص 1.68

(55) الحواصِبُ : الرياح التي تحسب الوجه بما تحمل من حصى وتراب .

(56) أبو نواس الديوان ص 215

(57) القطر : المطر ، الحاصِبُ : الريح تحمل التراب أو هو ما تثار من دفاق الثلج والبرد .

وَلَا لِأَيِّ الْطَّلُولِ أَنْدَبُهَا لِلرَّيْحِ وَالرُّفْقُشِ⁽⁵⁸⁾ مِنْ قَرَابِهَا⁽⁵⁹⁾
 وهو إلى ذلك ، يقف على أطلال حانة ، ويحبس صحبه بها ، لا للتحبيب
 والبكاء ، وإنما للقصص واللهو والمجون :

« وَدَارِ نَدَامَى عَطَلُوهَا وَأَدَلَجُوا⁽⁶⁰⁾ بِهَا أَثْرُ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارَسُ⁽⁶¹⁾ »

فالأطلال كما نرى ، تلاحمه كاللغنة ، كلما أراد ابعاداً عنها زادت التصاقاً
 به ، ولو لوجاً في أعماقه ، وهو رغم ذلك يقول :

« مَا بَيْنِ رَبْعٍ وَلَا رَسْمٍ وَلَا طَلْلٍ أَفْوَى وَبَيْنَ فِي حُكْمِ الْهَوَى عَمَلٌ⁽⁶²⁾
 وَيَعْلَمُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ مَا قَطَعَ الصَّحْرَاءَ عَلَى نَاقَةٍ أَوْ جَمَلٍ ، وَلَا شَتَا فِيهَا ثَمَّ
 أَدْرَكَهُ الصِّيفُ ، فَارْتَحَلَ عَنْهَا وَخَلَفَتْ فِي نَفْسِهِ ذَكْرِي ، وَلَا شَدَّ بِهَا طَبَّا لِحِيمَتِهِ ،
 فَجَاؤُوهُ الضَّبُّ وَالوَرْلُ . فَالصَّحْرَاءُ غَرِيبَةٌ عَنْهُ ، لَا يَعْرِفُ مِنْهَا سَهْلًا وَلَا جَبَلًا ،
 وَهُوَ لَا يَعْرِفُ إِلَّا الْحَوَاضِرُ وَالْبَسَاتِينُ ، وَالْحَدَائِقُ الْغَنَاءُ ، وَلَا يَنْعَتْ إِلَّا « قَصْرًا
 مَنِيعًا عَلَيْهِ النَّخْلُ مَشْتَمِلٌ»⁽⁶³⁾

حقاً أنَّ أبا نواس « كان ي يريد أنْ يتَخَذَ - ويَتَخَذَ النَّاسُ مَعَهُ - فِي الشِّعْرِ مَذْهَبًا
 جَدِيدًا وَهُوَ التَّوْفِيقُ بَيْنَ الشِّعْرِ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ الْحَاضِرَةِ ، بِعِبَثٍ يَكُونُ الشِّعْرُ مَرَأَةً
 صَافِيَةً تَتَمَثَّلُ فِيهَا الْحَيَاةُ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ الْعَدُولُ عَنْ طَرِيقَةِ الْقَدْمَاءِ ، لَأَنَّ هَذِهِ
 الطَّرِيقَةُ الَّتِي كَانَتْ تَلَامِمُ الْقَدْمَاءِ ، وَمَا أَلْفَوْا مِنْ ضَرُوبِ الْعِيشِ . فَإِذَا تَغَيَّرَتْ
 ضَرُوبُ الْعِيشِ هَذِهِ ، وَجَبَ أَنْ يَتَغَيَّرَ الشِّعْرُ الَّذِي يَتَغَنَّى بِهَا ، فَلِمَّا يَلِيقُ بِسَاكِنِ
 بَغْدَادِ الْمُسْتَمْتَعِ بِالْحَضَارَةِ وَلِذَانِهَا ، أَنْ يَصْفِ الْخِيَامَ وَالْأَطْلَالَ ، أَوْ يَتَغَنَّى إِلَيْهَا

(58) الرُّفْقُ : جمع رقاء وهي المقطعة الجلد ، القرائب : جمع قرب و هو اليربوع .

(59) أبو نواس ، الديوان ، ص : 506.

(60) كان أبو نواس قد أخذ بعض صحبه و مر على العدائين مقر الأكاسرة فرأى بعض حاناتهم ، ولم يكن قد بقي فيها غير أطلال فكتب هذه القلعة .

(61) أبو نواس الديوان ص 37.

(62) مصدر نفسه . ص : 698.

(63) مصدر نفسه . ص : 698.

والشاء ، وإنما يجب عليه أن يصف القصور والرياضن ، ويتفنّى الخمر والقيان ، فإنّ فعل غير ذلك ، فهو كاذب متكلف «⁽⁶⁴⁾» ولكن أبا نواس لم يستطع الوصول إلى كلّ ما يريد من ذلك ، فظلّ شبح الصحراء مخيماً على روحه ، يحاول طرده ، ولكنه لم يستطع ، وأبو نواس ، وإن حاول الخروج على العاهلين ، فـما تحرّر من قيودهم « ولو فعل لما قرئ ولا سمع «⁽⁶⁵⁾» .

الأثر الشعوبي في التجديد الشري :

أما في الشر ، فقد كان عبد الله ابن المقفع ، من أوائل الكتاب الأدباء الذين ذلّوا وعوروا الشر ومهدوه ، وسهّلوا طرقه لمن جاء بعدهم ، وكان نهاية في الفصاحة والبلاغة ، مثقفاً ثيقاً واسعاً ، فصيغ اللسان بالعربية والفارسية ، فأكّب على التراث الفارسي ، ينقل كنزه إلى العربية فنقل كليلة ودمنة كما نقل كثيّاً عديدة أخرى - كما قد أشرنا إليها - في السير والأداب والأخلاق والطب والحكمة «⁽⁶⁶⁾» وقد بلغ من إتقانه في صب تلك المعاني الأجنبية في القوالب العربية ، أن التبس أمر ترجمته على الكثيرين وظنوا أن بعض ما ترجمه من إنشائه وتصنيفه «⁽⁶⁷⁾» .

فأُعجب بلغاء عصره بياته ، وأسلوبه إعجاباً شديداً ، فوضعه على رأس البلغاء العشرة الأول ، وعدوا له كتابين في الكتب التي أجمعوا على بлагتها وجودتها ، وهما : كليلة ودمنة واليتيمة «⁽⁶⁸⁾» وكان الناشرون من الكتاب يتدارسون كتبه ، ليحذقو أسلوبه المبتكر ، ويغترفوا من بلاغته وثقافته «⁽⁶⁹⁾» ولعل كتاباً في

(64) طه حسين ، حديث الاربعاء ، ج : 2 ص : 90.

(65) احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ص : 378.

(66) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 172 ، 337.

(67) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص : 86.

(68) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 182 — 183.

(69) الجاحظ ، ثلاث رسائل ، ص : 42. (ذم اخلاق الكاتب)

العربية ، لم يبلغ من العناية والشهرة ما بلغه كتاب كليلة ودمنة ، فقد نُقلَ مراراً إلى الشعر ، كما ترجمَ إلى معظم لغات العالم ، وما زال حتى عصرنا يحظى باهتمام وعناية الدارسين⁽⁷⁰⁾ .

وعلى الرغم من أنَّ شعوبية ابن المقفع خفيةٌ لا تكاد تصرخ عن نفسها إلا في مواضع نادرةٍ فقد اعتبره الشعوبيون رمزاً من رموزهم فنسبوا إليه أقوالاً وحكماءً كثيرةً ، وتعصَّب عليه كثيرون مِنْ يميلُ إلى العرب ، فاتهموه وبالغوا باتهامه ، ووضعوا الكتب في الرَّد على ما تُسَبِّ إليه من زندقة .

ومهما يكن من أمر ، فإنَّ المقفع اعتبر مدرسة في التَّشِير العربي ، اقتدى به كثير من البلغاء واحتذوه ، ومن أبرزهم في هذا المجال سهل ابن هارون صاحب خزانة الحكمَة لعهد المأمون ، فألف كتاب ثعلة وعفرا على مثال كليلة ودمنة ، كما صنف كتاب الهذلية والمخرزمي ، وكتاب الوامق والعذراء ، وكتاب النمر والتعلب ، إضافة إلى كتب في القضاء والحكمة والملك والسياسة ، وكان شعوبياً شديد العصبية على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرةً ورسائل في البخل⁽⁷¹⁾ ولكنَّ الزَّمن عدا على آثاره فمحاه ، وأخلق رسومها إلا رسائل صغيرة ، وبعض الأقوال المبثوثة في ثنايا الكتب ، تنبئ عن بлагاته ومهاراته في الكتابة والتحبير ، كما عثر عبد القادر المهيري على مخطوط النمر والتعلب ، فنشر مقتطفات منه في حلبة الجامعة التونسية⁽⁷²⁾ وهذا الكتاب عبارة عن قصة تدور على ثلاث شخصيات هي : التَّعلب الحكيم والذئب الغادر المتمرد ، والنمر الطاغي المستبد ، وتسلسل حوادث القصة تسلسلاً دقيقاً ، فالتعلب ، كان يسكن في حجره بوادٍ منذ زمن ، ويمرّ عليه تعلب آخر ، فيشير عليه بتغيير حجره خوفاً من السيل ومجاجاته ، ولكنَّ زوجته ترفض الإنقال وتتأبى التحول ، ويأتي السيل فيدهمها ، ويحمله وحيداً إلى جزيرة ظئَّها ، لأول وهلة ، خالية من كل ما يدب أو يسعى ، فيبيت فيها ليتله

(70) محمد نائل المرصفي ، مقدمة كليلة ودمنة (طبعة المؤسسة المتحدة للكتاب - بيروت 1980)

(71) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 174.

(72) عبد القادر المهيري ، حلبة الجامعة التونسية ، العدد الأول ، سنة 1964 .

طاوياً ، وتشاء الصدف أن يلتقي بالذئب ، وسرعان ما يتعارفان ويتآلفان ، فيخبره الذئب بحال الجزيرة وكثرة طبائنا ، وبقر الوحش فيها ، واستبداد النمر الذي يملكونها ، ويسيطر على مقدراتها فينصحه الثعلب بإتيان النمر ، وإظهار الخضوع والمودة له ، واستنصاصه ، ويدل مساعدته ، فيتولى الذئب للنمر إحدى الولايات ، وينتقل مع الثعلب إليها ، وما أن يطمئن في ولايته ، ويشتبّه دعائمه حكمه ، حتى يخلع الطاعة ، ويجاهر بالعصيان ، فتنشب الحرب ، وتدور الدوائر على الذئب ، فيُقتل ويُؤسَرُ وزيره الثعلب ، ويکاد يلقاه المصير نفسه ، لولا ما توسم فيه النمر من العقل والحكمة ، فيرد له حياته ، ويسأله أسئلة متنوعة ، فيجيبه الثعلب عنها . والقصة على ما أظن تتحدث بالرمز عن علاقة طاهر ابن الحسين بالمأمون ، وامتناعه منه في خراسان مع بعض التعديلات التي تبعد التهمة ، وتنفذ من التهلكة .

وأما رسالة سهل في البخل ، فقد وجهها إلى محمد بن زياد والىبني عمه من آل زياد وكانوا يذمون بخليه ، فابتداها بالدعاء لهم ، ثم تمثل بكلام للأحنف ابن قيس متخلصاً بذلك إلى غايته المرجوة من رسالته ، وهي هدايتهم ، وتقويتهم وإصلاح فسادهم ، معتذرًا لنفسه عن الخطأ بالقول : « ولشن أخطانا سبيلاً إرشادكم ، فما أخطأنا حسن النية فيما بيننا وبينكم ، ثم قد تعلمون إننا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم ، وشهرنا به في الآفاق دونكم »⁽⁷³⁾ وبعد أن بسط عذرها ، تناول ما عابوه عليه عيًّا عيًّا ، يدفع العحجة بالحججة ، والبينة بالبينة ، متمثلاً بالدين ، وأحاديث الرسول والصحابة والعلماء والعقل والمنطق .

ومهما يكن من أمر ، فإن شعوبته وعصبيته على العرب ، كانت الدافع لإنشاء هذه الرسالة ، وذلك أن العرب كانت تعتبر الكرم من أهم الفضائل العربية ، فأراد أن يهدم هذه الفضيلة ، وبيني بدلاً عنها فضيلة للبخل وأهله ، يظهر من خلالها تخليط العرب وتضييعهم ، وقلة حزمهم بتبييد ثرواتهم .

(73) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 21

ورسالة سهل ابن هارون ، كانت من الأسباب الرئيسية التي دفعت أبا العاصن ابن عبد الوهاب النقفي ، لتصنيف رسالته التي نقض فيها ما أبترمه سهل ، فدم البخل وأهله ، وامتنح الكرم ودعا إليه ، سالكاً في ذلك كل مسلك .

فاستهل رسالته بذكر العلامات التي تنبئ أن صاحبها قد أبطن البخل ، وعزم عليه ، فمن هذه العلامات : الجلوس إلى الأصماعي ، والإعجاب بسهل ابن هارون ، واسترجاع كلام ابن غزوان ، والطعن على مؤنس ابن عمران ، والإختلاط بابن مشارك ، والإختلاف إلى ابن التوأم ، والإكثار من ذكر المال وإصلاحه ، والقيام عليه وجمعه وتشميره ، وما ذلك إلا « دليل على خبيء سوء ، وشاهد على عيب ودبر ، بعد أن كنت تستقبل ذكرهم ، وتستشنع فعلهم ، وتعجب من مذهبهم ، وتسرف في ذهفهم ، وليس يلهم بذكر الجمع إلا من قد عزم على الجمع ، ولا يأنس بالبخلاء إلا المتواхش من الأشخاص »⁽⁷⁴⁾ ثم يلوم ابن عمّه في تحفظه كلام سهل ابن هارون . . . وابن غزوان في المنع والجمع ، وينتقل إلى ذم البخل وأهله ، ومدح الكرم وأهله مُرغباً فيه ترغيباً عقلياً ودينياً ، ثم ذم هذا القريب الذي اقتدى بسته المولاي ، ونبي صفات قومه العرب ، فقال :

« ولقد سرى إليك عرق ، ولقد دخل أعراقك خور ، ولقد عمل فيها قادح ، ولقد غالها غول ، وما هذا المذهب من أخلاق صميم ثقيف ، ولا من شيء أعرقت فيها قريش ، ولقد عرض لك إقراف ، ولقد أفسدتك هجنة »⁽⁷⁵⁾

فالكرم فضيلة عربية اختصت بها العرب ، ومجدها الأمم ، وأشار فيها الدين ، فالله كريم ويحب الكريم ، ويمقت البخل وأهله ، والنبي قد فاق بكرمه كُلَّ كريم . ثم أشار أبو العاص ياجماع العرب على تمجيد الكرم وذم البخل ، حتى كفر البخلاء ، وأخرجهم من الدين ، ثم ذكر حال الكريم في نفسه ، والبخيل في نفسه معدداً أصناف البخلاء ، محتجاً على سخفهم بالحديث والسنة والعقل والمنطق والمأثور من كلام الشعراء والحكماء .

(74) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 220

(75) مصدر نفسه . ص : 223 — 224

وما كادت رسالة أبي العاص تشهر ، حتى انبرى لها شعوبي آخر ، ناقضاً ما أبرمه ، هادماً ما بنته ، في رسالة طويلة وجه بها إلى التفقي في غير رد على أبي العاص ، مصراًً بشعوبيته ، وكأنه ما كره الكرم إلا لأنّه من خصال العرب⁽⁷⁶⁾ فالإعلاني بزعمه « شر من الحاضر ، سائل جبار ، وثابة ملّاق ، إِنْ مدح كذب ، وإنْ هجا كذب ، وإنْ أيس كذب ، وإنْ طمع كذب ، لا يقربه إلا نطف وأحقن ، ولا يعطيه إلا من يحبه ، ولا يحبه إلا من هو في طباعه »⁽⁷⁷⁾ فكره ابن التوأم للكرم مقرون بكرهه لأهله ودعاته ، وأظنه قد وقف هذا الموقف لاضطغافه على العرب وكرهه لهم وحقده عليهم .

وإذا تجاوزنا هذه الرسائل ، لاحظنا نمطاً آخر من التأليف ، وهو تدبيج الكتب في مثالب الأمم وفضائلها ، فظهرت مؤلفات عديدة في مثالب العرب وقبائلها ، وفي فضائل الأمم الأخرى ، وخاصة الفرس ، فكانت سبباً لظهور مؤلفات تنقضها ، وترد على ادعاءاتها ، كما ظهرت المؤلفات التي تتصرّل للشعوبية وتؤيدها أو ترد عليها وتسفه عقول أصحابها .

(76) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 236.

(77) مصدر نفسه . ص : 255 — 256.

الفصل الأول

الشعوبية الأدبية في الشعر .

إتجاهاتها أصحابها

الحسن ابن هانىء

- مجوئه

- هجاء العرب والسخرية منهم

المظاهر الشعوبية في الشعر :

ظهرت الشعوبية في الشعر باكراً ، فافتتحها أحد شعراء العصر الأموي - كما مر معنا - وهو اسماعيل ابن يسّار النسائي ، الذي افتخر بقومه وأمجادهم ، وعيّر العرب في جاهليتهم بعاداتهم وطريقة عيشهم⁽¹⁾

لكن الظروف السياسية والإجتماعية ، لم تكن لتسمح لهذه التزعة بالإتساع والشمول ، والتحول إلى تيار له أنصاره ومؤيدوه ، وكان على هؤلاء انتظار دولة بنى العباس ، حيث تمتع الفرس بنفوذ كبير ، شعروا بالقوة والتفوق ، فعبروا عن مشاعرهم بحرية تامة دون خشية من سلطان أو وازع من دين ، وفرق كبير بين هشام ابن عبد الملك و موقفه من اسماعيل بن يسّار ، والسفاح الذي روى على مسامعه يزيد الرقاشي خبراً مفتعلأ ، ثلب فيه قبائل العرب ، ولم يستشن حتىبني هاشم ، ومع إحساس السفاح بأن الخبر موضوع ومفتعل ، فإنه لم يغضب ، وإنما أبدى استحساناً لما سمع ، فقال «لَئِنْ كُنْتَ عَمِلتَ هَذَا الْخَبَرَ ، وَنَظَمْتَ فِيمَنْ ذَكَرْتَ هَذَا الْأَشْعَارَ ، فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِنْ سِيدُ الْكَاذِبِينَ ، وَإِنْ كَانَ الْخَبَرُ صِدْقاً ، وَكُنْتَ فِيمَا ذَكَرْتَهُ مَحْقَأً ، فَإِنَّ هَذَا الْجَارِيَةَ الْعَامِرِيَّةَ ، لَمِنْ أَحْضَرَ النَّاسَ جواباً ، وَأَبْصَرَهُمْ بِمَثَلِ النَّاسِ»⁽²⁾.

(1) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 4 ص : 120.

(2) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 3 ص : 285 وما بعدها .

الحنبي ، شذرات الذهب ، ج : 1 ص : 197 وما بعدها .

وبشار ابن برد يدخل على المهدى ، وقد عرف كثرة فخره ، واعتداده بنفسه
وقومه ، ومفاخرته العرب بمثل قوله :

« هل من رسول مخبر عنى جميع العرب »⁽³⁾

فيسأله : فيمن يعتدّ ، فيقول : « أَمَا اللسان والرَّيْ فعربيان ، وأَمَا الأصل
فعجمي ، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

يقولون من ذا وكنت العلم
ونبئت قوماً بهم جنة
ليعرفني أنا أَنف الْكَرْم
الآيُّها السائلِي جاهداً
فروعي وأصلي قريش العجم »⁽⁴⁾
نَمَتْ فِي الْكَرَامِ بْنِي عَامِرٍ

فلا يغضب المهدى ، ولكنّه يسأله عن أصله في العجم ، فيجيبه بشار بفخر
شديد « من أكثرها في الفرسان ، وأشدّها على الأقران أهل طُخَارِستان »⁽⁵⁾ وبشار
هذا الذي طال ما افتخر بمواليه أيامبني أمية ، نراه يتبرأ من الولاء في هذا
العصر ، فيقول :

مولى العرب فخذ بفضلك فافخر
« أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم
أهل الفعال ومن قريش المعشر
مولاك أكرم من تميم كلها
فاراجع إلى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الأجل الأكبر »⁽⁶⁾

فكأنّي به ، وقد شعر بأنه حصل على حرفيته المسلوبة في زمن الأمويين ،
وأنّ الولاء ميسّم ما زال يذكّره بعبوديته ، فأراد التحرر من هذا الميسّم ، والتخلّف
من هذا الولاء ، يظهر ذلك من خلال الحوار الذي دار بينه وبين رجل منبني
زيد ، إذ قال له : « يا بشار ، قد أفسدت علينا موالينا ، تدعوه إلى الإنفصال
منا ، وترغبه في الرجوع إلى أصولهم ، وترك الولاء ، وأنت غير زاكي الفرع ،
ولا معروف الأصل ، فقال بشار : والله لأصلي أكرم من الذهب ، ولفرعي أزكي

(3) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج : 3 ص : 20.

(4) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، ج : 3 ص : 20.

(5) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 21.

(6) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 21.

من عمل الأبرار ، وما في الأرض كلب يوَدَ أن نسبك له بنسبه ، ولو شئت أن
أجعل جواب كلامك كلاماً ، لفعلت⁽⁷⁾ .

ويشار لم يترك ولاه فحسب ، وإنما اعتبرى إلى أشرف الفرس ، وجعل
نسبه يضارع نسب كسرى ، فقال في أرجوزته :

«**كَلْ أَمْرِيْءٍ رَهْن بِمَا يُؤْدِي وَرَبْ ذِي تَاجِ كَرِيمِ الْجَدِّ**
كَالْ كَسْرَى وَكَالْ بُرْدٍ انْكُبْ جَافِي عَنْ سَبِيلِ الْقَصْدِ⁽⁸⁾»

وتحول إلى داعية في قومه يُرَغِّبُهم بالعودة إلى أصولهم ، والشعور
بشخصيتهم القومية وكيانهم ، كمقدمة لعمل أكبر وأخطر ، أمّا حقده على
العرب ، وشعوره بالنسبة لهم ونظام الولاء الذي استثنوه ، فظاهر بقوله : « ما في
الأرض كلب يُوَدَ أن نسبك بنسبة » ففقدَه على العرب كبير ، يغلي في صدره
ويناجح في كيانه ، يتضرر الفرصة المناسبة ليتفتَّ سواماً في وجوههم . لأنَّهم
الأمة التي حطمت عرش الأكاسرة ، وسبت ذراريهم ، وغنمَت تيجان ملوكيهم ،
وجعلت بشاراً وغيره عبيداً لهم ، ثم مُنْتَ عليهم ، فأعتقدتَهم وجعلتهم من
الموالي . وفقد بشار هذا كان الدافع لزندقتَه وتقديمه النار على الطين ، فالنار
معبودة قومه المجوس ، والإسلام دين أولئك الذين هرمونه وقومه ، ونسخوا
حضارتهم ودينهم .

ومن شعراء الشعوبية إسحاق ابن حسان الخريمي ، وأصله من خراسان من
أبناء الصعد ، لكنَّه لم يسرف في عصبيته ، وكان يتأله ويتدبر⁽⁹⁾ ويميل إلى أهل
التسوية ، وما يدعُ إليه الإسلام من مساواة بين المسلمين ، ومع هذا ، نراه ،
يفتخر بقومه ، ويفاخر العرب ، كقوله :

(7) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 51.

(8) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 38.

(9) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 6 ص : 326. أبو الفرج الأصفهاني ،
الاغانى ، ج : 5 ص : 170 و فيه رواية تدل على فسقه وفحوره وتحلله الاخلاقي .

«إني امروء من سرّة الصعد البسني عرق الأعاجم جلداً طيبَ الخبَر»⁽¹⁰⁾

لكنه سرعان ما يعزف عن الفخر ، ويرى في العقل والدين رادعاً له عن

ذلك ، فيقول :

سفاهاً ومن أخلاق جاري الجهل
فلا فخر إلا فوقه الدين والعقلُ
لقد علّى قبر علاء ولا فضلُ
ولم تشتمل جرم على ولا عكل»⁽¹¹⁾

«أبا لصعد بأس إذ تعيرني جمل
فإنْ تفخري يا جمل أو تتحملي
أرى الناس شرعاً في الحياة ولا يُرى
وما ضرني إِنْ لم تلِدْنِي يَحَابِرُ

فالفخر جهل وسفة ، وأهل المفاحر جاهلون . لأن الفخر لا يستسيغه عقل
ولا دين ، فالناس في الحياة سواء يغتذون بنفس الغذاء ويشربون الماء ،
ويتنفسون الهواء ، علة ولادتهم واحدة ، وعلة موتهم واحدة ، ولا تفاضل في
القبور . فإذا كانت هذه حقيقة الموت والحياة ، فأي ضرر في أن لا يكون عربياً ،
وأي منفعة في كونه من العرب ؟

وأنا شعوبية على ابن الخليل ، فشعوبية ساخرة تستهين بالعرب ونمط
معيشتهم ، تسخر من خشونتهم وجفائهم ، وبعدهم عن الحضارة وأسبابها ، وهي
شعوبية لا يجاهر فيها ، وإنما يتسلل لها بوسائل خاصة ، كهجائه لأحد أصدقائه
من الدهاقين ، وقد أدعى نسبياً في العرب ، فغيره بذلك مظهراً سخفه ، لأنه فور
ادعائه بالعرب تجافي عن أكل الأسماك ، وتشهّي أكل الضباب تشبهها بالأعراب ،
ولم يرغب إلا رائحة الشیع والقیصوم وزهد في أنواع الورود والرباحين :

«بِشَمِ الشَّيْحِ وَالْقِيسُورِ مَكِيْ يَسْتَوْجِبُ النِّسَابَا
وَقَدْ أَبْصَرْتَهُ دَهْرًا طَوِيلًا يَشْتَهِي الْأَدَبَا
فَصَارَ تَشْبِهًا بِالْقَوْمِ مَجْلِفًا جَانِيًّا جَشِيًّا»⁽¹²⁾

(10) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج : 2 ص : 731.

(11) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 735.

(12) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 13 ص : 18.

وهو يمضي على هذا النحو في شعوبية مبطة ظاهرها هجاء لذلك الدعي ، وباطنها سخرية من العرب ، وطريق معيشتها ، فهو لا يريد من الموالي أذاء أنساب لهم في العرب ، لأن في ذلك ابتعداً عن الحضارة وبما جها ، وارتماء في البدائية والجهل والخشونة والحقارة ، فابن الخليل لولا شعوبته ، وما يضمّر للعرب من حقد وبغض ، لكن هجا الأدعياء من دون أن يهجو العرب ، ويُسخر منهم ، كما فعل أبو العتاهية عندما هجا والبة ابن الحباب واتهمه ، أنه من أدعياء العرب :

«أوالب أنت في العرب كمثل الشيص في الرطب»⁽¹³⁾
فأبو العتاهية اتهم والبة بأنه دعي وهجاه بذلك وغيره ، لكنه لم يُسخر من العرب ولا تقصهم .

واتخذت الشعوبية الضب رمزاً لهوان العرب ، وتوجّحُهم في الصحاري كقول التميمي يقابل بين أرض العرب المجدبة والموحشة إلا من الضباب وبين بلاد الفرس الغنية بكرومها ويساتينها :

ليالي فَرَّ من أرض الضبابِ	لَكِنْرَى كَانَ أَعْقَلَ مِنْ تَمِيمِ
وأشجار وَأَنْهَارِ عَذَابِ	فَأَنْزَلَ أَهْلَهُ بِبَلَادِ رِيفِ
وَصَرَنَا نَحْنُ أَمْثَالَ الْكَلَابِ	وَصَارَ بَنُو بَنِيهِ بِهَا مَلُوكًا
فَقَدْ أَزْرَى بَنَا فِي كُلِّ بَابِ ⁽¹⁴⁾	فَلَا رَحْمَ إِلَّهٌ صَدِيْقٌ

فلو صحت هذه الأبيات لأحد العرب لأمكننا القول بأن الشعوبية نجحت إلى حد ما في إضعاف الروح المعنوية لدى العرب ، لكن كثرة الوضع والإنتقال في هذا العصر تجعلنا نشك في نسبة هذه الأبيات لأحد التميميين ، فإن فيها نفساً شعوبياً واضحاً .

(13) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 13 ص : 489.

(14) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 256 ، ج : 6 ص : 101.

وكقول أبي نواس يهجو بنى تميم :

«إذا ما تميمي أتاك مفاحراً
تفاحر أبناء الملوك سفاهة
والشعوبية إذا عدلت عن هجاء العرب ، افتخرت بالفرس وغيرهم من الشعوب
كقول أبي نخلية :

«هم وسط يرضي الإله بحكمهم إذا نزلت أحدى الليالي بمعظم»⁽¹⁶⁾
 يجعلون ذلك من قول الله تبارك وتعلى «وَكَذِلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَّةً وَسَطَا⁽¹⁷⁾
لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً»⁽¹⁷⁾.
 وإذا جَهَرَت الشعوبية بأهدافها ، تَبَيَّنَ أَنَّهَا تَدْعُوا لِدَخْرِ الْعَرَبِ وَحَضْرِهِمْ فِي
الصحراء ، كَمَا كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، كَدُعْوَةِ أَبِي عَطَاءِ السَّنَدِيِّ لِبْنِي هَاشِمٍ وَالْعَرَبِ
أجمعين :

«بنِي هَاشِمٍ عَوْدُوا إِلَى نَخْلَاتِكُمْ فَقَدْ قَام سُور التَّمْرَصَاعِيَّاً بِدِرْهَمِ
فِيَانِ قَلْتِمِ رَهْطُ النَّبِيِّ وَقَوْمِهِ فَإِنَّ النَّصَارَى رَهْطُ عَبِيسِيِّ ابْنِ مَرِيمٍ»⁽¹⁸⁾
ونمضي إلى عصر المأمون ، وقد أَكَدَ الفرس من جديد غلبتهم على
السلطان ، بِمَنَاصِرِهِمْ لِلْمَأْمُونِ وَقَتْلِهِمْ أَخَاهُ ، فازدادت النُّعْرَةُ الشعوبية حدةً
وَوضُوحاً في غياباتها وأهدافها بِإِزَالَةِ السُّلْطَانِ الْعَرَبِيِّ وَتَدْمِيرِهِ ، وَبِرَزْتَ تِلْكَ النُّعْرَةُ
في أَسْرَةِ الْفَضْلِ ابْنِ سَهْلِ ثُمَّ فِي أَسْرَةِ طَاهِرِ ابْنِ الْحُسَيْنِ قَائِدِ الْمَأْمُونِ الَّذِي
اَفْتَحَ بَغْدَادَ وَقَتَلَ الْأَمِينَ ، فَاعْتَبَرَ طَاهِرٌ أَنَّ اِنْتِصَارَهُ كَانَ اِنْتِصَاراً لِلْفَرْسِ وَثَارَاً مِنَ
الْعَرَبِ ، فَاحْتَالَ حَتَّى تَوَلَّ خَرَاسَانَ ، وَمِنْ هَنَاكَ وَاصْلَ تَبَجُّحِهِ وَادْعَاءِهِ كَفَولَهُ :

(15) مصدر نفسه . ج : 6 ص : 102.

(16) الجاحظ ، البيان والتبين ، ج : 3 ص : 497.

(17) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية رقم : 143.

(18) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج : 2 ص : 654.

«غضبتُ على الدنيا فانهيتُ ما حوتَ
قتلتُ أمير المؤمنين وإنما
وأصبحت في داري مقيناً كما ترى
وقد بقيت في أمِّ رأسي فتكةٌ
فهو كما ترى شديد الإعتداد بقتله للأمين ، وبقوته وعجز الخليفة عنه ،
يشبه نفسه بملوك الطوائف الفرس ، فهو لا يعترف بسلطان لأحد ، ولا يكتفي
بهذا القدر من الصلف والغرور ، فينذر ويهدد ويتوعد ، دون أن ينسى قتله
للأمانين ، وتنصيبه للمأمون كملك جديد :
(١٩)»

«أنهيت بالسيف أمواله

«قتلت الخليفة في داره

وقال أيضاً :

«ملك الناس قسراً واقتداراً
وقتلت الجبارية الكباراً
إلى المأمون تبتدر ابتداراً
ووجهت الخلافة نحو مرو
وسوف أدين قيس الشام ضرباً
يطير من رؤوسهم الشرار»
(٢٠)

وكما تغنى طاهر بانتصاره ، فقد تغنى ابنه عبد الله بهذا الانتصار ، وافتخر
بابائه وسابق THEM بخدمة الأسرة العباسية ، وأسرف بافتخاره بآبائه وشجاعته في
معاركه مذكراً بقتله لملك العرب وخليفتهم ، ، كقوله :

«أبي من لا كفاء له
من يسامي مجده قوله
صاحب الرأي الذي حصلت
رأيه القوم المحاصيل
حلّ منهم بالذري شرفاً دونه عز وتبجيلاً

وعن بطشه بالأمين وتحريقه ببغداد بجنوده الخراسانيين ، يقول :

«أبطن المخلوع كلكله
وحواليه المغاويل

(١٩) ابن عبد ربه ، المقد الفريد ، ج ٢ ص ٥٧.

(٢٠) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج ١٠ ص ٢٠٩. ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ،
ج ٣ ص ٣٥٤.

غال عنه ملكه غول
ضاق عنه العرض والطول
كليوث ضمها غيل
لا معاذيل ولا ميل
ونداء الدهر مبذول
وهو مرهوب ومأمول
ودم يجنيه مطلول «⁽²¹⁾

قوى والترب مضجعه
قاد جيشاً نحو قاتله
من خراسان مصممهم
وهبوا لله أنفسهم
ملك تجتاح سطوه
قطعت عنه تمائمه
وتره يسعى إليه به

وافتخر علان الشعبي بهذا الإنتصار الذي اعتبره انتصاراً للفرس جميماً ورد
اعتبار لهم بعد هزائمهم في القادسية ونهاوند ، فقال في مدح الطاهرين في
عرض رده على محمد بن يزيد الأموي :

لعزاليه الأهاليل
وله بالجود تهطيل
زانه تاج وإكيل
كرم عَدْ وتبجيل
في قرار النجم ماهول
هم لما حازوا مباديل
غrrر زهر مقاويل «⁽²²⁾

«أبو العباس غاديه
تمطر العقيان راحته
رستمي في ذرى شرف
وعليه من جلالته
إن لي فخراً مباءته
ورجالاً شربهم عنق
كسرؤيات أبوتنا

وأخذ الشعراء الشعبيون يحرضون زعماء الفرس على العمل لانتزاع
السلطان من العرب ، كقول أبي يزيد (وهو من أهل الري) لعبد الله ابن طاهر :

فأنت أولى بتاج الملك تلبسه
إشرب هنيأ عليك التاج مرتفقاً
في شاذ مهْرَ وَدْعَ غمدان لليمِنِ
من هوذة ابن علي وابن ذي يزن «⁽²³⁾

(21) التترخي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 1 ص : 341.

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 2 ص : 57 — 59.

(22) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج : 12 ص : 194 وما بعدها .

(23) المرد ، الكامل في اللغة والادب ، ج : 1 ص : 248.

ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 1 ص : 225.

وأدى ضعف الدولة المركبة بعد عهد المعتصم بالشعوبية إلى البحوث بما يخالف صدور أصحابها من أمل بسحق العرب ، وهم عزهم وإحياء الأمجاد الفارسية القديمة ، أمجاد كسرى ورُسْتَم وَبَيْزَرْ جَمَهُرْ وإنفتاديار وغيرهم من ملوك العجم ورجالاتهم ، كذلك الصيحة التي أطلقها إبراهيم ابن مشاد المتوكلي وقد آنس القدرة في يعقوب ابن الليث الصفار ، وتوسّم فيه البطل الفارسي الذي يدرك ثارات الفرس ، ويعيد أمجادهم فكتب إلى الخليفة المعتمد :

«أنا ابن الأكابر من نسل جم
وحائز إرث ملوك العجم
وعفى عليه طوال القدم
فمن نام عن حقهم لم أنم
به أرجعي أن أسود الأمم
همروا إلى الخلع قبل الندم
ح طعنًا وضربًا بسيف خدم
فما إن وفيتهم بشكر النعم
بحـد الحسام وحرـف القلم»⁽²⁴⁾

والمتوكلي كما هو واضح يفخر بأصله وأجداده العجم وملوكهم ، ويعتبر نفسه الوريث الشرعي لأمجادهم ، والجدير بإحياء تلك الأمجاد العريقة ، لهذا فهو طالب لأوتارهم ، وثاراتهم غير نائم عن هذا الطلب ، وإن نام غيره من أبناء قومه ، كما مُنِّي الهاشميون بأن آباءهم هم الذين رفعوهم إلى الحكم والسلطان ، فلم يكونوا جديرين به ، فعلهم العودة إذن إلى الصحراء والإنكفاء فيها ، رعاة غنم وإبل ، وأكلة ضباب ويرابع ، وإن فالسيف والقلم بينه وبينهم .

وكان مهيار ابن بزير الكاتب الديلمي شعريًا شديد الإعتماد والفاخر بأصله الفارسي ، أسلم على يد الشريف الرضي⁽²⁵⁾ لكن وصفة للنار وتعظيمها يُظهر ميله إلى دينه القديم ، فالعناصر المجنوسية في صفتة للنار واضحة في قصيدة التي

(24) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج : 2 ص : 16 — 19.

(25) ترجم له ابن خلكان في وظيفات الأعيان ، ج : 5 ص : 359.

مدح فيها فخر الملك ليلة السدف ، وهو عيد من أعياد الفرس يكثرون فيه من إشعال النيران وإيقاد الشموع :

« ومرهفات على حد الظلام لها
 إذا وقفن صفوفاً للدجى ثبتت
 إن أضرمتْ فهي ناج أو خبت ظهرت
 نعمى على العجم خصتهم كرامتها
 قوم يرون القرى بالنار يكسبهم
 حذبه ترهق الهندية الخدم
 أقدامهن لها ، والهام تنهزم
 أقراطها الحمر أو أصداغها الفحم
 لا بل تساهم فيها العرب والعجم
 فخراً وقوم يرون النار ربُّهم »⁽²⁶⁾
 غير أن مهيار يمزج شعوبته وفخره بقومه وملوكيهم بفخره بدینه الجديد ،
 فهو قد أحرز المجد من طرفه : سُؤدد الفرس ودين العرب :

« قومي استولوا على الدهر فتى
 عَمِّموا بالشمس هاماتهم
 وأبى كسرى على إيوانه
 سورة العلك القدامي وعلى
 قد قبست المجد من خير أبٍ
 وضمنت الفخر من أطرافه
 ومشوا فوق رؤوس الحقب
 وبنوا أبياتهم بالشمب
 أين في الناس أب مثل أبي
 شرف الإسلام لي والأدب
 وقبست الدين من خيرنبي
 سُؤدد الفرس ودين العرب »⁽²⁷⁾

وكان يحيى ابن علي المنجم شعوبياً ، يتعصب للعجم ويثلب العرب ،
 ويهجو العباسين ، ويلوذ بالطلابين ، وبلغت عصبيته للعجم حداً دفعه لهجاء
 الرسول الكريم والطعن عليه ، وكان ابن المعتز يرد عليه ويسفة أقواله ، فلما بويع
 ابن المعتز بالخلافة دخل عليه يحيى ليابعه ، فقال له : « يا كلب ، المست
 الهاجي سيدنا محمد (ص) ، والفاخر بعجمك على أهله ، والله لأطعن الطير
 لحمك... ثم قال : كلاب غذتهم نعمتنا ، وأشادت بذكرهم خدمتنا ، سعوا
 بالباطل علينا ، وجحدوا إحساناً ، وهجروا نبينا عليه السلام حتى إذا أظلمهم

(26) المجاني الحديثة ، ج : 3 ص : 201 — 200.

(27) مرجع نفسه . ج : 3 ص : 204.

العذاب ، وأسلتمهم الحرب ، تحصنتوا بالرفض ، ومدحوا أهلنا ، وأخص الناس بنا ، لتنصرهم علينا طائفة مِنَا ، وليتألفوا قلوبًا نفرت عنهم ، ولم يعلم الجاهل الكافر ، إننا وبني عمنا من آل أبي طالب ، لو افترقنا في كل شيء تجتمع الناس عليه ، ما افترقنا في أنَّ الثالب لسيدنا محمد (ص) كافر ، والفاخر عليه فاجر ، وإننا جميعاً نرى قتله ، ونستحل دمه »⁽²⁸⁾ .

فالشيعيون أصبحوا فئة مكشوفة لا تستطيع التخفي أو الإنداس لا بالشيعة ولا بغيرهم من الفرق الإسلامية .

والشعوبية لم تكن حكراً على المتعصبين للفرس ، فقد شاركتهم فيها ثفات من أمم أخرى ، فالهنود يشعرون بالعصبية للهند والأتراء يتعصبون لعنصرهم والسوريون لسورية والأنباط للنبيطة . فقد كان ديك الجن - وهو سوري من أهل مؤة - شعوبياً شديداً العصبية على العرب يقول بقول الشعوبية ويحدو حذوها : « ما للعرب علينا فضل جمعتنا وإيامهم ولادة ابراهيم (ص) وأسلمنا كما أسلموا ، ومن قتل منا رجلاً قُتل به ، ولم نجد الله عز وجل فضلهم علينا إذ جمعنا الدين »⁽²⁹⁾ .

وكان أبو الأصلع الهندي يتعصب للهند ، ويفضلها ويفخر بها وينتاجها ، ويقول :

« لقد يعتذرني صاحبي وما ذلك بالأمثل
وفي مدحتي الهند وسم الهند في المقتل
وفيه الساج والمعاج وإن التوتيا فيه
كمثل الجبل الأطويون
وفيه الدار صيني وفيه ينبت الفلفل »⁽³⁰⁾

(28) التنوي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 4 ص : 110 – 111.

(29) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 12 ص : 142.

(30) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 7 ص : 171.

وقال الشارذنجي يمدح الفيل بالطرب وبالحكاية ، وقبوله التعلم :

« ما أبغض الخضر فيلاً منذ كان ولا
وكيف يبغض شيئاً فيه معتبر
والفيل أقبل شيء لوطلقنه
ولو تترج فينا واحد فرأى
بغضي ويركع تعظيمًا لهيته
أحب عيراً وذاكم غاية الكذب
وكان في الفلك فراجأ من الكرب
 حاجات نفسك من جد ومن لعب
 زي الملوك لقد أوفى على الركب
 وليس يعدله الشوان في الطرب »⁽³¹⁾

لم يقف الشعراء المتعصبون للعرب ، موقف اللامبالاة من هجمات الشعوبية في الأدب ، وإنما هاجموها ، وهنكوا أسرارها ، وفضحوا أصحابها ، وافتخرموا بالعرب ، وعددوا مناقبها ، فرد صفوان الأنصاري على بشار عندما فضل النار على الأرض وطعن على الصحابة فقال :

وأبعد خلق الله من طرق الرشيد
علياً ، وتعزو كل ذاك إلى برد
طالب ذحل لا يبيت على حقد
وأقرب خلق الله من نسب القرد »⁽³²⁾

« فيابن حليف الشؤم واللؤم والمعنى
أنهجووا أبا بكر ، وتخلع بعده
كانك غضبان على الدين كله
تواثب أقماراً وأنت مشوه »

وكان أبو عيسى ابن الرشيد ، يهجو طاهر ابن الحسين ، ويغقر عليه وعلى

قومه :

عم النبي الذي يُسقى به المطر
ما في الأنام له عدل ولا خطر
وجعفر وعلى الخير إن ذِكْرُوا
محمدًا فيه قد شدت له المدر
قد شانه عور الأفعال والعور
لولا الإمام وأمر جره القدر »⁽³³⁾

« إني امرؤ من بني العباس قد علموا
منا نببي الهدى والله فضله
منا الشهيد بيبطن الجسر قد علموا
واذكر علياً ولا تنس الشبيه له
فكيف أجعل كلباً نابحاً أثري
من طاهر وحسين جُذُّ أصلهما »

(31)الجاحظ ، الحيوان ، ج : 7 ص : 204.

(32)البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 55—56.

(33)الصولي ، اشعار اولاد الخلفاء ، ص : 89.

ورد محمد ابن يزيد الأموي على طاهر وابنه عبد الله وفخر عليهما ، كقوله

في طاهر :

وَلَا أَغْتَبْتُ إِلَّا بِإِحْدَى الْمُتَالِفِ
إِذَا أَنْتَ مِنَّا لَمْ تَعْلُمْ بِكُلِّ نَافِ
كُشُولْ تَهَادِي الْمَوْتَ عِنْدَ التَّرَاحِفِ
يَدَاكْ فَلَا تَفْخُرْ بِقَتْلِ الْخَلَافِ⁽³⁴⁾

«عَيْتَ عَلَى الدُّنْيَا فَلَا كُنْتَ راضِيًّا
فَمَنْ أَنْتَ أَوْ مَا أَنْتَ يَا فَقْعَ قَرْقِيرِ
فَتَحْنَ بِأَيْدِينَا هَرْقَنَا دَمَانَا
سَتَلَمَ مَا تَجْنِي عَلَيْكَ وَمَا جَنَتْ
وَأَجَابَ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ طَاهَرَ بِقَوْلِهِ :

وَدُمُّ الْقَاتِلِ مَطْلُولُ
وَسَنَانِ الرَّمْحِ مَصْفُولُ
بَعْدَمَا تَسْلُو الْمَثَاكِيلُ
مَا لِحَازِيهِ سَرَاوِيلُ
مَصْعَبُ غَالِتَهُمْ غُولُ
حِينَ تَصْطُكُ الْأَقَاوِيلُ⁽³⁵⁾

«قَاتِلُ الْمُخْلُوعِ مَقْتُولُ
قَدْ يَخُونَ الرَّمْحَ عَامِلُهِ
وَيَنْسَالُ الْوَتَرَ طَالِبُهِ
يَا ابْنَ بَنْتِ النَّارِ مُوقَدُهَا
مِنْ حَسِينٍ مِنْ أَبْوَهُ وَمِنْ
إِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ أَصْدَفُهُ

ولما استبد الأتراك بحكم الدولة ، وتلاعبوا بالخلفاء ومصير الخلافة ،
تعالت صرخات الشعراء تستنكر أفعالهم ، وتدعوا العرب عموماً وبني العباس
خصوصاً للتضامن ، ونبذ الحقد والطمع حتى لا يجد الأتراك فرصة لهم في قتل
الخلفاء والتلاعب بمصير الدولة ، كقول ابن المعتر :

«يَا آلَ عَبَاسَ لَعَّا مِنْ عَشْرَةِ
لَا تَرْكَنْ إِلَى الْبَغَاءِ الْحَسِيدِ
شَدُوا أَكْفَكُمْ عَلَى مِيرَاثِكُمْ
فَاللَّهُ أَعْطَاكُمْ خَلَاقَةَ أَحْمَدِ⁽³⁶⁾

وك قوله يوبخهم ، ويصور للحالة المزرية التي وصلوا إليها :

(34) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 2 ص : 57.

(35) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 57—59.

التونجي ، الفرج بعد الشدة ، ج : 1 ص : 341—354.

(36) الصورلي ، اشعار اولاد الخلفاء ، ص : 157.

«نصحت بنى رحمي كلهم نصيحة بر بانسابها
دعوا الأسد تفرس ثم اشبعوا بما ترك الأسد في غابها»⁽³⁷⁾
فإذا عاد للخلافة بعض رونقها ، كما حصل في أيام المعتمد وأخيه ، انبرى
يمدحه ويمجد انتصاراته :

«يا راماً لَم يخطِّ لي مقتلاً
خذ من فؤادي سهمك الأولاً
فيما رخيس الوصل بماذا الغلا
أنت مشاع القلب بين الورى
عاد عزيزاً بعدهما ذللاً
الا ترى ملك بنى هاشم
يا طالباً للملك كن مثله
 تستوجب الملك وإلا فلا»⁽³⁸⁾

ويصور ضربه على يد الأتراك وخشيته منه بقوله :

«فرَقْتُ أيديهم المال كرهاً
ولقد كانوا عليها شاحاً
مزقوها ضحكاً ومزاحاً
خطاً أفواههم وقدِيمَاً
ملاوا دور الملوك نباحاً
ووعوا شكوى إليه و كانوا

وعندما تفككت الدولة إلى إمارات ، كل إمارة يحكمها أمير مملوك أو أمير
فارسي ، تالم العرب ، وتالم الشعراء ، ونشروا زفراتهم التي ضاعت سدى في
زحمة التاريخ ، كقول المتنبي وقد مر بشعب بوان :

«ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان»⁽⁴⁰⁾

أما إذا مدح بعض العرب فيشعر بعض الرآحة ويلفت نظر الممدوح بطريقة
أو بأخرى إلى ما آلت إليه حال العرب عليه يجذب بعض الدواء لتلك الحال فإذا
مدح عبد الله ابن يحيى البحترى مدحه بصفة عزيزة على قلبه إذ يكفي هذا

(37) مصدر نفسه . ص : 147.

(38) الصولي ، الشعراً اولاد الخلفاء ، ص : 130.

(39) مصدر نفسه . ص : 124.

(40) المتنبي ، الديوان ، شرح البرقوقي (دار الكاتب العربي) بيروت ط 2 - سنة 1938 ، ج : 4

ص : 348.

الممدوح أن يكون عربياً حتى يفخر به ويفتخر الممدوح بنفسه . فهو سيد من أسياد العرب ، فلماذا لا يحاول توحيدهم من جديد :

«كفى بـأنت من قحطان لي شرف وإن فخرت فكلّ من مواليكا»⁽⁴¹⁾
وإذا مدح أبا عبادة البحترى أخا عبد الله رکز على صفة المجد ، فالمجدد
عربى جنوباً وشمالاً قيساً ويماناً فلم لا يأتلف زعماء العرب ليحيوا هذا المجد
مجدداً :

«فَذَكَرْتُ أَخْسَبَ أَنَّ الْمَجْدَ فِي مُضِيرٍ حَتَّى تَبْخَسِرَ فَهُوَ الْيَوْمَ مِنْ أَدَدِ»⁽⁴²⁾
«قَوْمٌ إِذَا أَمْطَرْتُ مَوْتًا سِيَوفَهُمْ حَسِبَهَا سَجْنًا جَادَتْ عَلَى بَلْدِ»⁽⁴³⁾

حتى إذا اجتمع بسيف الدولة الحمداني ، هدأت نفسه واطمأنَّ في رحاب
هذا الأمير ، لا لأنَّه قدَّمه على سائر الشعراء ، وأغرقه بالهدايا والأعطيات
فحسب . بل لأنَّه رمز للعرب وصورة حية ناطقة لأمجادهم ، فمضى مع سيف
الدولة يُشارِكه في غزوته ويُسجّل انتصاراته لأنَّها انتصارات للعرب جميعاً .
فلنستمع إليه مادحاً لهذا الأمير في اللقاء الأول بين الرجلين ، وقد عاد سيف
الدولة من إحدى غزواته المظفرة في بلاد الروم⁽⁴⁴⁾ :

«وَأَخْسَبَ مِنْ مَاءِ الشَّبَابِيَّةِ كَلَهُ حَيَّا بارِقِ في فَازِةِ أَنَا شَائِمُهُ
عَلَيْهَا رِيَاضُ لَمْ تَحْكُمْهَا سَحَابَةُ
وَأَغْصَانُ دُوْجٍ لَمْ تُعْنِ حَمَائِمُهُ
وَفَوْقَ حَوَشِي كَلَ ثُوبٌ مُوَجَّهٌ
مِنَ الدُّرُّ سِمْطٌ لَمْ يَثْقُبْهُ نَاظِمُهُ
يَحَارِبُ ضَدَّهُ ضَدَّهُ وَيَسَالِمُهُ
تَرَى حَيَوانَ الْبَرِّ مَصْطَلْحَانِ بِهِ

(41) ناصيف البازجي ، العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب دار صادر بيروت دون تاريخ :
اصل : 174 يقول : يكفيك أنك في مقام شريف من هذه القبيلة وأنك إن أردت أن تفتخر فكل
العرب من عبيدهك .

(42) يقول : قد كنت أحسب المجد مضرياً حتى نقله الممدوح إلى بنى بخت فهو اليوم بختري أددى .

(43) ناصيف البازجي ، العرف الطيب ج : 1 ص : 180

(44) م . ن . ج : 2 ص : 5 وما بعدها .

إذا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ ماج كأنه
تَجُولُ مَذَاكِيهِ وَتَدَأى ضَرَاغُمُهُ
وَفِي صُورَةِ الرَّوْمِيِّ ذِي التَّاجِ ذَلَّةٌ
لِأَبْلَجٍ لَا تِيجَانَ إِلا عَمَائِمُهُ
وَيُكْبِرُ عَنْهَا كُمَّهُ وَبِرَاجِمُهُ «⁽⁴⁵⁾

فقد استغل المتنبي صورة على خيمة سيف الدولة ، ليغدر بالعامة العربية التي ذلت لها تيجان الأعاجم ، وكيف لا تصبح عمة سيف الدولة رمزاً للعزّة العربية وأمجادها ، وقد أمل العرب فيه الآمال الكبار ، فاللهيمم الطموح والسؤدد :

«رَفَعْتِ بِكَ الْعَرَبُ الْعِمَادَ وَصَبَرْتِ قَمَّ الْمُلُوكَ مَوَاقِدَ النَّيَانِ»⁽⁴⁶⁾
أما وقد توفى يَمَاكُ أحد فتيان سيف الدولة وقواده ، وأظهر الأمير عليه حزناً
وأسفاً كبيرين فقد حزن المتنبي عليه لأنَّ حبيب أميره ، لكنه وجده العزاء سريعاً ،
فما يَمَاكُ إِلا أَحَدُ الْغُلَمَانِ الْأَتْرَاكِ ، وفي رجال العرب وأبطالها عنه وعن غيره
غنى ، فلِمَ لا يستعيضُ الأميرُ بهم وقد استعبدُهم ببطوله ونجدته وإحسانه ،
فوضعوا فيه آمالهم وشدو إليه ركائبهم :

«وَإِنِّي وَإِنْ كَانَ الدَّفِينُ حَبِيبَةُ حَبِيبِي
لَأَبْقَى يَمَاكُ فِي حَشَائِي صَبَابَةَ
إِلَى كُلِّ تُرْكِي النَّجَارِ جَلِيلِ
وَإِنَّ الَّذِي أَمْسَتْ نِزَارَ عَبِيدَةَ غَنِيًّا عَنِ اسْتِعْبَادِهِ لِغَرِيبٍ»⁽⁴⁷⁾

وإذا ابتهج المتنبي بانتصارات العرب ممثلة بسيف الدولة ونضاله الروم ،
فقد أَنَّ من الأَلْمِ حين تقاعس رجال سيف الدولة وكلوا عن فتال الروم ، وطروا
أنفسهم بين القتلى خوفاً من الموت ، وتخلص سيف الدولة نفسه من الهول

(45)المذاكي: الخيل المسنة ، ودَائِي الصَّيدِ خَتْلَهُ ، الضَّرَاغُمُ الْأَسْوَدُ ، يقول : إذا ضربت الريح تلك الثياب
ماحت وتحركت صورها ، فكان الخيل التي عليها تجول ، والأسود تختل الطلاء لتصيدها .

(46)الأبلج : المشرق والنقي ما بين الحاجين ، وكان قد صُور في هذه الفاتحة ملك الروم ساجداً لسيف
الدولة وهو ما أراده بالذلة ووصف سيف الدولة بأنه لا تاج له لأنَّه عربي وتيجان العرب عمامتها .

(47)الراجم : أصابع اليد ، يقول : إذا لقيه الملوك قُبَّلُوا بِإِسْاطَهُ ، ولم يبلغوا أن يقبلوا كمم أو يده .

(48)المتنبي ، الديوان شرح البرقوقي ج 4 ص : 317.

(49)ناصيف البازجي : العرف الطيب ، ج 2 ص : 105 وما بعدها .

بالبطولة الرائعة التي أظهرها وقلة من رجاله ، فاخترقوا صفوف الروم ، وعادوا إلى بلادهم ، وقد أصيروا بخيئة أهلٍ مريءة . لكن المتنبي استشفَّ التاريخَ ، فالحرب سجال ، فإنْ هُزمَ سيف الدولة في معركة ، ، فقد انتصر في مئات المعارك قبلها وسينتصر في مئات المعارك بعدها وحتى الهزيمة فقد كان لها حسنة عظيمة إذ ميزت بين الغث والسمين من الرجال :

خانوا الأمير فجازهم بما صنعوا
كان قتلاكم إياهم فجعوا
من الأعادي وإن هموا بهم نزعوا
فليس يأكل إلا الميتة الضبع
وكل غاز لسيف الدولة التبع

« قُلْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجِعُونَ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَكُمْ
وَالْجَنَاحُ مُوْهُمْ نِياماً فِي دِمَائِكُمْ
ضَغْفَى تَعْفَى الْأَيَادِي عَنْ مَثَالِهِمْ
لَا تَحْسِبُوا مِنْ أَسْرَتُمْ كَانَ ذَارَمَقْ
فَكُلْ غَزِيرًا إِلَيْكُمْ بَعْدَ ذَا فَلَهْ »

وقال مخاطبًا سيف الدولة :

الذَّهَرُ مُغْتَدِرُ وَالسَّيفُ مُنْتَظَرٌ
وَأَرْضُهُمْ لَكَ مُضطَافٌ وَمُرْتَبٌ »⁽⁵⁰⁾

وإذا ظهرت عصبية المتنبي للإسلام في حديثه عن الروم ، فقد ظهرت عصبيته للعروبة في مناسبات عديدة ، فقد جرى في أحد مجالس سيف الدولة حديث عن العرب والأكراد وأيهم أفضل وأنجد ، فقال وقد سأله سيف الدولة رأيه :

فَخَيْرُهُمْ أَنْتُرُهُمْ فَضَائِلاً
الْطَّاعِنِينَ فِي الْوَغْنِيِّ أَوَّلَهُ⁽⁵¹⁾
قَذْ فَضَلُوا بِفَضْلِكَ الْقَبَائِلَهُ⁽⁵²⁾

« أَنْ كُنْتَ عَنْ خَيْرِ الْأَنَامِ سَائِلاً
مَنْ كُنْتَ فِيهِمْ بِاْهْمَامِ وَأَيْلَهُ
وَالْعَادِلِينَ فِي النَّدَى الْعَوَادِلَهُ »

فكمما هو بين من الصنف فالمنتبي لا يفضل العرب على الأكراد فحسب ، وإنما يفضلهم على جميع الأمم والأجناس خاصة في الشجاعة والكرم .

(50) م .. ن .. ج : 2 ص : 93 وما بعدها .

(51) وائل : أبوقبيلة الممدوح وقد منه من الصرف لانه جعله اسمًا لقبيلة .

(52) ناصيف البازجي ، العرف الطبج : 2 ص : 149 .

أما إذا شجر الخلاف بين العرب أنفسهم ، فإننا نجد المتنبي يهدىء من هذا الخلاف ويضرر الجميع بمعية ما يقدمون عليه داعياً الجميع للوحدة والائتلاف ، فمنهم من هزم ومتصرهم غير متصر ، لأن الهزيمة أو الإنصار من نصيبيهم جميعاً خاصةً وأن سيف الدولة مدرك لهذه الحال ، شاعر بها إذ امتنع عن استرقاق ما وقع بيده من أسرى كِلَاب :

نَدَى كَفِيلُكَ وَالنَّسْبُ الْقَرَابُ⁽⁵³⁾
وَأَنْهُمُ الْعَشَائِرُ وَالصَّحَابُ⁽⁵⁴⁾
وَقَذْ شَرِقْتُ بِظُفْنِهِمُ الشَّعَابُ⁽⁵⁵⁾
عَلَيْهِنَ الْقَلَادِ وَالْمَلَابُ⁽⁵⁶⁾
وَأَيْنَ مِنَ الَّذِي تُولِي التَّوَابُ⁽⁵⁷⁾
وَلَا فِي صُونِهِنَ لَدَيْكَ عَابُ⁽⁵⁸⁾
إِذَا أَبْصَرْنَ غُرْتَكَ اغْتِرَابُ⁽⁵⁹⁾
تُصِيبُهُمْ فَيُؤْلِمُكَ الْمُصَابُ⁽⁶⁰⁾

فَقَاتِلُ عَنْ حَرِيمِهِمْ وَفَرَوا
وَجِفْنُوكَ فِيهِمْ سَلَفِيْ مَعْدِ
تُكْفِكْفُ عَنْهُمْ صُمَّ الْعَوَالِي
فَعَذَنَ كَمَا أَخْذَنَ مُكَرَّمَاتِ
يُشِنَّكَ بِالَّذِي أُولِيَّ شُكْرًا
وَلِيَسْ مَصِيرُهُنَ إِلَيْكَ شَيْنَا
وَلَا فِي فَقِدِهِنَ بَنِي كِلَابِ
وَكَيْفَ يَتَمَّ بَاسُكَ فِي أَنَاسِ

(53)الحرير ما يحميه الرجل ويقاتل عنه وهو هنا كنابة عن النساء . قوله وفرروا حال اي وقد فرروا فخذف قد ، والندي : الجود ، القراب : بمعنى القريب . اي فرروا أمامك وتركوا حريرهم في يدك فاحست إليه بجود كفيك . وصنته عن السبي لما بينك وبين القبيلة من قرب النسب فكان جودك والنسب الذي بينك وبينهم قائمين مقام المقاتل عن حريرهم الكافل بحفظه وصيانته .

(54)اي حفظك للقرابة التي بينك وبينهم من جانب ربيعة ومضر ، والبيت تفسير وتقرير للنسب المذكور في البيت السابق .

(55)تكفف : تكفف مرة بعد أخرى . والصم : الصلاب . والعوالى صدور الرماح . وشرفت اي غصت . والظعن : النساء في الهوادج ، الواحدة ظعينة مثل سفينة وسفن . والشعب جمع شعب بالكسر وهو الطريق في الجبل .

(56)الملاب : ضرب من الطيب .

(57)أثناء : كفاه . وأوليت : انعمت .

(58)الشين : العيب .

(59)غرتك : وجهك .

(60)يقول : لا يتم بأسك فيهم لأنك متى أصيبيهم بمكره نالتهم المصايبهم فكففت عنهم .

شَرَفُّهُ أَيْهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الرَّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابٌ»⁽⁶¹⁾

وكيف يصنع سيف الدولة غير ذلك وعزه عزهم ، وهم رجاله وأبطاله وعدته عند الشدائـد إذا دعاهم للوغـى لبـوا النـداء ، وكم ضربـوا تحت لـوانـه وبين يـديـه الأعدـاء ضربـات ممـيتـة⁽⁶²⁾

إذا تـذـعـوا لـحـادـثـة أـجـابـوا⁽⁶³⁾
بـأـوـلـ مـغـشـرـ خـطـئـيـنـ هـمـ وـلـيـسـوا⁽⁶⁴⁾
فـمـنـهـ جـلـودـ قـيسـ وـالـشـيـابـ⁽⁶⁵⁾
وـذـلـ لـهـمـ مـنـ العـرـبـ الصـعـابـ⁽⁶⁶⁾

وـلـهـمـ عـيـدـكـ حـيـثـ كـاـنـوا
وـعـيـنـ الـمـخـطـئـيـنـ هـمـ وـلـيـسـوا
وـلـأـنـ يـكـ سـيفـ دـولـةـ غـيـرـ قـيسـ
وـتـحـتـ لـوـانـهـ ضـرـبـواـ الأـعـادـي

وـبـنـوـ كـلـابـ وـإـنـ هـزـمـواـ أـمـامـ سـيفـ دـولـةـ ،ـ فـلـبـطـولـتـهـ أـوـلـاـ ،ـ وـلـأـنـهـمـ لـاـ يـبغـونـ
أـكـلـ لـحـومـهـمـ بـأـيـدـيـهـمـ ،ـ فـهـمـ الـأـبـطـالـ الـمـحـرـبـوـنـ فـيـ الـمـعـارـكـ ،ـ يـحـامـوـنـ عـنـ حـرـيمـهـمـ
وـيـذـبـوـنـ عـنـ شـرـفـهـمـ⁽⁶⁷⁾ :

ثـنـاهـ عـنـ شـمـوـسـهـمـ ضـبـابـ⁽⁶⁸⁾
يـلاـقـيـ عـنـدـهـ الذـئـبـ الـغـرـابـ⁽⁶⁹⁾

وـلـوـ غـيـرـ الـأـمـيرـ غـرـاـ كـلـابـاـ
وـلـأـقـىـ دـوـنـ ثـاـبـهـ طـعـانـاـ

(61) يقول ترفـقـ بهـمـ وـإـنـ جـنـواـ فـإـنـ الـجـانـيـ اـذـ عـوـمـلـ بـالـرـفـقـ لـاـنـ وـرـجـعـ عـنـ جـانـيـتـهـ ،ـ فـكـانـ الرـفـقـ بـهـ بـمـنزـلـةـ
الـعـتـابـ ،ـ أـنـظـرـ الـرـفـقـ الـطـيـبـ فـيـ شـرـحـ دـيـوـانـ أـبـيـ الـطـيـبـ صـفـحةـ 197ـ وـمـاـ بـعـدـهـ مـنـ الـجـزـءـ الثـانـيـ .ـ

(62) اليـازـجيـ الـرـفـقـ الـطـيـبـ جـ 2ـ صـ 199ـ وـمـاـ بـعـدـهـ .ـ

(63) يـرـيدـ :ـ أـنـهـمـ عـيـدـكـ فـيـ أيـ مـكـانـ نـزـلـواـ وـهـمـ لـاـ يـتـرـكـونـكـ لـلـشـدائـدـ وـإـنـماـ يـهـمـونـ لـنـصـرـتـكـ إـذـ دـعـتـ
الـحـاجـةـ .ـ

(64) يـقـالـ :ـ أـخـطـاـ إذاـ اـرـادـ الصـوابـ فـصـارـ إـلـىـ غـيـرـهـ وـخـطـئـهـ .ـ إـذـاـ تـعـمـدـ الـخـطاـ ،ـ وـالـشـاعـرـ يـعـتـذرـ عـنـ بـنـيـ كـلـابـ
فـهـمـ مـخـطـؤـنـ بـمـعـصـيـتـهـمـ لـكـ وـعـادـةـ النـاسـ أـنـ تـذـنـبـ وـتـوـبـ وـمـنـ أـذـنـبـ ثـابـ فـقـدـ غـفـرـ ذـنبـهـ .ـ

(65) أـيـ لـمـ يـكـنـ مـنـ عـشـرـتـهـمـ فـهـمـ أـبـيـاءـ جـلـدـتـهـ وـنـعـمـ .ـ

(66) أـيـ بـأـنـسـابـهـمـ إـلـىـ خـدـمـتـهـ تـمـكـنـوـنـ اـعـدـاـتـهـمـ وـانـقادـهـمـ لـهـمـ مـنـ الـعـرـبـ مـاـ لـاـ يـنـقادـ لـأـحـدـ .ـ

(67) اليـازـجيـ ،ـ الـرـفـقـ الـطـيـبـ جـ 2ـ صـ 200ـ

(68) يـرـيدـ أـنـهـمـ قـوـمـ أـعـزـةـ لـوـغـاـهـمـ غـيـرـ سـيفـ دـولـةـ لـمـ ظـفـرـ بـهـمـ .ـ وـكـنـىـ عـنـ النـسـاءـ بـالـشـمـوسـ وـعـنـ غـبـارـ
الـحـربـ بـالـضـبابـ

(69) الثانيـ :ـ جـمـعـ ثـاـبـ ،ـ وـهـيـ مـأـوىـ الـإـبـلـ وـالـغـنـمـ حـولـ الـبـيـتـ .ـ أـيـ كـانـ يـلاـقـيـ قـبـلـ وـصـولـهـ إـلـيـهاـ حـرـبـاـ يـكـثـرـ
ـفـيـهاـ القـتـلـ .ـ وـيـجـمـعـ عـلـيـهـمـ الذـئـبـ وـالـغـرـابـ طـلـباـ لـلـقـوتـ .ـ

وَخَيْلًا تَغْتَذِي رِيحَ الْمَوَامِيٍّ وَيُكْفِيهَا مِنَ الْمَاءِ السَّرَابُ»⁽⁷⁰⁾

فالمنتبي يرى في هذه المعارك الجانبية مؤامرة هدفها العرب ، ليشرذموا أكثر ، وتأكل الأحقاد قلوبهم كما تأكل النار الهشيم ، فيضعف باسمهم ، وينبو حدهم :

«بِرَأْيِ مَنِ افْقَادَتْ عُقَيْلًا إِلَى الرَّدَى وَإِشْمَاتِ مَخْلُوقٍ وَاسْعَاطِ خَالِقٍ»⁽⁷¹⁾

ليس هذا فحسب ، وإنما الهدف إلهاء سيف الدولة عن قتال الروم ومقارعتهم ، فلو استراح الأمير من هذه المعارك الجانبية ، لاستطاع التفرّغ لقتال الروم والذبّ عن الشغور⁽⁷²⁾ :

«فَمَا حَرَمُوا بِالرَّكْضِ خَيْلَكَ رَاحَةً وَلَكِنْ كَفَاهَا الْبُرُّ قَطْعُ الشَّوَاهِقِ»⁽⁷³⁾
«وَلَا شَغَلُوا صُمَّ الْقَنَا بِقُلُوبِهِمْ عَنِ الرَّكْزِ لَكِنْ عَنْ قُلُوبِ الدَّمَاسِقِ»⁽⁷⁴⁾

والقبائل إذا شغبت على سيف الدولة ، فلا خذه الشديد لها ، وهي التي لم تتعود الذلّ والخنوع فهي تدنو منه عطفاً ومحبةً لما تتوصّم فيه من آمال ، وتتفرّغ من أسلوبه في التعامل معهم⁽⁷⁵⁾ .

«وَفِيكَ إِذَا جَنَى الْجَانِي أَسَاءَ نُطْنُ كَرَامَةً وَهِيَ احْتِصارٌ»⁽⁷⁶⁾

(70) المَوَامِي : جمع موامة وهي الفلاة والسراب الذي تراه نصف النهار كأنه ماء .

(71) البِيازِجي العَرْفُ الطَّيْبُ ج : 2 ص : 217

(72) م . ن . ج : 2 ص : 221

(73) كفته الشيء : أبغته عن كلفته . الشواهق الجبال الشاهقة : يقول : لم يحرموا خيلك شيئاً من الراحة بما كلفوها من الركض في لحاقهم بل الأمر على الخلاف لأنك لو لم تقصدهم بها لقصدت الروم ، فكان قطع السهول خلف هؤلاء أيسر من قطع الجبال في بلاد الروم .

(74) الصم : الصلب . والقنا الرماح ، وركز الرمح : غزوه في الأرض والدماسق : جمع دُمْسُق : اسم لقائد الروم

(75) البِيازِجي ، العَرْفُ الطَّيْبُ ج : 2 ص : 224-223

(76) الآلة الرفق والحلم . أي إذا جنى الجاني رفقت به ولم تسرع في عقوبته ، فيظن ذلك لكرامة له عليك وإنما هو احترار له عن المكافأة .

وَأَخْذُ لِلْحَوَاضِرِ وَالْبَوَادِي
 تَشْمِمُهُ شَمِيمُ الْوَحْشِ إِنْسَانٌ
 وَمَا انْفَادَتْ لِغَيْرِكَ فِي زَمَانٍ
 بِضَبْطِ لَمْ تَعُودَهُ نِزَارٌ⁽⁷⁷⁾
 وَتَنْكِرَهُ فَيُعْرُوْهَا نِضَارٌ⁽⁷⁸⁾
 فَقَدْرِي مَا الْمَفَادَةُ وَالصَّفَارُ⁽⁷⁹⁾

فهو كما نرى يفخر بالعرب الذين لم يعرفوا الخنوع والخضوع والذلة ويدعو سيف الدولة ليحسن معاملتهم ، فإنه إن لم يُقْ عليهم ، فَمَنْ يَتَعَهَّدُهُمْ
 ويصونهم ؟ فهم قومه وأهله وعشيرته وحقهم عليه في الرعاية والإنصاف⁽⁸⁰⁾

«ولو لم يُقْ لم تَعْشِ الْبَقَائِيَا
 إِذَا لَمْ يُرْعِ سَيَّدُهُمْ عَلَيْهِمْ
 تُفَرَّقُهُمْ وَإِيَاهُ النُّجَارُ⁽⁸¹⁾
 لَهُمْ حُقُّ بِشَرِّكَ فِي نِزَارٍ⁽⁸²⁾
 وَأَذْنَى الشَّرِكَ فِي أَجْلِ جَوَارٍ⁽⁸³⁾
 وَفِي الْمَاضِي لِمَنْ بَقِيَ اعْتِبَارٌ⁽⁸⁴⁾
 فَمَنْ يُرْعِي عَلَيْهِمْ أَوْ يَغْنِيَهُمْ⁽⁸⁵⁾
 وَيَجْمَعُهُمْ وَإِيَاهُ النُّجَارُ⁽⁸⁶⁾
 وَأَذْنَى الشَّرِكَ فِي نِزَارٍ⁽⁸⁷⁾

وبالرغم من العداوة القائمة والخلاف المستعر بين سيف الدولة والقبائل الأخرى ، فال المصير واحد ، لأنهم أمة واحدة ، فأبناءهم سيكونون جنوداً للعرب⁽⁸⁸⁾ :

«لَعَلَّ بَنِيهِمْ لَبْنِكَ جُندٌ فَأَوْلُ قُرَحِ الْخَيْلِ الْمَهَارُ»⁽⁸⁹⁾

وبعبارة موجزة فإن المتنبي عاش هاجس العروبة ودعا لرأب صدعها ولم

(77) الحواضر : جمع حاضرة ، البوادي : جمع بادية . نزار : أبو العرب . أي أنت تأخذ أهل الحضر والبدو بضبط في السياسة لم تعوده العرب .

(78) تشممه : تشممه وهو الشم في مهله . شميم مصدر شم .
 (79) الصغار : الذل .

(80) البازجي ، العرف الطيب ج : 2 ص : 229

(81) أبقى عليه : تركه فلم يقتله .

(82) أرعى عليه : أبقي عليه .

(83) السجايا : الطياع والأخلاق ، التجار : الأصل .

(84) الشرك : مصدر شركه وزرار : جد العرب .

(85) البازجي ، العرف الطيب ج : 2 ص : 233

(86) الفرج : جمع قارح وهو الذي استكمل سنه ، والمهار : جمع مهر وهو ولد الفرس .

شعنها لنقوى على مجابهة خصومها . لكن دعوته لم تلق أذناً صاغيةً ، ولم تستطع
وقف حالة التردي والفوبي القائمة⁽⁸⁷⁾ .

وكما عاب العجم طعام الأعراب ، فقد عاب شعراء الأعراب طعام العجم
وفضلوا عليها أطعمتهم ، كقول أبي الهندي :

« أكلت الضباب فما عفتها
ولأنى لأشهى قدِيم الغنم
فاما البهظ وحيث انكم
فما زلت فيها كثیر السقم
وقد نلت منها كما نلت
فلم أر فيها كضب هرم
ومكن الضباب طعام العرب
ولا تشتهيه نفوس العجم »⁽⁸⁸⁾

وقال غيره يصف الضب ، ويفضله على نتاج الأعاجم :

« شديد اصفار الكشيتين كأنما
تطلى بورس بـُطْنَه وـَشَوَّاكله
فذلك أشهى عندنا من نتاجكم
لـَحـى الله شارـيـه وـَقـبـحـ آـيـلـه »⁽⁸⁹⁾

وعلى العموم ، فإن الروح الفارسية قد نمت في هذا العصر على حساب
العرب ومعنيياتهم . فبعد أن كان الشاعر يمدح أمراء الدولة غير العرب ، فيصفهم
بالجود وينعمون بالكرم والشجاعة ، وإذا عدد أباءهم ، لم يوغل أحد من كانوا
لهم سابقة في خدمة الدولة ، أصبح الشعراء العرب يمدحون أمراء الفرس بذكر
بيوتاتهم الأعجمية وينسبونهم إلى كسرى والمرازبة ، ك مدح البحترى لمحمد ابن
عبد الله ابن طاهر :

« محمد يا ابن عبد الله لولا
نداك لغاض معروف الكرام
لكم بيت الأعاجم حيث يئنى
ومفتخر المرازبة العظام »⁽⁹⁰⁾

وشتان بين ما قاله ابن جبلة العكوك لأبي دلف فكان سيباً لغضب المأمون

(87) سيكون لنا عود لدراسة المتنبي وميله للعرب دراسة وافية في الكتاب الثاني من الشعوبية والأدب .

(88) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 3 ص : 210-211.

(89) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 212.

(90) البغدادي ، تاريخ بغداد : 5 ص : 419.

وتفكه به ، وقول البحترى في محمد ابن عبد الله :

« تداركني الإحسان منك ومسني على حاجة ذاك الجدى والتطول
ودافعت عنى حين لا الفتح يُستغنى لدفع الذي أخشع ولا المتكل »⁽⁹¹⁾

الحسن ابن هانىء :

إنَّ خَيْرَ مَن يَمْثُلُ النَّزَعَةِ الشَّعُوبِيَّةِ فِي الشِّعْرِ هُوَ الْحَسَنُ بْنُ هَانِئٍ ، أَبُو نُوَاسٍ ، لَأَنَّهُ يَعْطِينَا مِنْ جِهَةِ صُورَةِ حَيَّةٍ عَنِ الْحَيَاةِ الْعَبَاسِيَّةِ بِكُلِّ تَعْقِيدَاتِهَا ، وَبِكُلِّ مَا زَخَرَتْ بِهِ مِنْ أَوَانِ ثَقَافَةٍ ، وَلَأَنَّهُ مِنْ جِهَةِ أُخْرَى آمِنٌ بِالشَّعُوبِيَّةِ كَمْبَدًا وَكَمِنْطَلِقًا لِنَهْجَهِ فِي الْحَيَاةِ .

ولقد أُسْهِمَ فِي تَكْوِينِ شَخْصِيَّتِهِ عِوَادِلُ عَدَةُ أَهْمَهَا : نَشَأَتْ فِي بَيْتِ مَاجِنَةِ مُسْتَهْرَةٍ بِعِيْدَأَ عَنِ رِعَايَةِ الْأَبِ الَّذِي أَفْقَدَهُ مِنْذُ طَفُولَتِهِ ، وَبِعِيْدَأَ عَنْ حَنَانِ الْأَمِّ الَّتِي أَنْسَاقَتْ وَرَاءَ لَذَّيْهَا وَرَعَبَاتِهَا الْمَاجِنَةَ ، فَحَوَّلَتْ مِنْزَلَهَا إِلَى حَانَةٍ يَرْتَادُهَا طَلَابُ الْلَّذَّةِ وَهُوَةِ الْمَجُونِ ، فَنَشَأَ الْحَسَنُ فِي هَذَا الْجَوِّ بِعِيْدَأَ عَنِ الطَّهَارَةِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَسَرَعَانٌ مَا تَزَوَّجَتْ وَالَّذِي أَحَدَ رُوَادَ مِنْزَلَهَا وَأَسْلَمَتْ إِبْنَهَا إِلَى أَحَدِ الْعَطَارِيْنِ لِيَعْمَلَ فِي دَكَانِهِ ، فَسَرَى فِي نَفْسِ الْفَتِيْنِ شَعُورُ بِالْغَرْبَةِ ، وَشَاءَتْ لَهُ الْحَيَاةُ بِلَقَاءَ وَالْبَةِ ابْنِ الْحَبَابِ الْأَسْدِيِّ الشَّاعِرِ الْمَاجِنِ ، الَّذِي أَعْجَبَ بِجَمَالِ الْفَتِيْنِ وَصَبَاهُ ، وَتَوَسَّمَ فِيهِ النِّبَاهَةِ وَالذِكَاءِ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ صَحِبَتِهِ قَائِلًا : « إِنِّي أَرَى فِيْكَ مُخَايِلَ ، أَرَى لَكَ أَنْ لَا تَنْضِيَعُهَا ، وَسَقَوْلُ الشِّعْرِ ، فَاصْحَبِنِي أَخْرُجْكَ »⁽⁹²⁾ .

لَاقَتْ هَذِهِ الدُّعْوَى هُوَ فِي نَفْسِ الْفَتِيْنِ النَّاשِيْءِ الَّذِيْ كَانَ مَعْجَبًا بِوَالِيْبَةِ يَرْوَى لَهُ شَيْئًا مِنْ شِعْرِهِ ، وَيَزْمِعُ الرَّحْلَةَ إِلَيْهِ وَالْأَخْذَ عَنْهُ ، فَرَافِقَهُ ، وَتَخْرُجَ عَلَيْهِ

(91) مصدر نفسه . ج : 5 ص : 421

(92) ابن خلkan ، ونیات الأعیان ، ج : 2 ص : 95

في قول الشعر ، ومن بحريه اغترف⁽⁹³⁾ ولكن أبي نواس لم يأخذ عن والبه شعره فحسب ، وإنما أخذ مسلكه في الحياة أيضاً .

وتألم أبو نواس كثيراً بنسبه المدخول وغير الواضح في مجتمع يمجّد النسب ، ويرى فيه فضيلة تحدد مكانة الفرد الإجتماعية ، أصف إلى ذلك سلوك والدته المريب ، وما يولده في نفسه من شعور بالضعف والعار .

يُفع أبو نواس ، وختلف إلى حلقات القراء والمحدثين والفقهاء ، وتعرف على أوامر الدين وزاهيه وحدوده ، وشهد مناظرات المعتزلة وغيرهم من علماء الكلام وأصحاب المذاهب والملل ، فتولد في نفسه شك بالدين وجدواه ، عزّه رغبته بتحطيم العادات والقيم الإجتماعية التي تحرّرها وتظلمه وتفرض عليه قيودها .

وأخيراً كان فشله في إقامة علاقة حب متكافئة مع جنان جارية المتفقين⁽⁹⁴⁾ .

هذه العوامل أسهمت في تكوين شخصية أبي نواس ، ودفعته إلى الثورة على المجتمع بكل قيمه ومثله ، لكنه أحس بضعفه وعدم قدرته فالتجأ إلى الخمرة يفني فيها حياته ، ويُفجّر من خلالها ثورته على الدين ، وعلى الأخلاق ، على العرب ، وعاداتهم وتقاليدهم وأنسابهم .

فشعريّة أبي نواس تختلف في مسلكها عن شعريّة غيره من الشعراء ، فهي لم تكن شعريّة صدامية عنصرية كشعريّة بشار أو مهيار أو غيره من الشعراء ، وإنما هي شعريّة نفسية ت يريد هدم كل القوانين التي تكبله أو تحدّ من طموحه ، هي شعريّة الثورة على القديم لأنّه قديم فحسب وإنما لأنّه عربي أيضاً .

فكيف ظهرت الشعريّة في أدب أبي نواس ؟

لقد ظهرت الشعريّة في أدب أبي نواس بصورها المختلفة ، فتحللّ أخلاقياً ، ودعا للتخلّل الخلقي ، وسخر من الدين ، وهوّن من شأن العرب

(93) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 16 ص : 148, 150, 151.

(94) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 18 ص : 2 وما بعدها .

وهجاهم ، فدخل مدخلاً ما دخله غيره من الشعوبين ، إذ تعصب للقسيمة فهجا القحطانية وثلبها ، ثم تعصب لليمن وانتسب اليهم ، وهجا القبائل العربية وسلبها مفاخرها . ودعا للتتجديد في الأدب وفي نمط الحياة ، فسخر من تقاليد العرب الأدبية والإجتماعية ، وفاخر بالحضارة الفارسية ، وجعل لها صورة جميلة ، ودعا الناس لاتمامها والتتمثل بها ، وهو في شعوبته ومجونه وفسقه واعٍ لما يصنع فاصل إله . لم يدفعه طيش ولا قادته صدفة .

مجنون أبي نواس :

أثقلَ وَعْيُ الحسن بمركيبات نقص كثيرة آلمته وأهنته وعجز عقله عن إيجاد حلول لها ، فهرب إلى الغيبة يتسم فيها حريته ، ويجد فيها راحته من قيود كلته ، ونُفِّضَت حياته . إذ وجد في الخمرة واحدةً جميلةً في صحراء حياته المثقلة بالهموم . فالمجتمع يقدس النسب ولا نسب له ، والمجتمع يقدس الفضيلة ، وأية فضيلة لرجل نما في حانة تديرها والدته ؟

وعندما طلب الحب ، جبه ، وصُدَّ صَدَا عنيفاً ، فتشكك بقيم المجتمع ، بل حقد عليها ، وتنى لو استطاع تحطيمها ، لقيم مكانها قيمًا جديدة ، قيم أساسها جهد الإنسان وعمله وعلمه وما يقدمه للمجتمع والحياة ، فارتدى إلى الخمرة يبعها ويعطيها حياته وفنه ، وتهالك على اللذة بكلِّ الوانها ، يطلُّبها ويحرُّضُ الناس على طلبها ، متأثراً بذلك شرعة مزدك التي تحتَّ على طلب اللذات ، والإإنعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والإختلاط ، وترك الإستبداد بعضهم على بعض⁽⁹⁵⁾ ، فالمزدكية تلائم شأنه ، وتلائم سيرته في الحياة ، وتتألف مع ظروفه .

أنا لا أزعم أنَّ أبي نواس اعتنق المزدكية اعتناق دين وعقيدة ، لكنَّه متاثر فيها ، سائر بسلوكها على كل حال ، فهو يطلب اللذة ، لا يسُوفُ نفسه برعود لن

(95) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 479

تحقق ، يطلب اللذة فلا يأتي ما يلام عليه ، كما أنه لا يلوم أحداً من صحبه ورفقاء لذته وخرمته فهو رؤوف بهم رحيم عليهم ، يقول :

« يفضلني على الفتى ان أني
أبَيْتُ فِلَّا أَلَامُ ، وَلَا أَلِيمُ
فَلَسْتُ أَسْوَفُ الْلَّذَاتِ نَفْسِي
مِيَاؤَمَةً كَمَا دُفِعَ الغَرِيمُ
وَلَا بِمَدَافِعٍ بِالْكَأسِ حَتَّى
يَهِيجَنِي عَلَى الطَّرِبِ النَّدِيمُ »⁽⁹⁶⁾

يطلب أبو نواس اللذة مجسدة بالخرمة في كل وقت في الصباح والظهيرة والمساء كما يطلبتها في الليل ، فنراه متقللاً من حانة إلى أخرى ومن دير إلى بستان يدعى الناس إليها في زهو وشوق ولذة ، وكان لذته لن تكتمل إلا إذا شاركه العالم كله في قصنه وشربه ومجونه :

« دَعْ لِبَاكِيهَا الْذِيَارَا
وَأَشْرَبَنَهَا مِنْ كُمْبِيتٍ⁽⁹⁷⁾
مِنْ يَدِي ساقٍ ظَرِيفٍ
وَمُغَنَّ كَلْمَا شَدَّ
وَأَنْفٌ بِالْخَمْرِ الْخَمَارَا
تَدْعُ اللَّيْلَ نَهَارَا
كُسِّيَ السُّخْسَنَ شَعَارَا
تَتَغَنَّى وَأَشَارَا »⁽⁹⁸⁾

وقد يمزج دعوته إلى الراح والمجون بتهوين للدين ، وتشكيك فيه ، وإغراء بالتمتع بالشباب والأيام قبل أن تذهب إلى غير رجعة :

« جَرِيتُ مَعَ الصَّبَا طَلِقَ الْجُمُوحِ
وَجَذَتُ الْأَذْعَارِيَّةُ الْلَّيَالِي
تَمَتَّعْ مِنْ شَبَابٍ لَيْسَ يَبْقَى
وَهَانَ عَلَيَّ مَأْثُورُ الْقَبِيحِ »⁽⁹⁹⁾
قرآن التَّغْمِيْمِ بِالْوَتَرِ الْفَصِيحِ⁽¹⁰⁰⁾
وصل بِعْرَى الْغَبْوَقِ عَرَى الصَّبِوحِ⁽¹⁰¹⁾
وعضَّ مَرَاشِفِ الظَّبَى الْمَلِيحِ

(96) أبو نواس ، الديوان ، ص : 55.

(97) الكمبيت : الخمر فيها سواد وحرمة

(98) أبو نواس ، الديوان ، ص : 65.

(99) طلق : كتف ، ذودحة ، الجموج من جمع الفرس جموجاً إذا غلب فارسه .. / ..

(100) عارية الليلي : ما تعيره مما يتداوله الناس ، القرآن : الاقتران

(101) الغبوق : شرب الخمر ليلاً .

لأنَّ عالَمَ أَنْ سُوفَ تَنَائِي مسافَةً بَيْنَ جُشَّانِي وَرُوْجِي «⁽¹⁰²⁾

لقد هانت عنده كُلُّ القيم ، لا يزجره قبيح لقبحه ، ولا يُرَدُّ عن فضل إلْحَانِه ، غايَتِه كُلُّ ما يمْتَعُ بِهِ ويلذُ ، وَلَمْ لَا ؟ وأيَّامُ الشَّابِ ذاهِبَةٌ لَا تعودُ ، وهو بعد يدعُو للإِلْتَهَامِ به في إِقبَالِه على مسراَتِه ولذاته ، لأنَّه عالَمَ أَنَّ لَا حِيَاةَ بَعْدَ هَذِهِ الْحِيَاةِ ، فَهُوَ مَا فَتَىءَ يصرُخُ بِاللَّهِ ، وَيَدْعُو إِلَيْهَا مجَاهِرًا بِالْمُعْصِيَةِ ، حَاتَّاً عَلَيْهَا كَفُولَهُ :

«بَادِرْ صَبُوحَكَ ، وَانْعَمْ أَيْهَا الرَّجُلُ
وَأَخْلَعْ عَذَارَكَ ، أَصْحِحْكَ كُلُّ ذِي طَرَبٍ
نَالَ السُّرُورَ وَخَفَضَ الْعِيشَ فِي دَعَةٍ⁽¹⁰³⁾»
وَاصْحَابَهُ فِي لَذَّتِهِ ، وَنَدَمَاؤُهُ فِي خَمْرَتِهِ ، مَحْبُونُ مَتْحَضِرُونَ ، لَا
يَعْرِيدُونَ ، وَلَا يَظْهَرُونَ نَفْجَأً ، يَتَوَاصِي كُلُّ مِنْهُمْ بِصَاحِبِهِ ، بِيرَهُ ، وَيَعْتَنِي بِهِ أَشَدَّ
عَنْيَاهُ :

«سَقِيًّا لِمَجْلِسِ فَتَيَانِ أَسَادِهِمْ
مَا فِي أَدِيمِهِمْ وَهُنَّ لَا خَلَلٌ⁽¹⁰⁷⁾
هَذَا لَذَاكَ ، كَمَا هَذَا وَذَاكَ لَذَا⁽¹⁰⁸⁾
فَالشَّمْلُ مُتَنْظَمٌ وَالْجَبَلُ مُتَنَصِّلٌ⁽¹⁰⁹⁾
وَهُوَ لَا يَرْضِي الإِعْتِدَالَ فِي طَلْبِ اللَّذَّةِ وَالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، فَيُوَصِّي بِشَرْكِهِ
النَّسَّاكَ وَالْإِقْبَالِ عَلَى الْمُوَبِقاتِ وَالْإِيْغَالِ فِيهَا إِيْغَالًاً :

«لَا تَصْحَبِنَ أَخَا نَسِيكَ وَإِنْ نَسَكَا⁽¹⁰⁹⁾

(102) أبو نواس الديوان . ص : 71.

(103) بادر : أسرع .

(104) العذار : مَا سَأَلَ عَلَى خَطِّ الْفَرِسِ ، وَهُوَ يَكْنِي بِخَلْعِ الْعَذَارِ عَنِ الْانْدِفاعِ فِي اللَّذَّةِ .

(105) خفض العيش : لِبَسَهُ وَدُعْتَهُ وَنَعْمَتَهُ ؛ وَالْبَيْتُ مُنْظَرٌ فِيهِ إِلَى قَوْلِ بَشَارٍ : مِنْ رَاقِبِ النَّاسِ لَمْ يَظْفَرْ بِحاجَتِهِ وَفَازَ بِالْعَلَيَّاتِ الْفَاتِكِ الْلَّهِيَّ وَسَلَمَ الْخَاسِرُ : مِنْ رَاقِبِ النَّاسِ مَا تَغْمَدَ وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورُ

(106) أبو نواس ، الديوان ، ص : 84.

(107) الأدِيمُ : الْجَلَدُ ، الْوَهِيُّ : الشَّقُّ ، الْخَلْلُ : مُنْفَرِجٌ مَا بَيْنَ الشَّتَّى .

(108) أبو نواس الديوان . ص : 84.

(109) مصدر نفسه . ص : 89.

وينتفت إلى عذاله ، إلى من يلومه في شرب الخمر والتهالك عليهما ، فيجيئه جواباً مفهماً ، يتركه بعده لا يدرى ما يقول :

«أيها العاتب في الخم
رمتى صرط سفيها
كنت عندي بسوى هـ
ذا من النصح شبيها
لو أطعننا ذا عتاب
لأطعنا الله فيها
إأنني عند ملام الـ ناس فيها أشتَهِيـها»⁽¹¹⁰⁾

وأي مقال يقال لمن يصرح بمعصية الله عاماً غير محشم ولا مرتدع ، يجهز بالعصيان ويكتابر بالبهتان ، يلتب بالكأس وإن حمل أوزارها ، بل وإن أوردته الجحيم :

«الرَّاحُ شَيْءٌ عَجِيبٌ أَنْتَ شَارِبُهَا
فَاشَرَبْ وَإِنْ حَمَلْتَكَ الرَّاحُ أَوْزَارًا»⁽¹¹¹⁾
«صَرْفٌ فِي الْجَنَانِ وَدَعْنِي أَسْكُنَ النَّارًا»⁽¹¹²⁾
يا من يلوم على حمرة صافية
وتارة أخرى يدعو إلى الفسق والفحور ، معتمداً على عفو الله وغفرانه :

«غَادِ الْمُدَامَ ، وَإِنْ كَانَتْ مَحْرُمَةً فَلِلْكَبَائِرِ عِنْدَ اللَّهِ عُفْرَانُ»⁽¹¹²⁾

وهو في هذه القصيدة يصور مجونه وفجوره بجرأة وصراحة مؤذية ، ينبو عنها الذوق الحضري المذهب :

«يَا لَيْلَةَ طَلَعَتْ بِالسَّعْدِ أَنْجَمَهَا
فَبَاتْ يَفْتَكْ بِالسَّكْرَانِ سَكْرَان
بِتَنَادِيْنِ لِإِبْلِيسِ بِطَاعَتْهُ
حَتَّى نَعَى الْلَّيْلَ بِالنَّاقُوسِ رُهْبَانُ»⁽¹¹³⁾
وقد يستيقظ أبو نواس فجراً مع صياغ الديكة أو أذان الفجر ، لكنه لا لصلة يقيق ، ولا لعبادة ينشط ، فهو ضده للقصف والعربدة ، ودعوه للفحور والمعصية ،

(110) مصدر نفسه . ص : 95.

(111) أوزاراً : آثاماً .

(112) أبو نواس الديوان . ص : 111.

(112) أبو نواس ، الديوان ، ص : 126.

(113) مصدر نفسه . ص : 127.

يستيقظ الشيطان على لسانه يهتف :

«يا أَحْمَدُ الْمُرْتَجِي فِي كُلِّ نَاثِبٍ قُمْ سَيْدِي نَعْصِ جَبَارُ السَّمَاوَاتِ»⁽¹¹⁴⁾

ولعل قصيده التي تصور حواره مع فقيه عالم يستفتيه بأمور الدين ونواهيه ، خير دليل على تماجنه وظرفه وسخريته من الدين ورجاله وشعائره ، فهو يسأل هذا الفقيه عن النبيذ والخمر والصلوة والزكاة والصوم والحج والجهاد والفقير في كل هذه المسائل يجيب جواب الفقيه العالم لا بأمور الدين ولكن بالفسق والمجون ، والحوار بين الإثنين يجري على هذا النمط :

« قلت : المتناسك إِنْ حَجَجْتُ فَقَالَ لِي : هَذَا الْفُضُولُ وَضَايَةُ الْإِدْبَارِ
لَا تَأْتِينَ بِلَادَ مَكَةَ مُحْرِماً وَلَوْ أَنْ مَكَةَ عِنْدَ بَابِ الدَّارِ
قَلْتُ الطُّغَاءُ ؟ فَقَالَ لِي : لَا تَغْرِمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَرُبُوا مِنَ الْأَنْبَارِ
سَالِمُهُمْ وَاقْتَصُّ مِنْ أُولَادِهِمْ إِنْ كُنْتَ ذَا حَنْقٍ عَلَى الْكُفَّارِ»⁽¹¹⁵⁾

ثم يختتم هذا الفقيه فتواه بنصيحة طريفة وهي أن القمار زينة الخصال . وهو إن وصل إلى الشك في البعث والقيمة ، كقوله :

« يَا نَاظِرَا الدِّينِ مَا الْأَمْرُ لَا قَدْرَ صَحَّ وَلَا جَبْرُ
مَا صَحَّ عَنِّي مِنْ جَمِيعِ الذِّي يُذْكَرُ إِلَّا الْمَوْتُ وَالْقَبْرُ»⁽¹¹⁶⁾

فقد صرخ باعتناق مذهب الدهري وإنكار الشور من القبور ، فقال :

« بَاحَ لِسَانِي بِمُضْمِرِ السَّرِّ وَذَاكَ أَنِّي أَقُولُ بِالْدَهْرِ
وَلِيُسَ بَعْدُ الْمَمَاتِ مُرْتَجِعٌ وَإِنَّمَا الْمَوْتُ بِيَضْنَةِ الْعَقْرِ»⁽¹¹⁷⁾

والحقيقة أنَّ مَنْ يبحث عن كفر أبي نواس وزندقته بجده مثالاً في شعره ومن يبحث عن إيمانه وتوبته يجدهما أيضاً ، فماذا نرجح صدقه في التوبة أم

(114) مصدر نفسه . ص : 174.

(115) مصدر نفسه . ص : 200-201.

(116) مصدر نفسه ، ص : 218.

(117) مصدر نفسه . ص : 218.

صدقه في الزندقة ؟ ورب قائل إنَّ أبا نواس لم يكن زنديقاً أصلًا يتجلّى ذلك حتى في خمرياته ، فهو مؤمن بالتوحيد ، مؤمن بالإسلام ، وما يظهر على لسانه إنما هو تماجن وظرف ، وليس كفراً يبدو ذلك من خلال حديثه عن العفو والمغفرة قوله مخاطبًا النظام :

« لا تحظر العفو إنْ كنتَ أمراً حرجاً⁽¹¹⁸⁾ فإنَّ حظركه بالدين إزراء⁽¹¹⁹⁾ »

أما شعوره بالندم والذنب فبادِ بقوله :

« فتَنَا يَرَانَا اللَّهُ شَرُّ عَصَابَةٍ نُجَرَّرُ أَذِيالَ الْفَسُوقِ وَلَا فَخْرٌ⁽¹²⁰⁾ »
وقوله وقد ذُكرَ تحريم الخمر وما أعدَ اللَّهُ لشاربها من عقاب في الدنيا
والآخرة :

« بَكَيْتُ وَمَا أَبْكَى عَلَى دَمَنِ قَفْرٍ
وَلَكُنْ حَدِيثُ جَاءَنَا عَنْ نَبِيِّنَا
بِتَحْرِيمِ شَرْبِ الْخَمْرِ وَالنَّهْيُّ جَاءَنَا
فَاشْرَبَهَا صَرْفًا وَأَعْلَمَ أَنَّنِي⁽¹²¹⁾
فَالشَّعُورُ بِالخطيئةِ وَالذنبِ وَالحرجِ دَافِعُهُ إِلَى الْكَأْسِ لِيُسْلُو عَنْ أَذَانِ الْمُؤْذِنِ
إِذْ إِنَّ الْأَذَانَ يَمْثُلُ الْحَقِيقَةَ وَالْكَأْسَ تَمْثِيلُ الْغَيْوَةِ الَّتِي عَشَقَهَا ، وَوُجُودُ فِيهَا
فَرْدُوسَهُ ، لَكُنَ الْوَاقِعُ مَا زَالَ يَؤْثِرُ فِيهِ وَيَنْازِعُهُ ، وَلَوْلَا أَثْرُ الْأَذَانِ فِي نَفْسِهِ وَخَلْجَاتِ
ضَمِيرِهِ مَا أَرَادَ تِلْكَ الْكَأْسَ :⁽¹²²⁾

« عَاطِنِي كَأْسَ سَلْوَةٍ عَنْ آذَانِ الْمُؤْذِنِ⁽¹²³⁾ »

(118) لا تحظر العفو : لا تمنعه . حرجاً : ضيقاً ، حظركه : حظرك إيه . . . /

(119) أبو نواس الديوان . ص : 7.

(120) مصدر نفسه . ص : 28.

(121) أعزز فيها : أضرب والمانين : حد شارب الخمر .

(122) أبو نواس الديوان . ص : 36.

(123) أبو نواس ، الديوان ، ص : 33.

وأما زهذه ، فصادر عن نفس أثقلتها الأثام والمعاصي ، فالتجات إلى عفو الله وغفرانه ، تنشد في رحابه الرحمة والمغفرة والهدوء والطمأنينة :

«تعاظمني ذنبي ، فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منه وتكرما
ولولاك لم يغوى ببابليس عابداً وكيف وقد أغوى صفيك آدما»⁽¹²⁴⁾

بل انظر الى هذا الصوت المنبعث من ضمير أبي نواس ، يدعوه لحسن الظن بربه والتوبة وعدم القنوط من رحمة الله :

«يا نواسِي توقرْ وتعزَّى وتصبَّرْ
إن يكن ساءك دهرْ إن ما سركَ أكثرْ
با كبيِّر الذنبِ عَفْ
أعظم الأشياء في اصغر عفو الله يصغُرْ
ليس للإنسان إلا ما قضى الله وقدرْ
ليس للمخلوق تد بيرَ بل الله المُذَبِّر»⁽¹²⁵⁾

غير أنا لنا أن نتساءل هل صوت الأذان جعله يشعر بالخطيئة فعلًا ؟ أنا لا أظن ذلك إذ فما باله وقد شعر بالخطيئة يمعن فيها فيقول :

«اسقني الخمر جهراً والطيني وأذني»⁽¹²⁶⁾

وهو في ذلك يتحدى الدين ، ويتعمد الشراب والإقدام على الموبقات في الوقت الذي يتنادى فيه المؤمنون للعبادة ، فهو يتبعد كما يتبعد المؤمنون ، ولكن في هيكل خمرته ومجونه ، أما توبته فمارأيك فيها بعد أن تسمعه يقول :

«غُرِّرت بِتَوْيِتي وَلَجَحْتِ فِيهَا فَشُقِّي الْيَوْمَ ثُوبِكِ لَا أَتُوبُ»⁽¹²⁷⁾

(24) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 7 ص : 447.

(125) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 447-446.

(126) أبو نواس ، الديوان ، ص : 33.

(127) أبو نواس ، الديوان ، ص : 12.

وكيف يتوب وقد جعل الخمرة ربه ، فسبحها وحمدها ، وجعل لها الأسماء

الحسني :

«أَنْ عَلَى الْخَمْرِ بِالْأَئْهَا (128) وَسَمَّهَا أَحْسَنَ أَسْمَائِهَا (129)

ثم هو متلاطم مع الحرام متباعد عن الحلال :

«يَلَامِنِي الْحَرَامُ إِذَا اجْتَمَعْنَا (130) وَأَجْفُوُنِي مَلَائِمَةُ الْحَلَالِ»

هذا إذا كان حلال وحرام برأيه ، إذ إنه لا يؤمن بوجود الحلال والحرام ، فالدين بكتبه ، بنواهيه ، بشعائره ، حديث خرافى لا يسيغه منطق ، فكيف يترك ملاذة كرمى لعين الدين ؟ :

«إِنَّ غَيْرِي مَنْ قَلَّا هَمَّا لِرَجَاءِ أَوْ مَخَافِهِ (131)
هَاتِهَا جَهْرًا وَدُعْنِي مِنْ أَحَادِيثِ خَرَافَهُ»

وأي زندقة أخطر من زندقته وأبعد أثراً في اجتذاب الفتيان والشباب إلى طريق الفساد والإنحراف الخلقي ، وهو يقرر نظريته في العفو التي تصح أن تكون مبحثاً كلامياً يبرر فيه الخطيئة ، ويحض عليها :

«لِمَ، وَعَفْوُ اللَّهِ مِبْذُو لِغَدَأْ عَنِ الْصِّرَاطِ
خُلِقَ الْغُفْرَانُ إِلَّا لَامْرِئٍ فِي النَّاسِ خَاطِي» (132)

فابونواس لم يُظهر زندقة علمية يجاهر أو يجادل فيها ، لم يدافع عن مانويه أو مزدكية أو مجوسية ، ولو أعلن رأيه بصراحتة المعهودة لهان الأمر وانكشف ولما استطاع استدرج أحد إليها . إنما هو يظهرها بمظهر الظرف ، والتماجن كجوائه لأنبي العتاهية وقد لامه وعدله :

(128) أَنْ : أمرٌ من الثناء . الآلاء : النَّبِيُّم .

(129) أبو نواس الديوان . ص : 13 .

(130) مصدر نفسه . ص : 63 .

(131) مصدر نفسه . ص : 96 .

(132) مصدر نفسه . ص : 181 .

«أَثْرَانِي يَا عَتَاهِي تارِكًا تَلَكَ الْمَلاهِي
أَثْرَانِي مَفْسِدًا بِالنُّسُكِ عِنْدَ الْقَوْمِ جَاهِي⁽¹³³⁾

فما يظهره من المجنون هو برأيه ظرف يحبه عند الخاصة ، ويفتح الطريق
 أمامه لمعيشة هانة ، وعندما يلحِّفُ عليه اللاثمون باللَّوم يقول :

«لن ترجعَ النَّفْسُ عَنْ غَيْرِهَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا لَهَا زَاجِر»⁽¹³⁴⁾

وما أبعد نفسه عن العودة عن الفضلال والغواية ، لقد منعه الأمين من شرب
العقار وهدده وتوعده ، لما استغل المأمومون وأنصاره سيرة أبي نواس في الطعن
على الأمين ، فأحسَّ أبو نواس ، وكأنَّه حُرِّمَ العيشَ ولذائثَه ، لأنَّه أمسك عن
الخمر قهراً ، فاكتفى بمنادمة الشاربين ، يتسمَّ رائحتها ، ويتمتع بمنظرها ويتحرقُ
لشربها والفناء فيها :

«كُبَرُ حَظَىٰ مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارِتْ
فَكَائِنٌ وَمَا أَزَّنُ مِنْهَا قَعْدِيٌّ يُرَزِّئُ التَّحْكِيمَا
كَلَّ عَنْ حَمْلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرَبِ فَأُوصِيَ الْمَطِيقَ الْأَيْقِيمَا»⁽¹³⁵⁾

ثم يشربها على الرغم من تهديد الأمين ووعيده ، لأنَّها حياته ، وهل يطبق
الإنسان انقطاعاً عن الحياة؟ يشربها ، ويلتذرُ بالمجاهرة في أنَّه يشربها ، لأنَّ الله
عالِم بشربه وبما يأتيه من فعال ، فلم يكتُمْ إذن . والجهرُ عنده مسألة لها
أهميةها ، لأنَّها تمثلُ الثورة والتحدي ، ورفض القمع بـكُلِّ أشكاله الدينية
والأخلاقية والاجتماعية .

«لَا تَسْقِنِي إِنْ كُنْتَ بِي عَالِمًا
إِلَّا الَّتِي أَصْمَرْتُ فِي صَدْرِي
وَأَكْنَ بِمَا شِئْتَ عَنِ الْخَمْرِ
مَا كُنْتَ مِنْ رَبِّكَ فِي سُرِّ»⁽¹³⁶⁾

(133) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 7 ص : 446

(134) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 446

(135) أبو نواس ، الديوان ، ص : 29

(136) مصدر نفسه . ص : 82 ، طه حسين ، حديث الأربعاء ، ج : 2 ص : 98

فالجَهْرُ يُولَدُ لَذَّةً فِي نَفْسِهِ ، لَذَةُ التَّبْحَدِي لِقَواعِدِ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمُجَمِّعِ

بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ قِيمٍ وَمِثْلٍ :

وَلَا تَسْقِنِي سِرًا إِذَا أَمْكَنَ الْجَهْرُ
فَإِنْ طَالَ هَذَا عِنْدَهُ قَصْرُ الدَّهْرُ
وَلَا الْغُنْمُ إِلَّا أَنْ يَتَعْنِي السُّكْرُ
فَلَا خَيْرٌ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِرًا
وَلَا خَيْرٌ فِي فَتْكٍ بِغَيْرِ مَجَانِيٍّ
(137)

فَلَذَّتِهِ إِذْنَ تَقْوِيمِهِ أَسْسٌ أَرْبَعَةٌ تَكَامِلُ فِيمَا بَيْنَهَا : فَتْكٌ وَمَجُونٌ وَكَفْرٌ
وَجَهْرٌ . نَعَمْ سِيقْلَعُ أَبُو نَوَاسَ عَنْ مَجُونِهِ وَعَرْبَدَتِهِ وَكَفْرِهِ وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تَفْنِي لَذَّاتِ
الْدِنِيَا :

نَعَمْ إِذَا فَبَيَّنْتُ لَذَّاتِ بَغْدَادِ(138)
كَيْفَ التَّخْلُصُ لِي مِنْ طِيرَنَا بَادِ(140)
إِمَّا بَعْدَ أَنْ حَجَّ طَمِيعًا فِي لَقَاءِ جِنَانِ جَارِيَةِ الثَّقَفَيْنِ ، وَأَشَيَّعَ عَنْهُ أَنَّهُ
تَنَسَّكَ ، فَقَدْ نَفَى ذَلِكَ ، وَتَبَرَّمَ بِتِلْكَ الإِشَاعَةِ ، فَقَالَ
(139)

أَرْجُوا إِلَهَهُ وَأَخْشَى طَيْرَنَا بَادِا
رَأْسَ الْقَطَارِ وَإِنْ أَسْرَعْتَ إِغْذَاذَا(141)
قُطْرُبُلْ فَقُرْيَ بَنَى فَكِلَوَاذَا
مِنَ السَّلَامَةِ لَمْ أَسْلَمْ بِبَغْدَادَا(142)

« قَالُوا تَنَسَّكَ بَعْدَ الْحَجَّ قُلْتُ لَهُمْ
أَخْشَى قُضَيْبَ كَرْمٍ أَنْ يُنَسِّازَ عَنِي
مَا أَبْعَدَ النُّسَكَ عَنْ قَلْبِ تَقْسِمَهِ
فَإِنَّ سَلِمْتُ وَمَا قَلْبِي عَلَى ثِقَةٍ »

(137) أَبُو نَوَاسَ ، الْدِيْوَانَ ، صَ : 28 ، طَهُ حَسِينٌ ، حَدِيثُ الْأَرْبَعَاءِ ، جَ : 2 صَ : 98

(138) بَغْدَادٌ : بَغْدَادٌ

(139) قَصْفُ بَغْدَادٍ : لَهُوَا . طِيرَنَابَادٌ : مَوْضِعُ بَنِي الْقَادِسِيَّةِ وَالْكَوْفَةِ مُشْهُورٌ بِكَرْمِهَا وَحَانَتِهَا .

(140) أَبُو نَوَاسَ ، الْدِيْوَانَ ، صَ : 167.

(141) إِغْذَاذَا : إِسْرَاعًا .

(142) أَبُو نَوَاسَ الْدِيْوَانَ . صَ : 26. طَهُ حَسِينٌ ، حَدِيثُ الْأَرْبَعَاءِ : جَ 2 صَ : 98. 99.

أما المقطوعات المنسوبة إليه في الزهد ، فهي إن صحت ، تكون رغبة من الشاعر في إبراز شاعريته الفنية في أغراض الشعر المختلفة ، زد على ذلك أن السلطة في أيامه تبحث عن الزنادقة وتحتدم ، وقتل من ثبت الزنادقة عليه ، وهي تهمة كانت تلتصق بالناس بالحق حيناً وبالباطل أحياناً ، وإذا أُشيعَ عن أبي العتاهية أنه زنديق لا لسبب إلا لكثرَ ذكره الموت دون البعث والنشور⁽¹⁴³⁾ فكيف ينجو منها أبو نواس وهو الداعي إلى كلّ ما حرم الله . ونهت عنه الأخلاق والقيم الإسلامية ، إن لم يضمّن بعض القصائد أياتاً تظهر حسن ظنه بربه واتكاله على عفوه ومغفرته كحكايته مع الرشيد وقد دخل عليه ، فبادره قائلًا : « أنت القائل :

عَنِتَّتْ فِي الدِّينِ حَتَّىٰ هِيَ فِي رِقَّةِ دِينِي
أحَسِبْكَ زَنْدِيَّاً ! قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ قُلْتُ مَا يَشَهِدُ لِي بِخَلْفِ
ذَلِكَ ، قَالَ : وَمَا هُوَ ? قَالَ : قُلْتَ :

وَأَيْ حَدَّ بَلَغَ الْمَازِحُ
وَنَاصِحٌ لِوَقْيَلَ السَّاصِحُ
وَرُؤْخٌ لِمَا أَنْتَ لَهُ رَائِحُ
سِيقَتْ إِلَيْهِ الْمَتْجَرُ الرَّابِحُ
إِلَّا امْرُؤٌ مِيزَانُهُ رَاجِحٌ
مَهْوَرُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ
أَيْةٌ نَارٌ قَدَحَ الْقَادِحُ
لِلَّهِ دَرَ الشَّيْبُ مِنْ وَاعِظٍ
فَاغْدُ فِيمَا فِي الْحَقِّ أَغْلُوطَةُ
مِنْ يَتَقِّيَ اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي
لَا يَجْتَلِي الْحَوْرَاءُ مِنْ خَدِرِهَا
فَاسْمُ بَعِينِيكَ إِلَى نَسْوَةٍ

فقال الفضل : يا سيدِي ، إنه ليؤمن بالبعث ويحمله المجنون على ذكر ما لا

يعتقد⁽¹⁴⁴⁾

وتتكرر القصة في عهد الأمين الذي ينادمه ويشركه في مجونه وقصصه وقتكم ، ثم يتهمه بالزنادقة ، ويواجهه بالتهمة ، فيقول أبو نواس : وكيف وأنا القائل :

(143) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج 3 ص : 142.

(144) البيهقي ، المحسن والمساوي ، ص : 234.

«أَصْلَى صَلَاةُ الْخَمْسِ فِي حِينٍ وَقْتَهَا
وَأَحْسَنَ غَسْلًا إِنْ رَكِبَتْ جَنَابَةً
وَإِنَّى إِنْ حَانَتْ مِنَ الْكَلْسِ دُعْوَةً
وَأَشْرَبَهَا صَرْفًا عَلَى لَحْمِ مَاعِزٍ
وَأَجْعَلْتُ تَخْلِيْطَ الرَّوَافِضِ كَلْمَهُ
وَأَشَدَّ بَالْتَّوْحِيدِ لِلَّهِ خَاصِّيًّا
وَإِنْ جَاءَنِي الْمُسْكِنُ لِمَ أَكُّ مَانِعًا
إِلَى بَيْعَةِ السَّاقِي أَجْبَتْ مَسَارِعًا
وَجَدِي كَثِيرُ الشَّحْمِ أَصْبَحَ رَاضِعًا
لِفَقْحَةٍ⁽¹⁴⁵⁾ بَخْتِيشُونَ فِي النَّارِ طَابِعًا⁽¹⁴⁶⁾»

فَإِنْ احْتَاجَ مَحْتَاجٌ بِمَا صَدَرَ عَنْ أَبِي نُوَاسَ فِي الْحَجَّ ، كُتِّلَكَ التَّلِيَّةُ الرَّائِعَةُ
الَّتِي تَدَلُّ عَلَى صَدْقَ الإِيمَانِ ، وَصَفَّاءُ النَّفْسِ ، فَازْعَمَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ نَتْيَّةً لِإِيمَانِ
طَارِئٍ ظَلَلَ قَلْبَ الشَّاعِرِ ، وَقَدْ أَخْذَتْهُ هَبَّةُ الْمَوْقَفِ وَالْحَجَّيجِ يَلْبَوْنَ اللَّهَ بِمَوْقِفٍ
وَاحِدٍ وَزَيْ وَاحِدٍ ، لَا فَضْلٌ فِيهِ لِشَرِيفٍ عَلَى مُشْرَفٍ إِلَّا بِالْتَّقْوَى وَخَلُوصِ النِّيَّةِ
لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَذَهَلَ فِيهِ أَبُو نُوَاسَ عَنْ وَاقِعَهُ الشَّخْصِيِّ كَذَهُولَهُ فِي غَيْوَةِ النَّثْوَةِ
وَالسَّكْرِ ، فَجَرِيَ عَلَى لِسَانِهِ هَذَا الشِّعْرُ الصَّافِيِّ .

وَأَخِيرًا لَا يَسْعَنَا إِلَّا أَنْ نَتَابِعَ طَهَ حَسَنَ فِي حَكْمِهِ بِأَنَّ أَبَا نُوَاسَ قَدْ تَجاَوَزَ
حَدُودَ الْإِسْلَامِ ، وَازْدَرَى أَصْوَلَهُ وَقَوَاعِدَهُ غَيْرَ مَرَةٍ فِي حِيَاتِهِ الطَّوْبِيَّةِ⁽¹⁴⁷⁾ ، وَهُوَ فِي
تَجَاوِزِهِ وَازْدَرِائِهِ ، لَمْ يَكُنْ مَقْلَدًا ، وَلَا طَائِشًا ، وَإِنَّمَا مَتَعْمَدًا وَمَتَحْدِيًّا . وَإِذَا صَحَّ
الْتَّعْبِيرُ ، فَهُوَ ثَانِرٌ عَلَى مُجَتمِعِهِ يُؤْدِيُ لِوَاسْتِطَاعَةِ هَدْمِهِ وَتَسْخِيْحِ كُلِّ الْقِيمِ فِيهِ . لِذَلِكَ فَهُوَ
مَا بَرَحَ يَدْعُو لِتَرْكِ الْجَدِّ وَالرِّصَانَةِ وَالْوَقَارِ ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى اللَّذَّةِ وَالْإِنْغَمَاسِ فِيهَا
كَوْلَهُ :

ءَ لِهَيْجَاءُ فَرَسَانًا أَمَامَ الشَّيْخِ إِعْلَانًا عَلَتْ تُلْهِبُ نِيرَانًا وَبَلَّ الْقَوْسَ سُوسَانًا	«إِذَا عَبَّا أَبُو الْهَيْجَاءُ وَسَارَتْ رَايَةُ الْمَوْتِ وَشَبَّتْ حَرْبُهَا وَاشْتَأَتْ جَعَلَنَا الْقَوْسَ إِيْدِيَّنَا
---	--

(145) الفقحة : حلقة الْذَّبَرُ لِانْفَتَاحِهَا عَنِ الدِّرَجَةِ . بَخْتِيشُونَ : أحد أَطْبَاءِ الْخَلْفَاءِ .

(146) البَنْدَادِيُّ ، تَارِيخُ بَغْدَادٍ ، ج : 7 ص : 440.

(147) طَهُ حَسَنٌ ، حَدِيثُ الْأَرْبَاعَاءِ ، ج : 2 ص : 138.

وقَدْمَنَا مَكَانُ النَّبْ
فَهَذِي الْحَرْبُ لَا حَرْبٌ
بَهَا نَقْتَلُهُمْ ثُمَّ
لِلْمَطْرَدِ رَيْحَانًا⁽¹⁴⁸⁾
تَغْمَ النَّاسُ عَدُوَانَا
بَهَا نَشَرُ قَتْلَانًا⁽¹⁴⁹⁾»

والناظر في هذه الأبيات يخال أبو نواس قد أثر السلام على الحرب ، وإنما هو يؤثّر اللهو على الجد ، أكان هذا الجد حرباً أو غير حرب : فقال :

« دُعْ عَنْكَ مَا جَدَّوْ بِهِ ، وَتَبَطَّلَ إِذَا مَرَّتْ بِرَيْبَ قَصْفِ فَانَّزَلَ⁽¹⁵⁰⁾
لَا تَرَكَبَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ حَسِيبَهَا⁽¹⁵¹⁾ وَاعْمَدَ إِذَا فَارَقْتَهَا لِلأَنْبَلِ »

بل انظر الى تحريض العرب على شرب الخمرة والإقبال عليها :

« لَا تُمْكِنَنِي مِنَ الْعِرَبِيَّدِ يُشَرِّبُنِي⁽¹⁵²⁾ وَلَا اللَّثِيمُ الَّذِي أَنْ شَمَنِي قَطَبا⁽¹⁵³⁾
وَلَا الْمَجُوسُ ، فَإِنَّ النَّازِرَبِهِمُ⁽¹⁵⁴⁾ وَلَا الْيَهُودُ وَلَا مَنْ يَعْبُدُ الصَّلَبَا
وَلَا السَّفَلَ⁽¹⁵⁵⁾ الَّذِي لَا يَسْتَفِيقُ وَلَا غَرَ الشَّابَ⁽¹⁵⁶⁾ وَلَا مَنْ يَجْهَلُ الْأَدَبَا
وَلَا الْأَرَادَلِ⁽¹⁵⁷⁾ ، إِلَّا مَنْ يُوَقِّرْنِي⁽¹⁵⁸⁾ مِنَ السُّقَاهَ وَلَكِنْ أَسْقَنِي الْعَرَبَا»

هجاء العرب والسخرية منهم :

يَثَّ أبو نواس خلال مجنونه ومعاقرته للخمرة المولاناً من شتم العرب والسخرية بهم وبعاداتهم وتقاليدهم ، وبأصناف مأكلهم ، ومشاربهم ، وقلّ بحياتهم وما أنتجه هذه الحياة من قيم وآداب . واتخذ السخرية من تقاليد العرب الأدبية لا سيما في الشعر وسيلة للسخرية من العرب وشتمهم ، كما توسلها في دعوته لترك حياة الجد والإقبال على حياة اللهو واللهة والمجون فقال :

(148) المطرد : الرمح القصير .

(149) أبو نواس ، الديوان ، ص : 198 .

(150) بطّل : أمر من التبطّل وهو تداول الباطل أو الركون إلى البطلة .

(151) أبو نواس ، الديوان ، ص : 199 .

(152) العريبيد : الذي يؤذى نديمه إذا سكر ، قطب : عبس .

(153) أبو نواس الديوان . ص : 92-91 .

« قُلْ لِمَنْ يَكِي عَلَى رِسْمِ دَرْسٍ وَاقْفَا مَا ضَرَّ لَوْ كَانَ جَلْسٌ
أَتْرَكَ الرِّبَعَ وَسَلَمَ جَانِبًا وَاصْطَبِحْ كَرْخَيَّةً مَثْلَ الْقَبْسِ »⁽¹⁵⁴⁾

والبكاء على الأطلال اتخذ مدلولاً رمزياً في شعره ، فالطلول عنده ، يمثل العرب بأنسابهم وحياتهم ، كما يمثل دينهم وقيمهم في الحياة . إذ لم يعد مجرد تقليد أدبي لا يروق أبا نواس ولا يتلاءم مع ذوقه ومفهومه للأدب ، فحسب ، إنما يمثل نمط الحياة العربية التي كرهها وحقد عليها ، ودعا لنبذها وتركها والإقبال على الحضارة بما فيها من لذات ومتاع ورفاهية . دعا لنبذ العادات والتقاليد العربية والتخليق بأخلاق الفرس وعاداتهم الإجتماعية . وإذا كانت الحياة تغيرت ، وتطورت ، وأصبحت الحياة في بغداد والكوفة والبصرة وغيرها من الحواضر هي غير الحياة في مكة والمدينة والطائف وصحاري بلاد العرب وفياتها ، فلماذا لا تتطور تقاليدهم ولغتهم الأدبية ؟ فماي يعني في أن يики الشاعر في بغداد طللاً لم يره ، أو يصف بيداء لم تطالها قدماء . وما له يدخل عن وصف القصور والبساتين والأنهار والمظاهر المختلفة لحياة يعيشها ، ويتسم هواءها ، ويتبع سنة التقليد الأعمى ، فيجتر صوراً باهتةً من ذاكرته عن الصحراء وأطلالها وحيوانها تاركاً الطبيعة ، وما فيها من جمال يهتف من حوله :

« صَفَّةُ الْطَّلْوَلِ بِلَاغَةُ الْفَدْمِ
فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لَابْنَةِ الْكَرْمِ
فَعَلَامَ تَذَهَّلُ عَنْ مُشَعَّشَعَةِ
وَتَهِيمُ فِي طَلْلَلِ وَفِي رَسْمِ
أَفْذُو الْعِيَانِ كَانَتِ فِي الْعِلْمِ
تَصْفُ الْطَّلْوَلَ عَلَى السَّمَاعِ بِهَا
وَإِذَا وَصَفْتَ الشَّيْءَ مُتَّبِعًا
لَمْ تَخْلُ مِنْ زَلْلِ وَمِنْ وَقْمِ »⁽¹⁵⁵⁾

فالشعر عنده تجربةً وشعورً صادقً ، ينبعُ من أعماقه ، وهو هائم بالحضارة لا يحرّكه طلل ولا يشجّيه ، ولا تربطه به عاطفة ، نشأ نشأة حضريّة ، فلم يكابد الصحاري والسفر في مفارقاتها ، ولا عاش في ربوعها ، فتركها مبرّرً عنده وعند

(154) أبو نواس الديوان ص : 134

(155) أبو نواس ، الديوان ، ص : 58-57

غيره من الشعراء ، فكيف يترك القصور وبساتين النخيل وكرم العنب والرياحين ، ليصف مفارة لم يقطعها وخيمة لم يسكنها وحيواناً لم يعايه ؟ :

« مالي بدارٍ خلت من أهلها شغلٌ
ولا رسوم ولا أبكي لمنزلةٍ
ولا قطعت على حرفٍ مذكرةٍ
بيداءٍ مُقفرة يوماً فانتعثها
ولا شتوت بها عاماً فاذركني
ولا شدّدت بها من خيمة طباً
لا انعث الروض إلا ما رأيت به »

فهو غريب عن الصحراء غربته عن أهلها :

« لا الحزن مني برأى العين أغفره
وليس يعرفني سهلٌ ولا جبلٌ⁽¹⁵⁶⁾
أفعى يقابلها من حجره ورُولٌ⁽¹⁵⁷⁾ »

فالخماراء أولى بالوصف من رسوم الصحراء وممشقة السير في فلواتها :

« أحسن من منزلِ بذِي قارٍ
وَشَمُّ ريحَائِي ونَزِجَّةٍ
منْزِلٌ خَمَّارٌ بِالأنبارِ⁽¹⁶²⁾
أحسن من آيُّنِي بِالأكواوَرِ⁽¹⁶³⁾
معَ رَشًا عَاقِدٌ لِرُنَارٍ⁽¹⁶⁴⁾ »

(156) الحرف : الناقة الضامرة . القتل : الاندماج في مرفق الفافة

(157) قوله بيداء معمول لقطعت في البيت السابق

(158) الطلب : الجبل الذي تشد به الخيمة . الورل : دابة كاللضب أو العظيم من أشكال الورغ ، طويل الذنب صغير الرأس .

(159) أبو نواس الديوان ، ص : 698 وما بعدها .

(160) الحزن : ما غلظ من الأرض .

(161) أبو نواس ، الديوان ، ص : 698 وما بعدها .

(162) ذوقار : ماء ليكرب قريب من الكوفة . الأنبار : واد بالعراق

(163) الأكوار : مفرداتها كور وهو الرجل وأدواته

الذِّي مِنْ مَهْمَةِ أَكْدُ بِهِ
وَنَقْرُ عُودٍ إِذَا تُرْجَعُهُ
أَخْسَنُ عِنْدِي مِنْ أُمَّ نَاجِيَةٍ
وَأَمَّ عَمْرٍ وَأَمَّ عَمَارٍ»⁽¹⁶⁴⁾

قد يتadar إلى الذهن أن أبا نواس ، إنما يدعوه لِلإلقاع عن البداوة والحنين إلى الصحراء ، والإقبال على الحضارة العباسية وما فيها من جمالات ومباهج ولذائث ، وهي دعوة للحباء داخل العصر لا خارجه ، للتجديد في الأدب ونمط الحياة ومن المغالاة أن تنتعنه بالشعوبية⁽¹⁶⁷⁾ .

غير أن الدراسة الهاشمية والعميقة لديوانه تظهر غير هذا . فكره للعرب وحقده عليهم ، وازدراوه لقيمهم وسخريته من بلادهم قائم إزاء إكباره للفرس وإعجابه بحضارتهم يظهر ذلك من خلال وصفه لمواقع الكروم ، ومعاصر الخمور ، يقول :

«مَسَارِحُهَا الغَرْبِيُّ مِنْ نَهْرٍ صَرَصِيرٍ
تُرَاثُ أَبُو شِرْوَانَ كَسْرَى وَلَمْ تَكُنْ
قَصَرَتْ بِهَا لَيْلٌ وَلَيْلَ ابْنَ حُرَّةَ»⁽¹⁶⁸⁾

ففي هذه الآيات تعريض بحضارة العرب الصحراوية التي لا تعرف الإستقرار والزراعة وال عمران ، ومقابلتها بالحضارة الفارسية الراقية ، ومثلها قصيدة التي مطلعها :

«يَا سَاحِرَ الطَّرْفِ أَنْتَ الدَّهْرُ وَسَنَانُ سِرُّ الْقُلُوبِ لَدِي عَيْنِيَكَ إعلان»

(164) المهمة : القفر ، أكد به : أشقى وأتعب ، السراب : ما يراه المسافر في الصحراء عند الظهيرة كانه ماء وليس بماء

(165) رود الشباب : لينه ، معطار : طيب الراحلة .

(166) أبو نواس الديوان . ص : 160.

(167) شوقى ضيف ، تاريخ الأدب العربى ، العصر العباسى الأول ، ص : 226.

(168) أبو نواس ، الديوان ، ص : 102.

فهو وإن بدأها بالغزل ، وتجنّب السخرية من بكاء الأطلال والوقوف عليها ، فلم يتجنّب شتم العرب والغزير عليهم بحضور الفرس وجمال بلادهم . فقال في تعنيق الخمرة وصونها :

على الدفينة أزمان وأزمان⁽¹⁶⁹⁾
إلى خباء ولا عبس وذيبان⁽¹⁷⁰⁾
لكتها لبني الأحرار أوطنان⁽¹⁷¹⁾
فما بها من بني اللحنة إنسان⁽¹⁷²⁾
ولا بها من غذاء العرب خطبان⁽¹⁷³⁾
آسم وكلله وردة وسوسان
يوماً تنسّم بالخيشوم زيحان⁽¹⁷⁴⁾

« فصانها في مغار الأرض فاختلت
بيلة لم تصل كلب بها طبباً
ليست لدھل ولا شبانيها وطناً
أرض تبني بها كسرى دساكرة
وما بها من هشيم العرب عرفجة
لكن بها جلنار قد تفرعه
فإن تنسّم من أرواحها نسمة »

وفحّر قائم على أساس أن الخمرة شراب القوم المتحضرين من الأكاسرة ، فتجويدها وتعتيفها بعيد عن بلاد العرب التي لا تنبت إلا العرج والحنظل ، فالخمرة فارسية الموطن تُنسب إلى بلاد الجنار والأس والورد والسوسن ، بلاد بني الأحرار من العجم ، وهو هنا يقرر إحدى مقالات الشعوبية التي تقول إن العجم يتسبون إلى إسحاق ابن ابراهيم وهو ابن سارة الحرة في حين أن إسماعيل أب العرب من هاجر الأمة ، فهم أبناء الحرة والعرب أبناء اللختاء . وبغضه للعرب دفعه لبغض بلادهم ببناتها وحيوانها ، برمولها وكتلتها :

« سقياً لغير العلياء والستندي وغير أطلال مي بالجرد⁽¹⁷⁵⁾ »

(169) المغار : المغاراة ، فاختلت : خمرت .

(170) كلب وعبس وذيبان قبائل عربية ، الطنب : حل طويل يشد به الخباء والخباء الخيمة

(171) بني الأحرار : الفرس

(172) في الديوان الرعناء وقد آثرت رواية ابن قتيبة وابن عبد ربه .

(173) الهشيم : كل كلاً وشجر يابس ، عرفجة : شجرة تنبت في البدية ، الخطبان حبات الحنظل .

(174) أبو نواس ، الديوان ، ص : 127.

(175) العلياء : العالية وهي صفة لمحمدوف . الستندي : ما قابلك من الجبل فوق السفح . مي : اسم علم امرأة عربية ، الجرد : الأرض القضاء لا بنايات فيها . وكل ما ذكره من مظاهر البدية .

جُدْتَ اللَّوِي مَرَّةً فَلَا تَعْدِ⁽¹⁷⁶⁾
 بِلَدَانْ كَانَتْ زِيَادَةُ الْكَبِيدِ
 يَكْنُ مَفْرِي مِنْهُ إِلَى الصُّرَدِ⁽¹⁷⁷⁾
 أَذْتِيكَ إِلَّا تَصَائِحَ النَّقْدِ⁽¹⁷⁸⁾
 فَهُرِ مُلْحَّاً بِهِ عَلَى وَتَدِ⁽¹⁷⁹⁾
 وَسِرُّ كَاسٍ إِلَى فَمٍ بِيمِ⁽¹⁸⁰⁾
 رَبِعٍ وَأَنْمَى فِي الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»

وَيَا صَبِيبَ السَّحَابِ إِنْ كُنْتَ قَدْ
 لَا تَسْقِينَ بَلَدَةً إِذَا عُدْتَ إِلَى
 إِنْ أَتَحَرَّزُ مِنَ الْغَرَابِ بِهَا
 بِحِيثُ لَا تَجْلِبُ الْفِجَاجَ إِلَى
 أَحْسَنِ عَنْدِي مِنْ انْكِبَابِكَ بِالْأَدْ
 وَقْوُفُ رِيحَانَةٍ عَلَى أَذْنِ
 فَذَاكَ أَشْهَى مِنَ الْبَكَاءِ عَلَى الْ

وَهُوَ فِي هَذِهِ الْقُصِيدَةِ يُعَارِضُ النَّابِغَةَ فِي دَالِيَتِهِ :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعُلَيَاءِ فَالسَّنَدِ
 أَفْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبْدِ

مَحَاوِلاً تَبَرِيرَ كَرْهِهِ لِتَلْكَ الْبَلَادِ الَّتِي تَزِيدُ الْكَبِيدَ هَيَّجَانَاً ، طَيْرُهَا غَرَابُ
 وَصَرْد ، فَإِنْ تَحْرَزُ مِنَ الْغَرَابِ ، فَلَا حَرَزُ لَهُ مِنَ الصَّرْد ، وَإِذَا كَانَ مَذْهَبُهُ فِي
 الْحَيَاةِ الْلَّذَّةِ وَطَلْبَهَا وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهَا ، فَمَا لَهُ وَلِلْعَرَبِ وَبِلَادِهِمْ . فَأَرْضُهُمْ جَدِبَاءُ
 وَعِيشُهُمْ قَاسٍ ، وَهُمْ جَفَّاءُ ، مَا عَرَفُوا لَهُواً ، وَلَا تَمْتَعُوا بِمَبَاهِجِ الْحَيَاةِ ، صِيدُهُمْ
 الذَّئَبُ وَالْمُضَبُّ وَالضَّبَابُ وَالْبَرَابِعُ وَشَرَابُهُمْ حَلِيبُ النَّوْقِ وَالْمَاعِزِ :

«بِلَادَ نَبْتَهَا عُشَرَ وَطَلْخَ
 وَأَكْثَرُ صِيدُهَا ضَبْعٌ وَذِيْبٌ⁽¹⁸¹⁾
 وَلَا تَأْخُذُ مِنَ الْأَعْرَابِ لَهُواً
 رَقِيقُ الْعِيشِ بَيْتُهُمْ غَرِيبٌ»⁽¹⁸²⁾

فَلَيْتَيْمَ إِذْنُ نَحْوِ بَلَادِ كِسْرَى فَالْحَضَارَةُ فِيهَا مَائِلَةٌ وَمَبَاهِجُ الْحَيَاةِ بَارِزَةٌ تَدْعُوهُ
 لِعَبْ كَثْوَسُ اللَّنَّةِ وَالْمَجُونُ فِي مَجَالِسِ مَفْرُوشَةٍ بِالْوَرَدِ وَالْيَاسِمِينِ :

(176) صَبِيبُ السَّحَابِ : المطر ، اللوي : مسترق الرمل .

(177) أَغْرِزُ : أَنْوَقُ ، الصَّرْدُ : طائر ضخم الرأس يصطاد المصافير

(178) الْفِجَاجُ : مفرد ، فج وهو الطريق بين جبلين ، النَّقْدُ : جنس من الغنم قبيح الشكل

(179) الْفَهْرُ : الحجر .

(180) أَبُونَوْسُ ، الْدِيْوَانُ ، ص : 52.

(181) الْطَّلْخُ : شجر عظام ترعاه الإبل ، عَشَرُ : شجر جيد القذح من أشجار الباذية .

(182) أَبُونَوْسُ الْدِيْوَانُ . ص : 11-12.

«فَاطِبٌ مِنْ صَافِيَةَ شَمُولٍ
فَهَذَا الْعَيْشُ لَا عَيْشُ الْبَوَادِي
فَأَيْنَ الْبَدُو مِنْ إِيَّوَانِ كِسْرَى

فهو إن دعا للحضارة وفضلها ، فلأنها برأيه نتاج فارسي ، وهو إن ثلب
الصحراء وأهلها والعيش فيها فلأنها مسكن العرب وأصلهم ومادتهم . فصورة
الحضارة الماجنة فارسية في شعره ، مفضلة لفارسيتها على الحضارة العربية :

«مُعَافَرَةُ الْمَدَامِ بِوَجْهِ ظَبَّيِ
إِذَا مَا أَفْتَرَ قَلْتُ رَفِيفُ بَرْقِ
الْأَذْ إِلَيْيَ مِنْ عَيْشِ بَوَادِ
فُصَارَى عَيْشُهُمْ أَكْلَ لِضَبَّ

(184) حَوَى فِي الْحُسْنِ غَيَّابَ الرَّهَانِ
(185) وَإِمَّا اهْتَرَ قَلْتُ قَضَبِيْ بَانِ
(186) مَعَ الْأَعْرَابِ مَجْدُوبُ الْمَكَانِ
(187) وَشَرَبَ مِنْ حَفِيرِ فِي شِنَانِ»

فالعراق بحضارته القديمة والحديثة تراث أجداده الأولي من الفرس بزعمه
لا فضل للعرب في حضارته أو رقيه :

«مَسَارِحُهَا الْمَدَارُ بِفَطْنَ جَوَاحِي
تُرَائِيَ عَنْ أَوَانِ أَوْلِيَا

(188) إِلَى شَطَّ الْأَبْلَيِ فَالْفُرَاتِ
بَنِي الْأَحْرَارِ أَهْلِ الْمَكْرَمَاتِ»

وإذا كان الطلل في شعره يرمي للعرب وبداوتهم ، فالخماراة ترمي إلى
الحضارة الفارسية وبما هجاها :

«عَاجَ الشَّقِيقُ عَلَى دَارِ يُسَائِلُهَا
لَا يُرْقِي اللَّهُ عَيْنِي مِنْ بَكِ حَجَراً

(189) وَعَجَبَتْ أَسَأْلُ عَنْ خَمَارَةِ الْبَلَدِ
وَلَا شَفَقَ وَجَدَ مَنْ يَقْبِبُ إِلَيْ وَتَدِ»

(183) أبو نواس ، الديوان ، ص : 11-12.

(184) معافرة المدام : ملازمتها . الرهان : السبق .

(185) افتر : ابتسم ، رفيف برق : تلاؤه ولمعانه . قضيب بان : غصن بان .

(186) الشنان : مفردها الشن القرية الصغيرة البالية .

(187) أبو نواس الديوان . ص : 103.

(188) مصدر نفسه . ص : 209.

(189) مصدر نفسه ص : 47-46.

فَحَقِّدُهُ عَلَى الْعَرَبِ بِإِدَنِ الْفَاظِهِ وَصِيَاغَتِهِ وَتَسْخِطِهِ وَدَعَوَاتِهِ عَلَى الْعَرَبِ ، فالعربي شقيٌّ باشِّ يعوجُ على الرسومِ يُسأَلُهَا ، ويُفْنِي أَيَّامَهُ ولحظاتِ حيَاتِهِ في الـِّكاءِ عَلَيْهَا وخطابها بالرغم من علمه بأنَّها صماءٌ لا تسمعُ وخرساءٌ لا تُنطق . وأمَّا أبو نواس وأمثاله من الشعوبين ، فإنَّهم يَعُجُّونَ على الحُمَّارَةِ يَعْبُونَ خَمْرَهَا في طاساتٍ من التبرِ مُنْطَقَاتٍ بالتصاوير والتماثيل التي تُنْطَقُ بالحضارة الفارسية ، وتَدَلُّ على رقِّيَّها ورونقِها :

طاساتِ تَبَرٍ ، خَمْرُهَا يَفْهَمُ⁽¹⁸³⁾

تَسْمَعُ لِلْدَّاعِيِّ وَلَا تَنْطَقُ⁽¹⁸⁴⁾

مُخْتَفِرٌ مَا يَئْتُهُمْ خَنْدَقُ⁽¹⁸⁵⁾

كَتَائِبٌ فِي لُجَّةِ تَغْرِيقٍ⁽¹⁸⁶⁾

يَهِيمُ فِي أَطْلَالِهَا أَحْمَقُ⁽¹⁸⁶⁾

« تُزَوِّجُ الْخَمْرَ مِنَ الْمَاءِ فِي

مُنْطَقَاتٍ بِتَصَاوِيرِهِ وَلَا

عَلَى تِمَاثِيلِ بَنِي بَابِكِ

كَأَنَّهُمْ وَالْخَمْرُ مِنْ فَوْقِهِمْ

فَالنَّعْتُ ذَا لَا نَعْتُ دَارِ خَلْتُ

وإذا كان لا بدَّ من الأطلالِ فلتكن أطلال حانة تجَلَّدُ ما اندرس من الذوقِ الفارسي الرفيع الذوقِ الحضري ، رمز الرفاهية واللين والرقّة ، فقصد مع نفرٍ من صحبه المدائن مقر الأكاسرة ، فرأى بعض حاناتهم ، ولم يكن قد بقي منها غير أطلال ، فكتب هذه القطعة التي تمثل بها الجاحظ ، فقال : إنها مما لا تُباح إلا للقليل من الشعراء⁽¹⁸⁷⁾ :

بِهَا أَثْرٌ مِّنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسٌ⁽¹⁸⁸⁾

وَاضْفَاثُ رَيْحَانٍ جَنِيٍّ وَبَابِسٌ⁽¹⁸⁹⁾

وَدَارِ نَدَامَى عَطْلَوَهَا ، وَأَدْلَجُوا

مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزَّقَاقِ عَلَى الشَّرِى

(183) يزيد بتزويع الخمر من الماء مزجها به . يفهّم : يمتلىء حتى يفيض .

(184) منطقتات : منطقة البise، يصف الطاسات بأنها منطقة بالرسوم

(185) بني بابك موطنهم خمرة كسكرة وهي قرية بفارس منهم بابك الخرمي خرج أيام المعتصم وقتل ..

(186) أبو نواس ، الديوان ، ص : 157.

(187) أبو نواس ، الديوان ص : 37.

(188) أدلجو : ساروا من أول الليل ، دارس : من درس عفا وتغير .

(189) ساحب بدل من أثر في البيت السابق ، الزقاق : جمع زق وعاء للخمر إضفافات ريحان : جمع

ضفت : وهو القبضة .

ولاني على أمثال تلك لحابس
بشرقي سباباط الديار البساس (١٩٠)
ويماماً له يوم الترحل الخامس
جيتها باللون التصاویر فارس (١٩١)
مهماً تدریها بالقصيّ الفوارس (١٩٢)
وللماء ما دارت عليه القلانس (١٩٣)
فللخمر ما زرت عليه جيوبها

وحوار أبي نواس مع الخمار اليهودي حكاية حاله ، والخمار ينطق بلسانه :

على أنتي أكنتي بعمره ولا عمرًا
ولا أكسبتني لا ثناء ولا فخرًا
وليس كآخرى إنما خلقت وفرا
أجدت أباً عمرو فجؤد لنا الخمرا (١٩٤)

« فقلنا له ما الإسم قال سموال
وما شرقني كنيبة عربية
ولكنها حفت وقلت حروفها
فقلنا له عجبًا بظرف لسانه :

أما قصيده التي مطلعها :

« دع الرسم الذي دثرا يقاسي الريح المطرا » (١٩٥)

فتصور جواب عديدة من شعوبته ومجونه ، وفيها دعوته لترك تقاليد العرب الأدبية ، واستبدالها بتقاليد مستوحاة من الحياة المتحضرة والمطبوعة بطابع الفرس ، وفيها سخرية من بلاد العرب وبنتها وحيوانها وحضارتها وتمجيد للبلاد الفارسية وحضارتها ، وفيها تشكيك ، بما أثير من صور جميلة من حياة البداية ، وتکذیب للرواة . كما دعا فيها لإهمال الصحراء بقيمها ومثلها في اللهو والحب

(١٩٠) سباباط : مدينة فارسية قرية من المدائن . البساس : المقفرة

(١٩١) في عسجدية : في كوس عسجدية والمسجد الذهب .

(١٩٢) بصف الصور التي على جوانب الكأس . المها : البقر الوحشي

(١٩٣) الخمر إلى مواضع الجيوب من تلك الصور . والماء حتى القلانس والقلانس جمع قلنوسة غطاء الرأس الشائع في ذلك الحين .

(١٩٤) أبو نواس الديوان . ص : 61.

(١٩٥) مصدر نفسه . ص : 557 وما بعدها .

والحياة والإقبال على الحياة الجديدة بميالاتها ومفاسدها المادية التي لو أدركها رجال الجاهلية ومن مات فيها من العشق ، لأنقلوا على الحياة الجديدة يعيشون من لذائذها :

«أَمَا وَاللَّهِ لَا أَشْرَأْ حَلْقَتْ بِهِ وَلَا بَطْرَا
لَوْ آنَ مَرْقُشاً حَيْ تَعْلَقَ قَلْبَهُ ذَكْرَا
كَانَ ثِيَابَهُ أَطْلَعَ نَمَاءَ مِنْ أَزْرَارِهِ قَمَرَا»⁽¹⁹⁶⁾

أما سخريته من لغة البدو وحياتهم في أيامه ، وثقيلهم على طبعه فباد في هجائه لأبي خالد النميري :

كيف تَرَكْتَ الإِبَلَ وَالشَّاءَ⁽¹⁹⁷⁾
وَكِيفَ خَلَقْتَ لَدِي قَعْنَبَ⁽¹⁹⁸⁾
حِيثُ تَرَى التَّنْسُومَ وَالثَّاءَ⁽¹⁹⁹⁾
جَاءَ مِنَ الْبَدْوِ أَبُو خَالِدٍ
ولَمْ يَزُلْ بِالْمَصْرِ تَنَاءَ⁽²⁰⁰⁾
يَعْرُفُ لِلنَّارَ أَبُو خَالِدٍ
سوَى اسْمَهَا فِي النَّاسِ أَسْمَاءَ
إِذَا دَعَا الصَّاحِبَ يَهِيَابَهُ⁽²⁰¹⁾
سُوَى اسْمَهَا فِي النَّاسِ أَسْمَاءَ
لِطِيبِهَا كُنْتَ الْغُبْرَاءَ»

ولكن لماذا كرّة العرب ، وحقدَ عليهم ، وعُمُمَ حقدَه على رمال صحرائهم ؟ أفالفارسيَّة ؟ أم أن هناك أسباباً أخرى اختلطت في نفسه ، وتزاوجت ، فأولدت الكُرة والحقُّ والضفينة ؟

الحقيقة أن أبي نواس كان فارسيّاً ، ونسبته للفرس إن انبهمت على بعض الرواية ، فنسبته للعرب ، ما كانت لتبنيهم عليه ، وهو إن لم يكن من أشراف

(196) أبو نواس ، الديوان ، ص : 559.

(197) ثمهد : موضع في الجزيرة العربية .

(198) القعنب : الأسد أو الثعلب الذكر ، التنم : شجر ذو ثمر ، الأء ثمر شجر

(199) تناء : مقيم .

(200) يهبابه : ينادي بهيا .

(201) أبو نواس الديوان . ص : 568.

الفرس وأبناء ملوكها ، فكثير من الشعوبين كانوا مثله ، وأبناء الملوك والدها فين أفلية ضئيلة إذا قيَّست بسواد العجم ، ولعل فقره لنسب عريض في العجم هو الذي دفعه للإدعاء تارةً للن扎ارية وتارةً أخرى لليمنية غير أن شعوراً بالحساسة والضمة ما زال يتباين كلما سمع إنساناً ينتسب إلى آبائه وأجداده ، فِيَخَالُجُهْ شَكْ في نفسه وشعور بالذُّل والإهانة . فهو يُطعن على العرب ، ويحتقر أنسابهم ، ويثلُّهم ، لعله يتساوِي بهم ، والخمرة خير دواء لدائه وشعوره :

« رَفَعْتُ لِهِ النَّدَاءَ بِقُمْ فَخُذْهَا وَقَدْ أَخَذْتُ مَطَالِعَهَا التُّجُومُ
يَنْفَدِيَةِ تَذَالُ النَّفْسُ فِيهَا وَتُمْتَهِنُ الْخُوَلَةُ وَالْعُمُومُ »⁽²⁰²⁾

بالخمرة ، ونشرتها ، تتساوِي الرجال ، وتتفقَّد الأنسابُ أصالتها ، وهي أنسابٌ ، وإن ادعَاهَا هينةً عليه ، لا قيمة لها :

« مُجاوِرُ قَوْمٍ لَيْسَ بَيْنِهِمْ أَوَاصِرُ إِلَّا دَعْوَةٌ وَظَنْوُنُ »⁽²⁰³⁾

وهو إن فَضَلَ الفُرسَ وأحَبَّهم ، وأحبَّ أعيادَهم ، فلِإقبالِهم على اللذائذ ، ولخصالِهم التي حَمَدَها فهم لُطْفَاءُ ، متحضرون ، لا يفخرون على جليسِهم ، ولا يذخون على نديِّهم ، مسالمون لا يعرفون عربَلة ، فهم بعكس العرب تماماً⁽²⁰⁴⁾.

فالْفُرْسُ عَادِي سَكِّرِهِمْ مَحْسُومٌ
وَفَخَارُهُمْ فِي عِشْرَةِ مَعْدُومٍ
بَرَزَتْ إِلَى ذِكْرِ الْفَخَارِ تَمِيمٌ
سُبِّيَّتْ تَمِيمٌ وَجَمْعُهُمْ مَهْزُومٌ
شَرَا فَمَنْطِقُ شَرِّهِمْ مَذْمُومٌ
وَلَهُمْ إِذَا الْعُرْبُ اعْتَدْتُ تَسْلِيمٌ

« نَادَمْتُهُمْ أَرْتَاضُ فِي آدَابِهِمْ
وَلِفَارِسِ الْأَحْرَادِ أَنْفُسُ أَنْفُسِهِمْ
إِذَا نَادَمُ عَصَبَةَ عَرَبِيَّةَ
وَعَدَتْ إِلَى قِيسِ وَعَدَتْ قَوْسَهَا
وَبَنِو الْأَعْاجِمِ لَا أَحَادُرُ مِنْهُمْ
لَا يَذَخُونَ عَلَى النَّدِيمِ إِذَا اتَّشَوا

(202) أبو نواس ، الديوان ، ص : 55.

(203) مصدر نفسه . ص : 546.

(204) Institut Francais De Damas. Tome XVIII.P.67.

وَجِيعُهُمْ لِي حِينَ أَقْعُدُ بَيْنَهُمْ بِتَذَلِّلٍ وَتَهِيَّءٍ مُوسُومٌ⁽²⁰⁵⁾

فَجَلَوْسُهُ بَيْنَ الْفَرَسِ إِذْنَ يَشْعُرُهُ بِالرَّاحَةِ ، لِشَعُورِهِ بِالْمَساواةِ ، فَلَيْتَكُمُ الْعَربَ وَالحَالَةُ هَذِهِ إِلَى دَعْوَةِ تَهُونُ عَلَيْهِ ، وَمَا لَهُمْ يَفْخَرُونَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَرَوْنَهُ نَدًا لَهُمْ ، وَنَسَاؤُهُمْ يَوَاصِلُنَ النَّبْطَ :

« جَاءَنِي عَنْهُ كَلَامٌ رَأَدِنِي فِيهِ قَنْوَطَا
وَاضْيَاعَاهُ أَمْثَلِي يَرْتَجِي مِنْهُ خَلِيلًا
قَلَتْ لَا أَقْرَبُ إِلَّا آلَ عَمْرُو أَوْ لَقِيلًا
كَمْ رَأَيْنَا عَرَبِيَا تِي يَوَاصِلُنَ تَبِيلَا »⁽²⁰⁶⁾

فَمَا هَمَّهُ مِنْ أَنْسَابِهِمْ ، وَقَدْ شَارَكُوكُمْ فِيهَا النَّبْطُ ، فَانْتَسَابَهُ إِلَى الْخَمْرَةِ

وَالْعَنْبُ أَشْرَفَ :

« قُطْرُبَلْ مَرْبَعِي وَلَيْ يُقْرَى إِلَيْهِ كَرْخَ مَصِيفٌ وَأَمَّيَ الْعَيْبُ
تُرْضِعُنِي دَرَّهَا وَتَلْحَفُنِي بَظَلَّهَا وَالْهَجِيرَ يَلْتَهِبُ »⁽²⁰⁷⁾

فَمَا الْأَنْسَابُ إِلَّا صَرْوَحُ خَرَافِيَّةٌ لَا قِيمَةَ لَهَا ، وَعَبُّ الْخَمُورِ وَالْأَقْدَامِ عَلَى

الْمَجُونِ هَمَّهُ الْوَحِيدُ :

« اسْقِنِي يَا ابْنَ أَذْهَمَا
وَاتْخِذْنِي لَكَ ابْنَ مَا
سَبَقْتُ خَلْقَ آدَمَا »⁽²⁰⁸⁾

وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَا يَقْبِلُ لَوْمَةً لَائِمَ ، وَلَا نَصِيحَةً نَاصِحٍ ، فَالْحَيَاةُ بِقِيمَهَا وَمُثْنَاهَا
لَا تَسْتَحْقُ مِنْهُ دَمْعَةً ، فَدَمْوَعَهُ عَلَى مَا فَاتَ مِنْ لَذَّةِ أُولَى :

« دَعْنِي مِنَ النَّاسِ وَمِنْ لَوْمِهِمْ
وَأَبْكِي عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا وَلَا

(205) أبو نواس ، الديوان ، ص : 193-194.

(206) مصدر نفسه ، ص : 327.

(207) مصدر نفسه . ص : 4.

(208) مصدر نفسه ص : 80.

لا خير في اللذاتِ ما لم يكنْ صاحبُها منكشفَ الرأسِ⁽²⁰⁹⁾
 فهو لا ينفكُ يصبحُ ويصرخُ بوجهِ المجتمعِ والناسِ مجاهراً بمعاصيهِ
 وانغماسِهِ في اللذةِ والفجورِ مازجاً ذلك بالسخريةِ من العربِ وشتمِهمِ وازدراءِ
 قيمِهمِ .

وإذا كانت هذه أبعاد شعوبته في لهوه وسکرره ومجونه ، فكيف ظهرت
 شعوبته في جدهِ وصحتهِ ؟

إنَّ أبا نواس يبدو في جدهِ وصحتهِ أقلَّ صراحةً منهُ في مجونهِ وسکررهِ ،
 فقد حاولَ الإِدْعَاءِ في العربِ ، وإِيجادَ نَسْبٍ لهُ فيهم ، فتَنَزَّرَ وادعى للفرزدقِ ،
 لكنَّ اصطدامه بالحكم ابن قبر المازني ، دفعَهُ لِلإنكفاءِ عن هذا الإِدْعَاءِ⁽²¹⁰⁾
 فادعى للبيمن وحاولَ إِيجادَ نَسْبٍ لهُ في مذحجِ ، لكنَّهُ فَيَشَأْ أيضاً ، فالتجأَ إلى
 ابن الكلبي عَلَيْهِ يصنُّعُ لهُ نَسْباً يَدْعُيهِ ، فقالَ :

«أبا منذرِ ما بالْ أنسابِ مذحجِ مترجمةُ دوني وأنتَ صديقي
 فإنْ تأتني بيائِك ثنائي ومذحجي وإنْ تأبَ لم يسلُّدْ على طريقي»⁽²¹¹⁾

لكنَّ أنسابِ مذحجِ ظلتُ مغلقةً دونَهُ ، فادعى لحاءَ وحكمَ ، فزجره بزيـدُ
 ابن منصور الحميري - خال المهدـي - وقال له : أنتَ رجلُ حوزـي ، فمالك ولحـاءَ
 وحـكمَ ، فادعـي أـنه من مواليـمـ ، فترـكـوهـ ، وـقـالـ بـعـضـهـمـ : دـعـوهـ يـكـاـيدـ عـناـ
 النـزارـيـةـ⁽²¹²⁾ فـانـطـلقـ بـحـجـةـ هـذـاـ الـوـلـاءـ يـهـجـوـ الـعـذـنـائـيـةـ ، وـيـثـلـبـهاـ ، وـيـرـيـشـ سـهـامـ
 هـجـائـهـ لـقـبـائـلـهـ ، لـاـ يـرـاعـيـ فـيـ ذـلـكـ إـلـاـ وـلـاـ ذـمـةـ ، فـلـمـ يـسـتـشـ قـرـيشـ ، وـلـمـ يـرـدـعـهـ
 مـكـانـ الرـسـوـلـ مـنـهـ ، فـهـجـاهـاـ بـقـولـهـ :

«أـحـبـ قـرـيـشـ لـحـبـ أـخـمـدـهـاـ وـاعـرـفـ لـهـ الـجـزـلـ مـنـ مـواـهـبـهـاـ

(209) أبو نواس الديوان . ص : 106.

(210) مصدر نفسه . ص : 522 (هامش) .

(211) مصدر نفسه . ص : 602 .

(212) مصدر نفسه . ص : 522 (هامش) .

إِنْ قُرِيَّشًا إِذَا هِيَ اتَّسَبَتْ
كَانَ لَهَا الشَّطْرُ مِنْ مَنَاسِبِهَا
إِلَّا تَجَارَاتٌ مِنْ مَكَانِسِهَا»⁽²¹³⁾
وهجا تميم وطعن بفخرها بقوس حاجب ابن زراة ، فقال :

«أَوْلُ مَجْدٍ لَهَا وَآخِرَةٌ
إِنْ ذُكِرَ الْمَجْدُ قَوْسُ حَاجِبِهَا
وَيُشَنَّ فَخْرُ الْكَرِيمِ مِنْ قَصْبِ الدَّ
شُوَحْطِ ، صَفَرَاءُ فِي مَعَالِبِهَا»⁽²¹⁴⁾
كما هجا قيس عيلان وبكر ابن وائل وأسد وتغلب وثيف وخدف ورقاش
وغيرها من القبائل العربية ، مما أضطر الرشيد للقبض عليه ، وسجنه مدة طولة
بسبب ما أظهره من حقد وكره للعرب⁽²¹⁵⁾ .

وكان يثلب العرب ، ويعيرها بأخبارها وأيامها معتمداً على ما يرويه أبو عبيدة
معمر ابن المثنى ، وبما تزوده من نقاوص جرير والفرزدق .

ولم يقصر أبو نواس هجاءه على النَّزَارِيَّةِ ، ولا كان ولاده لليم رادعاً له
عن هجائها ، فجا من سبق أنْ افتخَرَ بهم ، فقال في هجائه لهاشم ابن خديج :

شَذَّاكَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَةِ⁽²¹⁶⁾
بِكِنْدَةَ فَاسْلَحْ عَلَى كِنْدَهِ
وَلَكُنْهَا زَمْنَ الرَّدَهِ
سِوَى قُتْلُكُمْ صِهْرَهُ بَعْدَهِ»⁽²¹⁷⁾
وَتَحْتَدُ حَتَّى يَخَافَ الْجَلِيسُ
وَتَخْتُمُ ذَاكَ بِفَخْرٍ عَلَيْهِ
فَإِنَّ خُدَيْجَا لَهُ هَجْرَةُ
وَمَا كَانَ إِيمَانُكُمْ بِالرَّسُولِ
وَقَالَ يَهْجُو كِنْدَهُ وَيُعِيرُهَا :

«إِنْ تَقْتِلُوا ابْنَ أَبِي بَكْرٍ فَقَدْ قَتَلْتُ
حُجْرَا بَدَارَةَ مَلْحُوبِ بْنَ أَسَدِ»⁽²¹⁸⁾

(213) أبو نواس الديوان . ص : 508.

(214) مصدر نفسه . ص : 509.

(215) مصدر نفسه . ص : 506 (هامش)

(216) الشذا : الأذى

(217) أبو نواس ، الديوان ، ص : 551-550

(218) دارة ملحوظ في بلادبني أسد

طَرْدَ النَّعَامِ إِذَا مَا تَاهَ فِي الْبَلْدِ
 يَوْمَ الْكَلَابِ فَمَا دَافَعْتُمْ بِيَدِ⁽²¹⁹⁾
 وَالدَّمْعُ يَنْهَلُ مِنْ مَشْنَى وَمَنْ وَحَدَ
 عَنْ ثَارِهِ وَصَفَاتُ النُّؤَى وَالوَتَدِ»⁽²²⁰⁾

وَطَرْدُوكُمْ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَجَاءِ
 وَقَدْ أَصَابَ شِرَاحِيلًا أَبُو حَنْشَ
 وَكُلَّ كِنْدِيَةَ قَالَتْ لِجَارِهَا
 إِلَهٌ امْرَأٌ الْقَيْسِ تَشَبَّهُ بِغَائِيَةَ

وَهَا هُوَ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْقَحْطَانِيَّةِ وَالْعَدَنِيَّةِ ، فَيَجْمِعُهُمْ فِي هَجَائِهِ لِلْبَصَرَةِ ،
 وَيَسْخِرُ مِنْهُمْ جَمِيعًا ، فَيَقُولُ :

أَوَاصِرُ إِلَّا دَغْرَوَةَ وَظُنُونُ⁽²²¹⁾
 إِلَى دَغْرَوَةِ مِمَّا عَلَيَ تَهُوْنُ
 إِذَا افْتَخَرَ الْأَقْوَامُ ثُمَّ تَلِينُ
 عَلَى مَسْمَعِ فِي الرَّحْمِ وَهُوَ جَنِينُ⁽²²²⁾
 كَاحْنَفَنَا حَتَّى الْمَمَاتِ يَكُونُ⁽²²³⁾
 وَفَخِيرٌ بِهِ إِنَّ الْفَخَارَ فَنُونُ»⁽²²⁵⁾

وَجَارِزَتْ قَوْمًا لَيْسَ بَيْنِهِمْ
 إِذَا مَا دَعَا بِاسْمِي الْعَرِيفِ أَجْبَتْهُ
 لِأَزْدِ عَمَانَ بِالْمُهَلَّبِ نِزْوَةً
 وَبِكْرٌ تَرَى أَنَّ النِّبَوَةَ أَنْزَلَتْ
 وَقَالَتْ تَمِيمٌ لَا تَرَى أَنَّ وَاحِدًا
 فَمَا لَمْ تُقْسِمْ بَعْدَهَا فِي قُتْبَيَةِ⁽²²⁴⁾

وَالْخُلاصَةُ أَنَّ أَبَا نَوَاسَ أَهْمَ شَاعِرٍ اعْتَنَقَ الشَّعُوبِيَّةَ وَحَامَ عَنْهَا وَكَأَيْدِيَ الْعَرَبِ
 وَجَحَدَهُمْ فَضْلَهُمْ ، وَتَنَقَّصُهُمْ وَجَحَدَ مَا يَثْرَهُمْ . فَعَابَ آدَابَ الْعَرَبِ وَسَخَرَ
 بِأَسْمَائِهِمْ فِي حَوَارِهِ مَعَ الْخَمَارِ الْيَهُودِيِّ ، وَعَابَ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ كُثْرَ الْمَفَرَدَاتِ
 وَذَلِكَ فِي هَجَائِهِ لِأَبِي خَالِدٍ ، وَتَعْمَدَ إِدْخَالَ كَثِيرٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ ، الْفَارَسِيَّةِ فِي شِعْرِهِ

(219) شراحيل ابن الحارث ابن عمر أكل العرار الكندي ، وكان قد اختلف مع أخيه على الملك فتواعدوا على النزال وكان شراحيل وأخوه قد جعل كل منهما مائة ناقة لمن يأتى لأحدهما برأس الآخر ،
 فقتل أبوحنش شراحيل

(220) أبو نواس الديوان . ص : 552-551

(221) الأواصر : جمع آصرة وهي الرحم والقرابة

(222) مسمع : من أشراف بكر

(223) الأخفف ابن قيس ويضرب به المثل في الحكم

(224) قتيبة ابن مسلم الخراساني .

(225) أبو نواس ، الديوان ، ص : 546. مع بعض الاختلاف وقد أنترت رواية ابن عبد ربه . العقد الغريب ، ج : 3 ص : 321

و« كأنها دعوة غير صريحة أو غير مقصودة للخروج عن لغة العرب »⁽²²⁶⁾ واستهان بالدين والأخلاق والقيم العامة للمجتمع الإسلامي ، وإذا كان في زهد أبي العتاهية عنصر مانوي ، فإن في إباحية أبي نواس عنصر مزدكي كبير الوضوح . ونزعة الشعوبية تختلف عن نزعة الشعوبية عند غيره من الشعراء ، فاسبابها كما سبق أن أشرنا متعددة ، وهو ملتزم فيها بأدبه وسلوكيه في الحياة .

(226) أحمد عبد المجيد غزالى ، مقدمة ديوان أبي نواس ، ص : ث .

الفصل الثاني

الشعبية ومظاهرها في النثر

**الكتاب الشعوبيون ، والمضمون الشعوي في كتاباتهم :
دعاوي الشعبية .**

الكتاب الشعوبيون ، والمضمون الشعوي في كتاباتهم :

لقد عَبَرَ الشعوبيون بالشعرِ عن عواطفِهم وأحاسيسِهم نحو العرب ، فاقتَرَعوا بآنساهم وأمجادِهم الفارسية ، ونَدَدوا بالعرب ، وهَجُوْهم ، وتَلَبُوا قَبَائِلَهُمْ ، وسَخِروا منهم ، ودَعَوْا إلى مَحْقِهم ، وإحياءِ المَجْدِ الفارسي ، وإعادةِ السُّلْطَةِ والملكِ إليهم ، لكنها تَبَقَّى صوراً عاطفيةً مُبَعَّثَةً يَقَدِّمُها الشُّعراُءُ ، بينما تَهَضَّ كِتابُ الشعوبيةِ يُعَالِجُونَ المَوْضُوعَ بِشَمْوَلٍ أَوْسَعَ وَأَعْقَمَ .. فكيف ظهرت الشعوبية في النثر ؟

تفَشَّتْ الشعوبية بين كتاب الأعاجم وعلمائهم ، فانطلَقُوا يَطْعَنُونَ على العرب في تاريخهم وقيومهم وأنسابهم ، يَدْفَعُهم شعوراً مليئاً بالحقِّ والضَّعْفِ ، وقد صَوَرَ الجاحظُ هذا الحِقْدَ فقال : « واعلم أنك لم تَرْ قوماً أشَقَّ من هؤلاء الشعوبية ، ولا أَعْذَى على دينه ، ولا أَشَدَّ استهلاكاً لعرضه ، ولا أَطْول نصباً⁽¹⁾ ، ولا أَقْلَ غَنَماً من أهل هذه النحلة . وقد شفي الصدورَ منهم طول جثوم الحسدِ على أكياهم ، وتَوَقَّدَ نَارُ الشَّنَآنَ في قلوبِهم ، وغليانُ تلك المراجل⁽³⁾ الفائرة وتسُرُّرُ تلك النيرانِ المضطربة⁽⁴⁾ فالشعوبية إذن مدفوعة بكرهِ وحقِّيْدِ بغيضٍ ، تحاولُ النيلَ من العرب بالحقِّ وبالباطلِ « فإنَّها بفرط الحَسَدِ ، ونَغْلِي الصدر⁽⁵⁾ .

(1) النصب : العباء .

(2) الشنآن : البعض مع عداوة وسوء حلق

(3) المراجل : جمع مرجل ، وهو بيت النار او حيث يوقد .

(4) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج 3 ص : 405 وما بعدها .

(5) نغل الصدر : فساد النية والطوية .

تدفع العرب عن كل فضيلة ، وتلحق بها كلّ رذيلة ، ونغلو ، وتسرف في الذمّ وتبهُ بالكذب ، وتكابر العيان ، وتكاد تكفر ، ثم يمنعها خوف السيف ، وتغضُّ من النبي⁽⁶⁾ (ص) ، إذا ذكر بالشجا⁽⁷⁾ ، وتطرف منه على القذى⁽⁸⁾ ، وتبعد من النبي (ص) ، بقدر بعدها عن قرب واصطفى⁽⁹⁾ .

أما نَفْسِي هذه النزعة بين جمهور الكتاب فراجع إلى أصولهم العرقية ، ومنَابِتهم الثقافية فإنَّ « الناشيء فيهم إذا وطئ مَقْعَد الرئاسة ، وَتَوْرُكَ مَشْوَرة الخلافة⁽¹⁰⁾ ... وصارت الدواة أمامه ، وحفظَ من الكلام فَيَقُول ، ومن العلم ملحة ، وروى لبزير جمهر أمثاله ، ولأردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ، ولاين المدفع أذنه ، وصَيَرَ كتابَ مزدك معدن علمِه ، ودقَّرَ كليلة ودمنة كَثْرَ حكمته ، (ظنَّ) إِنَّه الفاروقُ الأَكْبَرُ في التدبير ، وابن عباسٍ في العلم بالتأويل ، ومعاذ ابن جبلٍ في العلم بالحلال والحرام ، وعلى ابن أبي طالب في الجرأة على القضاء والأحكام ... فيكون أول بدويٍ الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يَظْهُرُ فيه ظرفٌ بتكذيب الأخبار ، وتَهْجِينٌ من نَقلَ الآثار ، فإنَّ استُرْجِحَ أحدُ أصحابِ الرسول⁽¹¹⁾ (ص) قُتلَ عند ذكرهم شَدَّةً ، ولَوْيَ عن محسنتهم كَشْحَةً ، وإنْ ذُكِرَ شريح جَرَحًا . وإنْ نُعِتَ الحسنُ استقلَّه . . . ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة أردشير بابكان وتدبير أنو شروان ، واستقامة البلاد لآل سasan⁽¹²⁾ »

فهوَاءُ الْكِتَابِ شعوبيون بحكم أصولهم العرقية ، وبحكم مواردهم الثقافية

(6) وتغضُّ من النبي : تضع من قدره ، تتقصّص

(7) الشجا : الهم والحزن

(8) تطرف منه على القذى : تصف عيونها بشيء يؤذيها ، طرف عينه : أصابها بشيء قدّمت والقذى ما يقع في العين من تبن أو رمل .

(9) ابن فقية ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 344 .

(10) تورك مشورة الخلافة : قدر عليها وصار من رجالها .

(11) الكشح : ما بين السرة ووسط الظهر .

(12) الحاجظ ، ثلاث رسائل (ذم أخلاق الكتاب) ص : 43-42 .

التي وردوها ، وأدابهم التي تأدّبُوها ، فدخلتهم « الأئفة لآدابهم ، والفضاضة لأقدارِهم ، من لوم مغارِبِهم ، وخيّب عناصرِهم . فمنهم من أحقَّ نفسه بأشرافِ العجم ، واعتَزَّ⁽¹³⁾ إلى ملوكيّهم وأساورِهم ، ودخل في بابِ فسيح لا حِجَابٍ عليه ، ونَسَبَ واسعٌ لا مُدافِعٌ عنه . ومنهم من أقامَ على خَسَاسَةٍ ينافِعُ⁽¹⁴⁾ عن لُؤمِه ، ويذْعِي الشرفَ للعجم كلُّها ليكونَ من ذوي الشرف ، ويُظَهِّرُ بغضِّ العَربِ ينتَقِصُها ، ويستَفِرُ مَجهودَه في مشاتِيمها ، وإظهارِ مثالِيها ، وتَخْرِيفِ الكلمِ في مُتَاقِيمها ، ويلسانُها نَطْقًا ، وبِهِمَا أَنْفَ ، وبِآدَابِها تَسْلَحَ ، فإنْ هو عُرِفَ خِيرًا سَتَرَه ، وإنْ ظَهَرَ حَقْرَه ، وإنْ احْتَمَلَ التَّاوِيلَاتَ ضَرَفَه إلى أَقْبَحِها وإنْ سَمِعَ سَوْءًا نَشَرَه ، وإنْ لم يَسْمَعْ نَقْرَه⁽¹⁵⁾ عنه وإنْ لم يَجِدْه ، تَخَرَّضَه ، فهو كما قال القائل :

إِنْ يَعْلَمُوا الْخَيْرَ يُخْفِهُونَ وَإِنْ عَلِمُوا شَرًّا أَذِيْعُ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا بِهِتَوا⁽¹⁷⁾

ابن المقفع والشعوبية :

وكان هؤلاء الشعوبيون فناتِ عديدةٍ فيهم العالم باللغة والنحو ، والعالم بالأنساب وأخبارِ القبائلِ والرواية للشعر والأدب والكاتب والمؤرخ والمترجم ، فانطلقَ كلُّ بميدانِه يعملُ في الكيد للعرب وتراثهم ، ومن أوائل هؤلاء ابن المقفع⁽¹⁸⁾ الذي شبَّ على دينِ المجووس ، وتنقَّفت بالثقافة الفارسية ثقيفاً واسعاً ،

(13) اعتزى : انتسب

(14) ينافع : يدافع .

(15) نقر عن الشيء : يبحث عنه

(16) تخرص : كذب وافترى

(17) ابن قنية ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 346-345.

(18) انظر ترجمة ابن المقفع في أنساب الأشراف للبلاذري ، وقد نشرها محمد نجم في مجلة الابحاث - بيروت 1963. الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص : 109 ، ابن الدليم ، الفهرست ، ص : 172 ،

البيروني ، تحقيق ما للهند من مقوله ، ص : 120، 123 ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 12 ص : 151 ، عبد اللطيف حمزة (ابن المقفع) . أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : 1 ص :

فلما أسلم في أواخر أيامه ، بقي فيه بعض الحنين إلى دينه القديم ، فظهرت فيه علامات الزندقة ووسمته بسمها ، إلا أننا نظن أن للسياسة في هذه التهمة دوراً كبيراً ، فإن المقصع ، لم يُجبر على اعتناق الإسلام ، ولا سبق إليه بالسيف ، ولقد أمضى معظم حياته القصيرة نسبياً على المجنوسية ، واعتنق الإسلام لما أراد له الله ذلك ، وقد تجاوز الثلاثين ، وكل ما نسب إليه في هذا المجال تمثله بيت الأحوص ، وقد مر بيته من بيوت النار ، فقال :

« يا دار عاتكة الذي أتعزّل حذر العدّي وبك الفؤاد موكّل »⁽¹⁹⁾

أو قول المهدي : « لم أجد كتاب زندقةٍ قط إلا وأصله ابن المقصع »⁽²⁰⁾
فأظنهما أصيقاً به بعد أن قضى ضحية للصراع بين المنصور وأعمامه⁽²¹⁾ .

وقد اتهم جماعة بالزنادقة منهم الجاحظ⁽²²⁾ والبيروني⁽²³⁾ الذي اتهمه بترويج المنانية غير أنَّ أَحمد أمين قد نفى تهمة الزندقة عنه وشك في كتاب القاسم ابن طباطبا ورجح أنه منحول في مضمونه ونفيه معللاً ذلك تعليلاً مقبولاً . إذ انتقد الكتاب من حيث الأسلوب وأظهر أنَّ أسلوب ابن المقصع في الكتب الباقيَّة له ، يختلف عن أسلوبه فيما نسب إليه من قول بالزنادقة ، وكذلك أسلوب الرد عليه يختلف عن أساليب القرن الثالث الهجري الذي عاش فيه القاسم ابن طباطبا . وابن النديم الذي ترجم لابن المقصع والقاسم ابن طباطبا ، فإنه لم يذكر اسم كتاب في الزندقة لابن المقصع ولا اسم كتاب في الرد عليه للقاسم ، ورجح أنَّ الكتاب موضوع في عصرٍ متاخر عن القرن الثالث للهجرة . وذلك بعد أن فشا السجع . أضفت إلى ذلك ما أثيرَ عن تمسِّك ابن المقصع بالدين ، فقد رويَ أنه زُمرِّم على مائدة عيسى ابن علي وقد عَزَّم على الإسلام ، فلما عُوتَّ ، قال : كرهْتُ أنْ أبْيَتْ على غيرِ دين ، وما أثَرَ عنه أنه مؤمنٌ بدين

(19) أَحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : 1 ص : 223.

(20) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 2 ص : 151.

(21) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 172.

(22) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 2 ص : 151.

(23) البيروني ، تحقق ما للهند ، ص : 220.

مؤمن بالله وبالثواب والعقاب من غير تفصيل ، وما ورد في كتاب القاسم يدل على أن المؤلف الزنديق دهري لا يؤمن بالأديان جميعاً⁽²⁴⁾ .

أما شعوبية فهي خفية لا تكاد تُبيّن ، وهي إن تجلت باتجاهه نحو الثقافة الفارسية ، يترجم كنورها في الأدب والتاريخ والسير ، فلعله رأى في ذلك عملاً جليلاً يؤديه للعروبة ، وذلك لخلوّها من هذا النوع من الأدب .

أنا لا أزعم تجرده عن الهوى ، وتبروه من الميل للفرس ، فهم قومه على كل حال ، وإحساسه بالإنتقام إليهم ، ظلّ قوياً ، فهو لم ينشأ على الإسلام ، فيهديء الإسلام من اندفاعه في التعصب للفرس أو الميل على العرب ، وإذا صَحَّ ما يُروي من صنيع الحجاج بأبيه⁽²⁵⁾ ، يكون قد عانى بالتجربة تسلط العرب وقهرهم واستبدادهم ، فحررني به إذن أن يحقق على العرب عامة والأمويين خاصة ، ويتمنى زوال سلطانهم .

لكنه بعد انتصار الثورة العباسية ، أيقن أن عصرًا من الظهر والإضطهاد قد ولّى ، وبدأ عصر جديد ، عصر انتصافٍ فيه العجم ، ونالت حقوقها أو كادت ، فشهر إسلامه ، ونصب نفسه منظراً للدولة الجديدة ، داعياً للأخذ والإقتباس عن النظم الفارسية ، وقد بسط تلك النظم بما ترجم من كتب الفرس ، وبما ألقى مستلهماً التراث الفارسي ، غير أن بعض المحدثين ، قد بالغ في تعصبه على ابن الميقن ، فاعتبره رأساً من رؤوس الشعوبية وأصلاً من أصولها⁽²⁶⁾ معتمدًا في ذلك على نصوصٍ تحتمل تأويلاً متباعدة ، وقد تكون قد وُضعت وُnisبت للرجل في عصورٍ متأخرة عن عصره ، فمن غير المستبعد أن ترى الشعوبية في ابن الميقن علمًا كبيرًا تفاحر به العرب ، فتضطلع على لسانه تلك الأحاديث التي تغمر من قناع العرب بشكلٍ خفي .

(24) أحمد أمين ، ضحي الإسلام ، ج : 1 ص : 225 وما بعدها .

(25) ابن السديم ، الفهرست ، ص : 172. ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 2 ، ص : 151 وما بعدها

(يرى أن الحجاج ضرب والد ابن الميقن حتى توقفت يداه)

(26) عبد اللطيف حمزة ، ابن الميقن ، مصر ، 1937 ص : 83 .

لقد أيدَّ ابنُ المقفعَ أَنَّ لَا رَجْعَةَ إِلَى الوراءِ ، فَالإِسْلَامُ يُقْوِي يَوْمًا بَعْدِ يَوْمٍ ، وَدُولَتُهُ وَسُلْطَانَهُ مَا زَالَتْ تَمَدُّدُ وَتَسْعَ ، وَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ مَكِّنَ لَهَا فِي الْبَلَادِ الْمُفْتَوِحَةِ ، وَلَمْ تَعْذُ اللُّغَةُ الرَّسْمِيَّةُ فَحَسْبٌ ، وَإِنَّمَا لُغَةُ الْبَقَافِيَّةِ أَيْضًا ، فَخَصَّتِي عَلَى التِّرَاثِ الْفَارَسِيِّ مِنَ الْأَصْبَاحِ وَالْإِنْدَثَارِ ، وَعَمِلْتُ عَلَى تَرْجِمَةِ عِيُونِهِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ مُحَاوِلًا نَكِيفَ تِرَاثِ أَجْدَادِيِّ مَعَ الإِسْلَامِ ، يَظْهُرُ ذَلِكُ فِي رِسَالَةِ الصَّحَابَةِ⁽²⁷⁾ الَّتِي دَعَا فِيهَا إِلَى تَنظِيمِ الدُّولَةِ عَلَى أَسْسٍ سَلِيمَةٍ ، وَهُوَ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ بَعِيدٌ كُلَّ الْبَعْدِ عَنِ الشَّعُوبِيَّةِ ، وَلَئِنْ أَسْتَوْصِي خَيْرًا بِالْجَنْدِ مِنْ أَهْلِ خَرَاسَانَ ، فَقَدْ وَضَعَّ الأَسْسَ الْعَلَمِيَّةَ الَّتِي تَبَعَّدُ الْجَيْشُ عَنِ السُّلْطَةِ ، وَنَصَّخَ بِإِنشَاءِ قَسْمٍ لِلْمَخَابِراتِ حِرْصًا عَلَى سَلَامَةِ الدُّولَةِ وَقِيمَةِ الْفَتْنَ⁽²⁸⁾ . كَمَا دَعَا إِلَى تَنظِيمِ الْفَضَّاءِ بِشَكْلٍ يَقْضِي عَلَى الْفَوْضِيِّ الْفَضَّائِيِّ الْقَائِمَةِ⁽²⁹⁾ ، وَدَعَا السُّلْطَانَ إِلَى اخْتِيَارِ بَطَانَتِهِ عَلَى أَسْسِ النَّسَبِ وَالْحَسَبِ وَالْكِفَائِيَّةِ ، وَرَأَى أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْجَائزِ أَنْ يَدْخُلَ الْمَوَالِي عَلَيْهِ ، وَيُحْجَبَ عَنِ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَعَنِ الْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالْأَشْرَافِ الْعَرَبِ وَوَجْهِهِمْ ، وَدَعَا لِلرُّفَقِ بِأَهْلِ الْكُوفَةِ وَالْبَصَرَةِ وَالْعَرَاقِ عَامَةً ، وَهُؤُلَاءِ مِنَ الْعَرَبِ بِمَعْظِمِهِمْ ، كَمَا دَعَاهُ إِلَى الرِّفْقِ بِأَهْلِ الشَّامِ وَاصْطَنَاعِهِمْ ، وَبِنِذِ الْكَرِهِ وَالْحَقِيقِ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا أَنْصَارًا لِلْأَمْوَابِ وَجَنَدِهِمُ الْمُخْلَصِينِ . وَيُلْتَفَتُ إِلَى أَهْلِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فِيهِدِيَ مِنْ غَضْبِ الْمُنْصُورِ عَلَيْهِمْ ، فَهُمُ الْمَهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالْمُجَاهِرُونَ لِحَرَمِ رَسُولِ اللَّهِ وَبَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَبِلَادِهِمْ فَقِيرَةُ ، فَإِنْ لَمْ يَرْسُلْ إِلَيْهِمُ الْأَمْوَالَ ، فَالْأَوْلَى أَنْ يُقْنِي فَضْلَ أَمْوَالِهِمْ فِيهِمْ .

وَهُوَ لَمَّا سَأَلَ جَمَاعَةً مِنَ الْعَرَبِ عَنْ أَعْقَلِ الْأَمْمِ ، فَأَجَابَهُ بَعْضُهُمْ ، فَقَالَ : الْهَنْدُ ، وَقَالَ آخَرُ : الصِّينُ ، وَقَالَ غَيْرُهُ الرُّومُ ، لَمْ يَرْضَ ، فَقَالُوا : الْفَرْسُ ، ظَنَّا مِنْهُمْ أَنَّهُ يَرِيدُ قَوْمَهُ ، أَجَابُوهُمْ بِجَوابِ الْعَاقِلِ الَّذِي لَا يُؤْثِرُ الْهُوَيِّ ، بَأَنَّهُ وَإِنْ فَاتَهُ نَصِيبُهُ مِنَ النَّسَبِ ، لَمْ يَفْتَهُ نَصِيبُهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ ، وَحَكَمَ لِلْعَرَبِ ،

(27) ابن المقفع ، الآثار الكاملة ، مكتبة الحياة ، بيروت 1978 ، رسالة الصحابة ص : 345

(28) مصدر نفسه . ص : 348-347

(29) مصدر نفسه . ص : 353 وما بعدها .

وعلل حكمه بأنهم حكموا على غير مثال مثل لهم ، وأن الفصاحة والبلاغة فيهم ، وان الرسول والدين فيهم ، فحكمهم نسخ حكم من قبلهم ، ودينهم نسخ أديان من قبلهم ، والناسخ أفضل من المنسوخ « فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خصم »⁽³⁰⁾ .

قد يكون ابن المقفع تزيلاً في أخبار الفرس ، ووضع على لسانهم حكماً وأدباً ، وبالغ في مأثرهم بعض المبالغة صادراً في ذلك عن ميل لقومه ، وعن رغبة في إظهارهم كامة عظيمة لا تقل شأناً عن غيرها من الأمم ، لكن ذلك ميلٌ طبيعيٌ مركبٌ في النفس البشرية ، ونمو ابن المقفع واكتهاله على غير الإسلام شافع له في ذلك ، ومن العسف اعتبار هذا المقدار شعوبية . أما ما ظهر من ملامح شعوبية في مقدمة كليلة ودمنة ، فقد أثبت أحمد أمين بأن واضع تلك المقدمة غير ابن المقفع ، وهو علي ابن الشاه وهو مشهور بشعوبية⁽³¹⁾ ، فلا عجب إذا كان في تلك المقدمة تحريف للفرس بالإنقضاض على العرب ، وإحياء دول العجم ، فقد تكلّفَ كاتب المقدمة البحث عن السبب الذي دفع بيبديا على تأليف كتابه ، فزعم أنه ديشليم ، إنما صار ملكاً للهند بعد رحيل الإسكندر من الهند ، وتسلكه رجلاً فيها ، فعزلته الهند ، لأنه ليس من ملوكها ، ولم تملّكه عن رضي منها ، وقال يحرّض الفرس على الإقداء بالهند : « فلما بعد ذه القرنين عن الهند بجيشه ، تغيرت الهند عما كانوا عليه من طاعة الرجل الذي خلفه عليهم ، وقالوا : لا يصلح للسياسة ، ولا ترضي الخاصة والعامة أن يملّكون عليهم رجالاً ليس هو منهم ، ولا من أهل بيونهم ، فإنه لا يزال يستذلهم ، ويستغلّهم ، واجتمعوا يملّكون عليهم رجالاً من أولاد ملوكهم »⁽³²⁾ .

وأما باب بروزيه الذي اتهمه البيروني بوضعه للتزويج للمانوية⁽³³⁾ ، فقد

(30) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : ٣ ص : 246-247.

(31) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج : ١ ص : 217.

(32) ابن المقفع ، كليلة ودمنة ، ص : 29.

(33) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص : 123.

ثبت أنه من أصول الكتاب ولا دور لابن المقفع في إلا الحكاية والترجمة (34) أما ميل ابن المقفع لقومه، فيظهر في باب الناسك والضيوف، إذ إن من الثابت حتى الآن، أن هذا الباب من وضعه، وقد حاول فيه أن يدفع أبناء قومه للتمسك بلغتهم حتى لا يمحى أثرها، ويدرس لفظها (35).

وبعد، فطبعي أن لا يظهر من ابن المقفع سوى هذا الميل الخفي إلى قومه، وحبه في إبراز ثقافتهم وعظمتهم، فالشعوبية كحركة أدبية ترمي إلى مقاومة روح السيادة العربية، لم تبلور تماماً في زمن ابن المقفع، وما زالت تتلمس طريقها للظهور والسفر.

شعوبية أبي عبيدة:

وتجلت عند روایة علامة باللغة والأنساب وأيام العرب، وهو أبو عبيدة معمر ابن المثنى وكان غزير العلوم «لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه، قدم بغداد أيام هارون الرشيد» (36).

من مؤلفاته كتاب المثالب الذي طعن فيه على العرب كما طعن على بعض أسبابِ الرسول وقد أحصى له ابن النديم مئة وخمسة كتب وزعها على القرآن والقبائل والمجازي والفتح والموالى والفرس والحيوان والشعراء واللصوص (37).

وكان يميل إلى ثلب الناس حاقداً على العرب «يرميهم بما يسيء الناس ذكره ولا يحسن وصفه» (38).

(34) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص: 521.

(35) ابن المقفع، كلبة ودمنة، ص: 271 وما بعدها.

(36) البغدادي، تاريخ بغداد، ج: 13 ص: 252.

(37) ابن النديم، الفهرست، ص: 79.

(38) المسعودي، مروج الذهب، ج: 4 ص: 36.

وكانت الموالي تعصب له فكان أبو نواس يفضله ، ويأخذ عنه ويعاشه ، فكتب على اسطوانة المسجد حيث يجلس أبو عبيدة :

« صلَى اللَّهُ عَلَى لَوْطٍ وَشَيْعَتِهِ أَبَا عَبِيدَةَ قُلْ بِاللَّهِ آمِنًا
فَأَنْتَ عَنِي بِلَا شُكْ بِقَيْتُهُمْ مِنْذَ احْتَلَمْتَ وَجَاؤَتِ الشَّمَانِيَا »⁽³⁹⁾

وكان إذا سُئِلَ عنه وعن الأصمعي قال : « لو أمكنُه لروي لهم أخبار الأولين والآخرين ، أما الأصمعي فبلبل في فقص ، يطربُهم بنغماته »⁽⁴⁰⁾ وكان اسحاق الموصلي يتعصب له ، ويقدمه على الأصمعي ، من ذلك قوله للفضل ابن الربيع :

« عليك أبا عبيدة فاصطنعه فإنَّ الْعِلْمَ عِنْدَ أَبِي عَبِيدَةِ
وَقَدْمَهُ وَأَثْرَهُ عَلَيْنَا وَدَعْ عَنْكَ الْفَرِيدَ ابْنَ الْفَرِيدَةِ »⁽⁴¹⁾
ويظهر أنه كان ممقوتاً لكثرة تعرضه للناس ، فلما مات ، لم يتبع جنازته أحد ، وعنه قال أبان الاحقى « يقدح بالأنساب ولا نسب له »⁽⁴²⁾ .

ولعل تعصبه على العرب وحقده عليهم هو الذي دفعه لشرح نفائض جرير والفرزدق إمعاناً في ثلب العرب وتنفسها . وكان يسلك في ذلك طرقاً ملتوية . فكان يتبع قلبه ، وينصب فكره في جعل « الحسنة سيئة والمنقبة مثابة ، ويحتاج لإخراج الباطل في صورة الحق »⁽⁴³⁾ .

وقد ذكر ابن قتيبة مثلاً على طعن أبي عبيدة في مناقب العرب ، فقال : « يقصد من المناقب لمثل قوس حاجب ، ويضحك منها ، ويزرى بها ، وينذهب

(39) البهتي ، المحسن والساوى ، ص : 602.

(40) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج : 2 ص : 130.

(41) البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 13 ص : 255.

(42) الصولي ، أخبار الشمراء المحدثين ، ص : 36.

(43) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلقاء) ص : 346.

في ذلك الى خسارة العود وقلة ثمنه ، وهذا لوكان على مذاهب التجار . . .
لرجع العيب على الأخذ لا على الدافع »⁽⁴⁴⁾ .

شوبية علان الوراق :

وكان علان الوراق شعوبياً شديد العصبية على العرب ، شاعراً أدبياً ، علاماً بالأنساب والمثالب ، نقض قصيدة محمد ابن يزيد الأموي لما هجا الطاهريين⁽⁴⁵⁾ وكان مقرباً للبرامكة منقطعاً إليهم ، يعمل في بيت الحكمة لعهدي الرشيد والمأمون ، فألّف كتاب الميدان في المثالب ، يحتوي على جميع مثالب العرب ، ابتدأ ببني هاشم قبيلة بعد قبيلة على الترتيب الى قبائل اليمن على ترتيب ابن الكلبي⁽⁴⁶⁾ .

من أعلام الشعوبية :

ومن أعلام الشعوبية سهل ابن هارون الدستمياني ، وكان متلحقاً بخدمة المأمون وصاحب خزانة الحكم « وكان حكيمًا فصيحاً شاعراً . . . شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب ، وله في ذلك كتب كثيرة ، ورسائل في البخل⁽⁴⁷⁾ أراد فيها التنقد من فضيلة الكرم العربية . ومنهم محمد ابن الليث الخطيب ، وكان من كتاب يحيى ابن خالد ، وله ولاء في بني أمية ، وأخباره متناقضة منها أنه كان على الزندقة ، ومنها أنه رد على الزندقة ، وله كتاب في ذلك ، وأنه كان فيه ميل على العجم ، وأن البرامكة كانت تغضبه لذلك⁽⁴⁸⁾ ٧

(44) مصدر نفسه . ص : 347-346.

(45) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 12 ص : 193 وما بعدها .

(46) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 154-153.

(47) مصدر نفسه . ص : 174 ، ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 11 ص : 266 وما بعدها .

(48) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 175 .

ومنهم علي ابن عبيدة الريحااني أحد البلغاء والفصحاء وله اختصاص بالملعون ، ويسلك في تصنيفاته وتأليفاته طريقة الحكم ، وكان يرمي بالزندة ، وقد أحصى له ابن النديم نحو خمسة وخمسين كتاباً أكثرها في أخبار العجم⁽⁴⁹⁾. ومنهم سعيد ابن حميد ابن البختكان ، وكان يدعى أنه من أولاد الملوك وله كتاب انتصف العجم من العرب ، ويعرف بالتسوية⁽⁵⁰⁾ اتهم بالزندة وسُجن عليه ثم ثبت براءته ، فخلق سببه⁽⁵¹⁾ ، وهو إن ثبت براءته من الزندة ، فشعوبية ثابتة قد ألف فيها .

ومنهم الهيثم ابن عدى ، وكان يدعى في ثعل⁽⁵²⁾ وهو عالم بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب وله مؤلفات عدّة في مثالب العرب ، وكان يطعن في نسبة ، هجاه دليل الخزاعي فقال :

« سالت أبي وكان أبي عليماً بأخبار الحواضر والبوادي
فقلت له أهيثم من عدىٰ فقال كأحمد ابن أبي دؤادٰ
فإن يك هيثم نهم صحيحاً فاحمد غير شيك من إيادٰ »⁽⁵³⁾

ومنهم أبو عبد الله الجهمي « وكان اديباً راويةً شاعراً مفتتاً ، ويدرك النسب والمثالب ، ويتناول جلة الناس ، ثلب نفراً من صحابة الرسول ، منهم ابن عباس ، وله كتاب في المثالب ، لكن ابن النديم يضطرب في أخباره ، فيذكر أن له كتاب الابتصار في الرد على الشعوبية⁽⁵⁴⁾ فكيف يكون شعوباً يؤلف في المثالب العربية ، ثم يؤلف الكتب في الرد على الشعوبية ؟

(49) مصدر نفسه . ص : 173.

(50) مصدر نفسه . ص : 179.

(51) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ج : 17 ص : 2

(52) ثعل : إحدى قاجل العرب .

(53) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 145.

(54) مصدر نفسه . ص : 162.

ومنهم الملقب بياح بما في الفؤاد باحا . وله كتاب التوشيع والترشيح في بعض النسوية بين الشعوبية⁽⁵⁵⁾ .

ومنهم محمد ابن علي الأصبهاني وله كتاب مثالب ثقيف وسائر العرب⁽⁵⁶⁾

ومنهم أحمد ابن محمد الجيهاني ، وقد حكى عنه التوحيد مذهبة في ذم العرب والنيل منهم ، ورد عليه⁽⁵⁷⁾ .

ومنهم ابو الريحان البيروني وقد ضمَّ كتابيه تحقيق ما للهند والأثار الباقة بعض آرائه الشعوبية .

ومنهم حمزة ابن الحسن الأصفهاني وله كتاب أصفهان وأخبارها⁽⁵⁸⁾ .

ومنهم أبو الحسن علي ابن حمزة ابن عمارة الذي ألف كتاباً سماه قلائد الشرف ، فسخنه بأخبار الفرس في السير والأبيات ، نبذ بينهما جملًا من أخبار أصبهان وكان أهل أصبهان يتعصبون له⁽⁵⁹⁾ .

ليس من غايتنا سرد أسماء الشعوبين ومن تعصُّب للعجم وطعن على العرب ، فجُل مؤلفاتهم في هذا الموضوع ضاعت وامحى أثرُها غير فلذاتٍ متثنثرةٍ في بطون الكتب ، أوردها مَنْ أراد الردّ عليها ، وتسيفيه عقول أصحابها ، ولا يغرب عن أذهاننا أنَّ الشعوبية تهمة لطخت سمعة العديد من الكتاب بالباطل أحياناً ، شأنها في ذلك شأن تهمة الزندقة ، فكثير ما يُنسب لأحد الكتاب كتاب في مثالب العرب كتاب آخر في الردّ على الشعوبية ، وهي تهمة لم يسلم منها حتى الجاحظ مع طول باعه في الردّ على الشعوبية والزندقة وتغريد مزاعمها ، فقد اتهمه

(55) مصدر نفسه . ص : 196.

(56) مصدر نفسه . ص : 196.

(57) التوحيدى ، الإمتاع والمؤانسة ، ج : 1 ص : 79 وما بعدها .

(58) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 199.

(59) ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 13 ص : 203 وما بعدها .

السعودي بالشعوبية⁽⁶¹⁾ كما اتهمه ابن خلkan بالزنقة⁽⁶²⁾.

وإنما غايَتْنا إظهاراً أن الشعوبية استمرت قوية نشطة عدة قرون وأنها حركة بلغت من الخطورة والأهمية حتى انبرى لها عدداً من جلة الأدباء والمفكرين للرد عليها وتفنيد مزاعمها ودحض آرائها . فما هو المضمون الفكري للدعوي الشعوبية ؟

دعّاوي الشعوبية :

انطلقت الشعوبية في دعوتها من المبدأ الإسلامي القائل بالمساواة المطلقة بين المسلمين في الحقوق والواجبات دون تفرق أو تمييز ، واعتمدت على قوله عزّ وجلّ : (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَبَلَى لَتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاصُكُمْ)⁽⁶³⁾ . وقوله (إنَّ الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَوْهُ ، فَاصْلَحُوهُ بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ)⁽⁶⁴⁾ ، واحتَجَتْ بحديث الرسول في خطبة الوداع : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نُخْوَةَ الْجَاهْلِيَّةِ ، وَفَخَرَّهَا بِالْأَبَاءِ ، لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، كُلُّكُمْ لَآدَمُ ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ . وَقُولُهُ : الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَوْهُ تَكَافَأْ دَمَائُهُمْ ، وَيسْعَى بِذِمْتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَهُمْ يَدْعُونَ مِنْ سَوَاهِمِهِمْ »⁽⁶⁵⁾ فانطلقت تدعو للمساواة بين المسلمين وحاجتها « إِنَّ النَّاسَ كُلُّهُمْ مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ وَسَلَالَةٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ »⁽⁶⁶⁾ .

(60) السعدي ، مروج الذهب ، ج : 2 ص : 53.

(61) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 177.

(62) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج : 2 ص : 151.

(63) القرآن الكريم ، سورة العجرات ، الآية رقم : 13.

(64) مصدر نفسه . سورة العجرات ، الآية رقم : 10.

(65) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 2 ص : 229.

ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 322-323.

(66) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 317.

لكنَّ هذه الدعوة ، بالرغم من عدالتها والتغافل جمهور كبير من المؤمنين حولها ما كان لها أنْ تيقَّنَ عند هذا الحد من المطالبة بالمساواة ، لأسباب منها : أنَّ مطلقيها ، لم يقفوا بطمأنة وطنهم وطروحتهم عندهما ، إذ لم تكن إلَّا دعوة مرحليَّة في مخطط شامل يهدف إلى هُرَبِ الذَّاتِ العربيَّة وزعزعتها وهزيمتها وتغليب الذَّواتِ الأخرى عليها ، وخاصةً الذَّاتِ الفارسية . وأنَّ العَربَ ما زالوا يشكُّلون أرستقراطية إسلاميَّة لها مكانتها الإجتماعية والسياسيَّة ، والعريبي ، ما زال بحكم انتمائه للقبيلة يفاخر بها ، ويعدد مآثرها ، وقد زاده الإسلام فخراً بالدين وشعوراً بالتفوق والإمتياز على غيره من الشعوب ، فرفض الدعوة الشعوبية للمساواة ، قائلًا : « لا تساوينا العجم ، وإنْ تقدمنا إلى الإسلام ، ثم صلتْ حتى تصير كالحنى ، وصامت حتى تصير كأوتار »⁽⁶⁷⁾ .

وفزع كُلُّ فريقٍ إلى كتابِ اللهِ وحديثِ رسولِهِ بؤيُّد وجهة نظره ، فكذبوا على رسول الله ، ووضعوا الأحاديث على لسانِهِ ، من ذلك أنَّ فرِيَشَا سالت رسول الله ، فقالت : « أتباعُك من هؤلاء الموالي ، كبلال وعمار وصهيبٌ خَيْرٌ من قُصيَّ ابنِ كلابٍ وعبدِ منافٍ وهاشمٍ وعبدِ شمسٍ ؟ فقال : نعم ، واللهِ لئنْ كانوا قليلاً ليكثُرُنَّ ، وإنْ كانوا وضعاءً ليشرفُنَّ ، حتى يصيروا نجوماً يُهتَدى بهم ، ويُقتَدَى ، فيقال : هذا قول فلان وذكر فلان ، فلا تفاخروني بآبائكم الذين مُوتُوا في الجاهلية ، فلما يدهدهِ الجُعلُ بمنخره خيرٌ من آبائكم الذين مُوتُوا فيها ، فاتبعوني أجعلكم أنساباً »⁽⁶⁸⁾ ومنها أنه قال : رأيت غنماً سوداً ودخلت فيها غنم كثيُرٌ يضُرُّ ، فقالوا : فما أُولئِنَّهُ يا رسولَ اللهِ ؟ قال : العجمُ يشركونكم في دينكم وأنسابكم ، قالوا العجم يا رسول الله ! قال : لو كان الإيمان معلقاً بالثريا لَأَلَّهَ رجالاً من العجم »⁽⁶⁹⁾ . ومنها « أَنَّ اللَّهَ إِذَا غَضِبَ ، أَنْزَلَ الْوَحْيَ بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَإِذَا رَضِيَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ بِالْفَارَسِيَّةِ »⁽⁷⁰⁾ .

(67) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 317-318.

(68) ابن القارح ، رسالة ابن القارح (رسائل البلقاء) ص : 267.

البيهقي ، المحسن والمساوي ، ص : 101 مع اختلاف في اللفظ .

(69) الدميري ، حياة الحيوان الكبير ، ج : 2 ص : 189-190.

(70) الحاجري ، العجاظ ، حياته وأثاره ، ص : 53.

ولقد حاولت الشعوبية سُلْطَنَ قُرَيْشَ عن العرب حتى لا يفاحرهم العرب بمحمد ، فحدّثوا عن علي ابن أبي طالب قوله : « منْ كان سائلاً عن نسبنا ، فإننا من نبط كوثي » وحدّثوا عن ابن عباس بمثله فقالوا إِنَّه قال : « نحن معاشر قريش حي من النبط ، من أهل كوثي والأصل آدم ، والكرم التقوى ، والحسبُ الخلقُ ، والى هذا انتهت نسبة الناس » ⁽⁷¹⁾ .

أضف إلى ذلك أحاديث كثيرة حتى نسبوا إلى النبي أحاديث في محاسن الديوك وذم الكلاب ⁽⁷²⁾ . وذلك أن العصبية الشعوبية ، دفعت أهلهما للتتصّب على الجزيرة العربية وحيوانها ونباتها ، ومضوا ، يطعنون على العرب في جاهليتهم محاولين إظهار العرب بمظهر الإفلات الحضاري ، وكأنهم أمّة حديثة النشأة لاحظ لها من الحضارة والتقدم ، فخاطبوا العرب بقولهم : « أخبرونا ، إنْ قالت لكم العجم ، هل تعدون الفخر كُلَّه أَنْ يكون ملكاً أو نبوة؟ فإنْ زعمتمْ أَنَّه

(71) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة كوثي ، ج : 4 ص : 488.

(72) وكما وضعت الشعوبية الحديث على لسان الرسول تؤيّد فيه موقفها ، وتندّى من عصدها ، فقد وضع المتعصبون العرب أحاديث تناقضها ، وتذهب في تفضيل العرب كلّ مذهب وتوكّد على مكانة العرب في الإسلام .

انظر في ذلك البهقي ، المحاسن والمساويه ، ص : 76. وابن عبد ربه ، العقد ، ج : 3 ص : 246 ، وطه الحاجري ، الجاحظ ، حياته وأثاره ، ص : 53 - كتاب العرب في مجموعة رسائل البلقاء لمحمد كرد علي في صفحات متفرقة عديدة .

هذه الأحاديث وأمثالها دفعت عدداً من المستشرقين إلى الشكّ بكثير من الأحاديث النبوية المؤلفة ، فشك (Goldziher) في خطبة الوداع ، وزعم أن المسلمين الجدد وضعوها ، ليبرهنوا أن الرسول أراد مساواة جميع المسلمين من عرب وغيرهم ، وجحّته في ذلك أنَّ المتدينين الذين يرغبون تحقيق مبدأ المساواة في الإسلام ، أسهموا في ذلك ، كما أسهم في ذلك الذين كانوا يرغبون في تخفيف كبريهاء الفاتحين فعملوا إلى اوقن المصادر عندهم وهو الحديث النبوي . انظر :

Goldziher, Muhammedanische Studien P. 101.

وذهب غيره إلى القول بأنَّ الإسلام نزل بصورة عربية صرفة ، والعالم بالنسبة لمحمد كان الجزيرة العربية والرسالة المحمدية نزلت لها وحدها وبليسان أهلها من العرب ، زُدَ على ذلك أن فكرة الامبراطورية العالمية لا توجد بوضوح في القرآن الكريم .

⁷¹Muir, The Caliphate. P; 42-43.

ملك ، قالت لكم : وإن لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والنمارة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة ، وهل ينبغي لأحدٍ أن يكون له مثل ملك سليمان الذي سخرَت له الأنسُ والجن والطير والريح ، وإنما هو رجلٌ منا ؟ أم هل كان لأحدٍ مثل ملك الإسكندر الذي ملك الأرض كلها ، وبلغ مطلع الشمس ومغربها ، وبنى ردمًا من الحديد ساوي به بين الصَّفَدَيْن ، وسجَنَ وراءه خلقًا من الناس ، تربى على حلق الأرض كلها كثرة ، يقول الله عزَّ وجلَّ : (حتى اذا فتحت ياجوج وmajوج هم من كل حذب ينسرون) وليس لأحدٍ من ولد آدم مثل آثاره في الأرض ؟ ولو لم يكن له إلا مناية الإسكندرية الذي أسسها في قعر البحر ، وجعل رأسَها مرأة يظهر البحر كله في زجاجتها »⁽⁷³⁾ .

وافتخرَوا بملوك الهند ، وذكروا رسالَةً كان قد وجهها أحد ملوكها إلى الخليفة الأموي عمر ابن عبد العزيز ، يذكر فيها عراقتَه وعظمتَه بأنه ابن ألف ملك ، وتحتَه بنت ألف ملك ، وفي مربطه ألف فيل⁽⁷⁴⁾ .

وإن زعمَ العرب أنَّ الفخرَ لا يكون إلَّا بالنبُوة ، أجابُوهُم بأنَّ الأنبياء جمِيعاً من العجم ما خلا أربعة : هوداً وصالحاً وإسماعيلَ ومحمداً ، وافتخرَوا بأدَمَ ونوح ، فقالوا : « ومن المُصطفون من العالمين : آدمُ ونوحُ ، وهما العنصران اللذان تفرَّغَا منها البشر : فتحنَّ الأصل ، وأنتم الفرع ، وإنما أنتم غصنَ من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم »⁽⁷⁵⁾ .

وبعد فخرهم بأنبياء الأرض وملوكها ، افتخرَوا بتفوقِ الحضارات الأخرى على الحضارة العربية ، فقالوا : إنَّ للأممِ الأخرى من الأعاجم ملوكاً تجمعُها ، ومدنًا تضمُها ، وأحكاماً تدين بها ، وحضاراتٍ تتاجها فلسفة ، وعلوم وفنون وصناعات وألوان من وسائل اللهو والترفية في حين أنَّ العربَ تفتقرُ إلى ملكٍ يضمُها ، وقوانين تحكمُ إليها ، وحضارتها خالية من التتابع العلمي والفكري ،

(73) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج : 3 ص : 318.

(74) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 318.

(75) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 318.

فما لها نتيجة في صناعة ، ولا أثر في فلسفة ، إلا ما مكان لها من الشعر ، وهذه الميزة لم تكن خاصةً في العرب مقصورة عليهم فقد شاركthem الأمم الأخرى فيها إذ إن للروم أشعاراً قائمةً الوزن والعروض⁽⁷⁶⁾.

وطعنوا على العرب باستعمالهم آلات بدائية في حروبهم ، وذكروا أن رماحهم كانت من مران وأستتهم من قرون البقر ، وأنهم يركبون خيلهم دون سروج ، فإن كان للفرس سرج ، فلم يكن ذا ركاب ، مع أن الركاب من أجود آلات الطاعن برمجه والضارب بيده ، وأنهم يستعملون الرماح الصماء ، والجوفاء أخفَّ محملاً وأشدَّ طعنةً ، وهم يفخرون بطول القناة ، ولا يعرفون المطارد ، وإنما الطوال للمشاة والقصار للفرسان ، والمطارد لصيد الوحش ، ويفخرون بقصر السيف « فلو كان المفتخر بقصر السيف الرجال دون الفارس لكن الفارس يفخر بطول السيف ، وإن كان الطول في الرمح إنما صار صواباً لأنَّه ينال به البعيد ، ولا يفوته العدو ، وإن ذلك يدلُّ على شدة أسر الفارس وقوته أينما ، فكذلك السيف العريض الطويل »⁽⁷⁷⁾.

وقالوا إنهم لا يعرفون من آلات الحرب مثل « الرتيلة⁽⁷⁸⁾ » ، ولا العرادة ، ولا المجانيق⁽⁷⁹⁾ ، ولا الدباب⁽⁸⁰⁾ ، ولا الخنادق⁽⁸¹⁾ ، ولا الحسك ، ولا تعرفون : الأقبية ولا السراويلات ، ولا تعليق السيف ، ولا الطبوئ ، ولا البنود والتجافيف ، ولا الجواشن ، ولا الخوذ ، ولا السواعد ، ولا الأجراس ، ولا الوهق ، ولا الرمي بالبنجان⁽⁸²⁾ ، ولا الزرق بالنقط⁽⁸³⁾ ».

(76) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 319.

(77) الجاحظ ، أبيان والتبيين ، ج : 3 ص : 399-400.

(78) من آلات الحرب

(79) آلات حربية ترمي بها القذائف (كلمة يونانية)

(80) دباب : جمع دبابة وهي آلة تتحذى في الحصار ، كانوا يدخلون في جوفها ثم تدفع في أصل الحصن فيقتبوه

(81) الخنادق : جمع خندق : حفير حول أسوار المدينة (كلمة فارسية)

(82) كل هذه الألفاظ من آلات الحرب وطرزها والتي يدعى الشعوبيون أن العرب لا علم لهم بها .

(83) الجاحظ أبيان والتبيين . ج : 3 ص : 400.

وانتقدوا أساليب العرب القتالية ، فقالوا : إنهم لا يقاتلون بالليل ، ولا يعرفون الكمين ، ولا الميمنة ، ولا الميسرة ، ولا القلب ، ولا الجناح ، ولا الساقية ، ولا الطليعة ، ولا النفاضة ، ولا الدرجة ، وإنه ليس في حربهم صاحب علم يرجع إليه المنحاز⁽⁸⁴⁾ ، ويتذكره المنهزم ، وتمثلوا على أنَّ العرب لا تقاتل بالليل بأقوال الشعراء ، كقول العامری :

« يا شدة ما شدَّنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم »⁽⁸⁵⁾

وينتقل الشعوبيون الى مناقب العرب ، فيسخرون منها ، ويُهُونُون من أمرها ، فاذا افخر التميمي أو العربي بحاجب ابن زراة وقوسه ، ضحك الشعوبيون من هذه المأثرة ، وأزروا عليها ذاهبين في ذلك إلى خساسة العود وقلة ثمنه متسائلين عن الحكم بالفخر بمثل هذه القوس التي يستطيع الإنسان استبدالها ، او الإستغناء عنها بأهون السبل⁽⁸⁷⁾ .

وإذا سمعوا قول القائل :

« أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذي البردين والفرس والورد »

تضاحكوا بالشعر ، واستهزؤا بالبردين والفرس الورد ، وعارضوا ذلك بملوك فارس وأسرتها وتيجانها ، وقالوا : إنَّ أبرويز ارتبطَ سعماية وخمسين فيلاً على مرابطه ، واقتني في قصره ألف إنسان من ذهب ، وخدمته ألفُ جارية⁽⁸⁸⁾ .

ثم انتقلوا الى فضيلة الكرم العربية ، فذمّوها ، وبهرجوا عقول أصحابها ، وتمدّحوا بالبخل ، ووضعوا فيه الرسائل التي تحسنه وتدعوه إليه⁽⁸⁹⁾ .

(84) المنهزم من الخصم اليه والمنضم له .

(85) سخينة : نوع من الطعام كانت قريش تكثر منه فلقبت به

(86) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 400 .

(87) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 347-346 .

(88) مصدر نفسه . ص : 348 .

(89) مثلاً رسالة سهل ابن هارون ورسالة ابن التوأم في البخل ، وقد تعرضنا لهاتين الرسائلتين فيما سبق من هذا البحث .

وأتهموا العرب بالكذب والمبَلَّغَةِ ، وذكروا شعراً العرب وما في شعرهم من هجاء للأضياف كمزرد وحميد الأرقط ، وتساءلوا : بأي شيء يكون كرم العربي ؟ ومطاعمة خبيثة ذئب كالحيات والضباب واليرابيع والعلهز⁽⁹⁰⁾ ، وشربه الفظ⁽⁹¹⁾ والمجدوح⁽⁹²⁾ ، وإن كان موسراً أكل لحوم الإبل حينذاً غير نضيج ، ونياً ، والعروق والعالي⁽⁹³⁾ ، وسقط المائدة ، لا يعاف شيئاً ، ولا يتقدُّر من أكل السبع ، ونهش الكلاب ، وافتخرنا بآطعمه العجم ، وحلوانها ، وأدابها على الطعام وأكلها باليارحين⁽⁹⁴⁾ والسكنين⁽⁹⁵⁾ . وسخروا من شجاعة العرب وأيامها ، وقاييسوا في ذلك أساورة فارس ومرازبتها ، وعددوا أيامها وبطلانها⁽⁹⁶⁾ وغيروا العرب بوأد بناتهم وما في هذا التصرف من وحشية ، وبعدِ عن الإنسانية⁽⁹⁷⁾ . وقدح الشعوبيون بأنساب العرب وشكوا بصفتها وصفاتها ، وقالوا : « فإنما هي (العرب) كالذئاب العادمة ، واللحوش النافرة ، يأكل بعضها بعضاً ، ويغير بعضها على بعض ، فرجالها موئقون في حلقة الأسر ، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل ، فإذا أدركهن الصريح ، استنقذوا بالعشي ، وقد وطنن كما توطن الطريق الممْهِي⁽⁹⁸⁾ » ، فخر بذلك شاعر ، فقال :

وَالْحَقُّ رَكْبَ الْمُرْدَفَاتِ عَشِيَّةٌ

فَقِيلَ لَهُ : وَيَحْكُ ! وَأَيْ فَخِيرٍ لَكَ أَنْ تَلْحُقَ بِالْعَشِيِّ ، وَقَدْ... امْتَهِنَ »⁽⁹⁹⁾

(90) العلهز : القردان ترض وتعجن بالدم .

(91) الفظ : الكرش يعتصر ويشرب في المفاوز

(92) المجدوح : دم كان يخلط مع غيره في وكل أو هو مصل الدم فيشرب

(93) عاليٰ : جمع علباء : عصبة في صفحة العنق

(94) آلة كالشوكة .

(95) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 363.

(96) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 370.

(97) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ج : 1 ص : 148.

(98) الممْهِي : الطريق الواسع البعين .

(99) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 319.

وبعد ذكر الكثير من الشواهد على سبي النساء ، ووطنهن في الجاهلية ، قالوا : إنَّ الْعَرَبَ فِي جَاهْلِيَّتِهَا يَنْكِحُ بَعْضُهَا نَسَاءً بَعْضَهُمْ فِي غَارَاتِهِمْ ، بِلَا عَدْنَكَاحٍ ، وَلَا إِسْتِبْرَاءَ مِنْ طَمْثٍ ، فَكَيْفَ يَدْرِي أَحَدُهُمْ مَنْ أَبُوهُ؟⁽¹⁰⁰⁾ . أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ [أَرْتِكَابَهُمُ الْعَظَائِمُ وَالْفَضَائِحُ ، وَنَكَاحُ الْجَبَالِيِّ] ، وَاجْتِمَاعُ النَّفَرِ عَلَى إِتْيَانِ امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الطُّهُورِ الْوَاحِدِ ، وَادْعَاءُ الْأَدْعِيَّةِ وَأَوْلَادُ الْأَضْيَافِ ، وَمَا فِي عِبَادَاتِهِمْ مِنَ الْمُكَاءِ⁽¹⁰¹⁾ وَالْمَتَصْدِيَّةِ⁽¹⁰²⁾ [].

ويعدّون ضروب الزواج في الجاهلية ، فيذكرون أنَّ العُرَبِيَّ كَانَ يَرْسُمُ لِامْرَأَةٍ أَنْ تَرْسَلَ إِلَى فَلَانٍ وَتَسْتَبْضَعَ مِنْهُ ، ثُمَّ يَعْتَزِلُهَا أَيَّامٌ حَمِلَهَا رَغْبَةً مِنْهُ فِي نِجَابَةِ الْوَلَدِ ، وَقَدْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِلْآخِرَ : إِنَّزِلْ عَنِ امْرَأَتِكَ لِي وَأَنَّزِلْ لَكَ عَنِ امْرَأَتِي ، وَمِنْهَا نَكَاحٌ الْمَقْتُ بِامْرَأَةِ الْأَبِ وَالْإِبْنِ وَاسْمُ الْوَلَدِ مِنْهُ ضَيْزِن⁽¹⁰³⁾ .

وقد تَابَعَ ابْنُ خَلْدُونَ الشَّعُوبِيَّةَ فِي تَشْكِيكَهَا بِالْأَنْسَابِ الْعَرَبِيَّةِ فَقَالَ : « وَمِنَ الْبَيْنِ أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخِرٍ بِقَرَابَةِ إِلَيْهِمْ أَوْ حَلْفٍ أَوْ وَلَاءً ، أَوْ لِفَرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجَنَاحِيَّةِ أَصَابِهَا ، فَيَدْعُونَ بِنَسَبِ هُؤُلَاءِ وَيَعْدُّونَهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ النَّعْرَةِ وَالْقُوْدِ وَحَمْلِ الْدِيَاتِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ ، وَإِذَا وُجِدَتْ ثَمَرَاتُ النَّسَبِ فَكَانَهُ وُجِدَّ ، لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لِكُونِهِ مِنْ هُؤُلَاءِ وَمِنْ هُؤُلَاءِ إِلَّا جَرَيَانُ أَحْكَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ ، وَكَانَهُ التَّحَمَّ بِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسِى النَّسَبُ الْأَوَّلُ بَطْوَلِ الزَّمَانِ ، وَيَذْهَبُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِهِ ، فَيَخْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ ، وَمَا زَالَتِ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شَعْبِ إِلَى شَعْبٍ ، وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بَآخِرِينَ فِي الْجَاهْلَيَّةِ وَالْإِسْلَامِ »⁽¹⁰⁴⁾ .

(100) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 325.

(101) المكاء : التصفيير بالفم .

(102) التصدية : الإنقضاض .

(103) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ج : 1 ص : 148.

(104) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 83.

(105) ابن خلدون - المقدمة ، ص : 130.

ثم تمثلَ على ذلك بانتساب بعض قبائل البربر إلى القبائل العربية في المغرب وشمال أفريقيا⁽¹⁰⁶⁾ .

وإذا ظنَّ الشعوبيون أنهم نجحوا في خلخلةِ الأُسُسِ العَمَلِيَّةِ للأنسابِ العربيَّةِ ، ادعوا أنهم لا ينكرُون « تبَانَ النَّاسُ وَلَا تفاضلُهُمْ ، وَلَا السِّيدُ مِنْهُمْ وَالْمَسُودُ ، وَالشَّرِيفُ وَالْمُشْرُوفُ ... إِنَّ تفاضلَ النَّاسِ فِيمَا بَيْنَهُمْ لَيْسَ بِأَبَائِهِمْ وَلَا بِاحْسَابِهِمْ ، وَلَكِنْ بِأَفْعَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَشَرْفِ أَنفُسِهِمْ ، وَبَعْدِ هُمْمَهُمْ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ مِنْ كَانَ دُنْيَةُ الْهَمَّةِ ، سَاقَطَ الْمَرْوَءَةُ ، لَمْ يُشَرِّفْ إِنَّ كَانَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فِي ذَوْابِتِهَا ، وَمِنْ أَمَّةٍ فِي أَرْوَمَتِهَا ، وَمِنْ قَبْسٍ فِي أَشْرَفْ بَطْنِهَا ، إِنَّمَا الْكَرِيمُ مِنْ كَرِمَتِ أَفْعَالِهِ ، وَالشَّرِيفُ مِنْ شَرْفَتِ هَمَّتِهِ ، وَهَذَا مَعْنَى حَدِيثِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ ، فَأَكْرَمُوهُ»⁽¹⁰⁷⁾ . فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ لَأَبٍ وَأَمَّا خُلِقُوا مِنْ تُرَابٍ وَأُعْيَدُوا إِلَى التُّرَابِ ، فَإِذَا اطْمَأْنَوْا بِأَنَّهُمْ طَلَطَوْا مِنْ كُبْرِيَّاتِ الْعَرَبِ وَشَكَّوْهُمْ بِأَنْسَابِهِمْ اتَّخَذُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَذْهَبًا آخَرَ ، فَاعْتَزَّوْا إِلَى مُلُوكِ الْفَرَسِ وَأَسَاوِرِهَا وَمَرَازِبِهَا وَعَمَالِهَا وَافْتَخَرُوا بِهِمْ⁽¹⁰⁸⁾ وَانْتَسَبُوا إِلَى إِسْحَاقَ ابْنَ ابْرَاهِيمَ ، وَفَخَرُوا بِأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ لِسَارَةِ الْحَرَّةِ ، أَمَّا إِسْمَاعِيلُ أَبُو الْعَربِ فَهُوَ لَهَا جَرِ الْأَمَّةِ ، « فَبَنُوا الْأَحْرَارُ عَنْهُمُ الْعِجْمُ .. وَبَنُوا الْلَّخْنَاءَ عَنْهُمُ الْعَرَبِ»⁽¹⁰⁹⁾

ليس ذلك فحسب بل افتخرُوا بآدم واعتَزَّوا إِلَيْهِ وتمثَّلُوا بِحَدِيثِ الرَّسُولِ « لَا تَفْضُلُونِي عَلَيْهِ (آدَمَ) فَإِنَّمَا أَنَا حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِهِ»⁽¹¹⁰⁾ .

وَعَدَّدُوا مَثَالَ الْعَرَبِ ، وَأَلْفَوْا فِيهَا الْكِتَابَ ، وَمِنْ أَشْهَرِهِمْ فِي هَذَا الْمَجَالِ أَبُو عَبِيَّةَ ، وَعَلَّانَ الْوَرَاقَ وَسَهْلَ ابْنَ هَارُونَ ، كَمَا أَلْفَوْا الْكِتَابَ فِي مَثَالِ الْعَرَبِ فَقَدْ أَلْفَوْا فِي مَاثَلِ الْفَرَسِ ، وَمَاثَلِ أَصْفَهَانَ ، وَمَاثَلِ خُرَاسَانَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُورِ وَالْمَدَنِ وَأَشْهَرِهِمْ فِي ذَلِكَ حَمْزَةُ الْأَصْفَهَانِيُّ وَعَلِيُّ ابْنِ عَمَارَةِ .

(106) مصدر نفسه . ص : 132-133.

(107) ابن عبد ربه . المقدَّسُ الفريد ، ج : 3 ص : 323-324.

(108) ابن قبيطة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 350.

(109) ابن قبيطة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص - 351.

(110) مصدر نفسه . ص : 354.

وبعد هجومهم المركّز على الجاهلية ، انتقلوا إلى العصور الإسلامية ، فقالوا : « فهذا كان شأن العرب والجم في جاهليتها . فلما أتى الله بالإسلام ، كان للجم شطر الإسلام ، وذلك أنّ النبي (ص) بعث إلى الأحمر والأسود من بني آدم ، وكان أول من تبعه حُرّ وعبد ، واختلف الناس فيما ، فقال قوم : أبو بكر وبلال ، وقال قوم : علي وصهيب »⁽¹¹¹⁾ .

وقالوا : إنَّ عمرَ ابنَ الخطَابَ لَمَّا طُعنَ قَدْمَ صَهِيْبٍ عَلَى الْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، فَصَلَى بِالنَّاسِ ، وَلَمَّا قِيلَ لَهُ : اسْتَخْلَفْ قَالَ : « لَوْ أَذْرَكْتُ سَالِمًا مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ حَيَا لَمَّا شَكَكْتُ فِيهِ . . . فَقَالَ فِي ذَلِكَ شَاعِرُ الْعَرَبِ

**هَذَا وَلَوْ كَانَ الْمُثَرَّمُ سَالِمٌ حَيَا لَنَالَ خِلَافَةَ الْأَمْصَارِ
مَا بَالُ هَذِي الْعَجْمِ تَحْيَا دُونَنَا إِنَّ الْغَوَّيِّ لَفِي عَمَّ وَخَسَارِ »⁽¹¹²⁾**

وتفاخروا على العرب بكثرة الفقهاء ، وأنَّ حَمَلَةَ الْعِلْمِ فِيهِمْ ، كهذا الحديث الذي دَارَ بَيْنَ أَحَدِ الشَّعُوبِيِّينَ ، وَهُوَ ابْنُ أَبِي يَعْلَى وَعَيْسَى ابْنُ مُوسَى الْعَبَاسِيِّ ، قَالَ ابْنُ أَبِي يَعْلَى : « قَالَ لِي عَيْسَى ابْنُ مُوسَى ، وَكَانَ جَائِرًا شَدِيدًا الْعَصَبِيَّةَ : مَنْ كَانَ فَقِيهَ الْبَصْرَةَ؟ قَلْتُ الْحَسَنُ ابْنُ أَبِي الْحَسَنِ ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ؟ قَلْتُ مُحَمَّدَ ابْنَ سَرِيرَةَ . قَالَ فَمَا هُمَا؟ قَلْتُ : مُولِيَانَ . قَالَ : فَمَنْ كَانَ فَقِيهَ مَكَّةَ؟ قَلْتُ : عَطَاءَ ابْنَ أَبِي رِبَاحَ ، وَمُجَاهِدَ ابْنَ جَبَيرَ ، وَسَعِيدَ ابْنَ جَبَيرَ ، وَسَلِيمَانَ ابْنَ يَسَارَ . قَالَ : فَمَا هُؤُلَاءِ؟ قَلْتُ : مَوَالِيُّ ، فَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، ثُمَّ قَالَ : فَمَنْ أَفْتَهَ أَهْلَ قَبَاءَ؟ قَلْتُ رِبِيعَةَ الرَّأْيِ ، وَابْنَ أَبِي الزَّنَادِ ، قَالَ : فَمَا كَانَا؟ قَلْتُ مِنَ الْمَوَالِيِّ ، فَأَرَبَّدَ وَجْهَهُ ، ثُمَّ قَالَ : فَمَنْ كَانَ فَقِيهَ الْيَمَنِ؟ قَلْتُ طَاؤِسَ وَابْنَهُ هَمَّامَ ، وَابْنَ مَنْبَهِ ، قَالَ : فَمَا هُؤُلَاءِ؟ قَلْتُ : مِنَ الْمَوَالِيِّ . فَاتَّفَخَتْ أَوْدَاجُهُ فَأَنْتَصَبَ قَاعِدًا ، ثُمَّ قَالَ : فَمَنْ كَانَ فَقِيهَ خَرَاسَانَ؟ قَلْتُ : عَطَاءَ ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْخَرَاسَانِيِّ ، قَالَ فَمَا كَانَ عَطَاءَ هَذَا؟ قَلْتُ مَوْلَى . فَازْدَادَ وَجْهَهُ تَرْبَدًا ، وَاسْوَدَ اسْوَدَادًا حَتَّى خَفَتَهُ ، ثُمَّ قَالَ : فَمَنْ كَانَ فَقِيهَ الشَّامِ؟ قَلْتُ مَكْحُولَ . قَالَ : فَمَا

(111) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 320.

(112) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 320-321.

كان مكحول هذا قلت : مولى . فازداد تغبيطاً وحققاً ، ثم قال : فمن كان فقيهُ
الجزيرة ؟ قلت : ميمون ابن مهران ، فما كان ؟ قلت : مولى . قال : فتفسِّر
الصعداء ، ثم قال : فمن كان فقيهُ الكوفة ؟ قلت : فوالله لولا خوفه لقلت الحكم
ابن عبينه وعمار ابن أبي سليمان ، ولكن رأيت فيه الشرّ ، فقلت ابراهيم
والشعبي ، قال : فما كانا ؟ قلت : عربستان . قال : الله أكبر ، وسَكَنَ
جاشة⁽¹¹³⁾

وقد أورَدْتُ هذا الخبرَ الذي يكاد ينطُقُ بأنه موضوعٌ ومدخلٌ ، وروحُ
الشعوبيةِ فيه واضحةٌ بشكل لا يقبل الشكّ ، لبيان الأساليب التي استعملها
الشعوبيون للطعن على العرب في الإسلام ، فمسألة من كان فقيهُ كذا ، كمسألة
من أشعر الناس ، يستطيع الإنسان أن يطلق فيه حكماً سريعاً غير مبنيٍ على
أساسٍ من الدقة في الملاحظة والموازنة ، وكما استبدل فقهاء الكوفة (بنظره)
بغيرهم خوفاً من بطش عيسى ابن موسى ، فإنَّ تجرده عن الهوى والتبعض كفيلاً
بذكر غير هؤلاء الفقهاء أو معظمهم . ويفتَّحُ ابن خلدون ، بني رأيه في هذه
المسألة على هذا الخبرِ وأمثالِه ، فأطلق حكماً لا يخلو من جُنُونٍ واعتسافٍ ،
فالقال : «من الغريب الواقع أن حمَلة العلم في الملة الإسلامية أكثرُهم العجم ،
لأنَّ العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر ، وإنْ كان
منهم العربي في نسبة ، فهو عجمي في لغته ومربيه ومشيخته ، مع أنَّ الملة عربيةٌ
وصاحب شريعتها عربيٌ»⁽¹¹⁴⁾ .

ولو ثانى ابن خلدون في حكمه ، وجائب الهوى في نظره لرأى أنَّ العرب
والعجم ، قد أصبحوا أبناء دينٍ واحدٍ ومجتمعٍ واحدٍ وبيئةٍ علميةٍ واحدةٍ ، فشارَكَ
العجمُ العربَ في العلومِ وإنَّاجها سواءً أكانت شرعيةً أو عقليةً ونظريَّةً ، ومنْ
يتَصَحَّفُ تاريخَ العلوم ، ورجالاتها يَرَى أنَّ العربَ نَهَضْتُ فيها كما نَهَضَت العجم .
وكما فَاتَّـ الشعوبـيون العربـ بكثرةـ العلماءـ والفقـهاءـ ، فقد عـيـرواـ العربـ

(113) ابن عبد ربه . المقدَّس الفريد ، ج : 3 ص : 328-329.

(114) ابن خلدون ، المقدمة ، ص : 543.

بحداثة علمهم ، واستعارةه من الأمم الأخرى ، فقالوا : « لولا ما عرفوكم من أبواب الحملات ، لم تعرفوا صنعة الشبه ، ولو لا غضار الصين على وجه الأرض ، لم تعرفوا الغضار . على أنَّ الذي عملتم ظاهر فيه التوليد ، منقوص المنفعة عن تمام الصيني »⁽¹¹⁵⁾ .

ووجهوا فضلهم في الأمور التي اكتشفوها ، واحتزروها ، فقالوا : « على أنَّ الشبه لم تستخرجوه . وإنما ذلك من الأمور التي وقعت اتفاقاً ، لسقوط الناطف من يد الأجير في الصفر الذائب ، فخفتم إفساده . فلما رأيتم ما أعطيتم من اللُّون ، عملتم في الزيادة والنقصان ، وكذلك جميع ما تهيا لكم ، ولستم تخرجون في ذلك من أحد أمرين : إنما أن تكونوا استعملتم الإشتقاق من علم ما أورثوكم ، وإنما أن يكون ذلك تهيا لكم من طريق الإتفاق »⁽¹¹⁶⁾ .

وبنت نابة تزعم أنَّ النبط خير من العرب . وقد جعل المسعودي طائفة من كبار المعتزلة في عداد هذه الفتنة كضرار ابن عمرو وثمانمة ابن الأشرس وعمرو ابن بحر الجاحظ . وحاجتهم في « أنَّ النبط خيرٌ من العرب ، لأنَّ مَنْ جعل الله تبارك وتعالى النبي (ص) ، منهم ، لم يدع أكبرَ شرفي في الدنيا إلا وقد أعطاهم إيمان ، ومنْ لم يجعله منهم ، فلم يدع أكبرَ شرفٍ في الدنيا إلا وقد أغراهم منه ، وسلبهم إيمان ، ولا نعمة على مَنْ جعل الله عزَّ وجلَّ النبي (ص) منهم أكبرَ من النبي (ص) ، ولا بلوى على من لم يجعل الله عزَّ وجلَّ النبي (ص) منهم أكبرَ من خروج النبي (ص) ، إلَّا أنهم مع هذا كُلُّ لهم عند الله فضل ما بين النعمة والبلاء »⁽¹¹⁷⁾ .

كما وضع ابنُ وحشية كتابَ الفلاحةِ النبطية ليبيان حضارة النبط الزراعية⁽¹¹⁸⁾ .

(115) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 83.

(116) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 84-83.

(117) المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 2

ص : 53.

(118) ابن النديم ، الفهرست ، ص : 433.

ونجمت من الموالي فتهُ تقول : إنَّ المولى بولاته ، قد صار عرباً ، لقوله
الرسول : « مولى القوم منهم ، ولقوله : الولاء لحمة كل حمة النسب ، لا يُباع ولا
يُوهَبُ »⁽¹¹⁹⁾.

فبعض الموالي ، وإنْ لم يتذكر للولاء كما فعل بشار من قبل ، فقد افترخ
بهذا الولاء على العرب أنفسهم ، فهم أشرف من العجم لأنَّهم دخلوا الإسلام كما
أنَّهم يقدمهم في العجم صاروا أشرف من العرب ، إنَّ الله جعل المولى « بعد أن
كان عجمياً عرباً بولاته ، كما جعل حليف قريش من العرب فُرَشِياً بحلقه ،
وجعل إسماعيل بعد أنْ كان أعمجياً عرباً ، ولو لا قول النبي (ص) : إنَّ
إسماعيل كان عرباً ، ما كان عندنا إلَّا أعمجياً ، لأنَّ الأعمجي لا يصير عرباً كما
أنَّ العربي لا يصير أعمجياً ، فإنما علمنا أنَّ إسماعيل صَرِيْهُ الله عرباً بعد أنْ كان
أعمجياً بقول النبي (ص) ، فذلك حكم قول : مولى القوم منهم ، والولاء
لحمة»⁽¹²⁰⁾.

ويذكرون تأييداً لمذهبهم إكرام الرسول لمولاه زيد ابن حaritha حين أمره على
جيش فيه جلة المهاجرين والأنصار ، وإكرامه لابنه أسامة ابن زيد ، وإكرامه
لسليمان الفارسي ، وعطفه وإكرامه لسائر مواليه⁽¹²¹⁾.

وفخرُهم قائمٌ على جيَازِهم شرف الطرفين وأمجادهم ، فقد شاركوا العربي
في فقره ، والحراساني في مجده والنبطي في فضله ، وهم نقباء بني العباس
ودعائهم ، بهم زال ملك بني أمية ، وبجهودهم قامت دولة الهاشميين ، فأباو سلمة
الخلال منهم ، وأباو مسلم منهم ، وعلى أيديهما قامت الدعوة ، وتَمَّ الأمرُ ،
واستقر السلطان⁽¹²²⁾ وفاخرُوا بيَغدادَ وجعلوها من مناقبهم فهي لهم ، تَحرَّكُ ،
وتسكنُ بأمرِّهم « والدنيا كلَّها معلقة بها ، فجميع الدنيا تَبَعُ لها »⁽¹²³⁾. وقالوا :

(119) الجاحظ، مجموعة رسائل - القاهرة - (1334 هـ). ص : 7.

(120) مصدر نفسه . ص : 299.

(121) مصدر نفسه . ص : 14.

(122) مصدر نفسه ، ص : 8 وما بعدها .

(123) مصدر نفسه . ص : 17.

أَهْلُهُمْ وَأَهْلُ هَذِهِ الدُّولَةِ وَاصْحَابُ هَذِهِ الدُّعَوَةِ وَمَنْبِتُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ »⁽¹²⁴⁾ وَكَمَا أَنَّ
الْأُوسَ وَالْخَزْرَاجَ قَدْ نَصَرُوا النَّبِيَّ فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ ، فَإِنَّ أَهْلَ خُرَاسَانَ قَدْ نَصَرُوا
وَرِثَتِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ⁽¹²⁵⁾ .

وَنَرِى الْجَاحِظُ يَبْسِطُ فِي دُعَوَى الْمَوَالِيِّ وَلَعْلَ شَعُورَهُ بِالْوَلَاءِ كَانَ دَافِعَهُ
لِلْقُولِ « إِنَّ الْمَوَالِيَ بِالْعَرَبِ أَشَبُهُ ، وَإِلَيْهِمْ أَقْرَبُ وَبِهِمْ أَمْسٌ ، لَأَنَّ السَّنَةَ قَدْ نَقْلَتِ
الْمَوَالِيَ إِلَى الْعَرَبِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَانِي ، لَأَنَّهُمْ عَرَبٌ فِي الْمَدْعَى وَفِي الْعَاقِلَةِ
وَفِي الْتَّوَرَةِ ، وَهَذَا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ (ص) : مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، وَمَوْلَى الْقَوْمِ مِنْ
أَنفُسِهِمْ وَالْوَلَاءُ لَحْمَةُ النَّسْبِ ، وَعَلَى شَبِيهِ ذَلِكَ ، صَارَ حَلِيفَ الْقَوْمِ
مِنْهُمْ ، وَحْكَمَهُ حُكْمَهُمْ . . . وَبِذَلِكَ النَّسْبُ حُرِّمَتِ الصَّدَقَةُ عَلَى مَوَالِيِّ بْنِي
هَاشِمٍ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ (ص) أَجْرَاهُمْ فِي بَابِ التَّنْزِيهِ وَالتَّطْهِيرِ مَجْرِي
مَوَالِيِّهِمْ »⁽¹²⁶⁾ .

آراء ابن خلدون ونزعتها الشعوبية :

لَعْنَا لَا نَغَالِي إِذَا قَلَنا إِنَّ دَعَائِيَ الشَّعُوبِيَّةِ هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ ابْنَ خَلْدُونَ
يَصُدُّ أَحْكَامَهُ الْقَاسِيَّةَ عَلَى الْعَرَبِ بِالرَّغْمِ مِنْ اعْتِرَافِهِ بِأَنَّ هُرَمَ الدُّولَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الْعَبَاسِيَّةِ وَتَفَسُّخَهَا لَمْ يَبْدُ إِلَّا بَعْدِ فَسَادِ الْعَصَبَيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَغْلِبِ الْعِجْمِ عَلَى الدُّولَةِ
وَتَحْكِيمِهِمْ بِأَمْرِهِا⁽¹²⁷⁾ . فَهُوَ لَا يَسْتَطِعُ إِلَّا التَّأْثِيرُ بِدِعَائِيَ الشَّعُوبِيَّةِ الْمُبَثُوثَةِ فِي كُلِّ
مَكَانٍ ، فَأَطْلَقَ أَحْكَامًا عَدِيدَةَ قَاسِيَّةَ بِحُكْمِ الْعَرَبِ مِنْهَا : أَنَّ الْعَرَبَ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ
الْمُلْكَ إِلَّا بِصُبْغَةِ دِينِهِ مِنْ نَبِيَّهُ أَوْ لَوْلَيَّهُ وَالسَّبْبُ بِرَأْيِهِ يَعُودُ - لَخْلُقِ التَّوْحِشِ الَّذِي
فِيهِمْ ، فَهُمْ « أَصْعَبُ الْأَمْمَ اِنْقِيادًا بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ لِلْغَلَظَةِ وَالْأَنْفَةِ وَبَعْدِ الْهَمَةِ
وَالْمَنَافِسَةِ فِي الرَّئَاسَةِ ، فَقَلَمَا تَجْتَمِعُ أَهْوَاهُمْ ، فَإِذَا كَانَ الدِّينُ بِالنَّبِيَّ أَوْ الْوَلَايَةِ ،

(124) مصدر نفسه . ص : 99.

(125) مصدر نفسه . ص : 99.

(126) الْجَاحِظُ (ثَلَاثُ رِسَالَاتٍ) - فَانَّ فُلُوتَنَ - ص : 6 - 7 (ذِمَّةُ اِخْلَاقِ الْكِتَابِ) .

(127) ابْنُ خَلْدُونَ ، الْمُقدَّمةُ ، ص : 208، 155، 15، 24.

كان الوازع لهم من أنفسهم ، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم
وأجتماعهم⁽¹²⁸⁾ .

وادعى أنَّ العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخرابُ ، وعلل ذلك
بالقول : «والسبب في ذلك أنهم أمَّةٌ وحشيةٌ باستحکام عوائد التوحش وأسبابه
فيهم ، فصار لهم خلقاً وجلةً ، وكان عندهم ملذوذًا لِمَا فيه من الخروج عن رقة
الحكم وعدم الإنقیاد للسياسة ، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له . فغايةُ
الأحوال العاديَّة كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك منافق للسكنون الذي به
العمران ومنافي له»⁽¹²⁹⁾ .

وأمَّا شواهده على ذلك فكثيرة متزرعة من حياة البايَّة وعاداتها في الغزو
والترحل ، فالحجر لا يحتاجه العرب إلَّا لنصبه أثافي القدر ، فينقلونه من
المباني ، ويخرِّبونها عليه ، وحاجتهم للخشب ليعمروا به خيامهم ، ويتخذونها
الأوتاد منه لبيوتهم ، فيخرجونه من السقف ، تدفعهم طبيعتهم لإنتهاج ما في
أيدي الناس ، وهم لا يرون قيمةَ للصناعات والحرف «إذا فسدت الأعمال ،
وصارت مجانًا ، ضفت الأمال في المكاسب ، وانقضت الأيدي عن العمل ،
وابدَّعَ الساكن ، وفسد العمran ، وأيضاً فإنَّهم ليست لهم عنایة بالأحكام ، وزجر
الناس عن المفاسد ، ودفع بعضهم عن بعض ، وإنما همُّهم ما يأخذونه من
أموال الناس نهائًا أو غرامَةً ، فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه ، أعرضوا عما
بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وفهر بعضهم عن أغراض
المفاسد ، وربما فرضوا العقوبات في الأموال حرصاً على تحصيل الفائدة والجبائية
والاستكثار منها...»⁽¹³⁰⁾ .

فهم متنافسون في الرئاسة ، مُتصارِعونَ على السلطة ، يظلمون رعایاهمْ ،
ويثقلون عليهم في الجبائية والأحكام «وانظر إلى ما ملكوه ، وتغلبوا عليه من

(128) مصدر نفسه . ص : 151.

(129) مصدر نفسه . ص : 149.

(130) مصدر نفسه ، المقدمة ، ص : 149 — 150.

الأوطان من لدن الخلقة ، كيف تقوّض عمرانه ، وأفقر ساكنته وبدلت الأرض غير الأرض ، فاليمين قرارهم خرابٌ إلا قليلاً من الأمسار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد خراب ، كذلك ، وإفريقية والمغرب ، لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أوائل المائة الخامسة ، وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين ، قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً منها»⁽¹³¹⁾ .

ويمضي في تقرير دعواه ، فيزعم أنَّ العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك لإيغالهم في البداءة والقفر واعتيادهم الشطف وخشونة العيش ، وصعوبة انقيادهم بعضهم لبعض فرئيسهم محتاج إليهم للعصبية والمدافعة فهو مضططر إلى الإحسان إليهم ، وترك مراجعتهم ، بينما سياسة الملك والسلطان «تقتضي أن يكون السائس وزيراً بالقهر ، وإن لم تستقم سياسته ، وأيضاً فإنَّ طبيعتهم... أخذ ما في أيدي الناس خاصةً والتجافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ، ودفع بعضهم عن بعض ، فإذا ملكوا أمّةً من الأمم ، جعلوا غاية ملوكهم الإنفاق بأخذ ما في أيديهم ، وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم ، وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الأموال حرضاً على تكثير الجبايات ، وتحصيل الفوائد ، فلا يكون ذلك وزرعاً ، وربما يكون باعثاً بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد ، واستهانة ما يعطي من ماله في جانب غرضه ، فتنمو المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران ، فتبقى الأمّة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض ، فلا يستقيم لها عمران ، وتخرب سريعاً... فبعدت طبائع العرب لذلك كله عن سياسة الملك»⁽¹³²⁾ .

مطاعنُ الشعوبية على اللغة العربية وأدابها :

وكما طاعت الشعوبية في ماضي العرب وحاضرِهم وشككت بأساليبِهم ،

(131) مصدر نفسه . ص : 150.

(132) مصدر نفسه ، ص : 151—152.

وَنَدَدَتْ بعاداتهم وتقاليدهم وسخرتْ من مفاجيرهم ، فقد طعنت على لغتهم وعابتُها ، وحاولتْ هتك الهالة القدسية التي يحوطها العربُ بها ، وأدركت أنها الوعاء الثقافي للعرب ، وأنها بعيونتها ومرؤونتها أصبحت اللغة الثقافية والسياسية لشعوب العالم الإسلامي ، فالشعوبية تزيد مكافحتها وإظهار عيوبها ، وإبراز مزايا اللغات الأخرى وخاصة اللغة الفارسية ، فعب مفكرو الشعوبية على العربية كثرة مفرداتها ، واعتبروا ذلك من أعظم معانيها فقال البيروني في «عرض حديثه عن اللغة الهندية» فموضوعها إيقاع اسم على كل واحد من الموجودات وأشارها بمواطأة بين نفر يعرف بها بعضهم عن بعض غرضه عند إظهار ذلك الإسم بالنطق ، فإذا كان الإسم لواحد بعينه واقعاً على عدة مسميات ، دلّ على ضيق اللغة ، وأحوج السامع إلى سؤال القائل عما يعني بلفظه ، فسقط ذلك الإسم إما باخر مثله يعني ، ... وإذا كان للشيء الواحد أسماء كثيرة ، ولم يكن سبب ذلك استبداد كل قبيلة أو كل طبقة بواحد منها ، وكان في الواحد منها كفاية اتصفت الباقية بالهرم والهذر وصارت سبب التعميم والإخفاء ، أو تحمل المشاق لحفظ الجملة بلا فائدة غير ضياع العمر»⁽¹³³⁾.

وعابوا على العرب أسماءهم ، واستشنعواها ، مثل كلب وكلب ، وأكلب ، وما أشبه ، وطعنوا عليهم بأنهم يسمون بما لا أصل له في لغتهم ، وأنهم يدعون ما لم يقع عليه اصطلاحٍ من أوليائهم⁽¹³⁴⁾ وقالوا «ليس الأعرابي بقدوة إلا في الجر والنصب والرفع وفي الأسماء ، وأما غير ذلك فقد يخطيء فيه ويصيّب»⁽¹³⁵⁾ . وليس كلُّ أعرابي بليفاً وفصيحاً ، وإن لم يكن بينهم تفاوت «فلِم ذكروا الغبي والبكي ، والحضر والمفحَم ، والخطل ، والمسهب ، والمتشدق والمتفهِّق ، والمهمَّاز والثرثَار والمكثار؟»⁽¹³⁶⁾ . ولهم ذكروا الهرم والهذر

(133) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ج : اص : 185.

(134) ابن دريد ، الاشقاق ، ص : 3—4.

(135) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 2 ص : 151.

(136) من صفات الرجل إذا تكلم

والهذيان والتخليط؟ وقالوا : رجلٌ تلقاء⁽¹³⁷⁾ وتلهاء⁽¹³⁸⁾ة ، وفلان يتلهي في خطبته ، وقالوا : فلان يخطئ في جوابه ، ويحيل في كلامه ، ويناقض في خبره ، ولو لا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض ، لَمَا سُمِّيَ ذلك البعض البعض الآخر بهذه الأسماء «⁽¹³⁹⁾».

وطعنوا « على خطباء العرب بأخذ المخصرة عند مُنافقة الكلام ، ومساجلة الخصوم بالوزون والمدقق ، والمشور الذي لم يقف ، وبالأرجاز عند المُتَّجع⁽¹⁴⁰⁾ ، وعند مجاهدة الخصم⁽¹⁴¹⁾ ، وساعة المشاولة⁽¹⁴²⁾ ، وفي نفس المجادلة والمحاولة . وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ، واستعمال المشور في خطب الحمالات ، وفي مقامات الصلح ، وسل السخيمة⁽¹⁴³⁾ ، والقول عند المعاقرة⁽¹⁴⁴⁾ والمعاهدة⁽¹⁴⁵⁾ ».

وعابوا على خطباء العرب الإشارة بالعصي والإتكاء على أطراف القسي ، وخذ وجهاً الأرض بها والإعتماد عليها في الجموع ، وأخذ المخصرة في كل حال . كما عابوا عليهم الجلوس في خطب النكاح والقيام في خطب الصلح وكل ما دخل في باب الحمالات أو أكَدَ شأن المحالفة وحقق حُرْمة المجاورة . وعابوا خطبهم على رواحلهم في المواسم العظام والمجامع الكبار والتماسح بالأكتاف ، وقالوا : ما معنى التحالف على النار أو التعاقد على الملح؟ وسخروا من أحذهم العهد المؤكَد وحلفائهم اليمين الغموس ، وسخروا من قولهم : « ما سرى نَجَمُ ،

(137) تلقاء : الكثير الكلام ، الأحق

(138) تلهاء : المسترسل في الكلام في غفلة .

(139) الباحظ ، البيان والتبيين ، ج : 1ص : 90 — 91.

(140) المتع : استخراج الماء

(141) مجاهدة الخصم : الجلوس له

(142) المشاولة : المرافعة

(143) السخيمة : الضغينة .

(144) المعاقرة : المفاخرة بمعرف الإبل

(145) الجاحظ البيان والتبيين . ج : 3ص : 395.

وهبت ريح ، وبأَلْ بحر صوفة ، وخالفت جرة درة »⁽¹⁴⁶⁾ .

وقالت الشعوبية : « القصيبي لِإيقاع ، والقنا للقار ، والعصا للقتال ، والقوس للرمي ، وليس بين الكلام وبين العصا سبب ، ولا بينه وبين القوس نسب . وليس في حملها ما يشحذ الذهن ، ولا في الإشارة بهما ماجعل اللفظ ... وحمل العصا بأخلاق الفدادين أشبه ، وهو بجفاه الأعراب وعنجهية أهل البدو ، ومزاولة إقامة الإبل على الطرق أشكل وبه أشبه »⁽¹⁴⁷⁾ .

ولم تر الشعوبية للعرب في الخطابة فضلاً ، فالخطابة موجودة في جميع الأمم والأجيال المتعاقبة محتاجة إليها حتى الزنج ، فإنها تطيل الخطاب ، وتتفوق في ذلك جميع الأمم من العجم ، وإن كانت معانيها أجفّ وأغاظ ، وألفاظها أخطأ وأجهل ، وأدعت أن الفرس أخطب الناس ، وأدعت أن أخطب الفرس أهل فارس ، وإن أعدّهم كلاماً ، وأسهّل لهم مخرجاً ، وأشدّهم فيه تحنكأً أهل مرو ، وأماماً أفصحهم بالفارسية الدرية وباللغة الفهلوية فأهل قصبة الأهواز ، .. « ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة ، ويعرف الغريب ويتبحّر في اللغة ، فليقرأ كتاب كاروند ومن احتاج إلى العقل والأدب والعلم بالمراتب والمثلاط والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة ، فلينظر إلى سير الملوك »⁽¹⁴⁸⁾ .

فالشعوبية تدعى أن الفرس أخطب وأبلغ وأعلم ، والتجربة الفارسية أغرق وأعمق ، ومع ذلك فالخطباء لا يحملون عصاً ، لا يتكترون على قوس « فهذه الفرس وسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها . وهذه يونان وسائلها وخطبها وعللها وحكمها . وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة ، والخطأ من الصواب . وهذه كتب الهند في حكمها وأسرارها وسيرها وعللها . فمن قرأ هذه الكتب عرف غور تلك العقول ، وغرائب تلك الحكم ، وعرف أين البيان والبلاغة ، وأين تكاملت تلك الصناعة . فكيف سقط على جميع

(146) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 395.

(147) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 398.

(148) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 398.

الأمم من المعروفين بتدقيق المعاني ، وتخيير الألفاظ ، وتمييز الأمور ، أنْ يشيروا بالقنا والعصبي والقضبان والقصبي »⁽¹⁴⁹⁾ .

وبعد هذه المرافعة تخالص الشعوبية إلى غايتها ، فتنسب العرب إلى البداؤة والغلظة والجفاء وبعدهم عن الحضارة والمدنية ، فتقول : « كَلَّا ، ولكنكم كتم رعاة بين الإبلِ والغنمِ ، فحملتم القنا في الحضر بفضل عادتكم لحملها في السفر ، وحملتموها في المدر بفضل عادتكم لحملها في الوبر ، وحملتموها في السلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب ، ولطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل جفا كلامكم ، وغلوظت مخارج أصواتكم ، حتى كأنكم إنما تخاطبون الصمَّان إذا كلمتم الجلساء ، وإنما كان جلُّ قتالكم بالعصبي ، ولذلك فخر الأعشى على سائر العرب ، فقال :

« لسنا نقاتل بالعصبي ولا نرمي بالحجارة
إلا علالة أو بداهة قارح نهد الجزاره »⁽¹⁵⁰⁾

ولم تستثن الشعوبية في طعنها أحداً ، فطعنت على قضيب النبي وعنزته وعلى عصاه ومخرصته⁽¹⁵¹⁾ .

وقادت الشعوبية ممثلاً ببعض الرواة كحمَّاد الرواية وخلف الأحمر وأبي عبيدة بحملة تشكيك في الشعر الجاهلي والإسلامي عن طريق الوضع والنحل والتخليط في الرواية ، والهدف من تلك المحاولات تشكيك العرب بتراثهم الأدبي والحضاري بشكل عام⁽¹⁵²⁾ .

ورافق طعن الشعوبية على اللغة والثقافة العربية محاولات عديدة تهدف إلى إحياء الثقافات الأخرى وخاصةً الفارسية ، فيذل الكتاب والأدباء الشعوبيون جهدهم

(149) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 398.

(150) مصدر نفسه ، ج : 3 ص : 398 — 399.

(151) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 432.

(152) قد اتبنا على بحث ذلك فيما سبق من هذه الرسالة .

لبعث تلك الثقافة وإحيانها وبث الطابع الفارسي في الإدارة والمراسم العباسية ، وكان موقفهم يستند إلى العصبية الجامحة ، وقد فطن القدماء للعلة في تصرفهم وغلوّهم وتعنتهم فقال الجاحظ : « ولو علم القوم أخلاق كل ملة ، وزي أهل كل لغة وعلّهم في ذلك ، واحتجاجهم له ، لقل شغبهم ، وكفونا مؤونتهم »⁽¹⁵³⁾ . وقال : « ولو عرفوا أخلاق كل ملة وزي كل لغة ، وعلّهم في اختلاف إشاراتهم والآنهم ، وشمائلهم وهباتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم احتلقوه ؟ ولم تكلفوه ؟ لأراحوا أنفسهم ، ولخفت مؤونتهم على من خالطهم⁽¹⁵⁴⁾ ». فقد أدهم تعصّبهم إلى مكافحة العربية والعروبة والطعن عليها ، وإظهار مزايا اللغات الأخرى ، وخاصةً الفارسية فتحثوا أصحاب تلك اللغات على العودة إليها والنهل من بناءها والإنتاج فيها ، وكان هذا تميّداً لاستعمال تلك اللغات من جديد في الكتابة وبدأ الشعراء الفرس منذ القرن الرابع الهجري ينظمون قصائدهم بالفارسية خاصةً في ظل الإمارة السامانية ، وقاموا بترجمة العديد من الكتب إلى الفارسية كتاريخ الطبرى وتاريخ بعض المدن كتاريخ قم للقمي ، وتاريخ بخارى للترسخى « وأقتنى بعضهم بجواز الصلاة بالفارسية »⁽¹⁵⁵⁾ .

(153) الجاحظ ، البيان والبيان ، ج : 3 ص : 432.

(154) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 406.

(155) الدورى ، الجنور التاريخية للشعوبية ، ص : 71.

الفصل الثالث

الحركة الأدبية المناوئة للشعوبية وأساليبها في التصدي للشعوبيين

- الباطن

- ابن قتيبة

- أبو حيان التوحيدي

الحرَّكةُ الأدبيةُ المناوِئَةُ للشَّعوبِيَّةِ وأساليبُها في التَّصْدِيِّ للشَّعوبِينَ :

لاقت الشَّعوبِيَّةُ وَدَعْوَاهَا ترحيباً وتأييداً في بعض الأوساط دون شكٍ ، وكان لها مناصرون ومنظرون في شتى المجالات ، واستطاعت أن تتحوّل إلى تيار شعبي يستأثر بقطاعاتٍ شعبيةٍ واسعةٍ من الفرس خاصةً⁽¹⁾ غير أنها لاقت من المجابهة والرفض عند العربِ خاصةً وجمهور المسلمين عامةً ما أعقّها ، وأفشل خططها ، وفضحَ غایةً أصحابها ، وانبرى عدّ من الكتاب العرب أو المتعصبين للعرب ، فوضعوا الكتب والرسائل التي تبيّن فضلَ العرب وتقدمَهم على غيرهم ، وناقشو الحجج الشَّعوبِيَّة ، وأبطلوها ، وكشفوا غايياتها . « وجاء موقفُ العربِ واضحاً ، ينمُ عن إدراكٍ عميقٍ للمشكلَ . فقد كتبوا في التاريخ العربي (الإسلامي) بروحٍ جديدة ، ويتأمل ذاتي ، وأنتجوا من المؤلفات التاريخية ما يدهشك بكثرته ، وسعته... شملت مختلف فئات المجتمع ومختلف فعالياتهم . وحين تتأمل هذا الوضع ترى أن شعورَهم بدورهم التاريخي عاملٌ أساسيٌّ في ذلك... . وحين تهاجم الشَّعوبِيَّة العرب ، وتحاول رسم أسطورة مربكة لأنساب ، نجد من يكتب بروح المؤرخ المحقق ، ليظهر متانة الأنساب العربية ، ولبيّن دور العرب في التاريخ الإسلامي عامةً»⁽²⁾ .

(1) ابن قتيبة ، كتاب العرب او الرد على الشعوبية (رسائل البلغاء) ص : 345.

(2) الدورى ، الجذور التاريخية للشَّعوبِيَّة ، ص : 75 – 76 (انظر مثلاً في أنساب الأشراف بلادى وتأمل =

ونشط العربُ يعنون بتراثهم الثقافي ، فقاموا بجمع الشعر العربي القديم ، ودُوّنوه ، واستعانا به في التفسير ، واستقرأوه ، واتخذوا منه شواهد في النحو ، ووجدوا فيه سجلاً لأنساب العرب ومآثرهم وأيامهم⁽³⁾ . وقاموا بجمع الآثار الأدبية من أمثال خطب ونشر وأفردوا لها الكتب ، ليسهلوا تناولها ، وليقدموا صورة حية للبلاغة العربية والتراث الأدبي عند العرب ، وظهرت محاولاتٍ خاصة في القرن الثالث الهجري - تهدف إظهار الإتصال الثقافي ، وتأكيد الوحدة والإستمرار في الثقافة العربية عن طريق جمع الآثار الأدبية في العصور المختلفة في مؤلفات واحدة ، وظهر ذلك جلياً في مؤلفات الجاحظ وابن قتيبة .

وفند المزاعم الشعورية عدداً من الأدباء والكتاب أبرزهم الجاحظ وابن قتيبة والمسعودي وابن دريد وأبو حيان التوسي ، فكيف كانت ردودهم ؟ وما هي التواحي التي عالجوها ، وبسطوا فيها القول ؟

الجاحظ⁽⁴⁾ :

كان الجاحظ خصماً من خصوم الشعورية ، وعدواً لدوداً من أعدائها ،

= محتوياته ، ترجمة أن هيكل هذا التاريخ يستند إلى الانساب العربية ، وتشعر بأنَّ العرب كانوا محور التاريخ الإسلامي) .

(3) قام بهذا الدور رواة ثقة وشاعرة علماء كالاصمعي ، والمفضل الصبي وأبي ثعلبة .. والبحري وغيرهم كثير .

(4) هو عمرو ابن بحر ابن محبوب ، والمعنى بأبي عثمان ولقب بالجاحظ لتنط حدقته وجحوده ، اختلف في نسبة فقيل أنه عربي من كانة وقيل بل هو من مواليم ، وإن جده الأعلى فزارة كان عبداً أسود ، وعملاً لعمرو ابن قلع الكتان أحد النساء . وكما اختلف في نسبة فقد أختلف في مولده في حين اتفق الرواة أن وفاته كانت في السنة الخامسة والخمسين بعد الميلاد ، وأنه عمر نيفاً وستعين سنة .

ومهما يكن من أمر ، فقد ولد الجاحظ في البصرة ، ونشأ ، وترعرع فيها ، وتعلم أصول القراءة والكتابة في كنائسها ، وتردد على مساجدها ونواديها الأدبية ومربيتها . وتتفق على كبار علمائها كأبي عبيدة والاصمعي وأبي زيد الأخفش ، كما تلمذ لإمام المترفة النظام . وكان مولعاً بالطالعة ، وقلماً وقع كتاب في يده ، ولم يكمل قراءته ، وكان يكتري دكاكين الوراقين ، بيت فيها للمطالعة والنظر وامتد علمه وثقافته إلى فروع الثقافة المعروفة في عصره .

تصدى لها كما تصدى لقرينتها الزندقة . ونافعَ عن العروبة والإسلام رداً طويلاً من حياته المديدة . وعلى الرغم من اتهام المسعودي له بالشعيّة ، وأنه كان يفضل النبط على العرب⁽⁵⁾ ، وعلى الرغم من اتهامه بالزنادقة ، فإنَّ ما وصلنا من كتبه يؤيد وقوفه بوجه الشعوبين والزنادقة على حد سواء .

فلياً امتلاً ثقةٌ ب نفسه وبماهيه ، يُمْ شطر بغداد ، واتصل برجالاتها وخاصة شيخ المعتزلة فيها ، وأصبح إماماً من أئمتها ورئيس فرقه من فرقها تعرف بالجاحظية . وانعقدت أوامر الصداقه بينه وبين الوزير محمد ابن عبد الملك الزيارات ، وله ألف كتاب الحيوان . كما اتصل بعده بالقاضي ابن أبي دؤاد وألف له كتاب البيان والتبيين . وكان يملك قدرة عجيبة على الجذل والمناظرة ، ولو عاً بمدح الأشياء وذمها ، تحسينها وتقبيحها ، تمثُّل في صورة البليغ الذي يستطيع تصوير الحق بصورة الباطل وتوصير الباطل بصورة الحق ، وقد أربت كتبه ومؤلفاته على المائة ، وبالغ البعض فروى أنها نفت على الثلاثمائة . وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، «وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين ، وفي حكاية مذهب المخالفين ، وفي الآداب والأخلاق وفي ضرورة الجد والهزل ، وقد تداولها الناس ، وقرأوها وعرفوا فضلها» وصف المسعودي كتبه فقال : «وكتب الجاحظ - مع انحرافه المشهور - تجلو صدأ الاذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنَّ نظمها أحسن نظم ، ووصفها أحسن رصف وكساحها من كلامه أجزل لفظ» .

انظر ترجمة الجاحظ : المسعودي ، مروج الذهب ج : 4 ص : 195.

ابن النديم ، الفهرست ص : 220، 57 ونكلمة الفهرست ص : 3.

البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص : 175 وما بعدها .

الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 12 ص : 212 وما بعدها .

الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج : 1 ص : 386 وما بعدها .

ياقوت ، معجم الادباء ج : 16 ص : 74 وما بعدها .

ابن خلkan ، وفيات الاعيان ، ج : 3 ص : 121 وما بعدها .

ابن العماد الخنيل ، شذرات الذهب ، ج : 3 ص : 121 وما بعدها .

ومن المراجع احمد امين ، ضحى الاسلام ج : 1 ص : 386 وما بعدها .

عبد السلام هارون مقدمة تحقيق كتاب الحيوان ، الجاحظ ، الحيوان - المقدمة - ج : 1 ص : 3 وما بعدها .

طه الحاجري ، الجاحظ حياته وآثاره ، دار المعارف .

شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي ، المعرض العباسى الثاني ، ص : 587 وما بعدها .

فوزي عطوي ، مقدمة البيان والتبيين ، ص : 5 - 13 .

(5)المسعودي ، مروج الذهب ، ج : 2 ص : 53 وما بعدها .

والحقيقة أنه لم يحاوِل حتى في ردوده على الشعوبية أن يسيء إلى الفرس أو غيرهم من الشعوب ، بل على العكس من ذلك نرأه يدفع عن الفرس بعض التهم التي كانت تُلصق بهم اعتباطاً ، إذ أنه وإن عادى الشعوبين ، فإنه لم يعاد الفرس أو غيرهم ، فقد زعم البعض أنه ظفر بدليل يدين الفرس بالغش ، إذ لم يجد للنصيحة في لغتهم اسمًا واحداً يجمع المعاني التي يقع عليها هذا الإسم ، فدفع الجاحظ هذه التهمة بالقول : « ففي لغتهم اسم للسلامة ، واسم لإرادة الخير ، وحسن المشورة ، وحملك بالرأي على الصواب : فللنصيحة عندهم أسماء مختلفة ، إذا اجتمعت دلت على ما يدل عليه الإسم الواحد في لغة العرب ، فمن قضى عليهم بالغش من هذا الوجه فقد ظلم »⁽⁶⁾ .

ولم ينظر الجاحظ إلى الشعوبية كحركة تحرير وطنية أو قومية ، تهدف تحرير الفرس أو غيرهم من نير العرب ، وسلطانهم السياسي أو الديني ، ولم يتعرض للمطالبين بالمساواة بين الشعوب الإسلامية أو الرد عليهم ، وكان نفسه من الداعين لهذه المساواة ، فإن ما أثرَ عنه خصوصاً وعن المعزلة عموماً ، هو تجويز الإمامة والخلافة في عامة المسلمين ، ولعلَّ هذا السبب بالذات هو الذي حمل المسعودي على اتهامه بالشعوبية ، فالجاحظ بعيدٌ عن التفاخر بالأنساب أو الأجناس ، لما ثبَرَ تلك المفاحيرات من فساد ، وما تولده من بغضناه وعداؤه ولقد حذرَ من تلك الخصلة بقوله : « واحذرْ خصلةً ، رأيت الناس قد استهانوا بها ، وضيعوا النظرَ فيها ، مع اشتغالها على الفساد ، وقدِّحها البعض في القلوب والعداوة بين الأوداء : المفاحرة بالأنساب ، فإنه لم يغلط فيها عاقلٌ قط ، مع اجتماع الإنس جمِيعاً على الصورة ، وإقرارهم جميعاً بنفرق الأمور المحمومة والمدمومة ، من الجمال والدمامة ، واللؤم والكرم والجبن والشجاعة في كل حين ، وانتقالها من أمَّةٍ إلى أمَّةٍ ، وجود كل محمود ومذموم في أهل كل جنس من الأدميين ، وهذا غير مدفوع عند الجميع ، فلا تجعلنَ له من عقلتك نصيباً ، ولا من لسانك حظاً تسلُّم بذلك على الناس أجمع مع السَّلامَة في الدين »⁽⁷⁾ .

(6) الجاحظ البخلاء ، ص : 272.

(7) الجاحظ ، رسالة العاد والماش (مجموع رسائل الجاحظ) ص : 29 – 30.

فالجاحظ نفسه - كما نرى - من أهل التسوية ، وهو لهذا السبب يرد على الشعوبية وبصدد هجماتها ، لأن أصحابها تحلىوا باسم التسوية⁽⁸⁾ ، وتجاوزوها إلى مواقف عنصرية حاقدة ، هدفها تدمير العرب وتدمير الإسلام . فالشعوبية في رأي الجاحظ غير أهل التسوية وإنما هم : « الأزاد مردبة⁽⁹⁾ المبغضون لآل النبي (ص) » ، وأصحابه ممن فتح الفتوح ، وقتل المجروس وجاء بالإسلام⁽¹⁰⁾ ، يدفعهم إلى هذا الموقف حقدُهم الدفين على العرب وكرههم لهم ، وعدم قدرتهم على التسليم بالمرحلة التاريخية الجديدة التي قدرّ عليهم فيها التخلّي للعرب عن مركز الزعامة والقيادة السياسية والحضارية . فابغضوا كلّ ما هو عربي ، واعتنقوا الزندقة نكبة بالعرب وبال المسلمين ، إذ إن « عامة من أرباب بالإسلام ، إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتّمادي فيه ، وطول الجدال المؤدي إلى القتال ، فإذا أبغض شيئاً ، أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة ، أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسليغ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وكانوا السُّلف والقدوة»⁽¹¹⁾ .

هذا الموقف الحاقد المُشبع بالعصبية الجامحة في الطعن على العرب وتنقيفهم وتجاهل دورهم الحضاري الهام ، وعدم الإعتراف به ، لم يقابل من الجاحظ وغيره من الأدباء والمفكرين العرب بشنجه عنصري ويتعصب عرقي ، وإنما بمفهوم حضاري للعروبة ركائزه العادات والتقاليد واللغة والأرض والبيئة التي تشهر الناس فتكون منهم مجتمعاً واحداً وأمة واحدة ، فالعرب أمة « لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشّيم واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك ، والإتفاق في الأخلاق وفي الأعراق من جهة الخوولة المرددة ، والعمومة

(8) الجاحظ ، اليان والثيبين ، ج : 3 ص : 365.

(9) من ازادر كلمة فارسية معناها : الرجل الحر .

(10) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 319.

(11) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 7 ص : 220.

المشتبكة ، ثم المناسبة التي بُنيَتْ على غريزة التربة ، وطبع الهواء والماء ، فهم في ذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة ، والheimat والشمائل ، والمراعي والراية ، والصناعة والشهوة ، فإذا بعثَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ نبِيًّا من العرب ، فقد بعثَه إلى جميع العرب ، وكَلَّهم قومه ، لأنَّهم جمِيعاً يَدُّ على العجم ، وعلى من حَارَبَهم من الأمم ، لأنَّ تناحُفهم لا يَدُوِّهم وتصاهُرُهم مقصورٌ عليهم »⁽¹²⁾ .

فمن هذا المفهوم للعروبة انطلقَ الجاحظُ للرَّدَ على الشعوبية ، ونقضَ ادعاءاتها ، فألفَ كتابَ الشعوبية⁽¹³⁾ إلا أنَّ الكتاب قد ضَاعَ ، وفُوتَ علينا بضياعه فرصةً الإطلاع على الدعاوى الشعوبية اطلاعاً وافياً . غير أنَّ ما يَقْبَلُ من آثاره يُحكي لنا بعضَ المطاعن الشعوبية وأسلوبَ الجاحظ في نقضها وهدمَ أسسها .

فقد تعرَّضَ في «البيان والتبيين» إلى المطاعن الشعوبية في الأدب ، وردَ عليها ، بل لعلَّنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّه أَلَّفَ الكتابَ مدفوعاً بهاجسِ الرَّدِّ على الشعوبية . فقسمَ كتابَه إلى ثلاثة أجزاء ، وتحدَّثَ في الجزء الأول منه عن عيوب اللسان والبيان والبلاغة ، وعرضَ فيه مفهومَ البلاغة عند الأمم الأخرى كالفرس والهنود واليونان والروم ، وقدمَ صورةً وافيةً عن مفهومَ البلاغة عند العرب ومشاهير البلغاء المحدثين .

والجاحظ وإن لم يتعصَّب لعنصرٍ على آخر ، فقد تعصَّب للأدب العربي ، وفضَّله على أداب الأممِ جمِيعاً ، بل نراه يُغلوُ أحياناً ، فيعتقدُ أنَّ الأممِ الراقية أو الممتازة أربعَ هي : العربُ وفارسُ والهنودُ والرومُ . أمَّا الأممُ الأخرى فهم سُجْنُ وأشباهُ الهمُّجُ ، وقد تستبدُ به حمَيَّةُ العصبيةِ ، فيقولُ : «وَأَمَا العوامُ من أهل ملتَنا ودعوتَنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا ، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ، ولم يبلغوا منزلةِ الخاصةِ منها ، على أنَّ الخاصةَ تفاضلُ في الطبقاتِ أيضاً»⁽¹⁴⁾ . وكلامُ الناسِ في طبقاتِ ، كما أنَّ الناسَ أنفسهم طبقات ، فمن الكلامِ : الجزء

(12) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 3 ص : 525.

(13) الجاحظ ، البخلاء ، ص :

(14) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج : 1 ص : 87.

والسخيف ، والمليح ، والقبع ، والسميع ، والخفيف ، والثقيل ، وكله عربي وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعابوا «⁽¹⁵⁾».

فإن زعم راعم بأنَّ كلامَ العربِ أنفسهم يتفاصلُ ، ويتفاوتُ ، وإنَّ لمْ ذكرُوا الغبيَّ والبكيَّ ، والخطلَ والمسهبَ والمشدقَ إلى غير ذلك من الصفات ردَّ الجاحظُ بالقول : «إنه ليس في الأرضَ كلامٌ هو أمنعُ ، ولا أفعَ ، ولا آنقَ ، ولا الذي في الأسماءُ ، ولا أشد اتصالاً بالعقلَ السليمَةَ ، ولا أفقَ للسانَ ، ولا أجود تقويماً للبيانَ ، من طول استماعِ حديثِ الأعرابِ الفصحاءِ العقلاةِ ، والعلماءِ البلغاءِ»⁽¹⁶⁾.

فالبلاغةُ سليةَ عندَ العربِ ، وفطرةٌ فطروا عليها ، إذا وصفوا أصحابها ولم يُخطِّنُوا ، إلا أنه زعم «أنَّ سخيفَ الألفاظِ مُشَاكِلٌ لسخيفِ المعاني» ، وقد يحتاجُ إلى السخيفِ في بعضِ المواقعِ ، وربما أمنعَ بأكثرِ من إمتناعِ الجزلِ الفخمِ ، ومن الألفاظِ الشريفةِ الكريمةِ المعاني»⁽¹⁷⁾.

وبعد أنْ يقدمَ صورةً وافيةً للبلاغةِ العربيةِ ويرُوَى بعضُ خطبِ الرسولِ (ص) وصحابته ، ينوه بخطبِه العربِ وأنسابِهم ، ويشيدُ بعادَةِ العربِ في خطبِهم وحملِهم المخاطرِ واعتمادِهم على القسيِّ ، وإشارتهم بالقنا والعصيِّ ، مفاجراً بأنَّ ذلك عادةً ملوكيةً ، فالمخاطرُ ما كانت تفارقُ أيديَ الملوكِ من العربِ ، ويمثلُ على صوابِ رأيه ومذهبه بأقوالِ الشعراءِ في المدائِحِ للملوكِ ، كقولِ الشاعرِ :

«في كفه خيزرانٍ ريحها عبقٌ
بكفٌ أروعَ في عرنينه شممٌ
يغضي حياءً وينغضي من مهابته
فَمَا يُكَلُّ إلَّا حينَ يَبَتَّسُ»⁽¹⁸⁾

ثم يذكُرُ طعنَ الشعوبيةَ على أحدِ العربِ المخصَّةِ في خطبِها والقنا

(15) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 90.

(16) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 91.

(17) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 91.

(18) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 194.

والقضيب والإتكاء والإعتماد على القوس ، ويؤكد أنَّ الأمم التي فيها الأخلاق والأدب والحكم والعلم أربع هي العرب والهند وفارس والروم ، ويقدم العرب عليها جميعاً ، ويسوق الأدلة على تفوق العرب في البلاغة والخطابة ، فيقول : « والدليل على أنَّ العرب أطلقوا لغتها أوسع ، وأنَّ لفظها أذلُّ ، وأنَّ أقسام تأليف كلامها أكثرُ والأمثال التي ضربت أجود وأسير . والدليل على أنَّ البدائية مقصورةٌ عليها ، وأنَّ الإرتجال والإقتضاب خاصٌ فيها... الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تسميه الفرس والروم شرعاً ، وكيف صار النسيب في أشعارهم ، والذي أدخلوه في غنائهم ، وفي ألحانهم ، إنما يقال على السنة نسائهم ؟ وهذا لا يُصَابُ في العرب إلَّا القليل اليسير ، وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة فتضيع موزوناً على موزون ، والعجم تمطِّطُ الألفاظ ، فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن ، فتضيع موزوناً على غير موزون »⁽¹⁹⁾ .

ئم ساق الأمثلة على بلاغة العرب في النثر والشعر .

وهم في الرد على الشعوبية في طعنها على خطباء العرب في الجزء الثاني إلا أنه أحب أن يُصدِّرَه بكلام من كلام رسول رب العالمين ، والسلفي المتقدمين ، فاستقرَّ هذا الجزء برواية خطبِ الرسول (ص) وخطباء العرب وبلغائهم ، متعرضاً لبعض الشعراء ونواذر الحمقى ، وكأنه أراد تقديم البرهان على تفوقِ العرب في البلاغة والخطابة .

وافتتحَ الجزء الثالث بكتاب العصا في الرد على الشعوبية ، وسماه بهذا الإسم رمزاً لخطابة العرب التي عابتها الشعوبية وقدحَت فيها . فحصرَ الخطابة في العرب والفرس . أما الهند ، فلها معارف مدونة وكتب مجلدة لا تنسبُ لرجل بعينه ، إنما هي نتيجة أمة الهند بأسرها ، وثمرة أجيالها المتعاقبة . وأما اليونان ، فليس لها إلَّا الفلسفة والمنطق ، فلاحظَ لها من الخطابة ، وكيف؟ وصاحب المنطق نفسه بكى ء اللسان غير موصوفٍ بالبيان ، فالخطابة إذن خاصة بامتين من

(19) الملاحظ ، البيان والندين ، ج 1 ص : 200.

الأمم الأربع التي قدمها الجاحظ : العرب والفرس . فاما الفرس ، فهم خطباء ، إلا أن خطبهم نتيجة اجتهاد وخلوة وطول فكره ومشاورة وتعاونه واجهاد نفس بالتفكير وقراءة الكتب ، وإطلاعهم على أقوال الأولياء ، وبنائهم عليها . وأما العرب ، فخطبهم بدبيهه وارتجال ، دون معاناة أو مكافحة ، أو إجالة فكرة أو استعانته بكتب الأوليين وأقوالهم ، « وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخطام ، أو حين يمتحن على رأس بشر ، أو يحدو بغيره ، وعند المقارعة والمناقشة ، أو عند صراع أو في حرب ، مما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتائيه المعاني إرسالاً ، وتشال عليه الألفاظ اثنين ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحداً من ولده »⁽²⁰⁾ .

ثم إن العرب أميون لا يعرفون قراءة أو كتابة ، يجررون على الطبع من دون تكلف أو تصنع في كلامهم . مع هذا فالكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وقدرتهم عليه أكبر « وكل واحد في نفسه أطلق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس »⁽²¹⁾ .

فضيلة العربي أنه لم يحفظ كلام غيره ، ولم يحتذِّ قول من سبقه ، والفارسي يخالف ذلك . وشاهد العرب على بلاغتهم ، وحلارة منطقهم ، ما خلفوه من القصيدة والأرجاز والمثبور والمسجوع ، وما يمتاز به هذا التراث « من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، أو السبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ، ولا أرفعهم في البيان ، أن يقول في مثل ذلك إلا التفر اليسيير والنبذ القليل »⁽²²⁾ فالشعر ميزة خاصة بالعرب ، مقصورة عليهم وعلى من تكلم بلسانهم⁽²³⁾ .

(20) الجاحظ ، البيان والبيان ، ج : 3 ص : 404 — 405.

(21) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 405.

(22) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 405.

(23) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 74.

وأمام ما يتَّبِعُونَ في الشعوييْنَ من كُتُبٍ في اللغةِ والغَرِيبِ والأمثالِ والحكمِ والسيَّرِ ، فَمَا أدرانا بائِثَةً صَحِيحَ غَيْرَ مَوْضُوعٍ وَقَدِيمٍ غَيْرَ مُوَلِّدٍ «إذا كان مثل ابن المفعع ، وسهل ابن هارون وأبي عبيدة ، وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان ، لا يستطيعون أن يُؤَلِّدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السيَّر»⁽²⁴⁾ .

فَتُراثُ الْعَرَبِ صَحِيحٌ فِي نِسْبَتِهِ ، وَهُوَ قَلِيلٌ جَدًا بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا ضَاعَ مِنْ هَذَا التِّراثِ ، أَمَّا التِّراثُ الْفَارَسِيُّ ، فَمَنْ يَضْمَنْ صَحَّتَهُ ، وَعَدَمَ الزِّيَادَةِ فِيهِ ، إِذَا كَانَ مِنْ نَقْلِهِ ، وَتَرْجِمَهُ مِمَّا غَلَّتِ الْعَصَبَيَّةُ فِي عِرْوَقِهِمْ ، وَأَوْقَدَتِ الشُّعُوبِيَّةُ نَارَ الشَّنَآنِ فِي صُدُورِهِمْ .

وَالدَّلِيلُ النَّاطِقُ عَلَى تَفَرُّقِ الْعَرَبِ فِي الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ ، وَالَّذِي لَا يُسْتَطِيعُ مَكَابِرُ أَنْ يَدْفَعَهُ ، مَاثِلٌ فِي بَلَادِ الْعَرَبِ الْخَلُصِ . فَلَيَذَهِبَ الشُّعُوبِيُّونَ إِلَيْهَا ، وَلَيَرْوَا بِأَعْيُنِهِمْ : أَنَّ مَا يَدْعُوهُ الْجَاحِظُ هُوَ الْحَقُّ ، فَيَصْرُوَا الشَّاهِدَ عَيْنَاهَا ، فَالْمَعْرُوفَةُ كَفِيلَةٌ بِإِزَالَةِ شَبَهَاتٍ كَثِيرَةٍ يَجْهَلُهَا الْإِنْسَانُ ، وَيَجْهَلُ أَسْبَابَهَا ، فَيَفْسِرُهَا ، أَوْ يَفْسِرُهَا لِهِ الْآخَرُونَ بِشَكْلٍ مَنَاقِضٍ لِطَبِيعَتِهَا ، فَيَتَخَذُ مَوْقِفًا مُبْتَدِئًا عَلَى هَذَا الْمَفْهُومِ الْخَاطِئِ ، وَلَوْ تَجَلَّتِ الْحَقِيقَةُ بِشَكْلٍ وَاضْعَفَ لِغَيْرِ مَوْاقِفِهِ «لَوْ عَرَفُوا أَخْلَاقَ كُلِّ مَلَةٍ وَزِيَّ كُلِّ لِغَةٍ ، وَعَلَلُهُمْ فِي اخْتِلَافِ إِشَارَاتِهِمْ وَآلاتِهِمْ ، وَشَمَائِلِهِمْ ، وَهَيَّاتِهِمْ ، وَمَا عَلَّمَهُمْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ اخْتَلَقُوهُ ، وَلَمْ تَكْلُفُوهُ ؟ لَأَرَاحُوا أَنفُسَهُمْ ، وَلَخَفَتْ مَؤْوِتُهُمْ عَلَى مِنْ خَالِطِهِمْ»⁽²⁵⁾ .

فَطَعَنُ الشُّعُوبِيَّةُ عَلَى الْعَرَبِ فِي حَطَابَتِهِمْ غَيْرَ مُبَرِّرٍ ، لَأَنَّ الْعَصَا «مَأْخُوذٌ مِنْ أَصْلٍ كَرِيمٍ ، وَمِنْ مَعْدِنٍ شَرِيفٍ ، وَمِنْ الْمَوَاضِعِ الَّتِي لَا يَعْيَيْهَا إِلَّا جَاهِلٌ وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهَا إِلَّا مَعَانِدُ»⁽²⁶⁾

وَدَلِيلُهُ عَلَى ذَلِكَ : «اتَّخَادُ سَلِيمَانَ ابْنَ دَاؤِدَ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى نَبِيِّنَا

(24)الْجَاحِظُ ، الْبَيَانُ وَالْتَّبَيِّنُ ، ج : 3 ص : 405.

(25)الْجَاحِظُ ، الْبَيَانُ وَالْتَّبَيِّنُ ، ج : 3 ص : 406.

(26)مَصْدَرُ نَفْسِهِ . ج : 3 ص : 406.

وعليه، العصا الخطبته وموعظته... وإننا نبدأ بذكر سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، لأنَّه من أنبياء العجم ، والشعوبية إليهم أميل ، وعلى فضائلهم أحرص»⁽²⁷⁾ .

ويذهب الجاحظ في بيان فضل العصا وشريفها ومتناقضها كلًّا مذهب ، مؤيداً رأيَّه بسيَر الأنبياء وأيات القرآن وأشعار الشعراء ، ذاكراً من القصص والأمثال ، ما يُزكي العصا ، ويشرف حامليها ، «لأنَّ الشعوبية قد طعنت في جملة هذا المذهب على قضيب النبي (ص) وعترته ، وعلى عصاه ومحضرته ، وعلى عصا موسى ، لأنَّ موسى عليه السلام ، قد كان اتخذها من قبل أنْ يعلم ما عند الله فيها»⁽²⁸⁾ .

ويُهجِّن أبو عثمان رأيَ الشعوبية ، ويُنسِّيه إلى الجهل وعدم المعرفة ، إذ «لو علمَ القوم أخلاقَ كلِّ ملة ، ورَأَى أهل كل لغة ، وعلَّمَهم في ذلك ، واحتاجتهم له ، لقلَّ شَعْبُهُم ، وكفُونَا مَؤْوِتَهُم»⁽²⁹⁾ فهذه الرهبة تَجْذَب العصي من غير حاجة ظاهرة إليها . ولا بدَ للجاثيلق⁽³⁰⁾ من قناع ومن مظلة ومن عكازة ومن عصا من غير أن يكون الداعي إلى ذلك كبراً ولا عجزاً ، فكما أنَّ العصا من سيماء الرهبان والجاثيلق ، فالعممة والعصا عند العرب من السيماء ، وقد يتخلَّى الخطيبُ من العرب عن كُلِّ شيء إلا العممة والعصا أو ما يقوم مقامهما .

ودافع أبو عثمان عن مذاهب العرب في أسمائها ، وردَّ شبهة الشعوبية في طعنها على العربية وأهلها ، فقال : «والعرب ، إنما كانت تسمى بكلب وحمار ، وحجر ، وجُعل ، وحنظلة ، وقد ، على التفاؤل بذلك ، وكان الرجل إذا ولد له ذكر ، خرج ، يتعرض لرَجُر الطير والفال ، فإنْ سمع إنساناً يقول حجراً ، أو رأى حجراً ، سُمِّي ابنه به ، وتفاءل فيه الشدة والصلابة ، والبقاء والصبر ، وأنَّه يحطم ما لقي . وكذلك إنْ سمع إنساناً يقول : ذئباً ، أو رأى ذئباً ، تأول فيه الفتنَ ،

(27) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 406.

(28) مصدر نفسه ج : 3 ص : 432.

(29) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 432.

(30)الجاثيلق : كلمة يونانية تعني كبير الأساقفة

والخَبْ وَالْمُكَرْ وَالْكَسِيْ . وإن كان حماراً ، تَأَوَّلَ فِيهِ طُولَ الْعُمَرِ وَالْوَقَاحَةِ وَالْقَوَّةِ
وَالْجَلَدِ ، وإنْ كَانَ كَلْبًا ، تَأَوَّلَ فِيهِ الْجِرَاسَةِ وَالْيَقْظَةِ وَبَعْدَ الصَّوْتِ وَالْكَسْبِ وَغَيْرِ
ذَلِكِ »⁽³¹⁾ .

فَإِذَا قَالَ الشَّعُوبِيَّ : لَوْ كَانَ الْعَرَبِيُّ يَذْهَبُ فِي تَسْمِيَةِ أَبْنَائِهِ هَذَا الْمَذْهَبُ ،
فَلَمْ يَسْمُ بِغَلٍ وَبِرْزُونٍ وَأَشْبَاهِ ذَلِكِ وَهَذِهِ الْأَسْمَاءِ مِنْ لُغَتِهِ ، كَمَا أَنَّ تَلْكِ
الْأَسْمَاءَ مِنْ لُغَتِهِ ؟

نَجِدُ الْجَاحِظَ أَوْ مِنْ يَرْوِي الْجَاحِظَ عَنْهِ يَتَلَجَّجُ فِي جَوَابِهِ ، فَيُدْعِي أَنَّ ذَلِكَ
لَمْ يَكُنْ « لَأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَرَى بَغْلًا أَوْ بَرْزُونًا ، وَلَعَلَّهُ لَا يَكُونُ رَاهِمًا قَطُّ ، وَإِنْ كَانَتْ
الْأَسْمَاءُ عِنْدَهُمْ عَتِيدَةً لِأَمْرِهِمْ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهَا يَوْمًا »⁽³²⁾ .

وَلَا أَدْرِي كَيْفَ يُمْكِنُ لَأَبِي عُثْمَانَ وَهُوَ مِنْ هُوَ فِي طُولِ الْبَاعِ وَالْجَدَالِ
وَالْمَنَاظِرَةِ ، أَنْ يَجِبَّ بِهَذَا الْجَوابِ ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ لِلْغَةِ أَنْ يَكُونَ فِي الْفَاظِهَا
أَسْمَاءً مَتَدَالِوَةً لَا دَلَالَةً لَهَا عَلَى أَعْيَانِ مَحْدُودَةٍ وَلَا هِيَ صَفَاتٌ لِتَلْكِ الْأَعْيَانِ ؟

نَقُولُ الشَّعُوبِيَّةَ : إِذَا كَانَ لَمْ يَرَ بَغْلًا أَوْ بَرْزُونًا ، فَقَدْ رَأَى الْبَعِيرَ وَالْفَرَسَ ،
كَمَا رَأَى الْحَمَارَ وَالثَّوْرَ ، وَهَذِهِ أَسْمَاءٌ يَسْتَقِيمُ اسْتِقَامَةُ اسْتِقَامَةِ الْأَسْمَاءِ مِنْهَا كَالْحَمَارِ
وَالثَّوْرِ ، وَمَعَ هَذَا نَجِدُ الْعَرَبِيَّ يُسَمِّي بِنَجْمٍ ، وَلَا يُسَمِّي بِكَوْكِبٍ ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي
بِجَبَلٍ وَسَنِدٍ وَطَوِيدٍ ، وَلَا تُسَمِّي بِأَحَدٍ ، وَثَبِيرٌ وَأَجَأٌ وَسَلْمَى وَرَضْوَى ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ
لَهُمْ مَائِلَةٌ أَمَامَهُمْ وَيَسْمُونُ بِبَرْجٍ ، وَلَا يَسْمُونُ بِفَلَكٍ . وَهُمْ يَسْمُونُ بِشَمْسٍ وَقَمَرٍ
عَلَى جَهَةِ التَّلْقِيبِ وَالْمَدِيْحِ ، وَلَمْ يَسْمُوا بِأَرْضٍ وَسَمَاءٍ وَمَاءٍ وَهَوَاءٍ وَهَذِهِ أَصْوَلُ
أَبْلَغُ فِي الرِّجْرِ ، كَمَا أَنَّ جَبَلًا أَبْلَغُ مِنْ حَجَرٍ وَطَوِيدًا أَجْمَعُ مِنْ صَخْرٍ . وَقَدْ سَمِّيَتْ
الْعَرَبُ بَأْسَدٍ وَضَرِغَامَةً ، وَتَرَكُوكُوا التَّسْمِيَّةَ بِسَبْعَ وَسَبْعَةِ ، وَالسَّبْعَ اسْمَ جَامِعٍ لِكُلِّ ذِي
نَابٍ وَمِنْ خَلْبٍ⁽³³⁾ .

(31) الْجَاحِظُ ، الْحَيْوَانُ ، ج : 1 ص : 324.

(32) مَصْدَرُ نَفْسِهِ . ج : 1 ص : 325.

(33) مَصْدَرُ نَفْسِهِ ، ج : 1 ص : 325—326.

وَبِئْتُ الْجَاحِظُ روايات مختلفة في الرد على هذه المقالة ، منها أنَّ العرب سَمَّتْ بأسماء الجبال ، فتسموا بآبان وسلمي . ومنها أنَّ هذه أسماء أناس سَمَّوا بها هذه الجبال ، وقد كانت لها أسماء تُرَكَتْ لشُقُلِّها ، أو لعَلَّةِ من العلل . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فكيف تفسر تسميتهم بسلمي وتركمهم أجاً ورضوى .

بل ربما اتفق لواحد أنْ سَمِعَ أو رأى حماراً ، فسمى ابنه بذلك ، وكذلك الكلب والذئب وما أشبه ، ولم يتفق في ذلك الوقت أنْ سمع هُفْرس أو هواء أو ماء ، فإذا نما ذاك الطفل المسمى بكلب أو حمار أو ثور ، وصار رجلاً مُعَظَّماً ، أو سيداً نبيلاً ، تتابعت العرب تطير إليه ، ثم يكثر ذلك في ولده خاصَّةً بعده ، وعلى ذلك صار كل علي يكتنِي بأبي الحسن ، وكل عمر يكتنِي بأبي حفص ... فالأسماء ضرورة ، ومنها شيءٌ أصلي كالسماء ، والأرض ، والهواء ، والماء ، والنار ، وأسماءُ آخَر مُشتقَاتٍ على جهة الفَلَّ ، وعلى شكل اسم الأب ، كالرجل يكون اسمه عمرو فيسمى ابنه عَمِيرَاً⁽³⁴⁾

وأمَّا وجوه تصغير العرب للكلام ، فربما صَغَرَتْ العرب الشيءَ من طريق الشفقة والرقة ، وليس إلى التصغير يقصدون ، فقد يقول الرجل : « إنَّما فلان أخي وصَدِيقِي ، وليس التصغير يُريدُ وكقولهم لأبي قابوس الملك : أبو قَبِيس ، وكقولهم دَبَّتْ إِلَيْهِ دُوَيْهَةُ الدَّهْرِ ، وذلك حين أرادوا لطافةَ المدخلِ ودقَّةَ المُسْلِكِ »⁽³⁵⁾ وكلُّ أسماء العرب التي على وزن فُعْيل ، فإنَّما هي على هذا المعنى ، وليس على معنى التحقير والتضييق « وربَّ اسْمٍ إِذَا صَغَرْتَهُ ، كان أَمْلَأَ للصدر مثل قولك أبو عبد الله ، هو أَكْبَرُ في السَّمَاعِ من أبي عبد الله ، وكعب ابن جعْيل ، هو أَفْخَمُ من كعب ابن جَعْلَ »⁽³⁶⁾.

وَفَخَرَ الْجَاحِظُ بالعربِ ومعرفتها للآثار والأنواع والنجوم ، فقال : « ومن هذه الجهة ، عرفوا الآثار في الأرض والرمل . وعرفوا الأنواع ونجوم الإهتداء ، لأنَّ كُلَّ

(34) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 326 – 327

(35) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 336

(36) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 337

مَنْ كَانَ بِالصَّحَّاحِ الْأَمَالِيْسِ - حِيثُ لَا إِمَارَةٌ وَلَا هَادِيٌ ، مَعَ حَاجَتِهِ إِلَى بَعْدِ الشَّفَقِ - مُضطَرًّا إِلَى التَّمَاسِ مَا يُنْجِيهُ ، وَيُؤْدِيهُ ، وَلِحَاجَتِهِ إِلَى الغَيْثِ ، وَفِرَارِهِ مِنَ الْجَدْبِ ، وَضَنْبَهُ بِالْحَيَاةِ ، اضْطَرَّرَهُ الْحَاجَةُ إِلَى تَعْرِفِ شَأنَ الغَيْثِ . وَلَأَنَّهُ فِي كُلِّ حَالٍ يَرِي السَّمَاءَ ، وَمَا يَجْرِي فِيهَا مِنْ كَوَاكِبَ ، وَيَرِي التَّعَاقِبَ بَيْنَهَا ، وَالنَّجُومَ الْثَّوَابِتِ فِيهَا ، وَمَا يَسِيرُ مِنْهَا مَجَمِعًا ، وَمَا يَسِيرُ مِنْهَا فَارِدًا وَمَا يَكُونُ مِنْهَا رَاجِعًا»⁽³⁷⁾

وَمَعَارِفُ الْعَرَبِ غَيْرُ مَقْصُورَةٍ عَلَى الْأَثَارِ فِي الرِّمَالِ وَمَعْرِفَةِ الْأَنْوَاءِ ، وَنَجْوَمُ الْإِهْدَاءِ ، فَمَعْرِفَتِهِمْ بِالْحِيَوانِ تَضَارِعُ مَعَارِفُ الشَّعُوبِ الْأُخْرَى ، وَهِيَ نَتْيَاجُ الْخَبْرَةِ فِي الْمُعايِشَةِ وَالْمُكَابَدَةِ⁽³⁸⁾ .

وَفَنَّدَ الْجَاحِظُ مَطَاعِنَ الشَّعُوبِيَّةِ فِي آلَاتِ الْعَرَبِ الْحَرَبِيَّةِ وَاسْتَالِيهِمُ الْقَتَالِيَّةِ وَقَالَ : «إِنَّ الْعَرَبَ تُقَاتِلُ بِاللَّيلِ كَمَا تُقَاتِلُ بِالنَّهَارِ ، وَإِذَا تَمَثَّلَ الشَّعُوبُ بِعِصْمَشِ الْشِّعْرِ كَدِيلٍ عَلَى جَهْلِ الْعَرَبِ الْقَتَالِيِّيِّ ، فَقَدْ أُورَدَ الْجَاحِظُ مِنَ الْأَدَلَّةِ وَالْأَشْعَارِ ، وَمَا يَكْفِي لِلَّدْفَعِ هَذَا الإِدْعَاءُ»⁽³⁹⁾ . وَمَمَّا الْأَدَعَاءُ بِأَنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَعْرِفْ الرَّكَبَ ، فَقَدْ أَجْمَعَ الرَّوَاةُ عَلَى أَنَّ الرَّكَبَ قَدِيمَةً ، وَإِنْ كَانَ الْعَرَبُ لَمْ تَعْرِفْ رَكَبَ الْحَدِيدِ إِلَّا يَوْمَ الْأَزْرَاقَةِ . وَالْعَرَبُ لَا تَسْتَعْمِلُ الرَّكَبَ إِلَّا عِنْدَ الْفُرْسَرَةِ الْفُصُنَوِيَّةِ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَنْزُو نَزْوًا ، وَتَمَثَّلَ بِحَدِيثِ لَعْمَرَ بْنِ الْخَطَابِ : «لَا تَخُورُ قَوْيًا مَا كَانَ صَاحِبَهَا يَنْزُو ، وَيَنْزَعُ»⁽⁴⁰⁾ . وَبِحَدِيثِ أَخْرَى لَهُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) مَهَاجِرِيْنَ وَالْأَنْصَارِ ، وَقَدْ أَخْصَبُوا ، وَهُمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِمَقَارِبَةِ عِيشِ الْعَجَمِ : «تَمَعَّدُوا ، وَأَخْشَوْشَنُوا ، وَاقْطَعُوا الرَّكَبَ ، وَانْزَوُا عَلَى الْخَيْلِ نَزْوًا»⁽⁴¹⁾ .

وَزَعَمَ أَنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَنْدَعِ الرَّكَبَ لِلرَّحْلِ ، فَكِيفَ تَنْدَعُهُ لِلسُّرْجِ ، لَكِنَّ

(37) مصدر نفسه . ج : 6 ص : 30.

(38) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 268 ، ج : 6 ص : 28—29.

(39)الْجَاحِظُ ، الْبَيَانُ وَالْتَّبَيْنُ ، ج : 3 ص : 401.

(40)الْجَاحِظُ ، الْبَيَانُ وَالْتَّبَيْنُ ، ج : 3 ص : 402.

(41)مصدر نفسه . ج : 3 ص : 402.

أبطالهم كرهوا استعمالها إلا عند الضرورة ، كراهة أن يتكلوا على ما يُورثُهم
الوهن ، والإستخاء .

أما طغتهم في شأن رماح العرب ، فباطل ، والأمر غير ما يدعون فالرماح
عند العرب طبقات : منها : **البيزك** والمربوع والمخصوص والخطل الذي يضطر布
في يد صاحبه لطوله . ولكل نوع من الرماح وقت هو أجود فيه من غيره .
والعربي إن افتخر بطول رمحه ، فأخبر عن فضل قوته فقد افتخر بقصر سيفه ،
فدلل على نجذته .

والعرب تتحدى الزجاج لسافلة الرمح والسنان لعليته ، لأنها تحارب بالرأسين
معاً ، والعرب تقول : « لقيته سقايا ونقاباً ، أي مواجهة أحداهما بعلية الرمح
والآخر بسافتته » ⁽⁴²⁾ .

وكما افتخر العربي بقصر سيفه ليخبر عن نجذته ، فقد افتخر بطوله ليخبر
عن قوته ، كقول الشاعر :

« بكل طول السيف ذي خيراتة جريء على الأعداء معتمد الشطب » ⁽⁴³⁾ .

وقد هاجم الشعوبيون - كما أشرنا من قبل - العادات العربية وعابوا الكرم وذموه ،
ومدحوا البخل ، وتعصّبوا له ودعوا إليه ، وعابوا ماكل العرب ومشاربهم . فانبىء
لهم الجاحظ في بخلاته ، يصوّر حركات نفوسهم وحرضهم ، وتمكن البخل في
طباعهم بأسلوبه الساخر ، يضحك منهم ، ويدفع الناس للضحك منهم والسخرية
بهم .

ولئن صرّح عن غايته في مقدمة كتابه ، فقال : « ولَكَ في هذا الكتاب ثلاثة
أشياء : تبين حجّة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وانت
في ضحك منه إذا شئت وفي لهو إذا مللت الجد » ⁽⁴⁴⁾ .

(42) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 404.

(43) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 404.

(44) الملاحظ ، البلاء ، ص : 17.

فَعَايَةُ الْجَاجِيطِ من كتابه أدبية تهدف إشاعة الفُكاهَةِ والمرحِ والضُّحكِ ، وقد مَدَحَ الضُّحكَ ورَغَبَ فيه ، فلو « كان الضُّحكُ قبيحاً من الصالِحِ ، وقبيحاً من المُضحكِ ، لِمَا قيلَ للزهْرةِ والحبْرِ والحلَى والقصْرِ المبنيِ : كأنه يضحك ضحكاً ، وقد قال الله جل ذكره : (وإنَّهُ هُوَ أَضْحِكُ وَابْكِي ، وَإِنَّهُ هُوَ أَمَاتُ وأَحْيَا) ⁽⁴⁵⁾ فوضع الضُّحكَ بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت . . . ولفضل خصال الضُّحك عند العرب تسمى أولادها بالضُّحك وبيسام وبطلي وبطليق » ⁽⁴⁶⁾ .

ومع ذلك فقد جاء الكتابُ ، وكأنه تعريضٌ بالشُّعوبيةِ وأربابِها وَتَسفيَةٌ لعقولها وأحلامها وحكاياتها لتناقضها واهتزازها . صدره أبو عثمان برسالة سهل ابن هارون في البُخْل ⁽⁴⁷⁾ وهو المعروف بشعوبته وشدة عصبيته على العرب ، ثم بدأ بأهل خراسان ، لأن الناس أكثروا فيهم لما ظهر من بخلهم ⁽⁴⁸⁾ .

لم يتورع أبو عثمان عن ذكر بخلاء العرب وحكاية نوادرهم ، وخصّ بخلاء عصره مِمَّنْ عَاشُوكُمْ بكثيرٍ من التَّوَادِرِ والأقاصيص ، فأثبتَ رسالةً لأبي العاص ابن عبد الوهاب الثقي ⁽⁴⁹⁾ في دمِ البُخْلِ والبُخْلاءِ ، ومدحَ الْكَرَمِ والكُرَماءِ ، وافتخرَ فيها بأنَّ الْكَرَمَ فضيلة قد مجَدَتها العربُ وتَواصَتْ فيها ، ونُوَّهَ بذكرها الله ورَسُولُه .

ثمَّ أعقبَها برسالة لابن التوأم ⁽⁵⁰⁾ يتحجَّ فيها للبخل وأهله ، ويُزْرِي على الْكَرَمِ وأهله ، ويُسخَّفُ عقولهم ، ويُسْفَهُ أحلامهم سالكاً في ذلك مسلك الشُّعوبية في الطعن على العربِ وتأليهم ⁽⁵¹⁾ .

(45) القرآن الكريم ، سورة : النجم رقم الآية : 43

(46) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 18.

(47) مصدر نفسه . ص : 21.

(48) مصدر نفسه . ص : 30.

(49) مصدر نفسه ص : 220.

(50) مصدر نفسه . ص : 239.

(51) مصدر نفسه . ص : 255، 244.

واختتم كتابة بطعم العرب وضروبه ، والممدوح منه والمذموم . فعدد أنواع الولائم عند العرب كالعرس⁽⁵²⁾ والخرس⁽⁵³⁾ والإعذار⁽⁵⁴⁾ والوكيرة⁽⁵⁶⁾ ، والنقيعة⁽⁵⁶⁾ ، وذكر مآسياتها وأوقاتها⁽⁵⁷⁾ ونوة بكرم العرب ، وتَمادِجهم بدعة الجفلي ، وذمهم التقرى⁽⁵⁸⁾ وتمثل بقول الشاعر :

« نحن في المشتاة ندعو الجفلي⁽⁵⁹⁾ ترى الأدب فيما يُتقرّر »⁽⁶⁰⁾

وعدد أصناف الطعام المذموم عند العرب ولم ذمه ، فجعله ضربين : أحدهما طعام المجاوز والخطمات والضرائب والسباري⁽⁶¹⁾ واللثام والجباء والقراء ، من ذلك الفت والداع والهيد والقرامة والقرفة والعسوم ومنقع البرم والقصيد والقد⁽⁶²⁾ والحيات⁽⁶³⁾ . والنصف الآخر كالخزيرة⁽⁶⁴⁾ التي تعاب بها مجاشع ابن دارم ، وكنحو السخنية⁽⁶⁵⁾ التي تعاب بها قريش . كما تهجي الأنصار بأكل التمر⁽⁶⁶⁾ .

(52) العرس : ولية الزواج .

(53) الخرس : ولية الولادة .

(54) الإعذار : طعام الحنان .

(55) الوكيرة : طعام البناء

(56) النقيعة : ما ينحر من الأبل والغنم من عرض الم筵

(57) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 297 وما بعدها .

(58) مصدر نفسه . ص : 301 .

(59) الجفل : الدعوة العامة ، التقرى : الدعوة الخاصة ، الأدب : الصانع للمأدبة .

(60) الجاحظ البخلاء . ص : 297 .

(61) المجاوز : الواحدة بمجاعة ، الخطمات : الواحدة حطمة السنة الشديدة ، الضرائب : الواحد ضريب القير البائس ، السباريت : واحدها سبروت : المحتاج المقل .

(62) الفت : نبت يخرب جبه ويؤكل في الجدب ، الدعاع : جبة سوداء يأكلها أهل البدية ، الهيد : الحنطل ، القرامة : نحافة الفرون والأطلاف ، القرفة : الدقيق المختلط بالشعر ، العسوم : الواحد عسم : الخنزير ، البرم : ثمر شجر العباء ، القصيد : اللحم اليابس ، القد : جلد السحلة

(63) الجاحظ البخلاء . ص : 303 .

(64) الخزيرة : مرقة تقطيع من النخالة المبلولة .

(65) السخنية : طعام يقطيع من الدقيق والماء ويؤكل بتمر .

(66) الجاحظ البخلاء . ص : 325 — 326 .

ومن شرائعهم الفَظُّ ، وكذلك المَجْدُور ، وهو ماء ⁽⁶⁸⁾ المِسافَة ⁽⁶⁷⁾ وهم في ذلك معذورون ، « وقد يُصِيبُ الْقَوْمَ فِي بَادِيَتِهِمْ ، وَمَوَاضِعِهِمْ مِنَ الْجُهُدِ مَا لَمْ يُسْمَعْ بِهِ فِي أَمَّةٍ مِنَ الْأَمَّمِ ، وَلَا فِي نَاجِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي » ⁽⁶⁹⁾ « وَهُمْ وَانْ كَانُوا فِي بَلَادِ جَدِبٍ ، فَإِنَّهُمْ أَحْسَنُ النَّاسِ حَالًا فِي الْخَصْبِ ، فَلَا تَظَنَّ أَنَّ كُلَّ مَا يَصْفُونَ بِهِ قُدُورَهُمْ ، وَجِفَانَهُمْ وَثَرِيدَهُمْ وَحَسَبَهُمْ بَاطِلٌ » ⁽⁷⁰⁾ .

إلا أنَّ الشُّعُوبَيةَ « تَزِيدُ فِي خُشُوبَةِ عِيشِهِمْ ، وَخُشُونَةِ مَلْبِسِهِمْ ، وَتَنَقُّصُ مِنْ نَعِيمِهِمْ ، وَرَفَاقَةِ عِيشِهِمْ » ⁽⁷¹⁾ ، وَهُمْ مِنْ أَحْسَنِ الْأَمَّمِ حَالًا مَعَ الْغَيْثِ ، وَأَسْوَئُهُمْ حَالًا إِذَا خَفَّتِ السَّحَابَ . . . إِذَا نَظَرْتَ فِي أَشْعَارِهِمْ عَلِمْتَ أَنَّهُمْ قَدْ أَكْلُوا الطَّيْبَ وَعَرَفُوهُ ، لَأَنَّ النَّاعِمَ مِنَ الطَّعَامِ لَا يَكُونُ إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ الشَّرَاءِ وَأَصْحَابِ العِيشِ » ⁽⁷²⁾ .

وَيُعَدُّ الْجَاحِظُ أصنافَ الطَّعَامِ عِنْدَ الْعَرَبِ كَالدُّرْمَكِ وَالْفَالْوَذِقِ ، وَالثَّرِيدِ وَالْحَيْسِ ⁽⁷³⁾ وَالْحَبْزِ ⁽⁷⁴⁾ وَيُبَنِّهُ لِأَمْرِهِمْ فِي مَثَابِ الْقَبَائِلِ ، وَذَلِكَ أَنَّ « الْعَرَبَ إِذَا وَجَدَتْ رَجُلًا مِنَ الْقَبِيلَةِ أَتَى قَبِيحاً أَرْتَمَتْ ذَلِكَ الْقَبِيلَةُ كَلَاهَا ، كَمَا تُمْدَحُ الْقَبِيلَةُ بِفَعْلِ جَمِيلٍ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا بِوَاحِدِهِمْ » ⁽⁷⁵⁾ . فَتَسْتَغْلِلُ الشُّعُوبَيَّةُ هَذِهُ

(67) المصافنة : مقاسمة الماء في المعازي والأسفار.

(68) الجاحظ البخلاء . ص : 303.

(69) مصدر نفسه . ص : 307.

(70) مصدر نفسه . ص : 313.

(71) جشوبة : غلاظة ، رفاعة العيش : سعنه وهناؤه .

(72) مصدر نفسه . ص : 319.

(73) الدرمك : الحواري وهو من الطعام المدوخ ، الفالوذق : وهو من الطعام المدوخ أيضاً وقد مدحه أمية ابن أبي الصلت فقال :

إِلَى رُؤُحِّ مِنَ الشَّيْرِيِّ عَلَيْهَا لَبَابُ الْبَرِّ يُلْبِكُ بِالشَّهَادِ .
وَالشَّهَدُ الْمُسْلِ . وَالثَّرِيدُ : نوع آخر من الطعام يهشم الحبز فيه وبطيخ . والحبس : تمزغ نواه ويدق مع الجبن ويتعجان بالسمن ثم يذلك باليد حتى يصير كالثريد .

(74) الجاحظ ، البخلاء ، ص : 319 وما بعدها .

(75) مصدر نفسه . ص : 326-327.

المطاعِنَ والمَثَالِبَ ، فَتُعْمِلُهَا عَلَى الْقَبَائِلِ وَتُنَسِّبُهَا لِجَمِيعِ الْعَرَبِ .

وإذا افتخرت الشُّعُوبِيَّةُ بِبَنَيَانِ الْعَجَمِ كَرْمِزٍ مِنْ رُموزِ الْحَضَارَةِ ، أَجَابَ الْجَاحِظُ بِأَنَّ الْعَرَبَ قَدْ شَارَكَتِ الْعَجَمَ فِي الْبَنَيَانِ ، فَبَنُوا غَمَدَانَ وَكَبَّةَ نَجَرانَ ، وَقَصَرَ مَارَدَ ، وَقَصَرَ مَارَبَ ، وَقَصَرَ شَعَوبَ وَالْأَبْلَقَ الْفَرَدَ ، وَفِيهِ وَفِي مَارَدِ ضَرَبُوا الْمِثَلَ ، فَقَالُوا : « تَمَرَدَ مَارَدَ وَعَزَّ الْأَبْلَقَ »⁽⁷⁶⁾ .

فَالْعَرَبُ شَارَكَتِ الْعَجَمَ فِي الْبَنَيَانِ ، وَانْفَرَدَتْ بِالشِّعْرِ وَالْبَيَانِ ، وَالشِّعْرُ أَقْدَرُ عَلَى الْبَقَاءِ مِنْ بَنَيَانِ الْحَجَارَةِ ، وَحِيطَانِ الْمَدَرِ « لَأَنَّ مِنْ شَأنِ الْمُلُوكِ ، أَنْ يَطْمَسُوا عَلَى آثَارِ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَأَنْ يُمْبِيَّتُوا ذَكْرَ أَعْدَائِهِمْ ، فَقَدْ هَدَمُوا بِذَلِكَ السَّبَبِ أَكْثَرَ الْمَدَنِ ، وَأَكْثَرَ الْحَصَونِ »⁽⁷⁷⁾ بَيْنَمَا لَوْ اجْتَمَعَتْ مَلُوكُ الْأَرْضِ لِطَمْسِ قَصِيَّةِ سَارَتْ ، وَانْتَشَرَتْ بَيْنَ النَّاسِ ، لَفَشَلُوا فِي ذَلِكَ .

وَفَضَّلَ الْجَاحِظُ أَسْلَوبَ الشُّعُوبِيَّةِ فِي الطَّفْعِ عَلَى الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ ، وَكَشَفَهُ ، وَحَدَّرَ مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ رِوَايَةُ الْهَيْثَمِ ابْنِ عَدَى بِإِسْنَادٍ فِي وَصْفِ الْأَحْنَفِ - وَكَانَ سِيدَ تَمَيمٍ - أَنَّهُ « كَانَ أَصْعَلَ الرَّاسِ ، أَحْجَنَ الْأَنْفِ ، أَغْصَنَ الْأَذْنِ ، مُتَرَاكِبُ الْأَسْنَانِ ، أَشْلَقَ الذَّقْنِ ، نَاتِيَّةُ الْوَجْنَةِ ، بَاخْرَقَ الْعَيْنِ ، خَفِيفُ الْعَارِضَيْنِ ، أَحْنَفُ الرَّجَلَيْنِ ، وَلَكَنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ جَلَّى عَنْ نَفْسِهِ »⁽⁷⁸⁾ .

فَطَعَنَ أَبُو عُثْمَانَ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، وَقَالَ : « وَلَوْ أَسْتَطَعَ الْهَيْثَمَ أَنْ يَمْنَعَهُ الْبَيَانَ أَيْضًا لِمَنْعِهِ ، وَلَوْلَا أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ بِدَأً مِنْ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ شَيْئًا عَلَى حَالٍ ، لَمَّا أَفَرَّ بِأَنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ جَلَّى عَنْ نَفْسِهِ ... الْمِثَلُ الْأَحْنَفُ يَقُولُ : إِلَّا أَنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ جَلَّى عَنْ نَفْسِهِ »⁽⁷⁹⁾ .

وَكَثِيرًا مَا كَانَ أَبُو عَبِيدَةَ يَتَّخِذُ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ مَطْيَةً لِلْطَّعْنِ عَلَى

(76) الْجَاحِظُ ، الْحَيْوَانُ ، ج١ ص٧٢-٧٣.

(77) مَصْدَرُ نَفْسِهِ . ج١ ص٧٣.

(78) الْجَاحِظُ ، الْبَيَانُ وَالْتَّبَيِّنُ ، ج١ ص٤٤.

(79) مَصْدَرُ نَفْسِهِ . ج١ ص٤٤-٤٥.

العرب وثليهم ، من ذلك تأويله لقول الله عزَّ وجلَّ (وَثُمَودًا فَمَا أَبْقَى)⁽⁸⁰⁾ فزعم أنَّ في قبائل العرب بقايا من ثمود ، فناقش أبو عثمان تأويلاً أبي عبيدة ، فقال : « أنا أعجبُ من مسلم يصدقُ بالقرآن ، ويزعمُ أنَّ في قبائلِ العَرَبِ من بقايا ثمود . وكان أبو عبيدة يتأوَّلُ قوله : (وَثُمَودًا فَمَا أَبْقَى) أنَّ ذلك إنما وقع على الأكثَرِ وعلى الجمهور الأكْبَرِ . وهذا التأوِيلُ أخرجهُ من أبي عبيدة سوء الرأي في القوم ، وليس له أن يجيء إلى خَبَرٍ عامٍ مُرْسَلٍ غَيْر مَقِيدٍ ، وخبَرٌ مطلَقٌ غَيْر مَسْتَنِيٍ منه فيجعله خاصاً كالمسْتَنِيٍ منه ، وأي شيء بقي لطاعن أو متَّاول بعد قوله⁽⁸¹⁾ : (فَهَلْ تَرَى لَهُم مِنْ بَاقِيَةَ) »⁽⁸²⁾ ؟

وازاء تعصب الشعويين للثقافة الفارسية والثقافات الأعجمية ، وازدرائهم لثقافة العرب وتراثهم ، وإعراضهم عن كلَّ ما يَمْتَزِّنُ لهـذا التراث بصلة⁽⁸³⁾ وإزاء اقتران الشعوبية بالزنادقة وتلازمها معها⁽⁸⁴⁾ فقد جعل أبو عثمان كُتبَه معرضاً فـذَّلتـالـثقـافـاتـوتـزاـوجـهـاـفـلـمـيـعـصـبـلـثـقـافـةـأـوـعـلـىـثـقـافـةـ،ـفـالـثـقـافـاتـجـمـيـعـاًـتـغـذـىـالـعـقـلـوـتـهـذـبـالـجـسـ،ـوـتـبـسـطـالـمـعـرـفـةـ،ـوـتـحـكـيـعـنـتجـارـبـالـأـمـ،ـوـإـذـكـانـالـعـلـمـوـالـمـعـرـفـةـغـايـتـهـ،ـفـلـاـضـبـرـأـنـيـبـحـثـعـنـهـأـنـيـوـجـدـهـاـفـيـثـقـافـةـالـعـجمـوـثـقـافـةـالـعـربـوـتـرـاثـهـ،ـوـمـنـيـنـظـرـفـيـفـهـرـسـتـكـتبـهـ،ـيـلـمـأـنـهـسـبـأـغـوارـالـمـعـرـفـةـ،ـوـاسـتـلـهـمـكـلـالـثـقـافـاتـ،ـوـأـلـفـفـيـأـخـلـاقـالـمـلـوـكـ،ـكـمـأـلـفـفـيـأـخـلـاقـالـلـصـوصـوـالـذـعـارـوـالـسـوـقـةـ.ـأـلـفـفـيـإـلـمـامـوـوـجـوبـهـاـوـالـنـبـوـةـوـحـجـجـهـاـ،ـوـرـدـعـلـىـ

(80) القرآن الكريم ، سورة النجم ، رقم الآية : 51.

(81) الجاحظ ، البيان والتبين ، ج : 1 ص : 109.

(82) القرآن الكريم ، سورة الحاقة ، رقم الآية : 8.

(83) الجاحظ ، ذم أخلاق الكتاب (ثلاث رسائل) ص : 42—43.

(84) مصدر نفسه . ص : 47—48.

لاحظ أبو عثمان أنَّ الزندقة نتيجةٍ من نتائج الشعوبية ، وقد سَرَّدَ في هذه الرُّسَالَةِ أسماء بعض الكتب الشعوبين المترندين ، أمثال يونس ابن أبي فروة ، ويزداد عادان وإبراهيم ابن إسماعيل ابن داود وغيرهم ، وانظر للمزلف نفسه كتاب الحيوان ، ج : 7 ص : 22 ففيه تصويرٌ دقيقٌ للحالة النفسية للشعوبين الذين يرثون في أحضان الزندقة .

الزنادقة والملاحدة وغيرهم من أصحاب الفرق وأهل الملل والديانات ، تكلم في العرض والجوهر والجزء الذي لا يتجزأ وألف في الآلة وتحدث عن المفهمن . أله في الحيوان والكيمياء وتحدث عن الطب والأطباء وغير ذلك من أصناف المعرفة وأنواع العلوم ⁽⁸⁵⁾ .

ولعلَّ خير كتبه التي يظهر فيها مزاجه بين الثقافات المختلفة مرجأً واضحاً ، هو كتاب الحيوان الذي ألفه ليبيان قدرة الله عزَّ وجلَّ وحكمته من خلال مخلوقاته ، وهو كتاب - كما يقول - « تستوي فيه رغبةُ الأئمَّةِ ، وتتشابهُ فيه العربُ والعجمُ ، لأنَّه وإنْ كانَ عرباً أعرابياً وإسلامياً جماعياً ، فقد أخذَ من طرفِ الفلسفة ، وجمعَ بين معرفة السَّماعِ وعلم التجربة ، وأشركَ بين علم الكتاب والسنة وبين وجdan الحاسة وإحساس الغريزة » ⁽⁸⁶⁾ .

فالكتابُ مزيجٌ من ثقافة اليونان والفرس والهند والعرب وخلط من ديانات الفرس واليهودية والتبرانية والإسلام ، إضافة إلى مذاهب الدهريَّة والفلسفَة والزنادقة . أمَّا مصادِرُه فكثيرةٌ منها كتابُ الله وحديثُ رسُولِه ، والتوراة والإنجيل ، ومنها أشعارُ العربِ في الحيوان ، فالشاعرُ العربي تحدَّث عن الحيوان ، فوصفَ الأليفَ منه والوحشى . ويعتقدُ الجاحظُ أنَّ معرفةَ العربِ بالحيوان لا تَقلُّ عن معرفة الشعوب الأخرى ، واعتقاده ناتج عن استقراره للشعر العربي ومقارنته معانيه بما جاء في كتب الأطباء والفلسفَة ، فقال : « وَقَلَّ مَعْنَى سَمْعَنَاهُ فِي بَابِ مَعْرِفَةِ الْحَيَاةِ مِنَ الْفَلَسْفَةِ ، وَقَرَأْنَاهُ فِي كَتَبِ الْأَطْبَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ ، إِلَّا وَنَحْنُ قَدْ وَجَدْنَاهُ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَالْأَعْرَابِ ، وَفِي مَعْرِفَةِ أَهْلِ لُغَتَنَا وَمُلْتَنَا . ولولا أَنْ يَطُولَ الْكِتَابُ لَذَكَرْنَا ذَلِكَ أَجْمَعِ » ⁽⁸⁷⁾ .

ومعرفةُ العربِ بالحيوان - عنده - نتيجةً للمعايشةِ والمكابدةِ ، فهم محتاجون

(85) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 3.

ياقوت ، معجم الأدباء ، ج : 16 ص : 106 وما بعدها .

(86) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 11.

(87) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 268 .

إليه في معاشهم ك حاجتهم للماشية والأنعام والكلاب . يُكَابِدُون منه في ترَحِيلِهم وَتَبَدِّيْهم ، فقد « يُنْتَلُونَ بالناب والمخلب ، واللَّدْغُ واللَّسْعُ ، والعضُّ والأكل . فخرجت بهم الحال الى تعرف حال الجناني والجارح والقاتل ، وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلبُ والهربُ ، وكيف الداءُ والدواء » ⁽⁸⁸⁾

وثقة الجاحظ بهذا المصدر (أعني الشعر العربي) كبيرة ، وكثيراً ما يرجحها على أقوال أرسطو ، فبعد أن ذكر قول أرسطو في عقوبة العقاب ، يقول : « هذا قول صاحب المنطق في عقوبة العقاب وجفائها لأولادها ، فاما اشعار العرب ، فهي تدل على خلاف ذلك ، قال دريد ابن الصمة :

وَكُلُّ لجوجٍ فِي العِنَانِ كَانَهَا
إِذَا اغْتَمَسَتْ فِي الْمَاءِ فَتَخَاهُ كَاسِرٌ
لَهَا نَاهِضٌ فِي الْوَكْرِ قَدْ مَهَدَتْ لَهُ كَمَا مَهَدَتْ لِلْبَعْلِ حَسَنَةُ عَاقِرٍ ⁽⁸⁹⁾ »

ولهذا السبب ، فالجاحظ لا يبحث في أصناف الحيوان الذي لم يُعنَّته الشعر العربي ⁽⁹⁰⁾ .

ومن مصادر الكتاب أيضاً كتاب الحيوان لأرسطو ، نَقَلَ عنه في مواضع عديدة ، كما نَقَلَ عن أفليمون صاحب الفراسة في الحمام ، ونقل عن جاليوس ، وتحدث عن سلمويه وابن ماسوية وحنين ابن إسحاق ، ونقل عن ابن المقفع ، وتكلم في أساطير الفرس ونيرائهم ، وتحدث عن المانوية والزنادقة وكتبهم وعباداتهم ، وعن اليهود والنصارى والشَّبَّهِ التي أثيرت حول بعض الآيات القرآنية .

ومن مصادره أيضاً بيشة المعتزلة والكلام الذي ولده ، وفتنه ، أضيف إلى ذلك خبرة الجاحظ الشخصية ، ولو لوعة بالتجربة ، ورحلاته العديدة إلى الأمصار ، ومجالسته للأطباء والعلماء ، وسؤاله للبحريين والصيادين والقرادين ، والحوائين ،

(88) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 6 ص : 29.

(89) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 37.

(90) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 168 — 169.

فالكتابُ معرضٌ للثقافاتِ العربية والفارسية والهندية واليونانية ومزجّ من الإسلام والمسيحية واليهودية والزرادشتية والمانوية والدهرية⁽⁹¹⁾.

وما سترتضُّ له من هذا الكتاب هو المُناظرةُ بين صَاحبِ الْكَلْبِ وصاحبِ الديكِ ، فقد رَأَى بعضُ المحدثين : أنَّ تلك المُناظرة إنما هي مُناظرةٌ بين العربِ والشُّعُوبَيَّةِ . فقال الحاجري : « فليس الأصل في العناية بهذين النسوتين من الحيوان عند المتكلمين إلا هذا ... الاعتبارُ الديني المتصل بالشُّعُوبَيَّةِ . وما نَحْسَبُ أنَّ هناك وجهاً آخرَ يصلحُ أن يكون أصلًا لها نرجعُ إليه في تعليلها ، ونَطْمَئِنُ إلىه في ذلك . وقد يمكن القول بأنَّ الأمرَ بينهما يرجعُ إلى الخصومةٍ بين الترعةِ العربيةِ والتربعةِ الفارسيةِ »⁽⁹²⁾.

فالكلبُ يضافُ إلى العربِ ، والديكُ يضافُ إلى العجمِ ، والعربُ في نظرِ الشُّعُوبَيَّةِ قومٌ جفاةٌ غلاظٌ ، رعاةٌ إبلٌ وغنمٌ ، الكلبُ صديقُهم وصاحبُهم ، وحاجتهمُ إليه ظاهرةٌ على هوانِه وقذارِته ولؤمه وخبيثِه . والعجمُ في نظرِ العربِ قومٌ سكانٌ قرَى أشبَهُ بالأنباطِ ، أثَرَتُ فيهم بيتهُم ، فاستكانتوا ، وذَلُوا ، فلا كَرَمٌ لهم أو نجدةٌ وهم أشبَهُ بالديكِ الذي يعايشُهم ، ويسرقُ خصالَهم ، وضعفهم ، وضيقَ حياتِهم⁽⁹³⁾.

وللديكِ عند العجمِ منزلةٌ دينيةٌ قديمةٌ ، تحكيها الغرائبُ والأساطيرُ ، وتتمثلُ بتلك الإشاراتِ التي يبحكيها شاعرُ كالحكمِ البهرياني :

« ثم أصبحتُ بعد حَقْضِ ولهِ مدنقاً مفرداً محالفاً عُشِّرِ
أثراني مُقْتَ من ذبحِ ديكِ وعاديت من أهابَ بصفِّ »⁽⁹⁴⁾

(91) أحد امين ، ضحي الاسلام ، ج : اص : 399 وما بعدها ، طه الحاجري ، الجاحظ ، ص : 397 وما بعدها . عبد السلام هارون ، مقدمة الحيوان ، ج : 1 ص : 18 وما بعدها ، شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الثاني ، ص : 596 وما بعدها .

(92) الحاجري ، الجاحظ ، ص : 403 .

(93) مرجع نفسه . ص : 404 — 403 .

(94) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 6 ص : 84 .

وبالذى يُرْوَى عن أبي نواس ، وقد حُبِّس في حبس الزنادقة ، فسأله مَنْ يَتَعَهَّدُ ذلك الحبس إِنْ كَانَ زَنْدِيًّا ، فيجيب بالتفى ، فيسأله إِنْ كَانَ يَعْدُ الْكَبِشَ أو الشَّمْسَ أَو الدَّيْكَ⁽⁹⁵⁾ .

ويستظهر الحاجري برأي العوام في الدَّيْكَ ، وبما وُضِعَ على لسان النبي من أحاديثٍ في تفضيله ، ومحبة الرَّسُول لَهُ ، وقدرته على طرد الشياطين والعفاريت⁽⁹⁶⁾ ، فلا يَشُكُّ في أنَّ الدَّيْكَ كان رمزاً لحياة الفرس الإجتماعية ، وأنَّ له صلة بحياتهم الدينية⁽⁹⁷⁾ .

والكلب ، وإن لم يكن له تلك المتنزلة من الْقَدَاسَةِ عند العرب ، فقد كان له من الصَّلَةِ ب حياتهم ، ما يجعله رمزاً لهم في أذهان الفُرس⁽⁹⁸⁾ .

ويتابع ضيفُ الحاجري في رأيه بهذا الشأن ، فيقول : « والمناظرة في رأينا مناظرة بين الشعوبية والعربي ، فاما الشعوبية فرمذهم الدَّيْكَ الذي يُرَى في قراهم ومدنهم ، وأما العرب فرمذهم الكلب الذي لا يفارقهم في منازلهم ومراعيهم ، وكان معبد والنظام المعتزليين اسمان اختارهما الجاحظ ، ليقيم مناظرته ، أما في حقيقة الأمر ، فليس هناك معبد ولا نظام ، إنما هناك الجاحظ بلسنِه وقدرته الرائعة »⁽⁹⁹⁾ .

فهل صحيح ما ذهب إليه الحاجري وضيف؟ للحكم في هذه المسألة ، لا بد من العودة إلى الكتاب نفسه ، واستقراء نصوصه ، لَتَحْكُمَ إِنْ حَكَمْنَا عَلَى بَيْنَهُ ، ونؤيد حُكْمَنَا بالدليل الواضح والبرهان القاطع ، فالمناظرة على ما يبدو لم تكن من صنع الجاحظ ، وقد اشتهرت ، وانتشرت قبل أن يشرع الجاحظ بتأليف كتابه . والجاحظ يروي كلاماً من عَابَ تلك المناظرة ، واشتغال مثل النظام

(95) الحاجري ، الجاحظ ، ص : 404.

(96) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 2 ص : 354، 259.

(97) الحاجري ، الجاحظ ، ص : 405 — 406.

(98) مرجع نفسه . ص : 406.

(99) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الثاني ، ص : 598.

وصاحبه فيها ، ويرد عليه . ونجد هذا العائب ، يُسْهِبُ في ذم الكلب والذئب على السواء⁽¹⁰⁰⁾ ، ويتساءل متعجباً عن قدر الكلب وفضيلة الذئب « حتى يتفرغ لذكر محسنهما ومساويهما ، والموازنة بينهما والتتويه بذكرهما شيخان من عليه المتكلمين ، ومن الجلة المتقدمين ... (حتى) صار هذا الضرب من النظر عوضاً من النظر في التوحيد ، وصار هذا الشكل من التمييز خلفاً من التعديل والتجمير ، وسقط القول في الوعد والوعيد ، ونبي القياس والحكم في الاسم ، وبطل الرد على أهل الملل ، والموازنة بين جميع التحل ، والنظر في مرشد الناس ومصالحهم ، وفي منافعهم ومرافقهم »⁽¹⁰¹⁾ .

فهذا العائب كما نرى ليس من عرض القوم ، وإنما هو من أصحاب الكلام الذين شغلتهم تلك المسائل من النظر في التوحيد والتعديل والتجمير والوعيد والوعيد ، والرد على أهل الملل . فلو كانت الخصومة بين العرب والشعوبية تذهب هذا المذهب ، وتبالغ تلك المبالغة ، لفطن هذا الرجل إليها ، وهبَّك أنه غفل أو تغافل عنها ، فما بال الجاحظ لا يذكرها في باب رده عليه ، ويتعاطف عنها أيضاً؟ وإنما يذكر الغرض من المناقضة ، فيقول : « فاما قولك : وما بلغ من خطر الذئب وقدر الكلب . فإن هذا ونحوه كلام عبد لم يفهم عن ربِّه ، ولم يعقل عن سيدِه ، إلا بقدر فهم العامة أو الطبقة التي تلي العامة . كأنك - فهمك الله تعالى - تظن أن خلق الحية والعقرب ، والتدبير في خلق الفراش والذباب ، والحكمة في خلق الذئب والأسد ، وكل مبغض إليك ، أو محقر عندك ، أو مسخر لك ، أو واثب عليك ، أن التدبير فيه مختلف أو ناقص وأن الحكمة فيه صغيرة أو ممزوجة »⁽¹⁰²⁾ .

فالغاية إظهار حكمَة الله في خلقه ، وتدبيره في مخلوقاته وهذا المعنى يتزدُّ في مواضع مختلفة من الكتاب ، فيذكر أن الجبل ليس بآدم على الله من

(100) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 190 وما بعدها .

(101) الجاحظ ، الحيوان ، ج : 1 ص : 200.

(102) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 203.

الحصاة ، وأنَّ الطاووسَ المستحسنَ ليس بآدَلَ على اللهِ من الخنزير ، وأنَّ النَّاجِ
والنَّارَ وإنَّ اختلافَهَا في البرودةِ والحرارةِ فانهما متفقانَ في البرهانِ والدلالةِ ،
فالطاووسُ ليس بآدَلَ على اللهِ من الغرابِ ولا التَّدرجُ أعزَ على اللهِ من الحدأةِ ولا
الغزالُ أحبَ إلى اللهِ من الذئبِ « فإنما هذه أمورٌ فرقها الله تعالى في عيون الناس
وميَّزَها في طبائع العباد ، . . . فلا تذهب إلى ما ترىك العينُ ، واذهب إلى ما
يرىك العقلُ »⁽¹⁰³⁾ .

فالباحثُ في قدرِ الديكِ وفضيلةِ الكلبِ كالباحثُ في الجزءِ الذي لا يتجزأ
ليس غايةً بذاته ، وإنما هو وسيلةٌ لما يتولدُ عنه من علمِ النهايات ، فإنَّ اعتراضَ
هذا الرجلُ بالقولِ : ما يبلغُ من قدرِ الكلب ، ومن مقدارِ الديك ، أجابَه
الجاحظُ : « فاي شيءٍ بلغ - غفر الله تعالى لك - من قدر جزء لا يتجزأ من رمل
عالج ، والجزء الأقلُ من أول قطعِ الذرةِ للمكانِ السُّحيقِ ، والصحفَةَ التي لا
عمق لها . . . حتى يتفرغُ للجدالِ فيه الشيوخُ الجلةُ والكمولُ العليةُ ، وحتى
يختاروا النظرَ فيه على التسبيعِ والتلهيلِ ، وقراءةِ القرآنِ ، وطولِ الإنتسابِ في
الصلوةِ »⁽¹⁰⁴⁾ .

فالجاحظ - كما هو بين - افتَنَ شتى الأفانيين في الدُّفاعِ عن هذه المناizzaةِ
ومن انغماسِ فيها ، ومع ذلك ، لم يأتِ على ذكرِ الشعوبيةِ أو التعصبِ للعربيةِ .
 وإنما صرَحَ بأنَّ المناizzaةَ بين الكلبِ والديكِ لا تقصدُ النَّظرَ في أثمانِهما ،
ومناظرِهما ومحالِهما من صدورِ العامةِ أو اقدارِهما عندِ الناسِ ، فالغايةُ النَّظرُ ،
« فيما وضعَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهما من الدلالةِ عليهِ ، وعلى إتقانِ صنعِهِ وعلى
عجبِ تدبيرِهِ ، وعلى لطيفِ حكمتهِ ، وفيما استخزنَهما من عجائبِ المعارفِ ،
وأودعَهما من غواصِ الإحساسِ ، وسخرَ لهما من عظامِ المنافعِ والمراافقِ ، ودلَّ
بهما على أنَّ الذي بهما ذاك التدبيرِ ، وأودعَهما تلكَ الحكمَ ، يحبُّ أنْ يُفَكَّرَ
فيهما ، ويُعتبرَ بهما ، ويُسَيَّحَ اللهُ عزَّ وجلَّ عندهما »⁽¹⁰⁵⁾ .

(103) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 206 — 207.

(104) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 216 .

(105) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 109 .

ليس ذلك فحسب ، وإنما صرَّح في مقدمة الجزء السابع بأنه لا يهدف إلى تفضيل فئة من الناس على فئة أخرى⁽¹⁰⁶⁾ .

والمنتظران متفقان على تفضيل العرب وتقديمها ، فصاحب الكلب مت指控 للعرب⁽¹⁰⁷⁾ وصاحب الديك يقدم العرب على الأمم الأخرى ويقول : « لم يكن لعبد المطلب في قُريش نظير ، كما أنه ليس في العرب لقریش نظیر ، وكما أنه ليس للعرب في الناس نظير ... وإذا قالوا سيد قريش ، فقد قالوا سيد العرب ، وإذا قالوا سيد العرب ، فقد قالوا سيد الناس »⁽¹⁰⁸⁾ .

والكتاب كله مناظرات في أصناف الحيوان ، فتارةً يوازن بين الكلب والديك وتارةً أخرى يقاس بين الطاووس والديك⁽¹⁰⁹⁾ ثم بين الديك والغراب⁽¹¹⁰⁾ وهكذا ...

فالكتاب مناظرات متصلة بين أنواع الحيوان ، رمى الجاحظ فيها إلى الإلماع والإطراف العلمي ، والدلالة على قدرة الله عجیب صنعته ، وتدريب الناشئة على الجدل والمناقشة ، وقوع الحجَّة بالحجَّة ، ويظهر أنَّ الناس أولعوا في زمن الجاحظ بالمناظرات من كل نوع ، فإنه يحكى لنا عن رجلين تناظراً على باب موسى بن عمران في العنب النيروزي والرازقي ، فتخاصما ، وتلاهما ، وتضاربا⁽¹¹¹⁾ .

لا تُنكر وجود العصبية لبعض أنواع الحيوان أو عليه ، وأن سبب هذا التعصب ، ما شجر من خلافات بين العناصر المختلفة في المجتمع الإسلامي ،

(106) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 7 ، يقول الجاحظ : « وليس هذا الكتاب ... في ايمجاب الوعد والوعيد ، فيعرض عليه المرجوء ، ولا في تفضيل علي ، فينصب له العثماني ، ولا هو في تصويب الحكمين ، فيتسخطه الخارجي ... ولا هو في تفضيل العجم على العرب » .

(107) مصدر نفسه : ج 1 ص 286.

(108) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 245 وما بعدها .

(109) مصدر نفسه ، ج : 2 ص : 243 وما بعدها .

(110) مصدر نفسه . ج : 2 ص : 319 .

(111) مصدر نفسه ج : 7 ص : 8 .

وقد أشار الجاحظ إلى أخبار عديدة في هذا الشأن ، كأن يقول : « وزعم لي سَلْمُوْيَه ، وابن ماسُويه متطيّباً الخلفاء ، أنه ليس على الأرض جيفة أتن نتناً ، ولا أثقب ثقوبَاً من جيفة بعير ، فظننت أنَّ الذي وهمهما ذلك عصبيّهما عليه ، وبغضهما لأربابه ، ولأنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ ، هُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْكِتَابِ بِرَأْكِ الْبَعِيرِ »⁽¹¹²⁾ .

ويشير إلى تعصّب العرب للإبل ، وجهاً لها ، وشغفها بها من خلال حواره مع بعض الأعراب الذي أظهر حبه للإبل ، فسألَه الجاحظ « أيُّنها وبينكم قرابة ؟ قال : نعم ، لها فينا خُوّولة ، إني والله ما أعني البختي ، ولكن أعني العرب ، التي هي أعراب ! قلت له : مسخك الله تعالى بعيراً ، قال : الله لا يمسخُ الإنسان على صورة كريم ، وإنما يمسخه على صورة لثيم ، مثل الخنزير والقرد »⁽¹¹³⁾ .

وتعصّب العرب للجمل قديم ، يرجع إلى الجاهلية ، فقد دُخلَ أحد الأعراب على كسرى ، ليعجبَ من جفائه وجهه ، فسأله « أيُّ الأشياء أبعد صوتاً ؟ قال : الجمل ، قال : فائي شيء أطيب لحماً ؟ قال : الجمل ، قال : فائي شيء أنهض بالعمل ؟ قال : الجمل »⁽¹¹⁴⁾ .

وللذِّي عند الموالي متزلةٌ رفيعةٌ وقد حاكوا الأحاديث ، ونسبوها إلى النبي ، في فضلِه وقوته على طرد الشياطين وحراسة الدور من العفاريت⁽¹¹⁵⁾ . والكلب له اختصاص بالبادية وأهلها ، ومما احتاج فيه صاحب الكلب أنَّ جميع أهل البدو في جميع الأفاق من الأرض ، يربون الكلاب في خيامهم ، كذلك كانوا في الجاهلية ، وعلى ذلك هم في الإسلام⁽¹¹⁶⁾ .

(112) مصدر نفسه ج : ١ ص : 246.

(113) مصدر نفسه . ج : ٤ ص : 100.

(114) مصدر نفسه ، ج : ٧ ص : 194.

(115) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 377 ، ج : ٢ ص : 207 ، 259 ، 354.

(116) مصدر نفسه . ج : ٢ ص : 192.

وفي «الحيوان» صورةٌ واضحةٌ عن تعصب الهند للفيل ونفضيله والمفاحرة فيه⁽¹¹⁷⁾ غير أنَّ ما أنكره هو أنَّ يكون الجاحظ قد قَصَدَ في مناظرته إظهار هذا الجانب من منازعة الأمم والتعصب فيه بين العرب والجم .

ابن قتيبة :

لم تخفَّ التزُّعُ الشعوبية بعد عصر الجاحظ ، واستمرَّت قوَّةً ، تكافحُ العرب ، وتجاهدُ النفوذ العربي في السياسة والدين واللغة والأدب والإجتماع . مما دفع ابن قتيبة العالم الأديب ، المروزي الأصل والبغدادي النشأة إلى الردِّ عليها ، وفضحَ أسلاليها ، وتعليقِ بوعاثها وأسبابها ، وابن قتيبة شأنه شأن الجاحظ ، لم ينظر إلى الشعوبية كحركة وطنية ، تجسَّدَ الأمال الفارسية ، وإنما نظر إليها كجماعة تتَّحَالُ على العرب ، مدفوعةٍ بالحسد والضغينة والحقِّ ،

(117) مصدر نفسه . ج : 7 ص : 109، 171، 204.

(118) هو أبو محمد عبد الله ابن قتيبة الدينوري ، عالم أديب ، كثيرُ الحفظ ، قويُّ المنية . وكان إماماً في اللغة والأدب والآداب والأخبار وأيام الناس ، ثقةً صدوقاً فيها يرويه ، عالم بمشكل القرآن ومعانيه ، وغريب الحديث هراميه ، اختلفَ في مكان ولادته فقيل إنه ولد بالكوفة ، وقيل بل في بغداد في سنة ثلاث عشرة ومائتين من الهجرة ، ونشأ فيها ، وتنقَّلَ على أهلها وأخذ العلم عن رجالها ، تُسبَّ إلى الدينوري ، فقيل : الدينوري لأنَّ أقام بها مدةً حين تولى قضاها .

وله مصنفات عديدة ومختلفة ، ممتعة ومفيدة ، تناولت جميع معارف عصره وكان حسن الدفاع عن القرآن والحديث ، واشتراك في المناقشات الكلامية التي استعرَّ لها في عصره ، فنصر أهل السنة وتُسبَّ إليها فاعتبروه قوم لسان أهل السنة وخطيبها ، لكنَّه لم يسلم من الاتهام فأ忝َّم بالتشبيه والزندة ، فصنف كتاباً يردُّ فيه على المشبهة ليردِّفَ بهم الزندة عن نفسه .

واختلف الرواة في تاريخ وفاته ، فقيل أنه توفي في سنة سبعين ومائتين وقيل سنة إحدى وسبعين ومائين وقيل سنة ستة وسبعين ومائين وهو الأصح .

انظر في ترجمة ابن قتيبة ، ابن النديم ، الفهرست ، ص : 115 ، الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج : 10 ص : 170 ، ابن خلkan ، وفيات الاعيان ، ج : 42 ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج : 2 ص : 169 ، احمد امين ، ضحى الاسلام ، ج : 1 ص : 402 ، محمد عي الدين الحميدي ، ادب الكاتب ، ترجمة ابن قتيبة ، ص : 6 وما بعدها . ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، مقدمة الجزء الرابع - دار الكتب المصرية ص : 12 وما بعدها .

وتعمل جاهدة لتزيف حقيقة العرب في حاضرهم وماضيهم ، وتوسل لأجل ذلك الكذب والدّس والبهتان والمكابرة ، يدفعها الغلو إلى الكفر بالله ورسوله أحياناً ، لكنها لا تجاهر بكتفها خشية المسلمين وبطشهم⁽¹¹⁹⁾ ، وإنما تظاهر بالدعوه إلى المساواة والإحتكام في ذلك إلى كتاب الله وحديث رسوله آخذة بظاهر النص ، متغافلة عن معناه ، فتعمد إلى قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وانثى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاقُكُمْ »⁽¹²⁰⁾ وقوله جل وعلا « إنما المؤمنون أخوة ، فاصطحبوا بين أخويكم »⁽¹²¹⁾ ، وإلى قول النبي (ص) في خطبته في حجّة الوداع : « أيها الناس إنا الله قد أذهب عنكم نحوة الجاهلية وتفاخرها بالأباء ، ليس لعربي على عجمي فخر إلا بالتقوى ، كلكم لأدم ، وأدم من تراب ، وقوله : المؤمنون تتكافأ دمائهم ، ويسعى بذمّتهم أدناهم ؛ وهم يدعى مَنْ سواهم »⁽¹²²⁾ .

فأوضح ابن قتيبة هذا المعنى ، واعتبر أنَّ الناسَ من المؤمنين سواسيةٌ في الأحكام والمتزلة عند الله والدار الآخرة ، أما في أمور الدنيا ، فالناس تتفااضل ، وفيهم الشريف والمشرف وهذا معنى قول النبي (ص) « إذا أناكم كريم قوم ، فأكرموه ، وقوله (ص) : أقيموا ذوي الهبات من عشراتهم . قوله (ص) في قيس ابن عاصم : هذا سيد الوير »⁽¹²³⁾ .

فالناس بخير ما تباينوا ، فإذا تساوا في المنزلة الإجتماعية هلكوا « وكيف يستوي الناس في فضائلهم ، والرجل الواحد لا تستوي في نفسه أعضاؤه ، ولا تتكافأ مفاصيله ، ولكن لبعضها الفضل على بعض »⁽¹²⁴⁾ .

وإن انطلق الشعوبيون من المناداة بالمساواة بين المسلمين ، فقد تجاوزوا

(119) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 344.

(120) القرآن الكريم - سورة الحجرات - رقم الآية : 13.

(121) مصدر نفسه . سورة الحجرات ، رقم الآية : 10.

(122) ابن عبد ربه . العقد الفريد ، ج : 3 ص : 322.

(123) مصدر نفسه . ج : 3 ص : 322-323.

(124) مصدر نفسه ، ج : 3 ص : 323.

ذلك - كما سبق وأشارنا - إلى الغلو والمبالغة ، ففضلوا بين العرب والمعجم ، وفضلوا العجم ، وتنقصوا العرب ، وأظهروا مشانتها ومثالبها ، وحرّفوا الكلم في مناقبها ، إن عرفوا خيراً ستروه ، وإن ظهر حقره ، وإن احتمل التأويلات أولوه إلى أقبحها ، ينشرون مثالبها ، وينقرون عنها ، ويتحمّلونها . « وعائب الناس ، يعييهم بفضل عيه ، ويتنقصهم بحسب نقصه ، ويدفع عوراتهم ليكونوا شركاء في عورته ، ولا شيء أحب للفاسق من زلة العالم ، ولا إلى الخامل من عشرة الشريف »⁽¹²⁵⁾ .

وإذ يتصدى ابن قتيبة للشّعوبية وهجماتها ، فليس لأنّه متّصّب للعرب ، أو حاقد على العجم . فالعجم قومه والعرب إخوانه في الدين ، وإنما رأى خصومةً ومنازعةً ولجاجاً ومعاندةً ، فأراد الحكم في هذه الخصومة والنظر فيها كقاضٍ عادلٍ ، يتوكّل على الحق والإنصاف في أحکامه ، قال : « وسأقول في الشرف بأعدل القول ، وأبين أسبابه ، ولا أبخس أحداً حقه ، ولا أتجاوز به حدّه ، فلا يمنعني نسيي في العجم أن أدفعها عمّا تدعّيه لها جهلتها ، وأنني أعتّها عمّا تقدم إليها سفلتها »⁽¹²⁶⁾ .

فالشّعوبية - في رأيه - تُسيء إلى العجم ، كما تُسيء إلى العرب ، لما تثيره من عداوة ، وما تؤجّجه من بغضاء وحقد . وهو وإن ذهب كلّ مذهب في تفضيل العرب وتقديمهما ، ورفض التأويل الشّعوي لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، واحتج على ذلك بالقرآن والحديث ، يميل إلى القول بالتسوية ويرى الأخذ بها ، لأنّ الصّفات المحمودة والمذمومة متفرقة على النّاس من جميع الأمم ، فعدل القول عنده : « أنّ الناس لأبٍ وأمٍ ، خلقو من تراب ، وأعيدوا إلى التراب ، وجرروا في مجرى البول ، وطعوا على الأقدار ، فهذا نسبهم الأعلى الذي يردع أهل العقول عن التعظيم والكبرياء ، ثم إلى الله مرجعهم ، فتنقطع

(125) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 345 — 346.

(126) مصدر نفسه ، ص : 356.

الأنساب ، وتبطل الأحساب إلا من كان حَسْبَه تقوى الله وكانت ماتته طاعة
الله»⁽¹²⁷⁾

وقوله بالُّسُورِيَّةِ لا يلغى التفاضل بين الأفراد والجماعات ، فالتفاضل إنما يقع
في النَّسْبِ الأدنى ، وما حبا الله الأمَّ والأفراد بصفات اختصوا بها وعرفوا فيها ،
كالعرب ، فإنَّها من الأمَّ الكريمة بِلِبَانِهَا «ولم تَرَأْ في الجاهليَّةِ ، تتوافق
بالحلم والحياء والتَّذَمُّمِ ، وتتعارِفُ بالبَخلِ والغدرِ والسفهِ ، وتتنزَّهُ مِنَ الدَّنَاءَةِ
والمذمَّةِ ، وتتدرُّبُ بالتجدُّدِ والصَّبرِ والبسالةِ ، وتوجُّبُ للجَارِ من حفظِ الجوارِ
ورعايةِ الحقِّ فوق ما توجَّهُ للرحمٍ والشَّفِيقِ ، فربَّما بذلَ أحدهُم نفْسَهُ دون
جارِهِ ، ووقيَ ماله بِمَا لَهُ»⁽¹²⁸⁾ .

وعادات العرب في الجاهليَّةِ لم تكن مذمومةً كلَّها ، فالضَّيافة لِهِمْ ،
يتواصون بها ، ويؤثرون السَّائِلَ على أنفسهم ، ويجدون بما لديهم عن طِيبِ
نفس ، فإنْ احتجَ محتاجُ بشاعر أو بشاعرين ، مِمَّنْ وصفوا بالبَخلِ واشتهرُوا بهجاءِ
الأضيف ، دافع ابن قتيبة عن العرب بالقول : إنه ليس في الناس صنفٌ خالٍ من
العيوب ، منزَّهٌ عن الصُّفَاهَيْرِ ، ولو لا الشر ما عُرِفَ الخير ، « وإنما يُقْضَى بأغلبِ
الأمورِ ، ويحكمون بأشهر الأخلاقِ ، وليس في ثلاثة من الشعراء أو أربعة من هدرِ
مكارم أخلاقِآلافِ الناسِ ، وبِدَد صنائعهم»⁽¹²⁹⁾ .

ولقد عرفت العربُ حَيْثُ المطاعم والمشارب ، كالعلْهُز والحيَّاتِ والفَطَّ
والمجدوح⁽¹³⁰⁾ ، وما شاكِلُوهَا من طعام في المجاوز والضرورات ونازلةِ الفقرِ
والفلوات ، وإنما كان ذلك في ضرورة وحاجة وفقر ، قال الشاعر :

«إذا السنة الشهباء حلَّ حَرَامُها»⁽¹³¹⁾ .

(127) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 356.

(128) مصدر نفسه . ص : 361.

(129) مصدر نفسه . ص : 364.

(130) سبق وشرحنا معنى هذه الألفاظ

(131) ابن قتيبة ، كتاب العرب . ص : 365.

ولا عيب في الضرورة ، وإنما العيب لو كانت العرب مختارة لهذه الأنواع من المأكولات والمشارب ، كما يختار بعض العجم الذباب وبهم عنه غنى وكأكلهم السراطين والذجاج لهم معرضة . أما في الضرورة والفقر والجدب ، فهم مضطرون إلى ما يأكلون ، ومن جاع أكل ما وجد ومن لم يجد الماء شرب المجدوخ والنفط .

أما أهل اليهاد من العرب ، فإنهم يتغذّون من هذه المطاعم والمشارب ، ويعيرون بها ، ولا يقربونها ، كقول الشاعر :

« فما لحم الغراب لنا بزاد ولا سرطان أنهار البريص »⁽¹³²⁾

وقال آخر لامرأته :

« أكلت دماً إن لم أرغبك بصرة بعيدة مهوى القرط طيبة النثر⁽¹³³⁾ »

فلو كان شرب المجدوخ عاديًّا لديه وممودًا عنده ، لم يجعل يمينه شرب الدُّم . وفي العرب من أكل العلابي والعروق واللحم النيء ، وترك الأدب عند الطعام ، إلا أن هؤلاء هم الفقراء الذين لا يجدون ما يعنفهم على الإستمرار في الحياة غير ذلك ، فاما أهل الغنى واليسار ، فقد عرفوا الطيب من الطعام وأكلوه ، وهم أحسن الناس أدباً على طعام ، ومن أطعمتهم : المضيرة والهريرة ، والوشيقه والعصيدة والفالوذق ،⁽¹³⁴⁾ وهم أحسن الناس وصفاً للطعام وألطفهم في ذكره ، ومن أطبطتهم الفسانية والحيضة والريكة والخزيرة ، واللفية⁽¹³⁵⁾ .

ومن آدابهم على الطعام ، أنهم كانوا يقولون « إذا أكلتم ، فسموا ، وادنو »⁽¹³⁶⁾ وكانوا يكرهون أكل الدُّماغ لما في استخراجه من صورة الجشع .

(132) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلقاء) ص : 365.

(133) مصدر نفسه . ص : 366.

(134) أنواع من طعام العرب

(135) ابن قتيبة كتاب العرب . ص : 366 — 367 .

(136) مصدر نفسه . ص : 367 .

والحرص والطمع ، ومنهم مَنْ يَعَافُ أكل إِلَيْهِ الشَّاة ، وَهُمْ يَعْبَثُونَ الشَّرَّةَ وَالنَّهَمَ
والكسل والكظة⁽¹³⁷⁾ .

وَأَمَّا أَكْلُهُمْ لسْقَطَ الْمَائِدَةِ فَلَا كِرَامَ لِلطَّعَامِ ، وَإِعْظَامَ لِلنَّعْمَةِ وَوَاهِبِهَا ، وَإِدَامَةِ
الشَّكَرِ ، وَبِالشَّكَرِ تَدُومُ النَّعْمَ ، وَمَتَابِعَةِ لِحَدِيثِ الرَّسُولِ (ص) وَسَنَّتِهِ ، فَإِنَّهُ
قَالَ : « أَكْرَمُوا الْخَبْزَ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ . وَقَدْ أَمْرَنَا (ص)
بِأَكْلِ سَقْطِ الْمَائِدَةِ وَرَغَبَنَا فِيهِ »⁽¹³⁸⁾

« وَالْعَجْبُ . . . مِنْ قَوْمٍ نَحْلَتْهُمُ الْإِسْلَامُ ، وَنَبِيُّهُمْ مُحَمَّدٌ (ص) ، ثُمَّ
تَابَعَتِ الْأَخْبَارُ عَنْهُ بِشَيْءٍ أَمْرَ بِهِ ، أَوْ نَهَى عَنْهُ ، فَيَعْرَاضُونَ ذَلِكَ بِالْعِيبِ
وَبِالْطَّعْنِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْرِفُوا الْعَلَةَ ، وَلَا أَنْ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْإِنْكَارِ لِهِ نَفْعٌ ، أَوْ
عَلَيْهِمْ فِي الْإِقْرَارِ بِهِ ضَرَرٌ »⁽¹³⁹⁾ . وَالْعَرَبُ لَا تَأْكُلُ بِالْيَارِحِينَ وَالسَّكِينِ لِأَنَّ ذَلِكَ
مَفْسُدٌ لِلطَّعَامِ وَلِذَلِكَ ، وَالنَّاسُ يَعْرِفُونَ - إِلَّا الْمَكَابِرُ مِنْهُمْ - أَنَّ الْمَبَاشِرَةَ بِالْيَدِ أَجْوَدُ
فِي الْأَكْلِ وَأَذْلُّ لِلطَّعَامِ ، وَلَا مَعْنَى لِلتَّقْدِيرِ مِنَ الْكَفُّ النَّظِيفَةِ الْمَطَهَّرَةِ ، وَغَيْرُهَا
أُولَئِكَ الْمُتَقَرِّزُونَ وَالْمُتَقَدِّرُونَ⁽¹⁴⁰⁾ .

وَأَمَّا الشَّجَاعَةُ ، فَصَفَّةٌ مِنْ صَفَاتِ الْعَرَبِ ، لِأَنَّهَا « أَعْزُّ الْأَمْمِ أَنْفَسًا ،
وَأَعْزَّهَا حَرِيمًا ، وَأَحَمَّهَا أَنْوَافًا ، وَأَخْسَنَهَا جَانِبًا ، وَكَانَتْ تَغْيِيرُ فِي جَنَابَاتِ فَارِسٍ ،
وَتَطْرُقُهَا حَتَّى تَحْتَاجُ الْمُلُوكَ إِلَى مَدَارَاتِهَا ، وَأَخْذُ الرَّهْنِ مِنْهَا »⁽¹⁴¹⁾ .

وَكَانَ لِمَرَازِيَةِ الْفَرَسِ وَأَسْوَارِهَا بَاسٌ وَشَجَاعَةٌ ، إِلَّا أَنَّ بَيْنَ شَجَاعَةِ الْفَرَسِ
وَشَجَاعَةِ الْعَرَبِ فَرْقًا ، لِأَنَّ الْعِجْمَ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَجْوَدُ سَلَاحًا وَتَنْظِيمًا ، وَأَشَدُ
اجْتِمَاعًا ، لَهَا مَلْكٌ يَسُوسُهَا ، وَرَئَاسَةٌ تَنْفِيَ إِلَيْهَا ، وَتَعْمَلُ بِرَأْيِهَا ، وَهَذِهِ أَمْوَارُ
تَقوُّيِّ الْمَنَّةِ ، وَتَرْفُعِ الْمَعْنَوَيَاتِ ، وَتَقوُّيِّ الْقُلُوبِ . فَأَمَّا الْعَرَبُ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا

(137) مصدر نفسه . ص : 368

(138) مصدر نفسه . ص : 369

(139) مصدر نفسه . ص : 370

(140) مصدر نفسه . ص : 370

(141) مصدر نفسه . ص : 370

تحارب متفرقة بلا نظام يجمعها ، أو ملك تقيء إليه ، يحارب أكثرها راجلاً بالسيف الكليل أو فارساً على فرس لا سرج له أو على سرج لا ركاب له . والعجم يغلب على قتالها الرمي ، والعرب يغلب على قتالها السيف والرمح . فهي أكثر تعرضاً للأهواه والمخاطر ، وأشد صموداً وأبعد من الفرار . وشجعان العرب في الجاهلية معروفون ، منهم : عتبة ابن الحارث ابن شهاب ، وبسطام ابن قيس وبجير وعفاف ابنا مليل ، وعامر ابن الطفيلي وعمرو ابن دوأشاههم ، وشجعانهم في الإسلام أكثر من أن يعدهوا⁽¹⁴²⁾ . والرجليون (العدائون) للعرب خاصة ، منهم المتشير ابن وهب الباهلي ، وسليك ابن عمير السعدي وأوفى ابن مطر المازني . وبقية العرب استعاد بهرام جور ملك أبيه ، لما غصبه فارس إيه ، وبفرسان العرب شتّت بنو شيبان أستاذة كسرى في معركة ذي قار⁽¹⁴³⁾ وممّا يدل على تعزّز العرب في الجاهلية وأنفتها وشدة حميّتها ، امتناع النعمان من تزويع أبوريز إحدى بناته رغبة عنه⁽¹⁴⁴⁾ .

ومن مفاخر العرب في الجاهلية حيازة قُرَيْش لبيت الله الحرام المنصور بالطُّيُّرِ الأبابيل ، ولم يزالوا سدنته وولاته والقائمين بأموره ، ولهم يقال : جيران الله وأهل الله ، والعرب قوم لم يكونوا وثنين تماماً ، وإنما كان فيهم بقايا من الحنفية يتوارثونها عن إسماعيل (ع) منها : حجَّ البيت وزيارة ، والختان ، والغسل ، والطلاق والعتق ، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والرضاع والصهر⁽¹⁴⁵⁾ وهم في ذلك بخلاف العجم الذين يحلّلون البنات والأخوات . وعندما فعل ذلك حاجبُ ابن زراة تأسياً بالفرس ، نَدَمَ على ذلك ، وأظهرَ نَدَمَهُ ، فقال :

لحا الله دينك من أغلَفَ
يحلُّ الخوات لنا والبناتِ
أجشت على أسرتي سوءَ
وطوّقت جيدي بالمخزيات

(142) مصدر نفسه . ص : 370

(143) مصدر نفسه . ص : 371

(144) مصدر نفسه . ص : 371—372

(145) مصدر نفسه . ص : 372

وأبقيتْ فِي عَنْقِي سَبَّةٍ
مشاتم يحيين بعد الممات
فتنة تجللها شيخها فبس الشیخ ونعم الفتاة⁽¹⁴⁶⁾

ومن بقايا الحنفية أيضاً إيمان العرب بالملكين الكاتبين ، وقد ثبت هذا الزعم بالعثور على كتاب لعبد المطلب ابن هاشم « كتبه من أهل مكة على فلان ابن فلان الحميري من أهل زول صنعاء ، عليه ألف درهم فضة طيبة كيلًا بالحديدة ومتى دعاها بها أجاها ، شهد الله بذلك والملكان ، وقال الأعشى :

لا تحسبني كافرًا لك نعمة على شاهدي يا شاهد الله فأشهد⁽¹⁴⁷⁾

ومن ذلك أيضاً أحكام كانت في الجاهلية ، وأقرّها الإسلام ، ولم يغيّرها منها « دبة النفس مائة من الإبل ، ومنها أتباع حكم المبال في الختنى ، ومنها البيعنون بطلاق الثلاثة ، وللرجل على المرأة في الواحدة والإثنين »⁽¹⁴⁸⁾ .

وأما ادعاء الشعوبية أن العرب بنو اللختاء ، لأن اسماعيل من هاجر الأمة ، فهذا غلط في التأويل على اللغة ، وافتراة على أولياء الله بالأنباز القبيحة ، فليس كل أمّة لختاء ، وإنما اللختاء من الإمام المتهنة في رعاية الإبل وستيتها ، وجلب الحطب وما أشبه ذلك . فلا يقال لكل أمّة لختاء ، كما لا يقال لكل أمّة لكتاء . وإنما قيل لختاء لتن ريحها . « وأما مثل هاجر التي ظهرها الله من كل دنس ، وطبيها من كل دفر ، وارتضاها للخليل فراشاً ، وللطبيين اسماعيل ومحمد عليهما السلام أمّاً وجعلهما لها سلالة ، فهلم يجوز لمحدث فضلًا عن مسلم ، أن يطلق عليها اللختن . . . ولو جاز أن يُطلق على كل أمّة لختاء ، لجاز أن يُقال لكل شريف ولدته أمّة : هذا ابن اللختاء ، كما يقال لهذا ابن الأمة ، وقد ولدت الإمام الخلفاء والخيار الأبرار مثل علي ابن الحسين ابن علي بن أبي طالب ، والقاسم ابن محمد ابن أبي بكر الصديق ، وسالم بن عبد الله ابن عمر ابن الخطاب »⁽¹⁴⁹⁾ .

(146) مصدر نفسه . ص : 372

(147) مصدر نفسه . ص : 372

(148) مصدر نفسه . ص : 373

(149) مصدر نفسه ، !ص : 352

وكيف يُعْتَزِي الفرسُ لِإِسْحَاقِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَالنَّسَابُ لَا يَعْرُفُونَ لِأَهْلِ فَارِسَ ، وَلَا لِلنَّبِطِ نَسَابًا يَمْتَلِئُ لِإِسْحَاقَ بَصْلَةً ، وَإِبْنًا لِإِسْحَاقَ هَمَا عِصْوَهُ وَيَعْقُوبُ ، فَأَمَّا يَعْقُوبُ ، فَهُوَ أَبُو الْأَسْبَاطِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعِصْوَهُ أَبُو الرُّومَ ، فَاعْتَزَاءُ الْفَرْسِ لِإِسْحَاقَ خَطَّاً وَافْتَرَاءً⁽¹⁵⁰⁾ .

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ فَخْرُهُمْ عَلَى الْعَرَبِ بَآدَمَ لِقَوْلِ النَّبِيِّ : « لَا تَفْضُلُونِي عَلَيْهِ ، فَإِنِّي حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِهِ »⁽¹⁵¹⁾ وَادْعَاؤُهُمْ بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْعَجْمِ إِلَّا أَرْبَعَةٌ نَفْرٌ : هُودٌ وَصَالِحٌ وَشَعِيبٌ وَمُحَمَّدٌ ، وَهَذَا فَخْرٌ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ ، وَادْعَاءٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ ، وَافْتَرَاءٌ عَلَى الْعَرَبِ وَظَلَمٌ فَاحْشَ لَهُمْ ، فَكَيْفَ يَفْخَرُونَ بَآدَمَ ؟ أَلِيْسَ الْعَرَبُ مِنْ وَلَدِهِ ؟ وَكَيْفَ يَتَحَلَّوْنَ مُوسَى وَعِيسَى وَزَكْرِيَا وَيَحْيَى وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَهُؤُلَاءِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نَسَبٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فَارِسَ ، وَكَيْفَ يَدْفَعُونَ الْعَرَبَ عَنْهُمْ وَهُمْ أُولَئِي بَهْمٍ وَبَنُو عَمْوَتِهِمْ وَعَصِبَتِهِمْ ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنَوْحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عُمَرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)⁽¹⁵²⁾ فَأَلَّا إِبْرَاهِيمَ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي النَّسَبِ ، وَفِيمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى : إِنِّي سَاقِيمُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ إِخْوَتِهِمْ مُثْلَكَ أَجْعَلُ كَلَامِي عَلَى فِيهِ . يَرِيدُ أَنْهُ يَقِيمَ لَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ نَبِيًّا مُثْلِّ مُوسَى ، يَعْنِي مُحَمَّدًا (ص) ، وَهَذَا حَجَّةٌ مِنْ حَجَّجَنَا عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ كِتَبِهِمْ⁽¹⁵³⁾ .

وَأَمَّا فَخْرُ الْعَجْمِ عَلَى الْعَرَبِ بِالْمَلِكِ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَسَاوِيهَا فِيهِ « وَتَفْضِلُهَا... بِأَنَّ قَوَاعِدَ مُلْكِهَا نَبُوَّةٌ ، وَقَوَاعِدَ مُلْكِ فَارِسٍ اسْتِلَابٌ وَغَلَبةٌ ، وَتَفْضِلُهَا الْعَرَبُ بِأَنَّ مُلْكَهَا نَاسَخٌ وَمُلْكُ فَارِسٍ مَنْسُوخٌ وَتَفْضِلُهَا بِأَنَّ مُلْكَهَا مَتَّصِلٌ بِالسَّاعَةِ وَمُلْكُ فَارِسٍ مَحْدُودٌ ، وَتَفْضِلُهَا الْعَرَبُ بِأَنَّ مُلْكَهَا وَاغْلٌ فِي أَقَاصِي الْبَلَادِ ، دَاخِلٌ فِي آفَاقِ الْأَرْضِ ، وَمُلْكُ فَارِسٍ شَظِيَّةٌ مِنْهُ ، لَيْسَ فِيهِ الشَّامُ ، وَلَا

(150) مصدر نفسه . ص : 352.

(151) مصدر نفسه . ص : 354.

(152) القرآن الكريم ، صورة آل عمران ، رقم الآية : 33.

(153) ابن قبية ، كتاب العرب (رسائل البلقاء) ص : 354.

الجزيرة ، ولا خُرَاسان ، في أكثر مدهم ، ولا اليمن إلا في أيام وهرز وسيف
ابن ذي يزن ⁽¹⁵⁴⁾ .

وللعرب في الإسلام فضيلة فاقت كل فضيلة ، ومكرمة ارتب على كل مكرمة ، وذلك أن الله قد أبتعث منها النبي (ص) سيد الأنبياء وخاتم المرسلين ، فنسخ كل شريعة قبله . فجمع كلمة العرب ، ونشر عددها ، وأمدّها بالملائكة ، وأيدها بالقوة ، ومكن لها في البلاد . وأوطأها رقاب الأمم ، فالنبوة فيها والإمامية فيها خالدة باقية حتى يأتي المسيح (ص) فيصلّي خلف الإمام منها ، وهذه فضيلة ومكرمة فريدة ، لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها أو يدعها . وخطابها يومئذ لا عجم فيها ، فقال عز وجل ﴿كُتُّمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ﴾ ⁽¹⁵⁵⁾ ، للعرب هذا الخطاب ، والأمم طرأ داخلة عليها فيه ، فأما قوله فيبني إسرائيل ﴿وَهُوَ فَضَلَّكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ⁽¹⁵⁶⁾ ،

فمن باب العام الذي أريد به الخاص ، كقوله حكاية عن ابراهيم : ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ⁽¹⁵⁷⁾ ،

وحكاية عن موسى : ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ⁽¹⁵⁸⁾ ، وقد كانت الأنبياء قبلهما مؤمنين ومسلمين ⁽¹⁵⁹⁾ ، ومن مآثر العرب في الإسلام قريش ، وقد أكثراهم الله ، وأيدهم بنصره ، وأمنهم من الخوف وتمكن لهم في الأرض ، وأعلى كلمتهم ، وسخر لهم ممالك الأمم ، لا يصح الإسلام إلا بمحبتهم وتقديمهم ، قضى الله لهم بالفضل على جميع الخلق والأمم ، فالنبوة فيهم ، والإمامية مقصورة عليهم ، وأحاديث رسوله كثيرة في تفضيلهم وتقديمهم ⁽¹⁶⁰⁾ .

(154) مصدر نفسه . ص : 353 — 354.

(155) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، رقم الآية : 110.

(156) مصدر نفسه . سورة الأعراف ، رقم الآية : 163.

(157) مصدر نفسه . سورة الانعام رقم الآية : 140.

(158) مصدر نفسه . سورة الأعراف ، رقم الآية : 143.

(159) ابن قبيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 373.

(160) ابن قبيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 374 — 375 . (وهنا يسرد ابن قبيبة ما حضره من

أحاديث منسوبة للنبي في تفضيل قريش وتقديمه العرب .)

أما أساليب الشعوبية في الطعن على العرب ، وتحريف الكلام في مناقبها ، وتزييف حقائقها فقد كشفها ابن قتيبة وحكي لنا بعضاً منها ، وفند تخرصاتها وسخر من أصحابها ، من ذلك طعن أبي عبيدة معمر ابن المثنى في قوس حاجب ابن زرارة وسخرية وضحكه منها وإزراحته عليها في خساسة عودها وقلة ثمنها ، وقدرة أي فرد على اقتاء مثلها أو الإستعاضة عنها ، فدافع ابن قتيبة عن هذه المأثرة العربية ، واعتبر أنه لو كان الأمر على ما ذكره أبو عبيدة ، لرجع العيب على كسرى ، لأنَّ الأخذ ، لا على حاجب لأنَّ الدافع ، والداعم لا يالو جهداً أنْ يدفع أحقر ما يجد في أكثر ما يأخذ ، والمغبون من اغترَ بالصغير عن الكبير وبالخسيس عن الرفيع ، ولكنَّ الأمر مختلف عن ذلك ، وحاجب رهن قوسه عن العرب ، وضمن عنها كفتَ الأذى عن كسرى ومملكته ، ولو رهن مكانها مائة ألف رأس من الغنم ، لكنَّ القوس أحسن منها في هذا المكان ، وأدْعى للوفاء ، لأنَّ سلاح الرجل عزَّه وشرفه ، وإسلام المال أحسن من إسلام العزَّ والشرف ، والرجل من العرب قد يدفع رداءه وخاتمه عن الأمر العظيم ، فلا يسلمه خوفاً من السَّيَّبة وأنفَّةَ من العار ، من ذلك ما فعله الفرزدق عندما رهن رداءه بوفاء تميم ، فقبل سليمان ابن عبد الملك ذلك ، فلما جاءت بيعة وكيع ابن أبي سود التعميمي ، افتخر الفرزدق بذلك ، فقال :

« فِدَئِ لسيوف من تميم وَقَى بِهَا رَدَى وَحَلَّتْ عن وجوه الأهاتم »⁽¹⁶¹⁾

ولقد رهن سيَّار ابن عمرو ابن جابر الفزارِي قوسه ، وضمن لبعض الملوك ألف بعير دية أبيه ، فقبل الملك رهنه ، ووفى سيَّار بما ضمن ، وفي ذلك يقول القائل :

ونحن رهنا القوس ثم تخلصت بآلف على ظهر الفزارِي أفرعاً⁽¹⁶²⁾
ومنْ هذا البابِ قول جران وقد ذَكَرَ اجتماعَهُ مع نساءٍ كان يَالْفُهْنَ :

(161) مصدر نفسه . ص : 347.

(162) مصدر نفسه . ص : 347.

﴿ ذَهَبَنَ بِمُسَاكِيٍّ وَقَدْ قُلْتُ إِنَّهُ سَيُوجَدُ هَذَا عِنْدَكُنْ ، فَيَعْرُفُ ﴾⁽¹⁶³⁾

فيظنَّ مَنْ يسمعُ الشَّعْرَ ، ولا يعرِفُ الخبرَ ، أنهنَ سلبَةَ مساوِكَهُ ، وأنَّه يَعْتَدُ
عليهنَ بِهذا المساوِكَ ، فيقولُ : ما قدر المساوِكَ ؟ وما قيمته ؟ حتى يشهرُ ذلك
بيْنَ الْعَرَبِ وَعَلَى الْأَسْنَةِ الْرَّوَاةِ ! .

والحقيقة أنَّ الْعَرَبَ أَنْظَرَ قَوْمَ فِي التَّافِهِ الْحَقِيرِ ، وَكُلَّ أَهْلِ نَاحِيَةٍ مِنَ
النَّوَاحِي مَعْرُوفُونَ بِنَوْعِ الْشَّجَرِ ، يَسْتَاكُونَ بِعُودِهِ ، وَكَانَ جَرَانُ الْعُودِ مَعْرُوفًا
بِهَذْلَاءِ النِّسْوَةِ ، يَزُورُهُنَّ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، وَهُوَ يَسْتَنِّ مِنَ الشَّجَرِ مَا يَبْنِي فِي بَلْدَهُ ،
فَأَخْذُنَ مساوِكَهُ لِيَتَذَكَّرْنَاهُ ، كَمَا يَفْعَلُ الْمُحْبُونَ ، فَتَبَهَّهُنَّ ، وَقَالَ لَهُنَّ ، إِنَّ وُجْدَهُ
مساوِكِيٌّ أَمْ كَنْ اسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى زِيَارَتِي لَكُنْ ، وَاقْتُضَيَ أَمْرِي وَأَمْرَكِنَ⁽¹⁶⁴⁾ .

وَقَدْ يَقْصُدُ الشُّعُوبِيُّ لِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

﴿ إِبَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنَةَ مَالِكٍ وَبَنَى ابْنَةَ ذِي الْبَرْدِينَ وَالْفَرْسِ الْوَرَدِ ﴾⁽¹⁶⁵⁾

« فَيَتَضَاحِكُ بِالشِّعْرِ ، وَيَسْتَهْزِئُ بِالْبَرْدِينَ وَالْفَرْسِ الْوَرَدِ ، وَيَعْرَضُ ذَلِكَ
بِمَلُوكِ فَارَسَ ، وَأَسْرَتَهَا وَتِيجَانَهَا ، وَبَأْنَأْبِرْوَيْزَ ارْتِبَطَ تَسْعَمَانَةً وَخَمْسِينَ فِيلًا عَلَى
مَرَابِطِهِ ، وَبَلَغَتْ مَخْدُتِهِ الَّتِي كَانَ يَشْرُفُ بِهَا عَلَى الدَّاخِلِ عَلَيْهِ أَلْفُ إِنَاءٍ مِنَ
الْذَّهَبِ ، وَخَدَمَتْهُ أَلْفُ جَارِيَةً »⁽¹⁶⁶⁾ .

وهذا جَهَلٌ بِالشِّعْرِ ، وَخَطَأٌ فِي الْمَعَارِضَةِ ، وَفَخْرٌ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ ، فَأَمَّا
مَعْنَى الشِّعْرِ : فَإِنَّ وَفَوَادَ الْعَرَبِ اجْتَمَعَتْ عِنْدَ النَّعْمَانِ ابْنِ الْمَنْذَرِ ، فَأَخْرَجَ بُرْدَى
مَحْرَقَ عَمْرَ وَابْنَ هَنْدَ ، وَقَالَ : لِيَقُمْ أَعْزَزُ الْعَرَبِ قَبْيلَةً فِيَأْخُذُهُمَا ، فَقَامَ عَامِرُ ابْنُ
أَحَيْمَرَ ابْنَ بَهْدَلَةَ ، فَأَخْذَهُمَا ، وَادْعَى أَنَّ الْعِزْفَيِّ قَبْيلَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ ، وَدَعَا مَنْ يُنْكِرُ
ذَلِكَ إِلَى مَنَافِرَتِهِ ، فَسَكَّتَ النَّاسُ ، فَقَالَ لِهِ النَّعْمَانُ : هَذَا أَنْتَ فِي عَشِيرَتِكَ ،

(163) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 347.

(164) مصدر نفسه . ص : 347 — 348.

(165) مصدر نفسه . ص : 348.

(166) مصدر نفسه . ص : 348.

فكيف أنت في بيتك ونفسك ، فقال : أنا أبو عشرة وخال عشرة وعُمْ عشرة ، ثم وضع قدمه في الأرض ، وقال مَنْ أزألهَا مِنْ مَكَانِهَا ، فله مائة من الإبل ، فلم يَقُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، فذهب بالبردين فُسُمِيَّ ذا البردين ، وفي ذلك قال الفرزدق :

« فَمَا تَمَّ فِي سَعْدٍ ، وَلَا آلٌ مَالِكٌ غَلَامٌ إِذَا مَا قِيلَ لَمْ يَتَهَدَّلْ
 لَهُمْ وَهَبَ النَّعْمَانُ ثَوْبَى مَحْرَقٍ بِمَجْدِ مَعْدٍ وَالعَدِيدِ الْمُحَصَّلِ »⁽¹⁶⁷⁾

وأما الفرسُ الورَدُ ، فالخَيْلُ حُصُونُ الْعَرَبِ ، وَمَنْبُتُ عَزَّهُمْ ، وَسَلْمُ مَجْدِهِمْ ، عَلَيْهَا يُدْرِكُونَ ثَأْرَهُمْ ، يُؤثِرُونَهَا عَلَى عِيَالِهِمْ . كَنَّ اللَّهَ عَنْهَا بِالْخَيْرِ فِي كِتَابِهِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ ، فَقَالَ حَكَایَةً عَنْ نَبِيِّهِ سَلِيمَانَ (ص) : « إِنِّي أَحَبُّ حَبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذَكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ »⁽¹⁶⁸⁾ . وَفِيهَا قَالَ النَّبِيُّ (ص) : « الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »⁽¹⁶⁹⁾ .

وليس لأحدٍ مثلُ عتاقِ الْعَرَبِ ، وَلَا عَنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْعِلْمِ بِهَا ، مَا عَنْهُمْ ، وَالرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ لَدِيهِ فَرْسٌ كَرِيمٌ جَوَادٌ شَهِيرٌ بِهِ ، فَقِيلَ الْعَسْجَدِيُّ وَدَاحِسُ الْغَبْرَاءُ ، وَالْوَرَدُ .

« إِذَا رَأَيْتَ الْعَرَبَ تَنْسَبُ إِلَى شَيْءٍ خَسِينٍ فِي نَفْسِهِ ، فَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِمَعْنَى شَرِيفٍ فِيهِ »⁽¹⁷⁰⁾ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ لِهَنِيَّةَ بِنَتِ صَعْصَعَةَ : ذَاتُ الْخَمَارِ ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْخَبَرَ ، ظَنَّ أَنَّهَا كَانَتْ تَخْتَمِرُ دُونَ نِسَاءِ الْعَرَبِ . وَإِنَّمَا ذَهَبُوا إِلَى قَوْلِهَا : « مَنْ جَاءَتْ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ بِأَرْبِيعَةٍ مِثْلِ أَرْبِيعَتِي ، يَحْلُّ لَهَا إِنْ تَضَعُ الْخَمَارُ عَنْهُمْ ، فَصَرَمَتِي لَهَا : أَبِي صَعْصَعَةَ ، وَأَخِي غَالِبَ ، وَخَالِي الْأَقْرَعُ ابْنُ حَابِسٍ ، وَزَوْجِي الزَّبِرْقَانُ ابْنُ بَدْرٍ ، فَسُمِيَّتْ ذَاتُ الْخَمَارِ »⁽¹⁷¹⁾ .

(167) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 348 — 349.

(168) القرآن الكريم ، سورة ص ، رقم الآية : 32.

(169) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 349.

(170) مصدر نفسه . ص : 350.

(171) مصدر نفسه . ص : 350.

وأَمَّا الْخُطَا فِي الْمَعَارِضَةِ ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يَدْعُ أَنَّهُ كَانَ لِلْعَرَبِ فِي جَاهْلِيَّتِهَا دُولَةً كَدوْلَةِ الْعِجْمِ وَاتْسَاعُهَا وَعَزَّهَا وَكَثْرَةُ جَنُودِهَا وَأَمْوَالِهَا ، فَفَخَّارٌ بِمَلُوكِ الْعِجْمِ ، وَأَسْرَتِهَا وَتِيجَانَهَا ، وَذَكَرَ فِيلَةً أَبْرُوِيزَ وَجَوَارِيهِ وَأَوَانِيهِ ، « وَقَدْ كَانَ هَذَا لِأَوْلَى ثُكَّ - كَمَا ذَكَرَ - ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ لَهُؤُلَاءِ ، فَابْتَزَوْهُ ، وَاسْتَلْبُوهُ وَالْتَّحَوُّهُ ، كَمَا يُلْتَحِي الْقَضِيبُ ، وَالنَّاسُخُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَسْنُوخِ »⁽¹⁷²⁾.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَإِنَّ هَذَا الْفَخْرُ جَائِزٌ ، لَوْ افْتَخَرَ بِهِ مَلُوكُ الْعِجْمِ وَأَبْنَاءُ مَلُوكِهَا وَمَرَازِبِهَا وَأَسْوَارِهَا ، فَأَمَّا أَنْ يَفْخُرَ بِهِ رَجُلٌ مِنْ عَرَضِهِمْ غَيْرُ مَعْرُوفٍ الْحَسْبُ أَوْ مَشْهُورُ الْأَبِ ، فَمَا حَظَّهُ فِي سَرِيرِ كِسْرَى وَتَاجِهِ وَحْرِيرِهِ وَدِيَّاجِهِ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلَا مَغْدِي وَلَا مَظَلٌّ وَلَا مَأْوَى . فَإِنْ قَالَ : لَأَنِّي مِنْ الْعِجْمِ وَكِسْرَى مِنَ الْعِجْمِ ، فَمَرْحُبًا بِالْمِثْلِ الْمُبَتَذِلِ : أَبْنَ جَارِ النَّجَارِ . وَلَوْ قَالَ : لَأَنِّي مِنَ النَّاسِ وَكِسْرَى مِنَ النَّاسِ . كَانَ وَهَذَا سَوَاءٌ ، وَمَا هُوَ بِأَوْلَى بِهَذَا السَّبِبِ مِنَ الْعَرَبِ ، لَأَنَّ الْعَرَبَ أَيْضًا مِنَ النَّاسِ »⁽¹⁷³⁾.

وَالْأَمْرُ الْعَجِيبُ الْغَرِيبُ ، أَنَّ كُلَّ رَجُلٍ مِنَ الْعِجْمِ يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَلُوكِ وَالدَّهَاقِينِ ، وَالْأَشْرَافِ ، فَإِنَّ أَبْنَاءَ الْكَسَاحِينِ وَالْحَجَامِينِ وَالدَّبَاغِينِ وَالْخَمَارِينِ وَالرَّعَاعِ وَالْمَهَانِ ؟ وَهَلْ كَانَ الْمَلُوكُ وَالْأَشْرَافُ « إِلَّا كَاللَّمْعَةِ فِي جَلْدِ الْبَعِيرِ » ؟⁽¹⁷⁴⁾ . أَبَادَتِ الْعِجْمُ وَاضْمَحَّلَتْ ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا أَبْنَاءُ الْمَلُوكِ وَالدَّهَاقِينِ ؟ .

وَأَمَّا فَخْرُ الْعِجْمِ بِالْعِلُومِ ، فَلِيَسْتِ الْعِلُومُ حَكِيرًا عَلَى الْعِجْمِ ، وَلِلْعَرَبِ مِنَ الْعِلُومِ وَالْحُكْمِ وَالشِّعْرِ وَالْكَلَامِ الْمَسْجَعِ الْمُتَشَوِّرِ ، مَا يَشَهِدُ بِفَضْلِهَا وَبِتَقْدِيمِهَا عَلَى غَيْرِهَا ، وَقَدْ انْفَرَدتْ بِجَمْلَةِ مِنَ الْعِلُومِ وَاخْتَصَّتْ فِيهَا « كَلْمَ الخَيْلِ وَالْفَرَاسَةِ وَالْقِيَافَةِ وَالْكَهَانَةِ وَالْفَوْلِ »⁽¹⁷⁵⁾ وَأَمَّا فَخْرُ الْعِجْمِ بِكِتَابِ حَدَّ الْمَنْطَقِ وَغَيْرِهِ ، فَهَذِهِ

(172) ابن قتيبة ، كتاب العرب (رسائل البلغاء) ص : 350.

(173) مصدر نفسه . ص : 350 — 351.

(174) مصدر نفسه . ص : 351.

(175) ترجمة ابن قتيبة في مقدمة الجزء الرابع من كتاب عيون الاخبار (نشر دار الكتب المصرية) ص : 32

لليونان ولا حظ للفرس فيها ومع ذلك فلو «أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو ، لعد نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله (ص) وصحابته ، لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب »⁽¹⁷⁶⁾

أبو حيّان التوحيدى :

والتوحيدى مفكر آخر تعرّض للشعوبية وافتراها على العرب والعروبة ، وهو بخلاف الجاحظ وابن قتيبة ، لم يقصد الحديث في الموضوع أو التأليف فيه ، وإنما تعرّض لهذه المسألة في معرض حديثه في مجالس الوزير أبي عبد الله العارض أحد وزراء الدولة البوهيمية⁽¹⁷⁸⁾ .

وللحديث أبي حيّان أهمية خاصة من وجهين : أحدهما أنه يقول بالتسوية ، ويؤمن بها ، ويدافع عنها ، ويرى أن الأمم جميعاً مشتركة في الفضل والإساءة . فهو شعوبيٌ عند من يعتبر أن الشعوبية هم أهل التسوية . والآخر أنه يحكى في

— وفيها تعريف لكتاب العرب وعلومها . ولم يمكننا الاطلاع إلا على القطعة التي نشرها محمد كرد علي في رسائل البلغاء . لأن الكتاب ما زال خطوطاً ولم ينشر كاملاً .

(176) ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، ص : 5

(177) هو علي ابن محمد ابن العباس ، أبو حيّان التوحيدى ، شيرازى الأصل ، وقيل نيسابورى ، صوفى السمت والمهنة ، وكان يتأله والناس على ثقة من دينه ، وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه سلوكه ، ويشتتى أن يتنظم في سلكه ، فهو شيخ في الصوفية ، وفيلسوف الأدباء وأديب الفلسفة وإمام البلغاء ، أحرق كتابه قبل موته لأنها متنفعه في حياته . من مؤلفاته المقامات والصادقة والصديق ، ورسالة في العلوم ، والإمتاع والمؤانسة ، اتهمه ابن الجوزي بالزندقة ، فقال : زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الروانى والتوحيدى ، وأبو العلاء ، وشَرَّهم التوحيدى لأنها صرحاً لم يصرح . مات في حدود الشانين والثلاثمائة ، غير أن أحد أئمّن عثر على نصّ للتوحيدى يشير لبقائه بعد سنة أربع مائة للهجرة .

انظر ترجمة التوحيدى : باقوت ، معجم الأدباء ، ج : 15 ص : 5 وما بعدها .

ابن خلkan ، وفيات الاعيان ، ج : 5 ص : 112 - 113 .

أحمد أمين ، مقدمة الامتاع والمؤانسة .

(178) التوحيدى ، الامتاع والمؤانسة ، ج : 1 ص : 70 .

خلال حديثه مزاعم الجيهاني في تفاصيل العرب وثليهم ، وهي مزاعم ، قَلْ بل ندر وجودها في غير كتابه . وحديث التوحيدى كان إجابةً عن سؤال الوزير أبي عبد الله العارض له إنْ كان يفضل العجم على العرب أو العرب على العجم .

وقد قدم لحديثه بحكاية حديث منسوب لابن المقفع في تفضيل العرب واعتبارها أعقل الأمم⁽¹⁷⁹⁾ . إلا أنه لم يتابع ابن المقفع في رأيه ، ورأى أنَّ مسألة تفضيل أمَّةٍ على أخرى ، «أمهات ما تدارأ الناس عليه ، وتدافعوا فيه ، ولم يرجعوا منذ تناقلوا الكلام في هذا الباب إلى صلح متين ، واتفاق ظاهر»⁽¹⁸⁰⁾ وهذا الإختلاف أمرٌ طبيعي ، لأنَّه ليس من طبع الفارسي ومنشأه وعادته أنَّ يعترف بفضل العربي ، وكذلك العربي ليس في عادته وجبلته أنَّ يقرُّ بفضل الفارسي ، وكذلك الهندي والرومي والتركي . والقول في الفضل والشرف ، يعتمد برأيه على شيئين : أحدهما ما خُصَّ به قوم دون قوم في أيام الشأة الأولى ، وبالإختيار للجيد وللرديء . وبالقياس على هذا الأمر ، فلكلَّ أمَّةٍ فضائل ورذائل ، ولكلَّ قوم محسن ومساوٍ ، ولكلَّ طائفةٍ من الناس في صناعتها كمال وتقدير . وعليه ، فالخيرات والفضائل والشرور والمساوئ مفاضة على جميع الخلق مشتركة بينهم . ولكلَّ أمَّةٍ فضائل خصتها وعُرِفتُ بها ، «فللفرس السياسة والأدب والحدود والرسوم ، وللروم العلم والحكمة ، وللهند الفكر والروية والخفة والسحر والأناة ، وللترك الشجاعة والإقدام ، وللنرج الصبر والكد والفرح ، وللعرب النجدة والقرى والوفاء والباء والجود والذمام والخطابة والبيان»⁽¹⁸¹⁾ .

والفضائل المذكورة في هذه الأمَّة ، ليست لكلَّ واحد من أفرادها ، وإنْ كانت شائعة بينها ، فالفرس ، لا تخلو من جاهل بالسياسة خال من الأدب والعرب ، لا تخلو من جبان بخييل عبي ، وكذلك الأمَّة جميعاً ، وعلى ذلك لو قُرِنَ أهل الفضل والكمال من الهند والروم ، لتلاقوا على نهج واحد مستقيم ، ولم

(179) لقد تعرضاً لهذا الحديث في كلمنا على ابن المقفع فيما سبق من هذه الرسالة .

(180) التوحيدى ، الامتناع والمؤانسة ، ج : 1ص : 73.

(181) مصدر نفسه . ج : 1ص : 74.

يُكَلِّبُهُمْ تفَاوٌ إِلَّا فِي حَدُودِ الْفَضْلِ وَالْكَمَالِ . وَكَذَلِكَ لَوْ قُوِّيَ أَهْلُ النَّقْصِ
وَالرِّذْلَةِ مِنْ أَمَّةٍ بِأَهْلِ النَّقْصِ وَالرِّذْلَةِ مِنْ أَمَّةٍ أُخْرَى ، لِتَلَاقُوا عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ ،
وَلَمَّا اخْتَلَّفُوا إِلَّا فِي الْحَدُودِ وَالْمَقَادِيرِ⁽¹⁸²⁾ .

وَفِي هَذَا بَرْهَانٌ : « أَنَّ الْأَمَمَ كَلَّاهَا تَقْسِيمُ الْفَضَائِلِ وَالنَّقَائِصِ بِاضْطِرَادِ
الْفَطْرَةِ ، وَاخْتِيَارِ الْفَكْرَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا مَا يَتَنَازَعُهُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ بِالنِّسْبَةِ
الْتَّرَابِيَّةِ وَالْعَادَةِ الْمُنْشَيَّةِ وَالْهُوَى الْعَالِبِ مِنَ النَّفْسِ الْغَضْبِيَّةِ ، وَالنَّزَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ
الْشَّهْوَيَّةِ »⁽¹⁸³⁾ .

وَالشَّيْءُ الْآخَرُ أَنَّ لَكُلَّ أَمَّةً زَمَانًا عَلَى ضَدِّهَا ، يَظْهُرُ فِيهِ فَضْلُهَا وَإِحْسَانُهَا ،
وَالْأَمْرُ بَيْنَ مِنْ أَرْسَلَ وَهُمْ فِي دُولَةِ الْبِلْوَانِ وَالْإِسْكَنْدَرِ ، لَمَّا غَلَبَ الْمُنْوَكُ وَسَاسَ
الْأَمْمَ ، وَدَبَرَ الْأَمْرَ ، فَإِنْ عَطْفَ إِلَى حَدِيثِ كِسْرَى أَنُو شَرْوَانَ وَجَدَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ
نَفْسَهَا مَعَ تَغْيِيرِ الزَّمَانِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصَّفَاتِ ، فَكُلَّ « أَمَّةً » فِي مِبْدَأِ سَعادَتِهَا أَفْضَلُ
وَأَنْجَدُ وَأَشْجَعُ وَأَمْجَدُ وَأَسْخَنُ وَأَجْوَدُ وَأَخْطَبُ وَأَنْطَقُ وَأَرَأَى وَأَصْدَقُ ، وَهَذَا
الْإِعْتِبَارُ يَنْسَاقُ مِنْ شَيْءٍ عَامٍ لِجَمِيعِ الْأَمَمِ ، إِلَى شَيْءٍ شَامِلٍ لِأَمَّةٍ أَمَّةً ، إِلَى شَيْءٍ
حَاوِي لِطَائِفَةٍ طَائِفَةً ، إِلَى شَيْءٍ غَالِبٍ عَلَى قَبْيلَةٍ قَبْيلَةً . . . وَهَذَا التَّحُولُ مِنْ أَمَّةٍ إِلَى
أَمَّةٍ ، يَشِيرُ إِلَى فِيَضِ وجُودِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى جَمِيعِ بَرِيَّتِهِ وَخَلِيقَتِهِ بِحَسْبِ
اسْتِجَابَتِهِمْ لِقَبْولِهِ ، وَاسْتِعْدَادِهِمْ عَلَى تَطاوِلِ الدَّهْرِ فِي نِيلِ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَمِنْ
رُقِيِّ إِلَى هَذِهِ الرَّبْوَةِ بَعْيَنِ لَا قَدَّى بِهَا ، أَبْصَرَ الْحَقَّ عِيَانًا بِلَا مَرِيَّةً ، وَأَخْبَرَ عَنْهُ بِلَا
فَرِيَّةً ، وَمَتَّ صَدْقَ نَظْرِكَ فِي مِبَادِئِ الْأَحْوَالِ وَأَوَّلَيِ الْأَمْرَ ، وَضَحَّ لَكَ هَذَا
كُلُّهُ . . . وَلَمْ يَقِنْ حِينَذِ رَبِّ في عِرْفَانِ الْحَقِّ وَحَصُولِ الصَّوَابِ ، إِلَّا مَا يَلْتَاثِ
بِالْهُوَى ، وَيَسْمَعُ بِالْتَّعَصُّبِ ، وَيَجْلِبُ الْلَّجَاجَ ، وَيَخْرُجُ إِلَى الْمَحْكَ ، فَهُنَاكَ
يُطِيعُ الْمَعْنَى ، وَيُضَلِّلُ الْمَرَادَ»⁽¹⁸⁴⁾ .

(182) التوحيد ، الامتناع والمؤانة ، ج : 1 ص : 74.

(183) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 74—75.

(184) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 75—76.

فالتوحيد يقول بالتسوية ، ويذهب إليها ، ويدافع عنها من دون أن يدفعه ذلك إلى التعصب على العرب ، أو يجعله إلى بغضها ومعاداتها . وإنما يظهر إعجابه بلغة العرب وحدس أصحابها وعاداتهم ، فقرُّ باب الغيب والشعور بالمستور من الأمور ، والهاجس بالشيء المُتَوقَّع ، والأمر المُرْتَمِع ، شيءٌ فاشٌ في العرب ، لطول الوحدة ، وصفاء الفكر ، وجودة النية ، واعتدال الهيئة وصحّة الفطرة : واتقاد الطبع ، إضافة إلى ما هو معروف فيهم ومنسوب إليهم ، من « الشجاعة والنجد والذمام والضيافة والفطنة والخطابة والحمية والأفة والحفظ والوفاء ، والبذل والشقاء ، والتهالك في حبّ الثناء والنكل الشديد عن الذم والهجاء ، إلى غير ذلك مما خُصّت به في جاهليتها قبل الإسلام ، مما لا سبيل إلى دفعه ، والبهت فيه ، والمكابرة عليه »⁽¹⁸⁵⁾ .

وأما اللغة العربية ، فلها من السعة في تصارييف الكلام في الأسماء والأفعال والحرروف والإستفاق وبدائع الإستعارات ولطف الكنايات وفنون الكلام وحسن وقع الحركات ، ما هو مُسْلِم لها ومؤفر عليها « وقد سمعنا لغاتٍ كثيرةً - وإن لم نستوعبها - من جميع الأمم ، كلغة أصحابنا العجم والروم والهنود والترك وخوارزم وصقلاب وأندلس والزنج ، فَمَا وَجَدْنَا لشيءٍ من هذه اللغات نصوع العربية ، أعني الفرج التي في كلماتها ، والفضاء الذي نجده بين حروفها ، والمسافة التي في مخارجها ، والمعادلة التي نذوقها في أمثلتها ، والمساواة التي لا تُجْحَدُ في أبنتها »⁽¹⁸⁶⁾ .

ويدعو التوحيدى من يشك في حكمه إلى دراسة اللغات المختلفة ، ومقابلتها وموازنتها فإنه - لا شك - واصل إلى التّيّنة نفسها ، شرط أن يكون « بريئاً من الأفة ، متزهّأً عن الهوى والعصبية »⁽¹⁸⁷⁾ . ويتخلص من ذلك إلى العجب من الجيهاني كيف سمع لنفسه ، مع علمه وفضله ، أن يسبّ العرب ،

(185) التوحيدى ، الاتّاع والمؤانسة ، ج : 1 ص : 77.

(186) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 77.

(187) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 78.

ويتناول أعراضها ، ويحطّ من أقدارها ، ثم يبدأ بحكاية مزاعم الجيهاني ونقضها ، فيذكر ما عاب الجيهاني على العرب من مطاعمها ، ويرد عليه ، بأنه لو نزل ذلك القفر وتلك الجزيرة كُلّ إسرى كان للفرس ، وكلُّ قيسر كان للروم ، وكل ملك كان في ممالك العجم ، لما صنعوا بخلاف ما يصنع العرب ، لأنَّ من جاع ، أكلَ ما وجَدَ ، وشربَ ما قدر على شربه « حبًّا للحياة وطلبًا للبقاء » ، وجزعًا من الموت وهربًا من الفناء ، أتَرَى أنو شروان إذا وقع إلى فيافيبني أسد . وببروابار وسفوح طيبة ، ورمل يبرين وساحة هبير ، وجاع وعطش وعرى ، أما كان يأكلُ اليربوع والجرذان ، وما كان يشرب بُول الجمل ، وماه البئر وما أسن في تلك الوهدات ؟ وما كان يلبس البرجد والخميصة والسمل من الثياب وما هو أدون وأخشن ؟ بلى والله ، ويأكل حشرات الأرض ونباتات الجبال وكلَّ ما حمض ومر»⁽¹⁸⁸⁾ .

ويضيف التوحيدى : أنَّ العرب لا تأكل ما عيَّبت به إلا في سنين الجدب والقحط ، فإذا جادت السماء ، وصدقت الأنواء ، وكثرت الخيرات ، تلاقت القبائل على المحاضر ، وتقاولوا ، وتصايفوا ، وتعاهدوا ، وتعاقدوا ، وأظهروا الكرم ، فأعطوا العُفَافَة ، وزرَّدوا السابقة ، وفكوا الأسرى ، وحضرروا الأسواق ، ونداعوا العَجَفَلَى ، وتعافوا التَّقْرِى ، وتنافسوا في أفعال الخير والمعروف والمناقب . وممَّا هو متفق عليه ، ولا شكَ فيه ، إنه ليس على وجه الأرض قوم اعتادوا العيش والفقر وحياة الصحاري ، ولهم ما للعرب « من علمهم بالخشب والجدب ، واللَّيْن والقسوة ، والحر والبرد ، والرياح المختلفة ، والسحائب الكاذبة ، والمخايل الصادقة والأنوء المحمودة والمذمومة والأسباب الغريبة والعجيبة »⁽¹⁸⁹⁾ .

فهم في توحشهم مستأنسون ، وفي بوايدهم متحضرُون ، اجتمع لهم من الحاضرة أحسن العادات ، ومن البدائية أشرف الأخلاق ، وأما أهل المدن

(188) التوحيدى ، الامتناع والمؤانسة ، ج : ١ ص : ٨٠.

(189) مصدر نفسه . ج : ١ ص : ٨٠—٨٢.

وأصحاب الحواضر ، فقد غلت على أخلاقهم وطباعهم الذناعة والخلابة والهين ، والمسكر والجحيلة ، والغش والكذب وعدم الوفاء . أما العرب ، فقد جبلها الله على أطهر الأخلاق وأشرف العادات « ولهذا تجد أحدهم ، وهو في بَتْ حافياً حاسراً ، يذكر الكرم ، ويفتخر بالمحمدة ، ويتحلّى التَّجَدَّد ، ويتحمل الكلّ ، ويُضحك في وجه الضيف ، ويستقبله بالبشر ، ويقول : أحَدْتُه ، إِنَّ الْحَدِيثَ مِنَ الْقَرِيٰ »⁽¹⁹⁰⁾ .

والدليل على تحضرهم في بواديهم ، وتبديهم في حواضرهم ، وتحليهم بأشرف أحوال الأمراء أسوقهم في الجاهليّة مثل دومة الجندي وسوق هجر المعروف بالمشقر ، وسوق دبا وصحار ، وإرم وقرى شحر وعدن ، والرأيية من حضر موت وصناعة وعكاظ ، وهي أسواق موسمية متصلة على مدار السنة ، يحضرها القريب من العرب والبعيد ، ولهذه الأسواق صفة أدبية واجتماعية إضافةً إلى صفتها التجاريّة ، فكان العرب بتناسدون فيها الأشعار ، ويتهاجون ، ويتمادحون ويعقدون الصلح والأحلاف ، هذا شأنهم « وهم همل لا عز لهم إلا بالسُّؤدد ولا معقل لهم إِلَّا السَّيْفُ ، ولا حصون إِلَّا الخيَلُ ، ولا فخر إِلَّا بالبلاغة »⁽¹⁹¹⁾ .

فلما هبت ريحهم ، وأشرق نور النبوة فيهم ، ومكَّنَ اللَّهُ لَهُمُ بِالإِسْلَامِ ، وأنزل على نبيهم بالقرآن ، ونشرهم بدعاوة الإسلام ، حازوا فضائل الأمم ، ومحاسن الشعوب من غير كد في طلبها ، أو نصب في تعقبها ، وإنما جاءتهم رهواً وسهواً ومالت إليهم سهلاً وعفواً ، « ثُمَّ لَمَّا مَلَكُوا الدُّورَ وَالْقُصُورَ وَالْجَنَانَ وَالْأَوْدِيَةَ وَالأنهارَ وَالمعادنَ وَالقلاعَ وَالْمَدَنَ وَالْبَلَدَانَ وَالسَّهْلَ وَالْجَبَلَ وَالبَرَّ وَالْبَحْرَ ، لَمْ يَقْدِمُوا عَنْ شَأْوِمٍ تَقَدَّمَ بِالآفِ السَّنِينَ ، وَلَمْ يَعْجِزُوا عَنْ شَيْءٍ كَانَ لَهُمْ ، بَلْ أَبْرَوا عَلَيْهِمْ ، وَزَادُوا ، وَأَغْرَبُوا وَأَفَادُوا ، وَهَذَا الْحُكْمُ ظَاهِرٌ مَعْرُوفٌ ، وَحَاضِرٌ مَكْشُوفٌ ، لَيْسَ إِلَيْهِ مَرْدَهُ سَبِيلٌ وَلَا لِجَاهِدِهِ مَنْكِرَهُ دَلِيلٌ »⁽¹⁹²⁾ .

(190) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 83.

(191) مصدر نفسه ، ج : ١ ص : 85.

(192) مصدر نفسه . ج : ١ ص : 85.

أما ما ذكره الجيهاني من تشريف الله لفارس ، وتقديمها بتبوئتها الجنائن ، والأرياف وأنواع الترف ، وحرمان العرب منها ، وحصرهم في رقعة من الأرض ضيقة مجدبة ، يعانون فيها ألوان الفقر وأنواع العذاب ، فليس الأمر كما ادعى ، ولقد خُصّت العرب بأشياء ، تطول حسرة من فاتته عليها ، وإنما ذهب هذا المذهب ، لظنه أنَّ الجاهل إذا تقلب في الترف والتعيم ، أشرف من العالم إذا لبس الأطمار ، وعاني الفقر ، وكابد الجوع . وهذا خطأ في الرأي مردود عند الله وجميع أهل الفضل والحجاج ، لأنَّ المدار على العقل « الذي من حُرمة » ، فهو أنقض من كل فقير وعلى الدين الذي من عُرْى منه فهو أسوأ حالاً من كل معسر⁽¹⁹³⁾ ، ونعمة الله على ضربين : أحد الضربين عَمَّ به عباده ، وغمر بفضله خليقه ، بدءاً « بلا استحقاق... ». وهذا هو العدل المخلوط بالإحسان ، والتسوية المعروفة بالتفاضل والقدرة المشتملة على الحكمة ، والضرب الثاني هو الذي يستحق بالعمل والإجتهد والسعى والإرتياح والإختبار والإعتقداد ، ليكون جزاء وثواباً ، ولهذا حرام العاصي المخالف ، وأنال الطائع الموافق ، فقد بَانَ الآن أنَّ المدار ليس بالجنان والترفة ، ولا بالذهب والفضة ولا بالوبر والمدر⁽¹⁹⁴⁾ .

وأما فخر الجيهاني بالعلوم وادعاؤه بأنَّ ليس للعرب كتاب إقليدس ولا المجسطي ولا الموسيقى وغيرها من الكتب ، فإنَّ هذا كله للعرب بنوع طبيعي كما هو لغيرهم بنوع صناعي ، وقد مازج هذا ذاك . ثمَّ ما علاقة الفرس بالمجسطي وهو لليونان ؟ فإنَّ قال : اليونان من العجم والفرس من العجم ، فماذا يقول إذا فاخر يونان ؟ أيقول لهم نحن من العجم وأنت من العجم⁽¹⁹⁵⁾ ؟

وبعد ، فلو كانت الفضائل كلها مجموعة للفرس ، مصبوبة على رؤوسهم ، موسومة بوسهم وطالعة في جياثهم ، لوجب عليهم أن لا يفاحروا الأمم ، « وأن يخرسوا عن دُقَّها وجَلَّها » لِمَا أخذوا أنفسهم فيه من تحليلهم ذوات المحارم

(193) في النص موسر ومعصر أكثر انسجاماً في سياق الكلام .

(194) التوحيد ، الامتناع والمؤانسة . ج : ١ ص : ٨٧ - ٨٨ .

(195) مصدر نفسه . ج : ١ ص : ٩٠ - ٨٩ .

كالآمehات والبنات والأخوات ، لأن ذلك « كريه في الطّباع ضعيف في السّماع ، ومردود عند ذي فطرة سليمة ، ومُستَبِّشٌ في نفس كلّ من له جبلة معتدلة »⁽¹⁹⁶⁾ . وقد صنعوا ذلك ، وأدعوا زوراً ، بأنّ الله قد أحلّ لهم ذلك ، وأذن لهم فيه بشريعة آتتهم من عنده ، وهذا كذب على الله ، لأنّ زرادشت لم يكن نبياً ، ولو كان كذلك ، لذكره الله في القرآن ، كما ذكر أنبياء ، ونّوّة بأسمائهم ، لذلك قال النبي (ص) : « سَنَّوا بِهِمْ سَنَّةً أَهْلَ الْكِتَابِ »⁽¹⁹⁷⁾ وكانوا لا كتاب لهم منزل من عند الله ، وقد مَوَّهُ عليهم زرادشت ذلك ، وغلبهم بقوّة الملك الذي قبل افتراه وبهتانه ، وكيف يكون نبياً ، وقد دعا إلى إلهين اثنين ، وهذا مستحيل بالعقل ، « وإنّما جاؤوا إلى وَهْيٍ فرّقُوهُ ، وإلى حرام بالعقل ، فأباحوه ، وإلى خبيث بالطبع ، فارتکبوه ، وإلى قبيح في العادة ، فاستحسنوه .

وقد وجدنا في البهائم ما إذا أُنْزِي الفحل على أمّه ، لم يطأون ، وإذا أُنْزِيَ ، وخُدِعُ ، وغُرِّفُ ، غَضِيبٌ على أهله ، ونَدَّ عنهم ، وشرر عليهم ، فما تقول في خلق لا ترضاه البهيمة ، ولا تطاوعه فيه الطبيعة ، بل يأباه حسّه مع كلوله »⁽¹⁹⁸⁾ .

وكيف قبلوا ذلك من زرادشت ، وصدقواه ؟ وكان الأحرى بهم ، والأجدى عليهم ، أنْ ينكروا هذه الخصلة اللثيمة ، ولو أقام كلّ برهان وآية ، فتشر عليهم التّجوم ، وغير صورة الفلك ، فأطلع الشمس من مغربها ، وسير لهم الجبال ، وغيض لهم البحار ، وأراهم الشريعا ، تمشي على الأرض ، لوجب عليهم الشك فيه وبهرجة رأيه ، وتكذيبه وقتله . لكنّهم قبلوا منه ، وصدقواه ، وبالعقل نفسه ، صدقوا مزدك ، واتبعوه ، « وهم يدعون الحكم والعلم والحزم والعزّ ، ولفترط جهلهم ، وغلبة شهوتهم ، غفلوا عما يجوز أن يكون الله سبحانه مبيحاً له ، أو حاضراً ، أو مطلقاً أو مانعاً ، أو محللاً أو محراً »⁽¹⁹⁹⁾ .

(196) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 90.

(197) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 91.

(198) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 91.

(199) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 93.

ولو كانت هذه الخصلة المذمومة في العرب ، لكانوا أعذر ، لشدة غلمنتهم ، وكثرة تهيجهم ، وقدرتهم على البضاع ، وهم مع ذلك ، لم يقبلوه ، ولم يتخللوه ولو أكرههم على هذا مكره ، ودعاهم إليه لـما أطاعوه ، وما منعهم من هذا « إلا الأنفس الكريمة ، والطبع المعتدلة والشكائم الشديدة ، والأرواح العنيفة والعادات الرضية ، والضرائب الطيبة » ، وكان وأد البنات عندهم أدنى للمعاير ، وأطرد للقبائع من هذا الذي استحسنـه زرادشت قبل منه الفرس ⁽²⁰⁰⁾ .

فأي مفارقة بين عقول العرب وعقولهم ، والعرب يقولون « اغتربوا لا تضروا واستفاض هذا منهم ، حتى سمع من صاحب الشريعة (ص) ، وذلك أن الضوى مكروه ، والعرب قالت هذا بالإلهام لقرائحهم الصافية ، وأذهانهم الواقدة ، وطبيتهم الحرّة وأعرافهم الكريمة ، وعاداتهم السليمة ، وإنما شعروا بهذا لأن الضوى الواثـل إلى الأبدان هو سارٍ إلى العقول ، ولكن الفرس عن هذا الشرّ غافلون ، ولا يفطن لهذا وأمثاله إلا الألمعيون الأحوذيون » ⁽²⁰¹⁾ .

والعرب تريـد بالضـوى ضـوى العـقل ، لأنـهم يطلبـون سـلامـة الجـسم وسلامـة العـقل ، وذلك ظـاهر في الأـرض ، وإنـما الأـرض تـركـو إذا حـوـل تـرابـ أـرضـ إلى أـرضـ وإذا كان الإـغـرـابـ ، يؤـثـرـ في الأـرضـ ، فـحرـيـ به أنـ يؤـثـرـ في الإنسـانـ ، لأنـ الإنسـانـ من التـرابـ . « فـمـا ظـنـكـ بـقـومـ يـجـهـلـونـ آثارـ الطـبـيعـةـ ، وأـسـارـ الشـرـيعـةـ ، ما أـذـلـهـ اللـهـ بـاطـلاـ ، وـلاـ سـلـبـهـ مـلـكـهـ ظـالـماـ ، وـلاـ ضـربـهـ بـالـخـزـيـ وـالـمـهـانـةـ إـلـاـ جـزـأـ عـلـىـ سـيـرـتـهـ الـقـيـحةـ ، وـكـذـبـهـ عـلـىـ اللـهـ بـالـجـرـأـ وـالـمـكـابـرـةـ وـمـاـ اللـهـ بـظـلـامـ للـعـيـدـ » ⁽²⁰²⁾ .

« فـلـيـسـتـحـيـ الـجـيـهـانـيـ بـعـدـ هـذـاـ الـبـيـانـ ، وـالـكـشـفـ وـالـإـيـضـاحـ ، بـالـإـنـصـافـ ، مـنـ الـقـذـعـ وـالـسـفـهـ الـلـذـينـ حـشـاـ بـهـمـاـ كـاتـبـهـ ، وـلـيـرـفـعـ نـفـسـهـ عـمـاـ يـشـينـ الـعـقـلـ ، وـلـاـ

(200) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 93.

(201) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 94.

(202) مصدر نفسه . ج : 1 ص : 95.

تقبله الحكام العدل . وصاحب العلم الرَّاصِين والأدب المكين ، لا يسلط خصمه على عرضه بلسانه ، ولا يستدعي مِنْ الجواب بتعرضه ، ويرضى بالمبسوِر في غالب أمره »⁽²⁰³⁾ .

والتوحيد على الرَّغم من اندفاعه في الدِّفاع عن العرب ، وتمجيد خصالهم ، وإعجابه بلغتهم وأدابهم ، لم يتتجاوز مبدأه القائل بالمساواة بين الأمم والشعوب ، وإنَّ الفضائل والمساوِء مشركة بين أمم الأرض ، « فالخلق كلهم في نعم الله تعالى مشتركون ، وفي أيديه معموسون ، وبمواهبه متفضلون ... (و) العرب أذهب مع صفو العقل ، ولذلك هم بذكر المحاسن أبده ، وعن أصدادها أنزه ، ولو كانت روبيتهم في وزن بدبيتهم ، كان الكمال ، ولكن لَمَا عَزَّ الكمال فيهم ، عَزَّ أيضًا في غيرهم من الأمم ، فالأمم كلُّها شرع ، واحد في عدم الكمال »⁽²⁰⁴⁾ .

(203) مصدر نفسه . ج : ١ ص : ٨٥ — ٨٦

(204) مصدر نفسه . ج : ١ ص : ٨٨ — ٨٩

خاتمة

ظهر لنا أنَّ الشُّعوبية حركةٌ عنصريةٌ حاقدةٌ على العرب هدفُها تحطيمهم سياسياً ، وإرباكهم دينياً ، وتشكيكهم بتراثهم الحضاري وقطع صلتهم بماضيهم تمهيداً للإنقضاض عليهم ، ودفعهم من جديد إلى الصحراء العربية . والشُّعوبية نشأت كرد فعلٍ للظلم الإجتماعي والقمع السياسي الذي مُورس على الموالى والعمجم طيلة العهد الأموي ، وكتبيجةٍ لخيبةِ الأمل المريبة من السلطان العباسي الذي تخلى عن معظم الشعارات التي نادى بها ، قبل الوصول إلى السلطة ، وهذه الشُّعوبية ، وإن لم تظهر إلا في العصر العباسي الأول ، فإن لها من الأصول والجذور ما يعود إلى العصر الجاهلي ، وعصر الفتوحات العربية الإسلامية . وإن السياسة الأموية كانت من أوَّل الأسباب لتفجر النزعة العدائية للعرب في صفوف العناصر الأخرى ، ودافعاً لهم إلى الإشتراك بكلِّ الثورات التي نشبَّت ضدَّ البيت الأموي^(١) ، لكنَّ أثر الموالى في هذه الثورات ظلَّ ضعيفاً ومحدوداً ، فلم يشاركو في قيادتها أو التخطيط لها ، حتى كانت الثورة العباسية ، وانتصارها ، ومشاركتهم الفعالة فيها تخطيطاً وتنفيذًا ، فكانت تلك الثورة من أهمَّ الأسباب لنھوضهم واستعادة الثقة بأنفسهم والشعور بقوتهم وأهميتهم ، فاستيقظ حلم طالما راودهم ، وهو منافسة العرب والتغلب عليهم والثار منهم ، فشَّوا تحت ستار الدين هجماتٍ شديدةً على العرب ، وأظهروا بغضِّهم وازدراءِهم ، وجاهروها

(١) إنَّ القمة على الأمويين كانت متاجحةً في صفوف الطبقات الدنيا من المجتمع ، أمَّا الدهافنة وسائر الطبقة الاسترقاطية فكانت على تفاهمٍ تامٍ مع السلطة لأنَّ مصالحها الإقتصادية بقيت مؤمنة إلى حد بعيد .

بحقدهم عليهم إذ اعتبروا العرب قوة احتلالٍ وتسلّط يجب التخلص منها ، فنشطوا في شتى الميادين يناصبون العرب العداء ويحاولون التفوق عليهم .

ركزت الشعوبية هجماتها على الجاهلية ، فعددت المثالب العربية وشككت بالأنساب ، وسخرت من مناقب العرب ومأثرهم وعاداتهم وتقاليدهم ، واستهانت بكل ما هو عربي كالكرم وقرى الصيف والوفاء والنجد والمروءة والفروسية ، وعبات مأكلهم ومشاربهم ، وحاولت إظهارهم كامةً متواحشة لا حظ لها من الحضارة ، وقابلت الحياة العربية في الجاهلية بالحياة الفارسية ، وفخرت بملوك الفرس وأساورتهم ومرابعاتهم ورقيق عيشهم ورفاهيتهم وعظمتهم وغنائم وحاتك الأقاصيص واختلفت الروايات التي تمجّد الحضارة الفارسية القديمة وتعظم ملوكها ورجالاتها .

وشككت بالشعر العربي وحقيقة بما أدخله رواتها فيه من وضع وانتحال باعتبار أن الشعر ديوان العرب ، وفيه تخليد لأيامها ، ومأثرها ، وباعتباره تراثاً يحسب الأصالة العربية . وهاجمت اللغة العربية باعتبارها الوعاء الثقافي للحضارة العربية والتراث العربي الإسلامي . وأنكرت دور العرب الريادي في الإسلام ، وحاولت طمس الدور العربي في حمل الرسالة الإنسانية وحاولت الظهور بالحضارة العربية الإسلامية وكأنها امتداد للحضارة الفارسية القديمة أو اقتباس عنها وتطوير لهذا التراث القديم ، وصبغ المجتمع بصبغة فارسية ، فترجموا الكتب الفارسية في المراسيم والعادات والأخلاق والسير ، ووضعوا الكثير من الكتب والرسائل والحكم والأمثال ، ونسبوها لحكماء الفرس وملوكها ، وأحيوا أعياد الفرس القديمة ، واحتفلوا فيها احتفالاً واسعاً ، وعملوا على نشر المجنون والفجور والتحلل الأخلاقي واللامبالاة الإجتماعية والتهالك على الملدّات .

ونشط الشعوبيون في المجال الديني ، وحاولوا إحياء أديانهم ونحلهم القديمة كالزرادشتية والمانوية والمزدكية والخرمية ، وأسرّوها وأظهروا الإسلام وتسربوا به ، وكونوا ما يُعرف بالتاريخ بحركة الزندقة واتخذ بعضهم الغلو ستاراً للتخرّب في الإسلام ، فمزجوا عقائدهم القديمة ببعض المفهومات الإسلامية ،

لتبُسَّعُ لِهِمُ الْمَجَالَ بِالظَّهُورِ وَالْعَمَلِ بِحُرْيَةٍ ، وَوَضَعُوا الْأَحَادِيثَ الْمُنَاقِضَةَ لِجُوهرِ
الإِسْلَامِ ، وَنَحْلُوهَا النَّبِيَّ ، لِيُشَكِّلُوا الْمُسْلِمِينَ بِعَقِيدَتِهِمْ ، وَيُظْهِرُوا الإِسْلَامَ كَدِينِ
مُنَاقِضِ الْقَوَاعِدِ وَالْأَحْكَامِ .

وَنَشَطَ الشَّعُوبُونَ سِيَاسِيًّا ، فَحاوَلُوا السُّيُطَرَةَ عَلَى الدُّولَةِ مِنْ خَلَالِ الْوَزَارَةِ
وَبعضِ الْمَنَاصِبِ الْأُخْرَى ، وَطَبَعَ الْإِدَارَةُ بِالْطَّابِعِ السَّاسَانِيِّ ، وَفَجَرُوا الثُّورَاتِ
الْدَّمُوِيَّةِ ذَاتِ الشَّعَارَاتِ الْدِينِيَّةِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي تَهْدِي الْقَضَاءَ عَلَى الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ
كَالْأَوْنِيَّةِ وَالْخَرْمَيَّةِ وَالْبَابِيَّةِ .

وَهَاجَمُوا تَقَالِيدَ الْعَرَبِ الْأَدِيبَيَّةِ فِي الشِّعْرِ وَالْخَطَابَيَّةِ ، وَنَأَصَبُوا التَّقَافَةَ الْعَرَبَيَّةَ
الْعَدَاءَ وَتَعَصَّبُوا لِلتَّقَافَاتِ الْأَعْجَمِيَّةِ وَتَشَدَّقُوا فِيهَا تَحْتَ شَعَارِ الْحَرَيْةِ التَّقَافَيَّةِ
وَالتَّحْرِيرِ الْفَكَرِيِّ .

وَالشُّعُوبَيَّةُ وَقَرِيرِهَا الزَّنْدَقَةُ ، إِنَّمَا تَسْتَمَدُ الْوَحْيَ مِنْ خَارِجِ الطَّاقِ الْعَرَبِيِّ
الْإِسْلَامِيِّ فَهِيَ بِوَلَانِهَا وَعَصِيبَتِهَا وَتَقَافَتِهَا بَعِيلَةٌ عَنِ الرُّوحِ الإِسْلَامِيَّةِ ، مُنَاقِضَةٌ
مَعْهَا . وَهَذَا التَّنَاقِضُ كَانَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي أَبْعَدَتِ الْعَنَاصِرِ الْفَارَسِيَّةِ
الْمَتَدِيَّةِ عَنْهَا ، لَيْسَ ذَلِكَ فَحْسُبُ ، بَلْ نَشَطَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لِمُحَارِبَتِهَا ، وَمُكَافِحتِهَا ،
وَدَحْضِ افْتَرَائِهَا عَلَى الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ . فَقَسَّلَتْ بِإِيْجَادِ تَيَارِ قَوْمِيِّ فَارَسِيِّ مَنَاهِضَ
لِلْعَرَبِ ، يَجْسَدُ الْأَمَالَ الْقَوْمِيَّةَ لِعَامَّةِ الْفَرَسِ وَكَانَ التَّطَرَّفُ الشُّعُوبِيُّ مِنْ أَوْكَدِ
أَسْبَابِ هَذَا الْفَشْلِ .

لَمْ يَقْفِيَ الْعَرَبُ ، وَالْمُتَحَمِّسُونَ لَهُمْ مَوْقَفُ الْمُتَفَرِّجِ إِذَاءَ هَذِهِ الْهَجَمَاتِ
الْمَرْيِيَّةِ ، فَنَشَطُوا يَمْجِدُونَ فَضَائِلَ الْعَرَبِ وَخَصَائِصُهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَيَشْتَونَ عَلَى
الْدُورِ الرَّيَادِيِّ الَّذِي اضْطَلَعَ فِيهِ الْعَرَبُ فِي الإِسْلَامِ ، وَأَوْضَحُوا مَتَانَةَ الْأَنْسَابِ
الْعَرَبَيَّةِ وَأَصَالَتِهَا ، وَفَضَائِلِ الْعَادَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَزَايَاها وَمَعَارِفُهَا ، وَافْتَخَرُوا بِشَعْرِهِمْ
وَفَصَاحَتِهِمْ وَبِلَاغَتِهِمْ وَخَطَابِهِمْ ، وَاعْتَبَرُوا الْقُصِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ الْمُثْلِيَّ الْأَعْلَى الَّتِي
يَحْتَذِيَهُ الشُّعُراءُ ، وَنَشَطُوا يَجْمِعُونَ الشِّعْرَ الْجَاهِلِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ مِنْ ثَقَةِ الْرَوَاةِ ،
يَمْيِيزُونَ الصَّحِيحَ مِنَ الْمَدْخُولِ ، وَيَجْعَلُونَهُ شَوَاهِدَ فِي النَّحْوِ وَتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ
وَالْحَدِيثِ النَّبِيِّ ، كَمَا جَمَعُوا أَمْثَالَ الْعَرَبِ وَحُكْمِهِمْ وَأَخْبَارِهِمْ ، وَاعْتَنُوا بِالْلُّغَةِ

العربية عنابة فائقة ، فأصلوا أصولها ، وأغنوها بالدراسات النحوية والصرفية والفقهية اللغوية ، واعتبروها أشرف اللغات وأرقاها وأفضلها عند الله ، واعتبروا الإقبال عليها من الديانة «إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين ، وسبب إصلاح المعاش والمعاد ، ثم هي لإحراز الفضائل والإحتواء على المروءة وسائر المناقب»⁽²⁾ فإنّ من علامات الإسلام وحسن التدين حبّ العرب والعربية والإعتقداد «أنَّ مُحَمَّداً... خيرُ الرُّسُلِ وَالْإِسْلَامِ خيرُ الْمُلْلَلِ ، وَالْأَرَبَّ خيرُ الْأَمَمِ وَالْعَرَبِيَّةِ خيرُ الْلُّغَاتِ وَالْأَلْسُنَةِ»⁽³⁾.

وكما اعززوا بالعربية وأهلها ، فقد اعززوا بالإسلام ، ودافعوا عنه ، وصدوا هجمات الزنادقة والملاحدة والمشككين ، وانخرطوا تطوعاً في الجيوش التي وجّهت للقضاء على ثورات المجوس والخرمية والبابكية ، ولم يواجهوا تعصّب الشعوبية للثقافات الأعمجية بتعصّب للثقافة العربية الإسلامية والإقتصار عليها ، وإنما انفتحوا على سائر الثقافات المعاصرة ونهلو من ينابيعها ، واقتبسوا وأخذوا منها ما يلائم حياتهم وحاجاتهم ، ومنزجوه بالثقافة العربية والإسلامية ، فكانت الحضارة العباسية ثمرة لهذا التزاوج والإمتزاج ، مع المحافظة على الطابع العربي والإسلامي لهذه الحضارة .

وابعد أنصارعروبة من المثقفين عن العنصرية الضيقَة ، وركزوا على مفهوم الأمة الذي يعتمد على الثقافة والتاريخ واللغة والأرض والبيئة والعادات الإجتماعية .

ولنا أخيراً أن نتساءل : هل نجحت الشعوبية في تحقيق أهدافها وغاياتها ؟ إنَّ الشعوبية وقريبتها الزندقة ، لم تنجح في المجال الديني ، واستمرَّ الإسلام قوياً ناشطاً ، فقضى على معاقل المجوسية ، بالرغم من المقاومة العنيفة التي أبدتها النحل المجوسية .

(2) الثعالبي ، فقه اللغة ، ص : 2

(3) مصدر نفسه . ص : 2 .2

والشعوبية لم تنجح في صد اللغة العربية أو إضعافها ، ووقف انتشارها وامتدادها ، بل إن العربية فرضت سلطانها على الشعوبين أنفسهم ، فاتخذوها أداة تخاطب ووسيلة تعبير أدبية وفكرية ، ولم ينجحوا في بعث اللغة الفارسية واعتمادها في التأليف العلمي والأدبي على نطاق واسع إلا في أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري ، والعامل الشعوي ، لم يكن العامل الوحيد في هذا التحول . وظلت البلاغة العربية ، والقصيدة الجاهلية المثل الذي يقلده الشعراء والبلغاء ، ويطمحون لمداناته والسبك على مثاله .

ولم تنجح الشعوبية على الصعيد السياسي نجاحاً كاملاً ، ولم تستطع كسب منطقة نفوذ كبيرة لها ، ولم تشکل في يوم من الأيام قوّة سياسية يمكن أن تخل بالتوازنات التي على أساسها قامت الخلافة العباسية ، يبدو ذلك من خلال السهولة التي كان الخلفاء يقضون فيها على الرموز الفارسية في السلطة . فقد قضى السفاح على أبي سلمة الخالل ، وكان رأس الدعوة العباسية ، من دون أن يتخطى فيه عنزان ، وقضى المنصور على أبي مسلم الخراساني ، الذي لم يجرؤ بالرغم من قوته على المضي بالمعاندة ، دون أن يحدث ذلك بلبلة فورية تذكر . ونكب المهدي الزنادقة واضطهدهم ونكّل بهم وأسعهم قتلاً وتشريداً ونكب الرشيد البرامكة بعد عهد طويل من تمّسهم بالسلطة واصطدامهم القواد والولاة والجيوش . ولئن نشطت الشعوبية في عهد المأمون ، فإنها لم تستطع أن تستأثر به ، ولقد نال الفضل ابن سهل عقبه ، لما حاول ذلك . وكان موت طاهر ابن الحسين بعد عزمه على التمرّد درساً لابنائه من بعده ، فأقاموا على طاعة الخليفة حتى آخر أيامهم .

ولم ينجح الشعوبيون في إقامة إمارات فارسية مستقلة إلا بعد تسرّب الضعف والإنهلال إلى جسم الدولة ، فقامت الإمارات في خراسان وفارس ، كما قامت في الشام ومصر وشمال إفريقيا وأطراف الجزيرة العربية .

واستمرّ العرب يشكّلون طبقة إجتماعية ممتازة حتى بعد فقدانهم لمركز الصدارة السياسية ، وظلّ الإعتزاز إليهم والإنساب فيهم من علامات الشرف

والنبل والوجاهة الإجتماعية . واستمرَّ العرَاقُ ، وهو الساحة الرئيسية للصراع بين العرب والشعوبية عربياً بانتقامه ولغته وعاداته وتقاليده .

ولَيْنَ أَسْهَمَ الشَّعُوبِيَّةَ بِخَلْخَلَةِ الْمُجَتَّمِعِ إِلَّا سُكُونَ عَرَى وَحْدَتْهُ ، وَسَاعَدَتْ عَلَى إِنْهَالِ الدُّولَةِ وَتَسْرُبِ الْعَصْفِ إِلَيْهَا ، فَلَقَدْ أَسْهَمَتْ بِاِنْتَشَارِ الْوَعْيِ الْقَوْمِيِّ الْمُبَكَّرِ لَدِيِّ مُخْتَلِفِ الشَّعُوبِ إِلَّا سُكُونَ عَرَى وَحْدَتْهُ . وَسَاعَدَتْ عَلَى التَّطَوُّرِ الْفَكَرِيِّ وَالْعَلْمِيِّ وَجَعَلَتْ الْعَرَبَ يَفْتَحُونَ عَيْنَهُمْ عَلَى الْكَنْزِ الْحَضَارِيِّ الْفَكَرِيِّ الْمُعْرُوفَةِ أَمَامَهُمْ فَيَسْدُونَ فَرَاغَ حَضَارِيًّا أَحْسَوا فِيهِ بُعْدًا وَخَاصَّةً فِي مَجَالِ الْعِلْمِ وَالْفَلْسَفَةِ .

وَتَطَوُّرُ الْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ بِشَكْلٍ يَلَائِمُ الْحَيَاةَ الْحَضَارِيَّةَ الْمُتَطَوَّرَةَ الَّتِي عَاشُوهَا فِي الْأَعْصَرِ الْعَبَاسِيَّةِ وَتَجَاوَزَتْ التَّقْلِيدَ الثَّابِتَ لِلأَصْوَلِ الْأَدَابِيِّ الْقَدِيمَةِ مِنْ حِيثِ الشَّكْلِ وَالْمَعْنَى وَإِنْ كَانَ التَّجَدِيدُ فِي الْمَضْمُونِ وَالْمَعْنَى أَوْضَعُ فَلَقَدْ طَرَأَ تَجَدِيدٌ فِي الْأَشْكَالِ وَالْأَغْرَاضِ الْأَدَابِيَّةِ لَا يَخْفَى عَلَى الْبَاحِثِينَ .

فهرس الأعلام

- آدم : 297, 140, 131, 123, 123, 111
ابن أبي الزناد : 342
ابن أبي الفداقر الشلمضاني : 128, 131, 130
ابن أبي يعلى : 342
ابن الأثير : 130, 106, 43, 16
ابن الأشعث : عبد الرحمن ابن الأشعث
ابن الأعدي الحرزي : 125
ابن برد : بشار ابن برد
ابن بوه الديلمي : 241
ابنة ذي البردين : 396, 338
ابنة عبد الله : 396, 338
ابنة مالك : 396, 338
ابن التوأم : 372, 263, 262
ابن جامع : 174
ابن الحنفية : محمد ابن الحنفية
ابن خلدون : 172, 171, 161, 152, 151
ابن دريد : 358, 156
آسية بنت علي (أمينة) : 185
ابراهيم : 394, 392, 277, 131
ابراهيم ابن أبي عون : 131
ابراهيم ابن اسماعيل ابن داود : 125
ابراهيم ابن الاشير : 48, 44
ابراهيم ابن المدبر : 133
ابراهيم ابن مشاد : 275
ابراهيم ابن المهدى : 196- 199- 222- 220
ابراهيم ابن النعمان ابن بشير الانصارى : 39
ابراهيم ابن الوليد : 74
ابراهيم الامام : 68, 67, 63
ابراهيم الموصلى : 194, 174
ابرويز : 398, 396, 391, 338, 163
ابلليس : 297, 294, 131, 111
ابن أبي بكر : 392, 316

- ابو بربدة ابن أبي موسى الأشعري : 41
 ابو بكر الشبلي : 129
 ابو بكر الشيباني : 54, 36
 ابو بكر الصديق : 113, 65, 62
 342, 278, 123
 ابو تمام : 174, 143, 123
 ابو جعفر المنصور : 99, 98, 64, 63
 180, 179, 168, 140 139, 138, 132, 122
 , 203, 193 191, 189, 187, 186, 185 148
 413, 326 324, 222, 208
- ابو الحسن علي ابن حمزة ابن عمارة :
 332
 ابو حنش : 317
 ابو حنفية الدينوري : 107, 62
 ابو حيان التوحيدی : التوحیدي
 ابو خالد : احمد ابن خالد
 ابو خالد النمری : 317, 312
 ابو ذور خالد بن ابراهيم : 80, 79, 66
 215, 186, 185
 ابو الدفیش : 156
 ابو ذلف القاسم ابن عيسى العجلی :
 105, 104
 288, 228, 227, 134, 133
 ابو السرايا ابن طباطبا : 220, 216
 ابو سلام أسلم ابن سلام : 66
 ابو سلمة الخلال : 182, 67, 66
 413, 345, 192, 189, 183
 ابو شاکر : 125
 ابو الشمقمق : 118
- ابن ذي يزن : سيف ابن ذي يزن
 ابن رائق : 239, 238
 ابن الراوندي : 127, 125
 ابن سعد : 225
 ابن شبيب الزيات : 131
 ابن شكلة : ابراهيم ابن المهدی
 ابن شوزب : 52
 ابن طالوت : 125
 ابن طبا القاسم ابن ابراهيم : 108
 325, 324,
 ابن طولون : 237, 236
 ابن طیغور : 231
 ابن عائشة : 120
 ابن عباس : عبد الله ابن عباس
 ابن عیاش : 186
 ابن عزوan : 262
 ابن القارح : 123
 ابن قتبیة : 190, 163, 95, 18, 17,
 399, 385, 358, 329, 200
 ابن ماسویة : 384, 378
 ابن مشارک : 262
 ابن مطیع : عبد الله ابن مطیع .
 ابن المتفع : عبد الله ابن المتفع .
 ابن منهی : 342
 ابن الندمی : 203, 128, 121, 101
 331, 328, 324
 ابن وحشیة : 334
 ابو الاصلخ الهندي : 277
 ابو ایوب الموریانی : 190, 188

- ابو العاص ابن عبد الوهاب الثقفي : ابو كيشة : عمرو ابن مالك . 262, 160
- ابولؤثة المجوسي : 34 372, 263
- ابو مسلم الخراساني : 75, 72, 66, 63 118, 98 63, 62
- 137, 90, 80, 79, 78 413 413 267, 192, 184, 183, 182
- 184, 183, 182, 139, 138 345, 208, 190, 189, 186 125
- 345, 208, 190, 189, 186 413 331 125
- ابو العباس السفاح : 137 400, 399
- ابو العباس الناشيء : 140 400, 399
- ابو عبد الله العارض : 272 400, 399
- ابو عبد الله : الفضل ابن يعقوب 251 192, 191
- ابو عبيد الله الوزير : 185 192, 191
- ابو عبيدة معمر ابن المثنى : 157, 122, 121, 118, 117, 259, 253, 251, 212, 168 316, 249 316, 249
- 380, 329, 318, 289, 272 352, 341, 329, 328
- ابو عثمان : 288, 158 395, 376 375, 366
- ابو عثمان : الجاحظ 272
- ابو عطاء السندي : 232 66, 65, 61
- ابو عكرمة السراح : 140 123, 115, 94
- ابو العلاء المصري : 107, 105, 104 123, 115, 94
- ابو علي ابن بسطام : 331, 230, 229, 228, 227 131
- ابو علي رجاء يزدا نبغت : 112 103
- ابو علي الهووي : 232 66
- ابو عمارة كيسان : 131 52, 50, 44
- ابو عمرو : 311, 162
- ابو عون الكلبي : 131 72
- ابو عيسى ابن الرشيد : 237 278
- ابو عيسى الوراق : 278 125
- ابو الفرج الاصفهاني : 278 115, 112, 55
- ابو قابوس : 369 174, 122, 117
- 27, 26, 19, 18, 17 327, 324 251, 132, 108, 94, 28

- اسماويل ابن يسار النسائي : 56, 55
 267,
 اسماويل العوفي : 19
 اشجع ابن عمرو : 168
 الاشعث ابن قيس : 35
 اتناس : 228, 226
 الاصمعي : 249, 203, 163, 133
 329, 262, 253
 الأعشى : 392
 أعشى بكر : 170
 أعشى همدان : 46
 الأفشنين : 142, 108, 103, 94
 228, 227, 143
 افليمون : 378
 الأقرع ابن حابس : 397
 اقليدس : 405, 161
 اكثم ابن صيفي : 127
 أم جعفر (زبيدة) : 206, 202, 161
 207,
 امرؤ القيس : 317
 أم عمار : 306
 أم عمرو : 306, 113
 أم ناجية : 306
 الأمين (محمد ابن الرشيد) : 101,
 224 205, 197, 196, 173 142, 141, 119,
 301, 299 273, 272, 225
 أنس ابن أبي شيخ : 101
 انوروان : 246, 163, 124, 92
 403, 401, 322, 306
- احمد لواساني : 17
 احمد ابن شميط : 51, 50, 46
 الاحنف ابن قيس : 375, 317, 216, 36
 الاوصوص : 324
 ادريس : 131
 ادريس ابن عيسى : 66
 اردشير : 322, 175, 155, 124
 ارسسطوطاليس : 378, 251, 162
 ارنولد : 179
 اسامه ابن زيد : 345, 32, 31, 30
 استاذسيس : 208, 186, 140, 139
 اسحاق ابن ابراهيم : 341, 307, 105
 اسحاق ابن علي العباسى : 197
 اسحاق ابن مسلم : 184
 اسد ابن يزيد : 207
 اسد الحزى : 215
 اسفنديار : 275, 248, 164
 الاسكندر ذو القرنين : 326, 28
 اسماويل ابن ابراهيم : 341, 336, 307
 392, 391, 345
 اسماويل ابن صبح : 209

- بغا الكبير : 232, 231, 229
- البغدادي (عبد القاصر) : 162
- بكر ابن المعتمد : 211, 207
- بكر ابن وائل : 316, 66
- بكير ابن ماهان : 66
- البلذري : 166, 154
- بلال (الصحابي) : 166, 154
- بها فريد : 138
- بهرام ابن هرمز : 91
- بهرام جور : 391
- بيدبا : 327
- البيروني : 327, 324, 169, 108
- البرهاني : 349, 332
-
- (ت)
- تأبط شرا : 170
- التريري : 107
- تبع : 26
- التنوخي : 203, 200
- القوصيدي (ابو جيان) : 358, 332
- توزون : 241, 240, 239
- (ث)
- ثابت ابن نعيم : 69
- ثمامه ابن اشرس : 344, 125
- (ج)
- جابر : 120
- أهرمن : 91, 90, 89
- أوفي ابن مطر المازني : 319
- إيتاخ : 230
- (ب)
- بابك الحزمي : 137, 107, 104, 103
- 228, 222, 144, 143, 142, 141
- باح بما في الفزاد باحا : 332
- باغر : 232
- بايكباك : 236, 235, 234
- بحكم التركي : 239
- بعير ابن مليل : 391
- البحتري : 289, 288, 175
- بحث نصر : 27
- بحتيشوع : 302
- براؤن : 78
- برزویه : 327, 163, 111, 108
- برملک : 192, 133, 78
- بروكلمان : 19
- البریدی : 240, 239
- بزمجمهر : 322, 275, 163, 124
- بسام ابن محمد : 80
- بسطام ابن قيس : 391
- بشار ابن برد : 116, 115, 111, 94, 55
- 166, 132, 121, 118, 117
- 253, 248, 191, 174, 167
- 345, 290, 278, 269, 268
- بغا الشرابي (الصغير) : 231, 229
- 234, 232,

- الجاحظ عمرو ابن بحر : 18, 17 : .408, 402, 400, 332, 122, 120, 118, 97, 96, 95, 94, 42, 20, 19, 249, 168, 164, 163, 162, 160, 159, 124
- (ح) حاتم طي : 249 346, 344, 333, 332, 324, 321, 310, 251 حاجب ابن زراره : 338, 329, 316, 395, 391 جالينوس : 378
- الجاجري : طه الحاجري جاويدان : 142, 141 حامد الوزير : 130 جبرائيل ابن يحيى : 140 حتى : فيليب حتى جراق العود : 396, 365
- الحجاج ابن يوسف : .52, 42, 41, 325, 53 جرير : 329, 316, 40 جعفر : 278, 30
- حجر الكندي : 316 جعفر ابن يحيى البرمكي : 195, 101 حرب ابن زياد : .80, 204, 202, 201, 200, 199, 198, 197, 196, 210 حربيب : .117
- حريش مولى خزاعة : .67 جمهور ابن مرار العجلبي : 144, 139 الحسن ابن أبي الحسن : .342 جميل ابن محفوظ : 118, 116
- حسن ابن حسين : .143 جنان (جارية الثقفيين) : 300, 290 حسن ابن حمدان : .80 الجنيد ابن محمد : 128
- الحسن ابن رجاء الكاتب : .123 الجهشياري محمد ابن عبدوس : 196, 208, جولد زيهار : 19
- الحسن ابن سهل : 220, 216, 213, 223, 222, 221 الجندي احمد ابن محمد : 125, 332, 400
- الحسن ابن عبد الله ابن حمدان : ناصر الدولة جنان (جارية الثقفيين) : 300, 290
- , 131, 63, 61, 31, 219 الجندي احمد ابن محمد : 128
- الحسن ابن علي : .187, 184, 208, 196
- الحسين ابن ابي العلاء : .241 جولد زيهار : 19
- الحسين ابن حمدان : سيف الدولة الجندي احمد ابن محمد : 125
- الحسين ابن سعيد ابن حمدان : .239

- الحسين ابن علي : .48, 47, 46, 45
 .219, 131
- الحسين ابن علي ابن ماهان : .215, 214, 212, 173
- الحسين ابن القاسم ابن وهب : .131
- حفص ابن دينار : .80
- الحكم ابن عينيه : .343
- الحكم ابن قبر المازني : .315
- الحكم البهرياني : .379
- الحلاج حسين ابن منصور : .131, 128, 107
- حمدودية صاحب الزنادقة : .123
- حرمان : .38
- حمزة ابن الحسن الأصفاني : .341, 332
- حمدابن الزيرقان : .174, 118, 116, 116
- حمدابن عمرو : .140
- حمدالراوية : 171, 170, 118, 116
 .352,
- حميد الارقط : .339
- حنين ابن اسحاق : .378
- حيان العطار : .66, 65, 61
- (خ)
- خازم ابن خزيمة : .140, 140
 .169
- خاقان : .140
- خالد (اخو بلال) : .32
- خالد ابن ابراهيم : ابو داود
- داود ابن علي : .100, 62
- داود ابن كرار : .140
- ديشليم : .326
- درهم (مولىبني نهد) : .49, 47
- درید ابن الصمة : .378
- دعبل ابن علي الخزاعي : .331, 226, 123, 73
 .158.
- الدميري : .99, 93, 92
- الدوري : عبد العزيز الدوري .

- دِيكُ الْجَنِ : .277
 زُرْوَانُ الْكَبِيرِ : .89
 زَكْرِيَا (النَّبِيُّ) : .393
 زِيَادُ بْنُ حَقْصَةَ : .50
 زِيَادُ بْنُ صَالِحٍ : .66
 زِيدُ (مَوْلَى الرَّسُولِ) : 32, 31, 30
 زِينُبُ بْنَتْ سَلِيمَانَ : .345, .222
 (س)
- السَّائِبُ ابْنُ مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ : .47, 46
 سَابُورٌ : .56, 27
 سَابُورُ ابْنُ ارْدَشِيرَ : .91
 سَارَةُ (الْحَرَةِ) : .341, 307
 سَالِمُ (مَوْلَى ابْنِ حَدِيفَةِ) : .342, 34
 سَالِمُ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ : .392
 سَبَاعُ ابْنُ النَّعْمَانَ الْأَزْدِيُّ : .183
 سَبْلُ ابْنُ طَهْمَانَ : .66
 سَعْدُ ابْنُ ابْيِ وَقَاصٍ : .29
 سَعْدُ ابْنُ عَبَادَةَ : .119
 سَعِيدٌ : .119
 سَعِيدُ ابْنِ جَبَيرٍ : .342, 41
 سَعِيدُ ابْنِ حَمِيدٍ ابْنِ الْبَخْتَكَانَ : .331
 سَعِيدُ ابْنِ الْعَاصِيِّ : .31
 سَعِيدُ ابْنِ الْمَسِيبِ : .119
 سَعِيدُ الْعَرْشِيُّ : .141
 السَّفِيَانِيُّ : .212
 سَلْمَ (صَاحِبُ بَيْتِ الْحُكْمَةِ) : .246
 سَلْمَانُ الْفَارَسِيُّ : .345, 173, 54, 31
 سَلْمُونِيَّةُ : .384, 378
 (ذ)
- ذَفَافَةُ : .119
 ذُو الرَّمَةَ : .40
 ذُو الْقَرْنَيْنِ : الْاسْكَنْدَر
 (ر)
- الرَّازِيُّ : .128, 127, 125
 الرَّاضِيُّ : .239, 238, 130, 107
 رَافِعُ ابْنِ الْلَّيْثِ : .209, 208, 207, 144
 رَافِعُ ابْنِ نَصْرٍ : .77
 الرَّبِيعُ ابْنُ يَوْنَسَ : 190, 187, 132
 .192, 191
 رَبِيعَةُ ابْنِ مَخَارِقَ : .44
 رَزِينُ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ السَّلْوَلِيِّ : .50
 رَسْتَمٌ : .275, 248, 164
 رَسُولُ اللَّهِ : النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ
 الرَّشِيدُ : هَارُونُ الرَّشِيد
 رَفَاعَةُ ابْنُ شَدَادِ الْفَتِيَانِيِّ : .46
 الْرِبَاعِيُّ : .39
 رِبَطَةُ (ابْنَةِ السَّفَاحِ) : .192
 (ز)
- زَاهِيَةُ قَدْوَرَةَ : .77, 76, 41, 33, 32, 19
 .190, 189, 179, 151, 150
 .219, 211, 210, 203
 الزَّيْرَقَانُ ابْنُ بَدْرٍ : .397
 زَرَادِشْتُ ابْنُ يَوْرَاشَبَ : 93, 92, 90
 .407, 406, 138,

- سلطان ابن عباس : 185 .
- سليك ابن عمير السعدي : 391 .
- سليم ابن منصور : 119 .
- سليمان (الملك) : 366, 336, 131 , 397, 367 .
- سليمان ابن حبيب : 185 .
- سليمان ابن عبد الملك : 395, 61 .
- سليمان ابن علي : 115 .
- سليمان ابن كثير : 183, 68, 67, 66 .
- سليمان ابن يسار : 342 .
- سؤال : 311 .
- سباز : 144, 139 .
- سندس (زوج المأمون) : 230 .
- الستي الحرشي : 211, 208, 207 .
- سهام المرزوقي : 185 .
- سهيل ابن هارون : 246, 204, 160 .
- .372, 366, 341, 330, 262, 261, 260, 250, .38 .
- سيسان : 90 .
- سيف ابن ذي يزد : 394, 274 .
- سيف الدولة : 281, 241, 240, 237 , 287 .
- سيار ابن عمرو ابن جابر الغزارى : 395 .
- (ش)
- الشارذنجي : 278 .
- شيت ابن رباعي : 49, 44 .
- (ط)
- طه الحاجري : 380, 379, 51 .
- طه حسين : 302, 250 .
- (ص)
- صالح (النبي) : 336, 131 .
- صالح (صاحب المصلى) : 193 .
- صالح ابن داود : 113 .
- صالح ابن الرشيد : 207 .
- صالح ابن عبد القدس : 116, 115 , 125 .
- صالح ابن عجيف : 230 .
- صالح ابن وصيف : 235, 234 .
- صعصعنة ابن صوحان العبدى : 35 .397, .278, 113 .
- صفوان الانصاري : 342, 334, 172, 34 .
- (ض)
- ضررار ابن عمرو : 344 .
- حمزة ابن ربيعة : 52 .
- ضييف : شوقي ضييف

- طاهر ابن الحسين : 210, 211, 213, 223, 224, 217, 216, 215, 278, 273, 272, 261, 413, 279
- طاهر ابن عبد الله : 229, 342
- طاؤس : 199, 184, 52, 50, 46
- الطبرى : 199, 184, 52, 50, 46
- طلحة ابن زريق : 66
- (ظ) (ع)
- عائشة : 31, 30
- عاتكة : 324, 108
- عامر : 120
- عامر ابن أحمر ابن بهدلة : 397, 396
- عامر ابن صعصعة : 153, 116
- عامر ابن الطفيلي : 391
- عامر ابن عبد القيس : 38
- عبادة : 116
- عبادة ابن الحارث : 73
- العباسة اخت الرشيد : 201, 199
- العباس ابن جعفر : 207
- العباس ابن عبد المطلب : 64, 63, 62, 218, 100,
- العباس ابن المأمون : 220
- العباس ابن موسى : 220
- عبد الله ابن الأفطس : 200
- عبد الله ابن الجارود : 42
- عبد الله ابن جعفر : 73, 31, 183
- عبد الله ابن الحسين ابن علي : 209
- عبد الله ابن خازم : 43, 48, 47, 46, 46, 48, 83
- عبد الله ابن شريك : 47
- عبد الله ابن طاهر : 104, 143, 106, 106, 279, 274, 273, 229, 222, 218, 211
- عبد الله ابن عامر : 38
- عبد الله ابن عباس : 31, 218, 124, 31, 335, 331, 322, 219
- عبد الله ابن علي : 184
- عبد الله ابن عمر : 32, 31, 30
- عبد الله ابن كامل الشاكرى : 50
- عبد الله ابن مالك الخزاعي : 141, 207, 202, 216, 215, 213, 210
- عبد الله ابن محمد ابن علي : 61, 63, 62
- عبد الله ابن مطبيع : 47, 46, 44
- عبد الله ابن معاوية : 75, 73
- عبد الله ابن المعتز : 276, 238, 237, 280, 279, 277, 108, 99, 94, 260, 259, 246, 245, 169, 163, 124, 111, 400, 378, 366, 328, 323, 322
- عبد الله ابن همام : 46, 45
- عبد الله ابن وهب : 51, 50

- عبد الجبار الازدي : 144.
- عبد الحميد (الكاتب) : 124, 77.
- عثمان ابن عفان : 47, 46, 39, 38.
- عجيف ابن عنبرة : 228.
- عطاء : المقفع الخراساني
- عطاء ابن ابي رباح : 342.
- عطاء ابن عبد الله الخراساني : 342.
- عفاف ابن مليل : 391.
- عقليل ابن علفة المדי : 39.
- العلاء ابن الحداد الأعمى : 100.
- علان الشعوبي : 341, 330, 274.
- علي ابن أبي طالب : 43, 35, 34, 31, 123, 113, 112, 65, 64, 63, 62, 61, 47, 278, 219, 218, 193, 182, 179, 173, 131 .387, 342, 335, 322
- علي ابن جبلة القلوك : 288, 134, 133.
- علي ابن الحسين ابن علي ابن ابي طالب : 392.
- علي ابن الخليل : 167, 116, 101 .271, 270, 168.
- علي ابن الشاه : 327.
- علي ابن عبد الله ابن عباس : 63.
- علي ابن عبيدة الريحاني : 331, 125.
- علي ابن عمارة : 341.
- علي ابن عيسى ابن ماهمان : 202 .213, 211, 210, 209, 208,
- علي ابن القاسم : 122.
- علي ابن الكرمانى : 72.
- علي ابن موسى الرضا : 211, 210.
- عبد الرحمن الانباوي : 210.
- عبد الرحمن ابن عبد الملك : 213.
- عبد الرحمن ابن مخنف : 45.
- عبد الرحمن ابن مسلم : ابو مسلم الخراساني .334, 172.
- عبد الصمد ابن علي : 187.
- عبد العزيز الدوري : 79, 76, 52 .204, 144.
- .219.
- عبد القادر المهيري : 260.
- عبد الفاهر الكيلاني : 130.
- عبد الكريم ابن ابي العوجاء : 98 .172, 99,
- عبد المطلب ابن هاشم : 392, 343.
- عبد الملك ابن صالح : 201, 196 .232, 223, 214, 212,
- عبد الملك ابن مروان : 39 .334, 172.
- عبد مناف : 164.
- عبد الله ابن عباس : 219.
- عبد الله ابن يحيى ابن خاقان : 231.
- عبد الكلابي : 164.

- عيسيى ابن مريم (المسيح) .92, 91 .221, 218,
 394, 393, 272, 131, 121, 120, 103, 93 .100.
 عيسى ابن موسى : .343, 342, 190 .201.
 عصو : .393 .334, 172.
 (غ)
- غالب ابن صعصعة : .397, 249 .343
 الغزالى : .130 .118, 117, 116
 غilan : .366 .193, 187, 168
 (ف)
- فاتك : .237 .200.
 فاجدا : .115 .370
 فاضنة (اخت الرشيد) : .200 .336.
 فاطمة بنت ابي مسلم الخراسانى :
 .141 .80.
 فاطمة بنت محمد : .219 .66.
 الفتح ابن خاقان : .289, 231 .31.
 الفردوسى : .157 .67.
 الفرزدق : .395, 329, 316, 315, 153 .237.
 الفضل ابن الريبع : .198, 153, 119 .44.
 , 211, 209, 208 207, 202, 201, 200, 199 .396.
 .329 .215 .391.
 الفضل ابن سهل : .212, 211, 208 .391.
 , 223, 222, 221, 220, 218, 216, 215, 213 .128.
 .413, 272, 224 .48.
 الفضل ابن مروان : .227, 226 .67, 66.
 الفضل ابن يحيى البرمكي : .153, 64 .190.
 .301, 203, 200, 196, 195, 194, 158 .324, 183.
 الفضل ابن يعقوب : .112 .185, 80, 79, 77 .186.

- فلهوزن : 19
 فون كريمر : 53
 فيليب حتى : 20, 19
- (ق)
- القاسم : 116
 القاسم ابن محمد : ابن أبي بكر
 القاسم ابن ابراهيم : ابن طباطبا
 القاسم ابن الرشيد : 208
 القاسم ابن مجاشع : 66
 قباذ : 26
 قباذ ابن فيروز : 92
 قبيعة (ام المعتز) : 235
 قنادة :
 قتيبة : 317
- (ل)
- قطنم ابن عباس : 219
 قحطبة ابن شبيب : 76, 72, 67, 66
 قس ابن ساعدة : 153
 قصي ابن كلاب : 334, 172
 القلاع ابن حزن : 39
 قولهيار : 106
 قيس ابن عاصم : 386, 38
- (م)
- مازيار : 228, 144, 143, 106, 104
 مالك ابن الهيثم : 215, 67, 66
 المأمون (عبد الله) :
 ،141, 134, 133, 125, 103,
 ،197, 188, 143, 142
 ،225, 224, 205, 204
 ،261, 260, 247, 230
 ،331, 330, 299, 272
 .413
- (ك)
- كامل ابن مظفر : 185, 79
 كثير ابن اسماعيل : 50
 الكرمانی (زعیم الیمانیة) : 69, 67
 .72, 71, 70,

- محمد ابن علي ابن ابي طالب : ماني ابن فاتك : 91, 98, 94, 93, 92, 91
 محمد ابن الحنفية : .122, 121, 120, 113, 100, 99
- محمد ابن علي ابن عبد الله : المؤيد : 234, 231
 61. مبارك التركي : 193
 .192, 67, 65, 64, 63, 62, المبرد : 111
 محمد ابن علي الاصبهاني : المتقد : 241, 240, 239
 محمد ابن علي الشلمضاني : ابن ابي .288, 280
 العذاقر المتني : 289, 231, 229, 175
 محمد ابن الليث : 199 مجاهد ابن جبير : 342
 محمد ابن الليث الخطيب : 330 محمد ابن ابي خالد : 215
 محمد ابن الوائقي : 229 محمد ابن ابي العباس : 98
 محمد ابن يزيد الأموي : 279, 274 محمد ابن الاشعث : 183, 45
 .330, محمد ابن الحنفية : 63, 62, 61, 44
 المختار الثقفي : 53, 52, 43 محمد ابن خالد : 74
 المرتد الخراساني : 102 محمد ابن الخطيب : 125
 مرداويخ : 107 محمد ابن خنيس : 65, 61
 مرقش : 312 محمد ابن ذود الجراح : 237
 مرقيون : 99, 93 محمد ابن الرشيد : الامين :
 مروان ابن ابي حفصة : 194, 64, 63
 .195, محمد ابن زكريا : الرازي :
 مروان ابن محمد : 73, 72, 70, 69 محمد ابن زياد : 261
 .78, 74 محمد ابن حيرين : 342
 مزرك : 339 محمد ابن عبد الله : 64, 63
 مزدك ابن همدadan : 121, 105, 92 محمد ابن عبد الله ابن طاهر :
 .124, محمد ابن عبد الله ابن عبد المطلب :
 .133, 144, 140, 137, 133 النبي محمد
 .406, 322, 291, 246 مساور الشاري : محمد ابن عبد الملك الزيات :
 .235 المستعين : 234, 232 .230, 229, 227, 105
 المستكفي : 241 محمد ابن عبد وس : الجهشياري :

- المحقق : .241, 238, 237
 مكحول : .343, 342
المتشر ابن وهب الباهلي : .391
 المتتصر : .232, 231
 منكجور : .104.
المهدي محمد ابن الواثق : .235, 234
 المهدى : ,115, 114, 113, 100, 99
 ,141, 140, 133, 132, 122
 ,191, 190, 188, 187, 168
 ,268, 253, 208, 193, 192
 .413, 324, 269
مهلب ابن ابي صفرة : .317, 45
مهيار ابن بربو : .290, 276, 275
موسى (النبي) : 367, 131, 91
 .394, 393.
 موسى ابن شاكر : .247
 موسى ابن كعب : .215, 66
موسى ابن محمد الامين : .210, 209
موسى ابن المهدى : الهايدي
موسى ابن يحيى البرمكي : .199, 198
الموقف : .237, 236
مويس ابن عمران : .383, 262
مبيرة العبدى : 66, 65, 61
مييمون ابن مهران : .343

 (ن)
التابعة : .308
ناصر الدولة : .241, 240, 239
نافع ابن جبير : .37

 مسرور الخادم : .197
 مسروق : .17, 16, 15
مسعر الحنفى : .50, 49
السعودي : ,333, 102, 62, 22, 17
 .360, 359, 358, 344
مسلم ابن قتيبة (ابو امية) : .184
 مسمع : .317
مصعب ابن الزبير : .50, 45
مصعب (جد الطاهرين) : .279
مطر : .187
مطیع ابن ایاس : 132, 122, 116, 99
 .174,
معاذ ابن جبل : .322
معاذ ابن مسلم : .140
معاوية : .179, 61, 36, 35, 31
معدب : .380
المعتز : .235, 234, 233, 232, 231
المعتصم : ,125, 107, 104, 103
 ,223, 188, 143, 142
 .275, 230, 229, 224
المعتضد (ابو العباس) : .237, 236
المعتمد : .275, 237, 236
المعذل ابن غيلان : .121
المعري : ابو العلاء المعري
معقل ابن ادریس : 67, 66
المفضل الضبي : .170
المقدار : .237, 131
المقنع الخراساني : 186, 144, 140
 .208,

- .193, 114, 101, 100, 99 : الهادي .32, 31, 30, 29, 17
 هارت : .78 ,66, 62, 45, 42, 40
 .115, 101, 77, 63 : هارون الرشيد .100, 94, 88, 76, 75
 ,140, 124, 123, 119 ,117, 115, 112, 103, 101
 ,188, 187, 175, 161 ,139, 131, 127, 126, 124
 ,203, 194, 193, 192 ,173, 172, 171, 165, 163
 ,207, 206, 205, 204 ,261, 219, 216, 212, 174
 ,222, 214, 211, 210 ,278, 277, 276, 272, 262
 330, 238, 328, 316, 247 ,327, 322, 316, 315, 296
 .413 ,336, 335, 334, 331, 328
 .392, 334, 172 : هاشم ,346, 345, 344, 342, 341
 هاشم ابن خديج : .316 ,366, 364, 361, 352
 هرتمة ابن أعين : 211, 210, 77 ,385, 380, 377, 372, 367
 .216, 213 ,394, 393, 392, 390, 386
 هرم : .249 ,412, 411, 407, 406, 399, 397
 هرمز : .90, 89 .353 : النرسخي
 هشام ابن عبد الملك : 267, 174, 57 نصر ابن سيار : .71, 70, 69, 67
 .226 .79, 77, 72
 الهفتي : .393, 336, 131 .380, 296 : النظام
 همام ابن طاووس : .342 .391, 27 : التعمان
 هنيدة بنت صعصعة : .397 .125 : نعمان ابن أبي العوجاء
 هود : .274 .397, 369 : التعمان ابن المتنز
 هودة ابن علي : .375, 331 .28 : التعمان الثالث
 الهيثم ابن عدي : .120 .218, 207 : نعيم ابن حازم
 (و) .115 : نكلسون
 واهل : .120 .393, 336, 131 : نوح
 الواثق : .125 .
 واصل ابن عطاء : .111 .
 والبة ابن الحباب : 271, 123, 116 .
 .290, 289 .
 .392, 341, 307 : هاجر (الأمة)

صيف : 232, 231, 226

ركيع ابن ابي سود التميمي : 395

الوليد ابن عتبة : 31

الوليد ابن يزيد : 74, 73

وهرز : 394

(ي)

ياقوت : 131

يحيى النبي : 393

يحيى ابن ابي حفصة : 39

يحيى ابن حصين : 80

يحيى ابن خالد ابن برمك : 175, 133

, 200, 199, 197, 196, 195, 194, 193, 187

.330, 207 206, 203

يحيى ابن زياد : 118, 99

يحيى ابن سليم : 210

يحيى ابن عبد الله ابن حسن : 199

.202,

يحيى ابن علي المنجم : 276

يحيى ابن معاذ : 207

يزدا بعادان : 124

يزدان : 89

يزدان ابن ياذان : 100

يزد ابن انس : 46

يزيد ابن عمر : 72

يزيد ابن الفيض : 101, 116

يزيد ابن محمد المهبلـي : 230

يزيد ابن منصور الحميري : 315

يزيد ابن الوليد ابن عبد الملك : 74

يزيد الرقاشـي : 267

يعقوب ابن اسحـاق : 393

يعقوب ابن داود : 113, 114, 115

.191, 132,

يعقوب ابن الفضل : 100.

يعقوب ابن الليث الصفار : 237, 275

يقطـين : 100.

يقطـين ابن موسـى : 184.

يوسف البرـم : 208.

يونس ابن ابي فروـة : 101, 124.

يونس ابن هارون : 116.

مصادر البحث ومراجعه

المصادر :

الابشيهي ، شهاب الدين ، احمد (1446 هـ - 850 م).

– المستطرف في كل فن مستظرف ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت 1952

ابن أبي طالب ، علي (40 هـ - 661 م).

– نهج البلاغة ، شرح ابن أبي الحديد ، القاهرة ، 1911.

ابن الأثير ، علي ابن احمد ابن أبي الكرم (1232 هـ - 630 م).

– الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، 1979.

ابن برد ، بشار (783 هـ - 167 م).

– ديوان بشار ابن برد ، جمع وتحقيق بدر الدين العلوي ، بيروت ،

1981.

ابن حجة ، ابو بكر نقى الدين .

– ثمرات الاوراق في المحاضرات ، دار أحياء التراث العربي ،

بيروت 1952.

ابن خلدون ، ولی الدين عبد الرحمن (808 هـ - 1405 م).

– المقدمة ، دار الفكر ، بيروت ، لا . ت .

ابن خلکان ، شمس الدين (1282 هـ - 681 م).

— وفيات الاعيان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، .

1978

ابن دريد ، محمد ابن الحسن (933 هـ - 321). .

— الاشتقاد ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المسيرة ، بيروت .

1979

ابن طباطبا ، القاسم ابن ابراهيم .

— كتاب الرد على الزنديق ابن المقفع ، جويدى ، روما ، 1927 .

ابن الطقطقي ، علي ابن محمد ابن طباطبا .

— الفخرى في الآداب السلطانية ، دار صادر . لا . ت .

ابن العماد الحنبلي ، ابو الفلاح عبد الحي (1089 هـ - 1678). .

— شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، دار المسيرة ط 2 بيروت .

1979

ابن القارح ، علي ابن منصور (421 هـ - 1030). .

— رسالة ابن القارح ، نشر محمد كرد علي (رسائل البلغاء) ، ط

. 3 . القاهرة - 1946 .

— رسالة ابن القارح ، تحقيق فوزي عطوي (رسالة الغفران) بيروت

. 1969

ابن قتيبة ، عبد الله ابن مسلم (276 هـ - 889). .

— ادب الكاتب ، تحقيق محمد محى الدين الحميد ، ط 4 ، مصر .

1963

— الامامة والسياسة ، تحقيق طه الزيني ، دار المعرفة ، بيروت ، .

1967

— الشعر والشعراء ، دار الثقافة ، بيروت 1964 .

— عيون الاخبار ، دار الكتب المصرية 1925 .

- كتاب العرب ، نشر محمد كرد علي (رسائل البلغاء) ط 3 ، القاهرة 1946 .
- المعارف ، تحقيق محمد اسماعيل الصاوي ، ط 2 ، بيروت . 1970
- ابن المدبر ، ابراهيم ابن محمد (142 هـ - 759) .
- الرسالة العذراء ، نشر محمد كرد علي (رسائل البلغاء) ط 3 ، القاهرة 1946 .
- ابن المقفع ، عبد الله .
- كليلة ودمنة ، المؤسسة المتحدة للكتاب ط 2 ، بيروت 1980 .
- الآثار الكاملة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت . لا . ت .
- رسالة الصحابة ، نشر محمد كرد علي (رسائل البلغاء) ط 3 ، القاهرة 1946 .
- ابن منظور
- لسان العرب ، دار صادر ، بيروت 1955 .
- ابن النديم (385 هـ - 995) .
- الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت 1978 .
- ابن هانئ ، ابو نواس ، الحسن (195 هـ - 810 هـ - 199 هـ - 814) .
- ديوان ابي نواس ، تحقيق احمد عبد المعيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت . لا . ت .
- ابو حنيفة ، احمد ابن داود الدينوري (281 هـ - 894) .
- الاخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، المعادي ، 1959 .
- ابو الفرج الاصفهاني ، علي ابن الحسين (356 هـ - 966) .
- الاغاني ، دار صعب ، بيروت ، مصورة عن طبعة بولاق . لا . ت .

- ابو يوسف القاضي ، يعقوب ابن ابراهيم (189 هـ - 804).
 – الغراج ، مصر 1884.
- الازهري ، محمد ابن احمد (370 هـ - 980).
 – تهذيب اللغة ، تحقيق عبد السلام هارون ، محمد النجار ، الدار
 المصرية 1964.
- البغدادي ، عبد القاهر ابن احمد (429 هـ - 1037).
 – الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، دار
 المعرفة بيروت . لا . ت .
- البلاذري ، احمد ابن يحيى (279 هـ - 892).
 – فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، دار الكتب
 العلمية ، بيروت 1978.
- البيروني ، محمد ابن احمد (440 هـ - 1048).
 – الآثار الباقة عن القرون الخالية ، نشر سخاو ، ليزغ 1878.
- تحقيق ما للهند من مقوله ، مقبولة في العقل او مرذولة ، حيدر
 اباد 1958.
- البيهقي ، ابراهيم ابن محمد (320 هـ - 932).
 – المحاسن والمساوئ ، دار صادر ، بيروت . 1970.
- التونخي ، المحسن ابن علي (384 هـ - 994).
 – الفرج بعد الشدة ، تحقيق عبد الشالجي ، دار صادر ، بيروت
 1978
- التوحیدی ، ابو حیان علی ابن محمد ابن علی (400 هـ - 1009).
 – الامتناع والمؤانسة ، تحقيق احمد امين ، وأحمد الزین ، مكتبة
 الحياة ، بيروت . لا . ت .

- التعالبي ، عبد الملك ابن محمد ابن اسماعيل (429 هـ - 1037).
 - بیتیمة الدهر في محسان اهل العصر ، دار الكتب العلمية ، بيروت
 . 1979
- فقه اللغة واسرار العربية ، مكتبة مصطفى الحلبي ، مصر 1318
 هـ
- الجاحظ ، ابو عثمان ، عمرو ابن بحر (255 هـ - 869).
 - البخلاء ، دار صادر ، بيروت . لا . ت .
- البيان والتبيين ، تحقيق فوزي عطوي ، دار صعب ، بيروت .
 1968
- الناج في اخلاق الملوك ، تحقيق فوزي عطوي ، بيروت 1970 .
 - الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، المجمع العلمي ، ط 3
 بيروت 1969 .
- رسالة الرد على النصارى (ثلاث رسائل) ، القاهرة ، نشر فنكل .
 لا . ت .
- رسالة في ذم اخلاق الكتاب (ثلاث رسائل) ، القاهرة ، نشر
 فنكل . لا . ت .
- رسالة المعاد والمعاشر (مجموعة رسائل) . القاهرة 1324هـ .
 - رسالة الى الفتح ابن خاقان (مجموعة رسائل) ، القاهرة 1324
 هـ .
- الجهشياري ، محمد ابن عبدالوس (321 هـ - 933).
 - الوزراء والكتاب ، القاهرة 1938 .
- الحسيني ، محمد مرتضى .
 - تاج العروس ، ط 1 ، القاهرة 1888 .
- الحضرى ، ابو اسحاق .
 - زهر الآداب وثمر الألباب ، القاهرة 1925 .

- الخطيب البغدادي ، احمد ابن علي (463 هـ - 1070).
 – تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي ، بيروت . لا . ت .
- الدميري ، كمال الدين (808 هـ - 1405).
 – حياة الحيوان الكبرى ، المكتبة الاسلامية لاصحابها الحاج رياض
 . الشيخ . لا . . ت .
- الزمخشري ، محمود ابن عمر (538 هـ - 1143).
 – اساس البلاغة ، دار صادر ، بيروت 1965 .
- الشهرستاني ، محمد ابن عبد الكرييم (548 هـ - 1153).
 – الملل والنحل ، تحقيق محمد سعيد الكيلاني ، دار المعرفة ،
 ببيروت 1980 .
- الصولي ، ابو بكر محمد ابن يحيى (335 هـ - 649).
 – اشعار اولاد الخلفاء (كتاب الاوراق) بيروت 1979 .
- اخبار الراضي بالله والمتقى لله (كتاب الاوراق) ج . هـ .
 دن ، دار المسيرة ، ط 2 بيروت 1979 .
- اخبار الشعراء المحدثين (كتاب الاوراق) ج . هـ . دن . دار
 المسيرة ، بيروت 1979 .
- الطبرى ، ابو جعفر محمد ابن جرير (310 هـ - 922).
 – تاريخ الامم والملوک ، دار الفكر ، بيروت 1979 .
- عبد الحميد الكاتب (133 هـ - 750).
 – رسالة عبد الحميد عن مروان ابن محمد ، نشر محمد كرد
 علي (رسائل البلغاء) ، القاهرة ، ط 3, 1946.
- الفیروزبادی
 – القاموس المحيط ، ط 1 ، القاهرة 1912 .
- القالی ، ابو علي اسماعيل ابن القاسم .

- كتاب الامالي ، دار الكتاب العربي ، بيروت . لا . ت .
- القزويني ، زكريا ابن محمد ابن محمود
(1283 هـ - 682).
- عجائب المخلوقات والحيوانات ، وغرائب الموجودات ، المكتب
الإسلامي . لا . ت .
- الماوردي ، علي ابن محمد ابن حبيب (450 هـ - 1058).
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية ، بيروت
. 1978.
- . المبرد ، ابو العباس محمد ابن يزيد (285 هـ - 898).
- الكامل في اللغة والادب ، مكتبة المعارف ، بيروت . لا .
ت .
- المتنبي ، احمد ابن الحسين (354 هـ - 965).
- ديوان المتنبي ، شرح البرقوقي ، ط 2 ، دار الكتاب العربي ،
مصورة عن طبعة . 1938
- المرتضى ، علي ابن طاهر (436 هـ - 1044)
- اسامي المرتضى ، مصر 1957
- المسعودي ، ابو الحسن علي ابن الحسين (346 هـ - 957).
- مروج الذهب ، تحقيق محمد محی الدين عبد الحميد ،
دار الفكر ، ط 5 ، بيروت 1973 .
- المعري ، ابو العلاء .
- رسالة الغفران ، تحقيق فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية ، بيروت
. 1969
- ياقوت ، عبد الله الحموي (626 هـ - 1228).
- معجم الأدباء ، دار احياء التراث العربي ، بيروت . لا . ت .

— معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت 1977 .

المراجع :

ادونيس ، علي احمد سعيد .

— الشاب والتحول ، الكتاب الثاني ، دار العودة ، بيروت . ط 2 ، 1979 .

امين ، احمد .

— ضحى الاسلام ، دار الكتاب العربي ، ط 1 ، لا . ت .

الانصارى ، عبد الواحد .

— مذاهب ابتدعها السياسة في الاسلام ، مؤسسة الاعلمي ، بيروت . 1973 .

البستانى ، كرم .

— المجاني الحديثة ، عن مجاني الاب شيخو ، جددتها لجنة من الاساتذة بادارة فؤاد افرايم البستانى ، دار المشرق ، المطبعة الكاثوليكية ، ط 3 ، لا . ت .

البستانى ، بطرس

— قطر المحيط ، فوتوا اوافست عن طبعة 1869 ، مكتبة لبنان ، بيروت .

الترك ، عفيف .

— محاضرات في عالم التاريخ الاسلامي ، الجامعة العربية . 1972

جفال ، خليل .

— الخليفة عبد الملك ابن مروان الناقد الاديب ، رسالة ماجستير ، الجامعة اللبنانية ، بيروت 1979 .

الحاجري ، طه .

— البحاظ حياته وآثاره ، دار المعارف ، ط 2 ، مصر 1969 .

حاوي ، ايليا .

— نماذج في النقد الأدبي ، دار الكتاب اللبناني . ط 2 ، بيروت .

لا . ت .

حسين ، طه .

— حديث الأربعاء ، دار المعارف . ط 9 - 1974 .

حمزة ، عبد اللطيف .

— ابن المقفع ، مصر 1937 .

سعد ، فهمي .

— العامة في بغداد ، القديس يوسف - 1980 .

صفوت ، احمد .

— جمهرة رسائل العرب ، مصطفى الحلبي ، ط 1 مصر 1937 .

ضيف ، شوقي .

— تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الاول . دار المعارف ط 3

لا . ت .

— تاريخ الادب العربي ، العصر العباسي الثاني ، دار المعارف .

1973

— الفن ومذاهب في الشعر العربي ، دار المعارف ، ط 1969 .

عبد الباقى ، محمد فؤاد .

المعجم المفهرس للالفاظ القرآنية ، دار الكتب المصرية 1945 .

العوفي ، اسماعيل .

— في الشعوبية - بيروت 1979 .

قدورة ، زاهية .

— الشعوبية واثرها الاجتماعي والسياسي ، دار الكتاب اللبناني ، ط

. 1972 ، 1

لواساني ، احمد .

— نظرات جديدة في الادب ، بيروت 1980 .

مسعود ، جبران .

— الرائد ، دار العلم للملائين ، ط 2 - بيروت 1967 .

مجلة الحوادث ، عدد تشرين ثاني . 1980 .

حولية الجامعة التونسية ، العدد الاول 1964 .

المراجع المغربية :

بروكلمان ، كارل .

— تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : فارس وبعلبكي ، دار العلم

للملائين ، ط 2 ، بيروت 1979 .

حتي ، فيليب .

— تاريخ العرب (المطول) ترجمة فيليب حتي جبرائيل جبور ، جبور

عبد النور ، دار الكشاف ، بيروت 1965 .

كريمر ، فون .

— الحضارة الاسلامية ، ترجمة مصطفى بدر - 1947 .

المراجع الاجنبية :

Bouvat — le

Le Barmècides Paris 1912

Browne, Edward.

A Literary History of Persia London 1909.

Goldziher, Jgnas.

Muhammedemische Studien 2 Vols, Hallen 1888—1890

Huart, Tomme.

Histoire des Arabes . Paris 1912 .

Omar, F.

— Islamic Culture, Vol. XLVIII N 1 Huder Abad 1974. (The Nature of the Iranian Revolts In the Early Abbasid Period).

— Encyclopédie de Lislam. Nouvelle Edition, Tome III. (Harim Al—Rashid).

Shaban. M.

— Islamic History; a new Interpretation, Cambridge: Cambridge University Press; 1976.

Sadighi.

— Les Mouvements religieux Iraniens, Paris. 1938

Le Strange. G.

— Baghdad, During the abbacid CALIPHATE, Oxford 1900

Muir, William.

— The CALIPHATE Edinburgh 1924.

Wellhausen, J.

— Arab Kingdom and its. fall, Translated by Margart Graham Weir, Calcuta. 1927.



فهرس الموضوعات

الاهداء	
المقدمة	
الباب الأول : الجذور التاريخية للشعوبية	83- 13
تمهيد : تعريف الشعوبية في اللغة والاصطلاح	21- 15
تعريف الشعوبية في اللغة	16- 15
تعريف الشعوبية في الاصطلاح	21- 16
الفصل الأول : الجذور التاريخية للشعوبية	57- 23
نشأة الشعوبية	25
علاقة العرب بالفرس قبل الاسلام	29- 25
العرب والموالي في العهد الراشدي	35- 29
الموالي في العهد الأموي	43- 35
ثورتا المختار وابن الاشعث	54- 43
ملامح شعوبية في الشعر الأموي	57- 54
الفصل الثاني : الدعوة العباسية والصراع القبلي	83- 59
الدعوة العباسية	72- 61

الصراع القبلي 74- 72	الصراع القبلي 74- 72
معاملة الموالي القاسية وردة فعلهم 82- 74	معاملة الموالي القاسية وردة فعلهم 82- 74
انتشار الشعوبية 83	انتشار الشعوبية 83
الباب الثاني : الشعوبية والبعد الديني 85	الباب الثاني : الشعوبية والبعد الديني 85
الفصل الأول : الزندقة وتلازمها مع الشعوبية 134- 87	الفصل الأول : الزندقة وتلازمها مع الشعوبية 134- 87
الأديان الفارسية في العراق وفارس قبل الاسلام 93- 88	الأديان الفارسية في العراق وفارس قبل الاسلام 93- 88
المجوسية 89	المجوسية 89
الكيمورثية 89	الكيمورثية 89
الزروانية 89	الزروانية 89
الزرادشتية 90	الزرادشتية 90
المانيوية 91	المانيوية 91
المزدية 92	المزدية 92
المرقينية 93	المرقينية 93
الزنادقة 134- 93	الزنادقة 134- 93
موقف السلطة العباسية من الزنادقة 98	موقف السلطة العباسية من الزنادقة 98
وقائع محاكمة الاشرين 105	وقائع محاكمة الاشرين 105
تغلغل الزندقة في المجتمع العباسي 107	تغلغل الزندقة في المجتمع العباسي 107
الزنادقة العقلية 125	الزنادقة العقلية 125
الزنادقة الصوفية 128	الزنادقة الصوفية 128
استغلال الزندقة للتنكيل بالمعارضة 134- 132	استغلال الزندقة للتنكيل بالمعارضة 134- 132
الفصل الثاني : الحركات الثورية ذات الأساس الديني 144- 135	الفصل الثاني : الحركات الثورية ذات الأساس الديني 144- 135
وعلاقاتها بالشعوبية 137	وعلاقاتها بالشعوبية 137
الحركات الثورية ذات الأساس الديني 139	الحركات الثورية ذات الأساس الديني 139
وعلاقاتها بالشعوبية 139	وعلاقاتها بالشعوبية 139
ثورة سنباذ 139	ثورة سنباذ 139
ثورة استاذسيس 139	ثورة استاذسيس 139

40	ثورة المقنع
141	الخرمية
143	ثورة المازيار
145	الباب الثالث : الشعوبية بعديها الاجتماعي والسياسي
175- 147	الفصل الأول : الشعوبية والبعد الاجتماعي
152	الشعوبية والأنساب العربية
154	اتهام الشعوبية العرب بالافلاس الحضاري
156	طعن الشعوبية على العرب بتسميتهم
157	بما ليس في لغتهم
160	مهاجمة العادات العربية
164	اتهام العرب بقلة انتاجهم العقلي
167	تفشي العصبية بين الشعوبية والعرب
169	أساليب السخرية من العرب
241- 177	هجوم الشعوبية على اللغة العربية
241- 177	الفصل الثاني : الشعوبية والبعد السياسي
179	العلاقات السياسية في الخلافة العباسية
180	بين العرب والفرس
192	الوزارة في الدولة العباسية
205	البرامكة والوزارة
218	الفتنة بين الأمين والمأمون
224	عهد المأمون لعلي ابن موسى الرضا
229	خلافة المعتصم وبدء النفوذ التركي
408- 243	النفوذ التركي
263- 245	الباب الرابع : الشعوبية والبعد الأدبي
253	تمهيد : الأثر الشعوبي في التجديد الأدبي
253	الأثر الشعوبي في التجديد الشعري

259	الأثر الشعوي في التجديد الشري
318- 265	الفصل الأول : الشعوبية الأدبية في الشعر
267	المظاهر الشعوبية في الشعر
289	الحسن ابن هانىء
291	مجون أبي نواس
303	هجاء العرب والساخرية منهم
353- 319	الفصل الثاني : الشعوبية ومظاهرها في الشر
	الكتاب الشعوبيون ، والمضمون
321	الشعوي في كتاباتهم
323	ابن المقفع والشعوبية
328	شعوبية أبي عبيدة
330	شعوبية علان الوراق
330	من اعلام الشعوبية
333	دعاوي الشعوبية
346	آراء ابن خلدون ونزعتها الشعوبية
348	مطاعن الشعوبية على اللغة العربية وأدابها
	الفصل الثالث : الحركة الأدبية المناوئة للشعوبية واساليبها
408- 355	في التصدي للشعوبية
	الحركة الأدبية المناوئة للشعوبية واساليبها
357	في التصدي للشعوبيين
358	الجاحظ
385	ابن قتيبة
399	أبو حيان التوحيدى
409	خاتمة
415	فهرس الأعلام
433	فهرس المصادر والمراجع

هذا الكتاب

لقد قيل الكثير في الشعوبية ، ووضعت الكتب الكثيرة في تاريخ نشوئها ومضمونها ومساراتها وأهدافها . غير أن هذا المؤلف ، هو أنجحها جيعاً في معالجة موضوع الشعوبية ، بروح علمية ، ونزعة موضوعية ، تماشت الواقع في الانحياز والتحريف والتزوير ، فعرض هذه الظاهرة الخطيرة بشمولية تناولت جميع جوانبها و مختلف مجالاتها وتأثيراتها السياسية والاجتماعية والقومية والأدبية والحضارية ، والدينية على الحياة العربية الإسلامية ، وتبين دورها الإيجابي والسلبي في محمل الأوضاع الحياتية التي مرت بها الأمة العربية والعالم الإسلامي .

ودار النضال إذ تضع هذا الكتاب بين أيدي القارئ العربي ، تهدف إلى إغناء المكتبة العربية ، بنتائج يسهم في تبيان حقيقة الشعوبية وكشف ما خفي من أهدافها وإظهار خط سيرها عبر تاريخ أمتنا الطويل .

الناشر

شورى دار النضال باطباعة والنشر والتوزيع

بروت - ص 6693 - 113

